البلاغة الشعرية

في

كتاب البيان والتبيين

للجاحظ

د. محمد علي زكي صبّاغ

إشراف ومراجعة
د. ياسين الأيّوبي

المكتبة العصرية

البلاغة الشعرية
في
كتاب البيان والتبيين

البلاغة الشعرية

في

كتاب البيان والتبيين

للجاحظ

د. محمد علي زكي صبّاغ

إشراف ومراجعة
د. ياسين الأيوبي

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية　　المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠١٥
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٣٣١٧

الإهــــــداء

إلى من شغفني حُبُّه، ومَلأَ حَياتي عَطْفُه وعَطَّرَ
أَنفاسي ذِكرُه، فكَبَّلَني بِحَنانِه، وأحاطني بِعَطائِه،
ثُم عاشَ في ذاتي، فعشتُ معه أَحلامي،
ولم يبارحْ خيالي، مُتعلقاً بهواه تَعَلُّقَ الجَسَدِ بالروح.
إلى العِصاميِّ المُكافح، الصامت التَّقي الصابر،
الذي زرع ولم يحصد، وأسْعدني ولم يَسْعد...
إلى روح والدي الطاهرة، بِجوارِ ربِّها ناضرة،
كرَّمها الله بعفوه ورحمته وغفرانه، ومَتَّعَها
بجناتِ النعيمِ الخالد.
أهدي كتابي هذا وفاءً لِذاتِه، وتَخْليداً لِذِكْراه

رحمه الله

المؤلف

المقـــدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين. نَحْمَدُه تعالى حمداً يبلغُ رِضاه ونستعيذُ به ونَسْتغفِره ونستلهمُه العفوَ والعونَ والعافية. وصلى الله على سيدنا محمد خيرِ الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه الكرام أجمعين.

منذ أكثرَ من ثلاثة عقود، وخلال دراستنا الثانوية، قَيَّضَ الله لنا أستاذاً أصيلاً، مخلصاً أميناً، حبَّب إلينا الأدب والأُدَباء، وبالشِّعْر والشُّعراء، فضلاً عن التمسك بالفضيلة والأخلاق، هو الأستاذ نشأة مراد، الذي تدرجنا على يديه، وتعرفنا على شخصية أبي عثمان من خلال دراسةِ كِتابهِ «البُخَلاء».

ومنذ ذلك الحينِ، شدَّني الجاحظُ إليه وسحرني بأسْلوبه وعِلْمِه وفُكاهَته، فعاهدت نفسي على الإحاطة بنتاجه.

أما موضوع هذه الكتاب فهو سَبْقٌ من حيث المضمون، لا من حيث الشكل، لأن أحداً لم يُظهرْ، حسب علمنا، دور الشعر وأهميته في تحقيق غايات الجاحظ البلاغية في «البيان والتبيين»، حتى إننا لم نَطَّلع على عملٍ مُشابهٍ.

كثيرٌ من الباحثين تناولوا شواهدَ الشعر في «البيان» للجاحظ، لكن عَمَلَهم لم يقتصرْ إلا على إطارِ التُراث العربي العام، واستشهاداتهم منه، بقولٍ، أو فكرةٍ أو جملةٍ، أو بيتٍ، أو تعريفٍ، لإثبات آرائِهم، وهي بعيدة الصلة بغايات الجاحظ البلاغية.

فَعَمَدْنا إلى إظهار دورِ الشعر، وبَيَّنا أهميتَهُ بإيجاز، تاركين الإحاطة الشاملة لشواهده الشعرية في «البيان» للمستقبل إن شاء الله.

وقد اشتملت دراستنا، فضلاً عن موضوعها الرئيس، على: الأدب والتاريخ والنقد والترجمة والفكاهة والشعر والشعراء وغيرهم....

ويرجع الفضلُ في هذا الغنى إلى موسوعةِ «البيان» التي تَجَلَّتْ فيها وحدة الثقافة الإسلامية وشموليتها.

إنّ هذا المعرض الثقافي الذي زخر به «البيان» هو مظهرٌ لحقيقةٍ ليست خافية على المشتغلين بعلوم العربية:

وهي أن نشوءَ عِلْم البلاغة الذي يعتبر «بيانُ» الجاحظ أول مؤلَّفٍ قيِّم معروف فيها، قد استُحْدث للمساعدة على تفسير آي الذكر الحكيم، بعد أن تحدى محمد ﷺ العرب في أن يأتوا بسورة واحدة مشابهةٍ للقرآن. ولا نعجب بعد ذلك أن يُضَمِّن عَلَم من أعلامِ التفسيرِ هو الإمام فخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م. مقدمة تفسيره المعروف «بمفاتيح الغيب» أكثر من عشرين عِلْماً يحتاجُها المُفَسِّر لكتاب الله تعالى وفي مقدمتها عِلم البلاغة.

فكيف نعجبُ، في فترةٍ تداخلتْ فيها العلوم الإسلامية لبلورة علوم القرآن الكريم أن يحتويَ «البيان» على فيضٍ من العلومِ والشواهدِ الشعرية لشرح غاياته؟ فقد اعتمد الجاحظ الشعرَ وسيلةً أساسيّة لم يسبقه أحدٌ في نهجها لتحقيق غاياته البلاغية، وغير البلاغية خصوصاً وأنه واحد من الأوائل الذين شَرّعوا علوم البلاغة وأغراضها.

وقد قَسمنا كتابنا إلى بابين:

يَضُمُّ الأولُ ثلاثةَ فصول، تشتملُ على ترجمة للجاحظ والإحاطة بعصره وآرائه وكُتُبه، وتعريف بكتاب «البيان والتبيين» والغاية من تأليفه، ثم مفهومه للأدب والشعر والفصاحة والبلاغة وعلومها.

ويضم الثاني ستة فصول: تشتمل على ما يمنع البيان من عيوب اللفظ

ودراسةٍ لعلوم البيان، والمعاني، والبديع، وعرضٍ لبعض أغراضِ الجاحظ، غير البلاغية، أثبتنا بعض شواهدها الشعرية لنرى اعتماده عليها في تحقيق غاياته؛ ثم عالجنا في الفصل الأخير آراءه في الشعر والشعراء.

ولا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى، مدى المعاناة الطويلة للوصول إلى ما رسمنا وخططنا.

فقد تخطينا كل العوائق واهتدينا، بفضل المصادر الكبرى التي جاوزت أكثر من مائتين وخمسين علماً. فعلوم البلاغة تحتاج إلى تأمل وصبر كبيرين لكثرة ما توسع في مفهومها العلماء وما طرحوا من آراء ولا يجرؤ على التعاطي معها إلا من توافرتْ فيه العزيمة على دراسة التراث، وتقديم أسمى الخدمات للُغَتِهِ وأُمَّتِه.

اجتهدنا في تصوير العصر بعلومه ومُشْكلاته، وجَهِدْنا في استحداث تعريفات أو اختصارات أو ترجيحات، وصَوَّبْنا ما استطعنا من معلومات، واسْتَنْتَجْنا ما أُلهِمنا إليه، وعالجنا خلافات في الرأي، وأثبتنا رغم قلة المصادر والمراجع، مائتين وثمانية وعشرين مُصَنَّفاً من كتبه. توخَّينا المتعة والإفادة، فعُنينا بالطريف وتجنبنا الغريب والفاحش، وحاولنا رسم طريق سهل لتنظيم شواهد أبي عثمان الشعرية التي تُحَقِّقُ غاياته البلاغية وغير البلاغية. ورغم ذلك فإن عملنا جاء مختصراً، على رحابته؛ ونطمحُ إلى تنظيمٍ أدق وإحاطة أشمل لكلِّ غايات الجاحظ في «البيان» إن شاء الله.

بلغت أشعار «البيان» الثلاثة آلاف بيت تقريباً، أصحابُها مزيج من الجاهليين والأمويين والعباسيين، ويمكن أن تشكل كلُّ غايةٍ من غايات الجاحظ في «البيان» كتاباً مستقلاً بحد ذاته.

نشكر الله تعالى على تحقيق ما صبونا إليه، بفضل العزيمة والإرادة والحب والواجب، معتذرين عن الخطأ أو السهو، لأن النقصَ صِفَةٌ ملازمة للإنسان، معترفين بمساهمة أصحاب الفضل الذين مدّوا إلينا يد العون والنُّصح والمساعدة. ويقضي الوفاء الاعتراف بفضل أساتذتنا بينهم الدكتور محمد

الخطيب أستاذ الحضارة الإسلامية، الذي نَقّح كثيراً من الآراء التي غَفِلْنا عنها، والدكتور المشرف ياسين الأيوبي، حامل لواء التراث العربي بأعلامه وشعرائه؛ فقد فتح لنا قلبه وبيته ومكتبته، وكان عظيماً في صبره، أميناً في نصحه وقلمه وإليه يعود الفضل في إنجاز هذا الكتاب..

إليهم جميعاً وافر امتناني وإكباري، وخالص العرفان، لما توصلت إليه وحقّقته! اللهم لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، واغفر لنا وارحمنا، واكتبنا ربنا مع المتقين.

طرابلس ـ لبنان **محمد علي زكي صباغ**

٣٠ كانون الثاني ١٩٨٩

الباب الأول

الجاحظ في عصره وسيرته وحضوره البلاغي

الفصل الأول: ترجمة للجاحظ وعصره.

١ - عصره.

٢ - سيرته وحياته.

٣ - آثاره.

٤ - أسلوبه ونقده.

٥ - مذهبه وآراؤه.

٦ - آراء في الجاحظ.

الفصل الثاني: كتاب «البيان والتبيين».

١ - تعريفه.

٢ - الغاية من تاليفه.

٣ - مضمونه.

الفصل الثالث: آراء الجاحظ البلاغية والنقدية.

١ - بين الفصاحة والبلاغة.

٢ - مفهوم الجاحظ للأدب والشعر والبلاغة وعلومها.

الفصل الأول

ترجمة للجاحظ وعصره

١ ـ صورة عن عصره

تقتضي دراسة الجاحظ، القيام بجولة تاريخية مُقْتضبة، نَرْسُمُ فيها صورة العصر العباسي الذي ولد فيه الجاحظ ونشأ، نُوضِّح فيها معالم هذا العصر ودوره التاريخي، فنتعرَّف إلى البيئة الجديدة التي تصارعت فيها الأفكار، وامتزجت في داخلها العادات، ممهدة لقيام نهضة فكرية وعلمية عالية.

لقد عُمِّرت الدولة العَبَّاسية خمسة قرون، وانتهت بسقوط العاصمة بغداد على يدي هولاكو سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م(١).

وساست الدولة العباسية العالم، سياسةً ممزوجةً بالدِّين والحِكْمة، فمن كان تقياً ورعاً، صالحاً أطاعها تديُّناً، ومن كان غير ذلك أطاعها رهبة.

أولُ خلفائها أبو العباس عبد الله الملقَّبُ بالسَّفّاح(٢)، حَكَمَ قرابة أربع

(١) «التاريخ العباسي والأندلسي» د. سعد زغلول عبد الحميد. مكتب كريدية إخوان بيروت ١٩٧٦ ص٥٦.

(٢) نميل إلى الاعتقاد بأن هذا اللقب اشتهر به، لأنه دعا نفسه به في خطبة الخلافة: «فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير «تاريخ الطبري» محمد بن جرير الطبري تحق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٤ دار المعارف القاهرة ١٩٦٧. ج٧. ص٤٢٦. «والكامل في التاريخ». لابن الأثير. تحق نخبة من العلماء ط٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٠. ج٤ ـ ص٣٢٥.

سنوات وتولى الخلافة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م[١].

وكانت الهاشمية، التي بناها بالعراق، مقر خلافته[٢]، اختلف في يوم وفاته وسِنِّه، ولكنه اتُّفِق على تاريخ وفاته: ١٣٦هـ / ٧٥٤م[٣]، وبأنه كان مهيباً يشجع العلم والأدب والغناء، ويجزل العطاء للشعراء، ويحب مسامرة الرجال، ويَبْغُضُ البُخْلَ والشُّح، ويتحلى بالحزم والحلم[٤].

ففي عهده كانت البلادُ مضطربةً، والنفوسُ ثائرة، والاستقرار غير مستتب[٥]. خلفه أخوه أبو جعفر عبد الله، المُلقَّب بالمنصور، سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٤م[٦]. ويُعْتَبَر المؤسسَ الحقيقي للأسرة العباسية[٧]، نقل مركز الخلافة من الهاشمية إلى بغداد[٨]، التي أشرف على بنائها بنفسه «وقَدَّر المدينة ووضع أول لبنَةٍ بيده سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م»[٩].

---

(١) «التاريخ العباسي والأندلسي» د. سعد زغلول عبد الحميد ص٥٦.
و«تاريخ الإسلام» السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: د. حسن إبراهيم حسن. ط٧. دار إحياء التراث العربي. القاهرة ١٩٦٤ ج٢ ص٢١ و٢٢ و٢٧.

(٢) «مآثر الإنافة في معالم الخلافة»: القلقشندي. تحق. عبد الستار أحمد فرَّاج. ط١ ـ عالم الكتب بيروت ١٩٦٤ ـ ج١ ـ ص١٧١.

(٣) «تاريخ الطبري». محمد بن جرير الطبري ـ ج٧ ـ ص٤٧٠؛ «الكامل في التاريخ»: لابن الأثير ـ ج٤ ص٣٤٦؛ «تاريخ الإسلام»: حسن إبراهيم حسن ـ ج٢ ـ ص٢٧.

(٤) «تاريخ الإسلام»: حسن إبرهيم حسن ج٢ ـ ص٢٤.

(٥) «التاريخ العباسي والأندلسي» د. سعد زغلول ـ ص٥٩.

(٦) «تاريخ الإسلام» حسن إبراهيم حسن. ج٢ ـ ص٢٧.

(٧) «التاريخ العباسي والأندلسي». سعد زغلول ـ ص٥٩.

(٨) وتعرف أيضاً باسم بغدان وبغداذ وبغذاذ. وهو اسم فارسي معناه عطية الله. وسماها المنصور مدينة السلام أو دار السلام، لأن نهر دجلة الذي بنيت عليه بغداد، يقال له وادي السلام. وهذا الاسم لا يوجد إلا في الوثائق الرسمية، وعلى النقود. وربما سميت بالمنصوريّة نسبة إلى بانيها، أو بالزوراء لازورار نهر دجلة عند مروره بها أو لازورار قبلتها. «معجم البلدان» ياقوت الحموي. دار صادر بيروت ١٩٥٧ ـ مادة بغداد ج١ ص٤٥٧. «الكامل في التاريخ»: ابن الأثير. ج٦ ص٤.
«التاريخ العباسي والأندلسي» سعد زغلول: ص ٧٤ ـ ٧٦.

(٩) «تاريخ بغداد» للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ج١ ـ ص٧ و٦٧.
«معجم البلدان» ياقوت الحموي ـ مج١ ـ ص٤٥٧.

وفرغ أبو جعفر من بنائها ونزلها مع جنده وسَمَّاها مدينةَ السلام سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م(١). وقال الخطيب الحافظ: بلغني عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قال: قد رأيت المُدُنَ العِظام، والمذكورة بالإتْقان والإحْكام، بالشامات وبلاد الروم وفي غيرهما من البلدان، فلم أرَ مدينة قَطُّ أرفع سمكاً، ولا أجود استدارة، ولا أنبل نُبْلاً، ولا أوسع أبواباً، ولا أجود فصيلاً، من الزوراء.

وهي مدينة أبي جعفر المنصور. كأنَّما صُبَّت في قالب وكأنما أُفرغت إفراغاً، والدليل على اسمها الزوراء(٢) قول سَلْم الخاسر(٣).

أَيـنَ رَبُّ الـزوراءِ قـدْ قـلَّـدَتـهُ الـ ـمُـلْـكَ عـشـرون حـجـةً واثـنـتـان(٤)

توفي المنصور ١٥٨هـ/ ٧٧٥م. وهو في طريقه إلى الحج بعد أَنْ كان قد عهِد لابنه المهدي بولاية العهد(٥).

---

(١) «تاريخ بغداد». الخطيب البغدادي - مج١ - ص٦٧.

(٢) زوراء تأنيث الأزور وهو المائل. والإزورار عن الشيء العدول عنه والانحراف، ومنه سميت القوس لميلها وبه سميت دجلة بغداد الزوراء.
«معجم البلدان» ياقوت الحموي. ج٣ - ص١٥٦ - ١٥٧.
«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي. ج١ - ص٧٧.

(٣) سَلْم الخاسر بن عمرو مولى بني تميم بن مرة، مولى آل أبي بكر الصديق رضوان الله عليه. شاعر بصري مطبوع، متصرف في فنون الشعر، من شعراء الدولة العباسية، وراوية بشار بن برد ومن بحره اغترف. لُقِّب بالخاسر لأنه ورث من أبيه مصحفاً فباعه واشترى بثمنه طنبوراً. وقيل بل خلَّف له أبوه مالاً فأنفقه على الأدب والشعر. قال له بعض أهله: إنك خاسر الصفقة، فلقب بذلك. توفي سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م.
له مدائح في المهدي والرشيد والعباسيين، وأخبار مع بشار بن برد وأبي العتاهية. شعره رقيق.
«الأغاني»: لأبي الفرج الأصفهاني. تحق عبد الستار أحمد فرّاج - دار الثقافة بيروت ١٩٦٠ - ج١٩ - ص٢١٤.
«الأعلام الزركلي». - دار العلم بيروت ١٩٨٤ ط٦. ج٣ - ص١١٠ - ١١١.

(٤) حجة: سنة. قَلَّدته المُلْك: رَكَبْتَه المُلْك.
البيت من قصيدة مَطْلَعُها:
عـجـبـاً لـلـذي نـعـى الـنـاعـيـانِ كـيـف فـاهـت بـمـوتـه الـشـفـتـان
«تاريخ الطبري» محمد بن جرير الطبري. ج٨ - ص١٠١.

(٥) «التاريخ العباسي والأندلسي» د. سعد زغلول - ص٨٤.

لقد ثَبَّت المنصور دعائم الدولة فاستقرت في أيامه، فكان أريباً ومُقدَّماً في علم الكلام(١).

جاء المهدي سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م(٢)، فامتد نفوذُ الدولة، وبدأت تظهرُ ثِمار ما بذره المنصور، وأصبحت بغداد المحطة الرئيسية لتجارة الهند، وبفضل عنايته انتعشت الصناعة وازدهرت(٣) وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من مميزات هذا العصر(٤).

توفي المهدي بماسبذان، وصلى عليه الرشيد، وله ثلاث وأربعون سنة(٥). أي في سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م.

خلف الهادي أباه. وكانت مدة خلافته سنة واحدة وأربعة وأربعين يوماً، توفي في بغداد ليلة الجمعة، لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وعمره أربع وعشرون سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م(٦).

خلفه أخوه هارون الرشيد، التَّقِي الورع، المُحِب للعلماء، والذي بُويع بالخلافة في الليلةِ التي مات فيها أخوه الهادي، وتوفي ليلة السبت لثلاث خَلَوْنَ من جُمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م، وعمره خمس وأربعون سنة وخمسة أشهر، بطُوس من بلاد المشرق(٧).

بَلَغَتْ بغداد في عهدِهِ درجةً لم تصلْ إليها من قبل، فأصبحت مركزَ التجارةِ، وكعبة رجال العلم والأدب(٨).

---

(١) «البيان والتبيين» عمرو بن بحر الجاحظ. تحق عبد السلام هارون. دار الفكر بيروت ط٤ ج٣ - ص٣٦٧.

(٢) «تاريخ الطبري»: محمد بن جرير الطبري. ج٨ - ص١١٤.
«تاريخ الإسلام»: حسن إبرهيم حسن. ج٢ - ص٤٠.

(٣) «التاريخ العباسي والأندلسي»: د. سعد زغلول - ص٩٢.

(٤) «تاريخ الإسلام»: حسن إبرهيم حسن. ج٢ - ص٤٣.

(٥) «تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي. ج٥ - ص٤٠١.

(٦) «مآثر الإنافة في معالم الخلافة» للقلقشندي مج١ - ص١٩٠.
«الكامل في التاريخ»: لابن الأثير. ج٥ - ص٧٩.

(٧) «مآثر الإنافه في معالم الخلافة: «للقلقشندي» ج١ - ص١٩٢ و١٩٣.

(٨) «تاريخ الإسلام»: حسن إبرهيم حسن ج٢ - ص٥٠.

خَلَفَ الأمينُ أباه (١٩٣ ـ ١٩٨هـ/ ٨٠٨ ـ ٨١٣م). وتوفي وعمره تسعٌ وعشرون سنة، وكانت مدةُ خلافته أربع سنين وثمانية أيام[١].

خَلَفَهُ شقيقُه المأمون (١٧٠ـ ٢١٨هـ/ ٧٨٦ـ ٨٣٣م)[٢]. وتوفي بالبديدون وسِنُّه ثمان وأربعون سنة. ودُفِن بطرطوس[٣].

وكان عَصْرُهُما امتداداً لعصر الازدهار والسؤدد والمجد، الذي كان عليه عصر الرشيد، وتوالت الانتصارات العسكرية في خلافة المعتصم بالله، ثامنِ خلفاءِ بني العَبَّاس، الذي بويع له يوم مات أخوه المأمون، لثمان خلون من رجب، سنة ثماني عشرة ومائتين (٢١٨هـ/ ٨٣٣م)[٤]. وبقي حتى توفي بمدينة سامرّا سنة سبع وعشرين ومائتين: (٢٢٧هـ/ ٨٤٢م)، وسِنُّه ثمان وأربعون سنة، ومدةُ خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ويومان[٥].

وفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين فَتَحَ عَمُّورية، من بلاد الروم[٦]، التي نَظَمَ فيها أبو تمام بائيته الشهيرة مادحاً فيها المعتصم، ومطلعها:

السيفُ أَصدقُ إنباءً من الكتبِ في حَدِّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ[٧]

---

(١) «تاريخ الإسلام»: د. حسن إبرهيم حسن. ج٢ ص٦٣.
«مآثر الإنافة في معالم الخلافة»: للقلقشندي. ج١ ـ ص٢٠٤.

(٢) «معجم المؤلفين». لعمر رضا كحالة. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ج٦. ص١٦١.
«تاريخ الإسلام»: حسن إبراهيم حسن مج ٢ ـ ص٦٦.

(٣) «مآثر الإنافة في معالم الخلافة»: للقلقشندي. ج١ ـ ص٢١٠.

(٤) «تاريخ الإسلام» حسن إبرهيم حسن مج٢ ـ ص٧٤.

(٥) «مآثر الإنافة في معالم الخلافة» للقلقشندي. ج١ ـ ص٢١٩ و٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه. ج١ ـ ص٢٢٠ ـ ٢٢٢.

(٧) كان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتحُ عمّورية، وراسلَتْه الروم بأنّا نَجِدُ في كُتُبِنا أنه لا تُفْتَحُ مدينتنا، إلا في وقت إدراك التين والعنب وبيننا وبين ذلك الوقت شهورٌ يمنعُك من المُقام بها البردُ والثلجُ. فأبى أن ينصرف وأكب عليها ففتحها فأبطل ما قالوا.
والحدُّ الأول في البيت للسيف والحدُّ الثاني: هو الذي يفصل بين الشيئين، أي أن السيف إذا استعمل فقد برىء الأمر من الهزل. «ديوان أبي تمام» بشرح الخطيب التبريزي. تحق محمد عبده عزّام. ط٤ ـ دار المعارف ـ مصر ـ ص٤٠.

وظلّت الدولةُ في قوةٍ وازدهار، مُطّردين، في عهد الواثق (٢٢٧هـ/ ٧٤٢م - ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)[١] والمتوكل على الله عاشِرِ الخلفاء العَبّاسيين (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م)[٢].

وهكذا عاصر الجاحظ اثني عشر من خلفاء بني العباس[٣]، ذكرنا أهمهم، وكان ميلادُه متزامناً مع ميلاد النهضةِ السياسية والفكرية والأدبية للعصر العباسي[٤].

والعصر العباسي يُعَدُّ عصراً ذهبياً، انتقلت فيه سُدَّةُ الحكم، من الشام إلى العراق[٥]. كما أن الدعوة العباسية شيعيّة الأصل، قامت باسم آل البيت، فأظهرت العبّاسيين بمظهرِ الورثةِ الطبيعيين لخلافة النبي ﷺ، فوجدت في خُراسان أرضاً خِصبة وسنداً.

أما دمشق التي كانت على حدود بادية العرب، فكان خلفاؤها وجُنْدُها وقُوادها وقُضاتها وسائر رجال حكومتها عرباً.

وأما الدولة العباسية فقد نصرها الفرس وناصروها، واتخذت سائر رجالها منهم كما جعلت قَصَبَتَها بغداد[٦].

ومما لا شك فيه أن هذا التغيير شجع على ظهور العديد من العصبيات، ووسع نواحي الثقافات، ونَوَّع تركيب المجتمع. فبعد أن كان الشِّعر مثلاً،

---

(١) «مآثر الإنافة في معالم الخلافة»: للقلقشندي ج١ - ص٢٢٢.

(٢) المصدر نفسه. ج١ - ص٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) «أبو عثمان الجاحظ»: د. محمد عبد المنعم خفاجي ط١ - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٣ - ص١٧.

(٤) المرجع نفسه. ص١٧.

(٥) «تاريخ الشعوب الإسلامية»: بروكلمان. نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي. ط١٠ - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٤ ص - ١٧٧ - ١٧٨.

(٦) «تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان. مراجعة شوقي ضيف. دار الهلال - القاهرة ١٩٥٧ - ج٢ - ص٢١ - ٢٢.

مقصوراً على العربِ وحدَهُمْ، أصبحَ فُرْسانُ القولِ فيه مُنقَسمين بين عرب وأعاجم[1].

وقبل أن يجعلَ العَبّاسيون من بغداد عاصمةَ مُلْكهم الزاهرة، كانت البصرةُ حاضرة العلمِ والتجارة، وكان سوقُها (المرْبدُ) مُلْتَقى التُّجار والمثقفين واللُّغويين والشُّعراء، يتبارون فيها، ويتبادلون الرأي والسِلع.

وكانت بساتينُها الخضراء تستهوي الأثرياء فيؤمُّونها انتجاعاً للراحة واللهو كما كانت مركزاً ثقافياً كبيراً تتنازعُ والكوفة الإمامة الفكرية واللغوية. فيها نشأت القَدَريّة التي أكملتها المعتزلة، وفيها ظهرت مدرسةُ اللغويين التي اعتمدت الاستقراءَ الأسلوبي والقياسي[2].

ولكن دَوْرَها أخذَ يضعف تدريجياً بعد ظهور بغداد، التي استحوذت بالاهتمام الأكبر والمقام الأول.

وهكذا أصبحت بغداد، مدينة السلام، أم الدنيا تتهادى أمام العالم بِخُيَلاء، فيتقاطر إليها الناس، وتلتقي فيها النزعات، وتتنافر الأهواء، وتتلاقى روافد المعرفة.

ومما زاد في تشجيع ذلك أولو الأمر أنفسِهم الذين أجزلوا العطاء والهبات... ثم تعددت البِدَعُ الدينية والفِرَقُ الإسلامية..... كما انتصر المأمون للمعتزلة في القول بخلق القرآن الكريم[3].

«لقد استقرت دعائم المملكة العباسية منذ عصر الرشيد وابنيه مِنْ بَعْدِهِ، الأمين، والمأمون، استقراراً عظيماً وأُرْسِيَتْ قواعدها على أساس قوي متين،

---

(١) «الشعر والشعراء في العصر العباسي»: د. مصطفى الشكعة. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٣ - ص٧.

(٢) «الجاحظ في حياته وأدبه وفكره»: د. جميل جبر - دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٥٩ - ص٧ - ٨.

(٣) «تاريخ آداب اللغة العربية». جرجي زيدان. ج٢ - ص٢٣.

وأصبحت هذه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة تفيضُ بحياة رفيعة يظلُّها الإسلام وتُقوِّمُها لغةُ القرآن(١).

وبمثل هذه التسميات وصف الدكتور بلبع الدولة الإسلامية، فَدَعاها بمملكة وإمبراطورية، فاشترك مع كثيرٍ من الأدباء والمؤرخين في ارتكاب ما يُسمى بالخطأ الشائع، لأننا لم نَلْحَظْ في تاريخ الدولة الإسلامية ونظامها شيئاً اسمه المملكة الإسلامية أو الإمبراطورية الإسلامية. فالمملكة من المَلِك، والإمبراطورية من الإمبراطور، وكلاهما في مصطلح الغرب: حكم استبدادي فردي يقوم على الاعتقاد بنظرية الحق الإلهي المقدس للملوك(٢).

فالإسلام مترفع عن هذا المعنى، يستمد أصوله من القرآن والسُّنّه والإجماع والقِياس، عرفنا فيه الإمامة والإمارة والخلافة، وكل منها يساوي الآخر في المضمون، وإن استحدث معاوية تقليداً جديداً غيّر به سُنَّة السَّلَف، وتَشَبَّه بملوك الفرس والبيزنطيين، وحَوَّل الخلافة ـ كما قال الجاحظ ـ إلى «مُلك كُسْرَوِيّ وعَصَبٍ قَيْصري»، وإن أصبحت الخلافة في العصر العباسي وراثية تماماً(٣).

فاللفظتان المذكورتان في سياق الدكتور بلبع ليستا من الإسلام في شيء، وأفضلُ رَدٍّ على قائلهما قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٤).

---

(١) «النثر الفني وأثر الجاحظ فيه»: د. عبد الحكيم بلبع. ط٣. مط. الاستقلال الكبرى مصر ١٩٧٥ ـ ص١٨١.

(٢) «الوسيط في القانون الدستوري». د. ادمون رباط. دار العلم للملايين بيروت ط١ ١٩٦٤. ج١ ـ ص٢١١ ـ ٢٢٢ ـ ٢٥٣ ـ ج٢ ـ ص١٢٣ ـ ٢٨٩ ـ ٢٩١.

(٣) «النظم الإسلامية»: د. صبحي الصالح. دار العلم للملايين ـ ط٥ بيروت ١٩٨٠ ـ ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٤) سورة النمل، الآية: ٣٤.

فالحكم الاستبدادي للملوك نظرية اخترعها ملوك أوروبا أنفسهم للوقوف في وجه باباوات رومة الذين كانوا يطمعون بضم السلطة الزمنية إلى سلطتهم الدينية. مما عرف تاريخياً بالنزاع بين الإمبراطورية والبابوية. هي نظرية ليست من الفكر الديني المسيحي في شيء. =

لم تبلغْ الدولةُ الإسلامية قِمةَ مَجْدِها في التَّأَلُّقِ والثَّرْوَةِ مَرْتَبَةً أعلى مما بلغته في العصر العباسي، ولم تصل في تاريخها الطويل إلى عصر أزْهى وأَمْتَع.

«وكان مِنْ أثرِ هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي أَنْ هَابَهُ الملوك. وقد أرسل إليهم رُسُلاً يدعوهم إلى الطاعة، فدخل أكثرهم في طاعته»[1] كما «استولى الرشيد على هِرَقْلة وطوانة وغيرهما من أُمَّهاتِ مُدُنِ الروم، وأَسَرَ عشرة آلاف، كما أخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية»[2] وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأَنَّ جُنْدَ المُعْتصم بلغ خمسمائة ألف. فخرج به و«تابع المسير في أراضي آسيا الصغرى حتى وصل إلى عمّورية فحاصرها، . . . وتركها لِلَّهب والتَّدْمير، وافتدى أَشْرافُها ونبلاؤها أنفسَهُمْ بأموال كثيرة»[3].

سار الخلفاء العباسيون على سياسة حكيمة ترمي إلى عدم إرهاق المزارعين بالضرائب[4]، فنشطت الزراعة والتجارة والصناعة وانتشرت العلوم.

«وقد مَيَّزَ كُتَّابُ المسلمين بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويُطْلَق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحِكمية. وتشمل العلوم النقلية: علم القراءات، وعلم التفسير، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، واللغة، والبيان، والأدب.

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والسحر والكيمياء والتاريخ والجغرافيا[5].

=وجدير بالذكر أَنَّ الأباطرة والملوك وسائر تسمياتهم وقف القرآن الكريم منها موقفاً واضحاً «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها. . . أي أن الفساد ملازم الملكية.

من محاضرة للدكتور محمد الخطيب ألقاها في كلية الآداب، الفرع الثالث، قسم الدبلوم في ٧/ ١٩٨٦/٦.

(١) «تاريخ الإسلام»: د. حسن إبراهيم حسن. ج٢ ـ ص٢٤٥.

(٢) نفسه: ج٢ ـ ص٢٤٦.

(٣) نفسه: ج٢ ـ ص٢٤٩.

(٤) نفسه: ج٢ ـ ص٣٠٥.

(٥) نفسه: ج٢ ـ ص٣٢٣.

كذلك ظهرت الاستنتاجات الأدبية. . . . مما دفع الأدباء والمفكرين إلى نشر أخبار الزُّهْدِ والحِكْمَةِ وَسِيَر رجال العدل والحزم التي يترتب عليها العظة والاعتبار. . . فأخذوا يجمعون ذلك في كتب الأدب(١).

كما أخذوا يجمعون شَتات أخبارِ العرب، فوضحت وُجْهةُ الأدب في نظر الأدباء، وشَعَّتْ أَضواء علمية في كل المجالات. . .(٢).

أما البيئة الاجتماعية في ذلك العصر، فكان أبرز ما يميّزها اختلاط الشعوب وتعدّد العناصر. وقد أدى الاستقرار السياسي إلى الازدهار الاقتصادي الذي وَلَّد بدوره حُبَّ البَذْخِ والجشع. . .

إنها النتيجة الحتمية لليُسْرِ في الأمم، وقد وصلت إليها كل الدول في ذروة مجدها(٣).

وجملةُ القول: إن العصر العباسي، عصر المرحلة الرابعة من تاريخ الإسلام، عَنَيْنا بذلك الاستقرار والازدهار برغم الفتوحات الكبيرة والانتشار، أو قُلْ: عصر تفرع العلوم والمذاهب، وامتزاج الثقافات والترجمة والتدوين وصهر الحضارات، عن طريق التفكير الحُرِّ والمُعالجة الشاملة. فيه انكب الناس على التأدُّب والتعليم(٤)، وغدا التأدب طريقاً إلى المجد والسؤدد، وما زال ذكر معظم متأدبي ذلك العصر خالداً بعد فناء أجسادهم. صَدَّرَ المسلمون ما طوّروه إلى الدنيا، فسعدت البشرية بالحضارة الإسلامية وعلومها.

---

(١) «تاريخ آداب اللغة العربية» جرجي زيدان. ج٢ ـ ص١٩٣.

(٢) «الشعر والشعراء في العصر العباسي»: د. مصطفى الشكعة. ص٧.

(٣) «الجاحظ» في حياته. . .: د. جميل جبر. ص١٥.

(٤) التعليم في صدر الإسلام والدولتين (الأموية والعباسية) لم يكن حرفة أو صنعة.
ولم يكن العلم بالجملة صناعة، إنما كان نقلاً لما سُمِعَ مِنَ الشارع، وتعليماً لما جُهِلَ مِنَ الدينِ على جِهةِ البلاغ.
«مقدمة ابن خلدون» تحق حجر عاصي. دار الهلال ـ بيروت ١٩٨٣ ص٢٩.
ولا ندري ما الذي دفع بعض الباحثين للتأكيد بأن العلم في العصر العباسي كان صناعة ومصدر عيش.

هذا هو باختصار، إطار العصر العباسي العام، حيث نشأ الجاحظ فيه وشبّ، فمن هو الجاحظ؟ وكيف ترعرع؟

٢ ـ سيرتُه وحياتُه

تقع حياة الجاحظ في عهدين متميزين: عهد بَصْري، وعهد بغدادي. في العهد الأول استقبل الحياة وأسبابها، وفي العهد الثاني تَألّق في العالمين: الأدبي والعلمي.

وكان الأول عهد تحصيل ومراقبة، أما الثاني فكان عهد إنتاج وشهرة، بعد أن برزت شخصيته(١).

والبصرة مدينة خالدة في تاريخ الفكر الإسلامي والحضارة الإنسانية. ففي سنة أربع عشرة من صَفَر، بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب(٢) رحمه الله، عُتْبة بن غَزْوان(٣) إلى العراق في ما يقارب الخمسمئة رجل، وقال له: سِرْ على

---

(١) «الجاحظ» حياته وآثاره. د. طه الحاجري. ط٣. دار المعارف. مصر ١٩٧٦ ص٧٨.

(٢) ينتهي نسب عمر بن الخطاب إلى كعب بن لؤي القرشي العدوي. اشتهر بنو عدي، وهم بطن من قريش بالمجد والشرف، وكانت لهم مواقف مشهورة في الإسلام. منهم زيد بن عمرو، الذي رفض عبادة الأوثان في الجاهلية والتزم الحنيفية وابنه سعيد أَحَدُ العشرة المبشّرين بالجنة، ويجتمع نسبه مع نسب الرسول عليه السلام في الجَدِّ السابع، ويجتمع معه من أمّه في الجَدِّ السادس. كنيته أبو حفص وقيل سماه الرسول الفاروق وأمه حَنْتمة بنت هاشم... أسلم في السنة الخامسة للدعوة. توفي ليلة الأربعاء لثلاث خلون من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين. وكان، رحمه الله، حريصاً على كرامة المسلمين، عادلاً، زاهداً، متواضعاً، وأكثر الصحابة شجاعة وجرأة. «تاريخ الطبري»: محمد بن جرير الطبري. ج٣ ـ ص٤٢٨ ـ ٤٣١ وج٤ ـ ص١٩٣.
الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني. دار الكتاب العربي. بيروت. ج٢ ـ ص٤٤٨ ـ رقم ٥٤١٣ حرف العين.
«تاريخ الإسلام». د. حسن إبراهيم حسن. ج١ ـ ص٢٠٧ ـ ٢٥٢.

(٣) عُتْبة بن غَزْوان (٤٠ق هـ ـ ١٧هـ/ ٥٨٤ ـ ٦٣٨م). ابن وهيب الحارثي المازني، أبو عبد الله، هاجر إلى الحبشة ثم رجع مهاجراً إلى المدينة رفيقاً للمقداد وشهد بدراً وما بعدها، ثم شهد القادسية مع سعد بن أبي وقّاص وجّهه عمر إلى أرض البصرة والياً عليها وكانت تسمى «الأبلّة» أو «أرض الهند» فاختطّها عُتْبة ومَصَّرَها. وقدم المدينة لأمر خاطب به أمير المؤمنين عمر، ثم عاد، فمات في الطريق. وكان طويلاً جميلاً من الرماة المعدودين. رَوَى عن النبي ﷺ أربعة أحاديث. =

بركة الله، واتق الله ما استطعت واحكم بالعدل، وصلِّ الصلاة لوقتها، وأكثر ذكر الله، حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم، فأقيموا. فأقبلوا حتى إذا كانوا بالمربد وجدوا هذا الكَذَّان[1].

قالوا: ما هذه البصرة؟ - والبصرة كل أرض حجارتها جصّ - وأمر لهم بنهر يجري من دجلة، فساقوا إليها نهراً للشَّفَة، وكان إِيطان أهل البصرة، البصرة اليوم، وإِيطان أهل الكوفة، الكوفة اليوم، في شهر واحد. فأما أهل الكوفة فكان مقامهم قبل نزولها المدائن إلى أنْ وطّنوها، وأما أهل البصرة فكان مُقامهم شاطىء دجلة[2].

ويقول الخطيب البغدادي في تاريخه:

لما افتتح المسلمون السواد[3] قالوا لعمر بن الخطاب: أَقْسِمه بيننا فَأَبى..

فقالوا: إنا افتتحناها عُنْوة. قال: فما نقول لمن جاء بعدكم من المسلمين؟ فأخاف أن تفاسدوا بينكم في المياه وأخاف أن تقتتلوا. فأقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤوسهم الضرائب - يعني الجزية - وعلى أرضهم الطّسق[4] - يعني الخراج - ولم يقسمْها بينهم[5].

= «الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني. ج٢ - ص٤٤٨ - رقم ٥٤١٣ حرف العين.

«الأعلام»: خير الدين الزركلي ج٤ - ص٢٠١.

(١) الكَذَّان: جمع مُفرده كَذَّانة وهي حجارة رخوة كأنها المَدَر وقيل: حجارة رخوة إلى بياض.
«لسان العرب»: لابن منظور الأفريقي المصري. دار صادر بيروت. مادة كذن. مج١٣ - ص٣٥٧.

(٢) «تاريخ الطبري»: محمد بن جرير. مج ٣ - ص٥٩١ - ٥٩٢.

(٣) السواد: مقصود بها العراق وتسمى أرض السواد.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة سود. مج٣ - ص٢٢٥.

(٤) الطّسق: بالفتح. ويلحن البغادِدَة فيكسرون: وهو مكيال أو ما يوضع من الخراج على الجربان. أو شبه ضريبة معلومه وكأنه مولّد أو معرب.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة طسق ج١ - ص٢٢٥.

(٥) «تاريخ بغداد»: للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي مج ١ - ص٧.

لقد تعرضت البصرة والكوفة معاً لأسباب متشابهة وظروف متقاربة، وتَكَوَّن شعباهما من جماعات إسلامية ترجع إلى أصول متحدة، وأصاب هذه من أحداث التاريخ الإسلامي ما أصاب تلك، فكان ما يحدث في البصرة يتردد صداه في الكوفة، وما يكاد ينجم رأي أو مذهب في واحدة حتى تتجاوب معه الأخرى.

«حتى تكون الحادثة بالكوفة غدْوة، فيعلم فيها أهل البصرة قبل المساء»[1]، كما يحكي الجاحظ وقد عُزِيَ ذلك إلى المزاج العقلي، لأن البصرة والكوفة ما كان لهما أن تلتقيا: فالأولى تمثل الطابع العقلي، والثانية تمثل الطابع الباطني أو السريّ. (فعلى قَدْر ما بين هذين الطابعين من خلاف كان الأمر بينهما في شتى نواحي الحياة العقلية فذلك هو تأويل هذه الخصومة العنيفة الدائبة المتصلة بين البلدين. وهو تأويل يجد مصداقه في جميع الاتجاهات العقلية لهما)[2].

فالنحو البصري مثلاً، مظهر من مظاهر الطابع العقلي الغالب على البصرة، أما الكوفة فَلم تطق هذا النمط من التنظيم واستنباط القوانين والنظرة الشاملة التي هي أقرب إلى تجريد الفلاسفة، إذ كان يعوزها هذا الطابع.

ويضيف الحاجري: وإذن نستطيع القول مطمئنين في الإجابة على ما تساءلنا عنه بأن ذلك الطابع كان هو الأغلب على البصرة قبل الإسلام، كما كان الطابع الباطني هو الأغلب على الكوفة[3].

هذه البصرة المشهورة، هي مسقط رأس الجاحظ، ودائرة نشأته.

فمن هو الجاحظ؟ وكيف كانت سيرة حياته؟.

هو عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ[4].

---

(١) «الحيوان»: للجاحظ. تحق عبد السلام هارون ـ ط٢ ـ مط ـ الحلبي القاهرة ١٩٤٩ ـ ج١ ـ ص٩٧.

(٢) «الجاحظ حياته وآثاره»: د. الحاجري ـ ص٣٦.

(٣) المرجع نفسه. ص٣٧.

(٤) «تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي ـ ج١٢ ـ ص٢١٢ ـ ٢١٣.

وعند محبوب هذا توقف كتّاب التراجم ومحرِّرو الأَنساب ولم يتابعوا نسبه! . اختُلِف في سَنَةِ ميلاده، قيل ولد بالبصرة سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م[١] . وقال ياقوت: إن الجاحظ قال عن نفسه إنه أَسَنُّ من أبي نواس بسنَة. يعني أنه ولد سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٦م. وهذا ينافي الآراء التي حَدَّدَتْ ميلاد أبي نواس ١٤٦-١٤٥هـ. وذكر يوسف أسعد داغر أن ميلاد الجاحظ هو ١٦٣هـ/ ٧٧٥م[٢] .

ونرجِّح سنة ولادَته ما بين مائة وخمس وخمسين للهجرة ومئة وستين. ومما يقوي هذا الرأي أن كفة المئة والستين أو ما يقاربها قد رجحت عند أكثر الباحثين[٣] .

ثم تضاربت الآراء بشأن أصله، فقيل بأنه كناني صلبية وقيل مولى[٤] . ويرجح الدكتور أحمد أمين بأنه كناني بالولاء، لا كناني صلبية، فقريب الجاحظ (ابن بنت أخت الجاحظ أو ابن أخته، على خلاف في ذلك)[٥] - وهو يموت بن المزرّع يقول: الجاحظ خال أمي. وكان جَدُّ الجاحظ أسود يقال له فزارة، وكان جمّالاً لعمرو بن قلع الكناني[٦] .

وربما اكتفى بعضهم باسمه واسم أبيه. وقد أسند السمعاني هذا الوصف إلى محبوب نفسه جَدّ الجاحظ الأول فقال: إن عمرو بن قلع هذا كان أحد النَّسَأَة[٧] . أي أنه كان حياً قبل إبطال النسيء في السنة التاسعة للهجرة.

---

(١) «الجاحظ» د. جبر. ص١٧.

(٢) «مصادر الدراسة الأدبية»: يوسف أسعد داغر. ط٢. مط دير المخلص. صيدا لبنان ١٩٦٢ ج١. ص١٣٧.

(٣) «ضُحى الإسلام» أحمد أمين. ط١ دار الكتاب العربي. بيروت. ج١ ص٣٨٧.
«أمراء البيان»: محمد كرد علي. مط. لجنة التأليف والنشر. القاهرة ١٩٣٧ مج ١. ص٣١٥.

(٤) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي. ج١٢. ص٢١٣.

(٥) «الجاحظ» د. الحاجري. ص٧٩.

(٦) «ضحى الإسلام» أحمد أمين. ج١. ص٣٨٦.

(٧) نسأ الشيء ينسؤه: أخَّره. والنسيء: التأخير ويكون في العُمْر والدين. ورجل ناسيء وقوم نَسَأَة: مثل فاسق وفَسَقَه، وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا عن مِنى يقوم رجل منهم من كنانة فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يُردُّ لي قضاء، فيقولون: صدقت! أنسئنا شهراً أي =

فمن غير المحتمل أن يدرك جَدُّ الجاحظ ذلك العهد البعيد[1]. وقال بعضهم إنه ليثي من بني كِنانة بن خزيمة، والد النضر أبي قريش، وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم كنانة طلحة[2].

وزاد بعضهم على ذلك: والليثي نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ فهو عربي كِناني[3]. ويقول جرجي زيدان: بأنه كِناني ليثي بالولاء[4].

ويروي المبرِّد أشياء كثيرة عن الجاحظ ويسميه عمرو بن بحر ولا يزيد على نسبه[5]. ويقرر الدكتور جميل جبر أن قول حسن السندوبي في كتابه «أدب الجاحظ» نشأ أبو عثمان في بيت من أَجَلّ بيوتات العرب ومن أعرقها في المجد والشرف»، قول قد دحضته الوقائع[6]. والراجح عندنا، على تضارب الآراء، أن أبا عثمان، كان عربي الدم والنسب، لأن الرجل - كما هو معلوم - كرّس جهده وحياته لخدمة العرب والعربية، وتَزَعَّمَ أكبر حَرَكة قامت في وجه الشعوبية حتى هدمتها وقضت عليها. ولو كان غير ذلك لسمعت الشكوك من الخصوم تُبرق وتدوي. فهو على الأرجح رجل يغلي في عروقه الدم العربي الزكي، وتفور في نفسه العزة العربية الصحيحة[7].

= أَخِّر عنا حُرْمة المحرَّم واجعلها في صفر وأحِلَّ المحرَّم، لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم، لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فيحلّ لهم المحرم، فذلك الإنساء. انظر «لسان العرب»: لابن منظور مادة نسأ. مج١. ص ١٦٦-١٦٧.

(١) «الجاحظ» د. الحاجري - ص٧٩.

(٢) «أمراء البيان» لمحمد كردعلي - ج٢ - ص٣١٥.

(٣) «أبو عثمان الجاحظ»: د. محمد عبد المنعم خفاجي - ص٥٣.

(٤) «تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان - ج٢ - ص١٩٣.

(٥) «الكامل في اللغة والأدب»: لأبي عباس محمد بن يزيد المبرّد - مكتبة المعارف - ج١ - ص١٢٢ و١٤٥ وج٢ - ص٦٦.

(٦) «الجاحظ في حياته وأدبه وفكره» د. جميل جبر - ص١٧.

(٧) «النثر الفني وأثر الجاحظ فيه» د. عبد الحكيم بلبع - ص١٨٣.

٣ ـ نَشْأَتُه

ولد الجاحظ في بيت فقير ومات أبوه منذ حداثته، فأصبح يتيماً، ولكن اليتم وحده لم يكن المُنغِّص الوحيد في حياة هذا الطفل، بل ـ أجمعت المصادر أنه ـ كان جاحِظَ العينين بارزهما، ناتئهما، ولذلك لُقِّب بالجاحظ، والحدقي؛ كان مشوه الخلقة، بشعاً، دميم الوجه قصير القامة، ضُرب المثل ببشاعته حتى قيل فيه:

لو يُمسخُ الخنزيرُ مَسْخاً ثانياً ما كان إلا دون قُبْحِ الجاحظ[١]

وهذه في نظرنا، مُنغِّصاتٌ كثيرة صادفت طفولة الجاحظ. إذ أنَّ رؤيته لنفسه ومقارنته مع الآخرين، تبعثان فيه شعوراً بالنقص أو بما يؤثر على مستقبله. . . . ومن ناحية أخرى، سماعه ما يقولون عنه في بيئته، حتى لَيخيل إليه أنه ليس مثلهم، من البشر.

وكان يأنف من لَقَب الجاحظ ويعتز باسم عمرو، فَأَلَّف لذلك رسالة فيمن يسمى من الشعراء عمراً[٢]. ولكن بشاعته الطبيعية اكتست ثوباً من الدعابة الممزوجة بالجِد، أَنسَت الناس ما هو عليه. فكان خفيف الروح، حسن العشرة، يتهافت الناس على الاستمتاع بنوادره وأدبه وقد قال عن نفسه: ما أخجلني إلا امرأتان: رأيت إحداهما في العسكر[٣]، وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت: «انزلي كلي معنا»! فقالت: «اصعد أنت حتى ترى الدنيا». ـ معرِّضة بقِصَرِهِ ـ. وأما الأخرى فإنها أتتني، وأنا على باب داري، فقالت: «لي إليك حاجة وأنا أريد أن تمشيَ معي». فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي، فقالت له: «مثلُ هذا»! وانصرفتْ.

(١) «الجاحظ» د. جميل جبر ـ ص١٦.

(٢) «أبو عثمان الجاحظ» د. عبد المنعم خفاجي ـ ص٥٥.

(٣) العسكر: مجتمع الجيش. وعسكر أبي جعفر المنصور: يراد به مدينته التي بناها ببغداد. وكذلك عسكر أبي جعفر. يطلق على قرية بالبصرة. وقيل: مكان في سامراء، راجع «معجم البلدان» ياقوت الحموي مج ٤ ـ ص١٢٢ ـ ١٢٤.

فسألتُ الصائغ عن قولها. فقال: «إنها أتت إليّ بفصّ وأمرتني أن أنقشَ عليه صورة شيطان، فقلت يا سيدتي، ما رأيت الشيطان. فأتت بك»(١).

لم يحدثْنا الرواة عن طفولته بشيء، ولم ينقلوا إلينا ما يفتح الطريق أمامنا فلا نستنتج إلا آثاراً ضئيلة نتلمّسها تلمُّساً، تكاد لا تهدينا إلى شيء، كما لم يبحثوا عن المؤثرات الوراثيّة الخاصة التي ورثها عن آبائه، حتى نكاد لا نعرف عن أمه وأبيه شيئاً إلا اسمهما. ما عدا خبراً ضئيلاً عن أمه، وهو أنها يوم توفي والده كفلته وأعانته على الحياة. ولكن هذه الكفالة ما كانت لِتُعْفيه من تحمُّل أعباء الحياة برغم صغر سِنِّه، ومما يدل على وعيه المبكر وبُعدِ نظره ورجاحة عقله، بيعه الخبز والسمك بنهر سيحان(٢) بالبصرة. أو بسيحان إحدى جهات البصرة(٣)، ليعين نفسه وأمه على أسباب الحياة.

حالت الأقدار بين هذا الطفل وبين حنان الأبوة، ولكنه كما أثبتت الأيام تخطى واقعه، وعمل لمستقبله، ونجح، بعقل متفتح ورؤية صافية.

لقد أنسانا صورته الخارجية، وأظهر لنا صورته الحقيقية. فلم نعد نرى فيه سوى صورة الرجل الكامل، والعقل المفكّر المدبّر، والأديب العالم، والمحدّث الفَكِه، لقد جعل من بشاعته جمالاً، ومن ضعفه قوة، ومن قِصَرِهِ طُولاً، ومن يُتْمه أبوة، واعتاض من كل ضروب النقص بنوع من الكمال والتفوّق والاستعلاء حتى ردّدنا مع الشاعر:

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلةٌ ... ولكن عينَ السُخْطِ تُبْدي المساويا

رَهُفَتْ مشاعر هذا الطفل، وابتدأ بتعلم القراءة والكتابة، مستعيناً بتطلعه

---

(١) «أدب الجاحظ» حسن السندوبي. ط١ ـ مط الرحمانية القاهرة ١٩٣١ ـ ص١٦٦ ـ ١٧٠.
«الجاحظ» د. جبر ـ ص١٦ ـ ١٧.

(٢) «معجم الأدباء» ياقوت الحموي ـ دار المأمون ـ القاهرة. مج ١٦ ـ ص٧٤ «النثر الفني وأثر الجاحظ فيه» د. بلبع ـ ص١٨٢.

(٣) «الجاحظ»: د. الحاجري ـ ص٩١.

الشديد وذكائه المتوقِّد. «ويظهر أنه أتيح له في ذلك العهد، عهد الكُتَّاب، من المعلمين من كان في طبقة فوق طبقة عامتهم، فشحذ طبعه وألهب تطلعه، كأبي الوزير وأبي عدنان المعلمين»[١].

فهل قاد هذان المعلمان الطفل إلى عالم أوسع يتوق إليه الجاحظ بكليته؟

الظاهر أنهما أثّرا فيه تأثيراً بليغاً، لِسَعة علمهما وخلابة منطقهما. لأن الجاحظ كان يكنُّ لهما وُدّاً وتقديراً. وربما هما اللذان دفعاه ونبّهاه وأثارا فيه الرغبة القوية المُلِحّة إلى تَلَمُّس طريقه بَعْدَ الكُتَّاب، إلى مسجد البصرة ومربدها ودور العلم المتوافرة فيها. «أخذ يتردد على حلقات العلم في مسجد البصرة الجامع، ويتلقى الفصاحة شِفاهاً عن العرب في المربد ويستمع من القصاص إلى أحداث الفتوح وسير الغزاة وأطوار الزُهّاد والناسكين»[٢]. «لقد كان هذا المسجد وذلك المربد يعملان على تخريج رجالات الدولة وزعماء الأدب وأئمة الدين. . . إذ كانا من الأماكن العامة التي لا يحظر على أحد غشيانها والتلقي عنها»[٣].

وهكذا عاش الجاحظ في خلافة المنصور (١٥٠هـ/ ١٥٨م) وجزء من خلافة المهدي، وبذلك أمضى الشق الأول من حياته كما قَسَّمْنا، مُقبلاً على التعلُّم، مثابراً على التحصيل حتى بلغ مرحلة الشباب[٤]. ولم تكن آفاق البصرة، على رَحبها، لتكفي أبا عثمان، فانصرف عنها إلى بغداد ـ عاصمة العالم الإسلامي في ذلك العصر ـ؛ فأفاد كثيراً من وجوده فيها وتابع درسه في مجالس أعلامها ـ وهي مرحلة متطورة من حياة الجاحظ ـ قُدِّر له فيها أن يتصل

---

(١) الجاحظ: د. الحاجري ـ ص٩٣. «والبيان والتبيين» تحق هارون. ج١ ـ ص٢٥٢. أبو عدنان وأبو الوزير، تركا أثراً في نفس الجاحظ من جراء تعليمهما إياه.

(٢) «أبو عثمان الجاحظ». خفاجي ـ ص٥٧.

(٣) «الجاحظ». الحاجري ـ ص٩٤.

(٤) «أبو عثمان الجاحظ». خفاجي ـ ص٥٧.

بأساطين اللغة وعظمائها، ومن هؤلاء كلّ من الأصمعي[1]، وأبو زيد الأنصاري[2]، وأبو عُبيدة مَعْمَر بن المُثنى[3]، فأخذ عنهم اللغة والأدب. كما أخذ النحو عن الأخفش[4]، ....

---

(١) الأصمعي: (١٢٢ ـ ٢١٦هـ/ ٧٤٠ ـ ٨٣١م). عبد الملك بن قُريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي: راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جده أصمع. ومولده ووفاته بالبصرة. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. وكان الرشيد يسميه «شيطان الشعر». قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً. وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة.
«معجم المؤلفين»: كحالة. ج٦ ـ ص١٨٧ ـ ١٨٨. «الأعلام»: الزركلي. مج ٤ ـ ص١٦٢.
وتجد له أقوالاً وأخباراً في العقد الفريد وتاريخ الطبري.

(٢) أبو زيد الأنصاري (١١٩ ـ ٢١٥هـ/ ٧٣٧ ـ ٨٣٠م). هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري. ابن قيس بن يزيد النعمان الأنصاري البصري. من أهل البصرة. لغوي، أديب. نحوي. أخذ عن أبي عمرو بن علاء، وأخذ عنه أبو عبيدة وغيره.... كان يرى رأي القدرية. وهو من الثقات في اللغة. قال ابن الأنباري: كان سيبويه إذا قال: «سمعت الثقة» عَنَى أبا زيد. من مصنفاته الكثيرة: القوس والترس، الإبل، بيوتات العرب، اللُغات، خلق الإنسان، الشجر، الغرائز، غريب الأسماء وغيرها.... توفي بالبصرة. «معجم المؤلفين»: كحالة. مج ٤ ـ ص٢٢٠. «الأعلام»: الزركلي. مج ٣ ـ ص٩٢.

(٣) أبو عبيدة، مَعْمَر بن المُثنى (١١٠ ـ ٢٠٩هـ/ ٧٢٨ ـ ٨٢٤م) التيمي بالولاء، بصري نحوي، من أئمة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته بالبصرة. استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨هـ/ ٨٠١م، وقرأ عليه أشياء من كتبه. قال الجاحظ لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. وكان إباضياً شعوبياً، من حُفّاظِ الحديث.
قال ابن قُتيبة: كان يبغض العرب وصنّف في مثالبهم كتباً كثيرة. ولمّاماتَ لم يحضر جنازته أحد لشدة نقده لمعاصريه، وربما أنشد البيت فلم يُقم وزنه، ويخطىء إذا قرأ القرآن نظراً. له نحو مائتي مؤلف. من تصانيفه: معاني القرآن، نقائض جرير والفرزدق، أخبار قضاة البصرة.... وغيرها.... «معجم المؤلفين»: كحالة. مج ١٢ ـ ص٣٠٩ ـ ٣١٠.
«الأعلام»: الزركلي. مج ٧ ـ ص٢٧٢.

(٤) الأخفش: ت ٢١٥هـ/ ٨٣٠م. هو سعيد بن سعدة المجاشعي بالولاء، البلخي. أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط. نحوي، لغوي، عروضي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ. سكن البصرة وأخذ العربية عن سيبويه. من تصانيفه الكثيرة: كتاب الأوسط في النحو، تفسير معاني القرآن، الاشتقاق، العروض، معاني الشعر، كتاب الملوك، وزاد في العروض بحر (الخبب) وكان الخليل قد جعل البحور خمسة عشر، فأصبحت ستة عشر. «معجم المؤلفين»: كحالة. مج ٤ ـ ص٢٣١. «الأعلام»: الزركلي. مج ٣ ـ ص١٠١ ـ ١٠٢.

والكلام عن النَّظام[١]، والحكمة عن أبي جناح[٢]. وكان هؤلاء أئمة الناس في اللغةِ والشعرِ وعلوم العرب، لم يُعْرفْ قَبْلَهُمْ ولا بعدهم مثلُهم، عنهُم أُخِذَ جُلُّ ما في أيدي الناس من هذه العلوم[٣].

وقد وصف الجاحظ النَّظّام فقال: إنه ما رأى أحداً أعلم بالكلام والفقه منه. ثم زاد: إنه وجد عند أدباء الكتاب كابن وهب[٤] وابن الزيّات[٥] ما لم

---

(١) النَّظّام: ت ٢٣١ هـ/ ٨٤٥م. وقيل توفي بضع وعشرين ومائتين.
هو إبرهيم بن سيّار بن هانىء البصري، أبو إسحاق النظام. تبحّر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها وقد انفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت «النَّظّاميّة» نِسبة إليه وبين هذه الفرقة وغيرها مناقشات طويلة، وقد أُلِّفت كتب خاصة للرد على النّظّام وفيها تكفير له وتضليل. أما شهرته بالنّظّام فأشياعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام، وخصومه يقولون إنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة. وفي كتاب «الفرق بين الفرق» أن النظام عاصر في زمان شبابه قوماً من الثنويّة وقوماً من السمينة وخالط ملاحدة الفلاسفة وأخذ عن الجميع. وفي شرح الرسالة الزيدونية أن النظام لم يخل من سقطات عُدّت عليه لكثرة إصابته. وقيل إنه كان شاعراً أديباً بليغاً متهماً بالزندقة. وذكروا أن له كتباً كثيرة في الفلسفة والاعتزال. «لسان الميزان»: لابن حجر العسقلاني. ط٢. منشورات الأعلمي. بيروت ١٩٧١. مج ١ ـ ص٦٧ رقم ١٧٣. «الأعلام»: الزركلي. مج ١ ـ ص٤٣.

(٢) لم نجد تعريفاً له، وربما كان صالح بن جناح وهو شاعر دمشقي من الحكماء الذين أدركوا التابعين. «الأعلام»: الزركلي مج ٣ ـ ص١٩٠.

(٣) «أمراء البيان»: محمد كردعلي. ج٢ ـ ص٣١٧.

(٤) هو الحسن بن وَهْب بن سعيد بن عمرو بن حصين بن قيس بن قنان بن متى. أبو علي. كاتب من الشعراء. فصيح كان معاصراً لأبي تمام، وله معه أخبار. وكان وجيهاً، استكتبه الخلفاء، ومدحه أبو تمام. كتب لمحمد بن عبد الملك الزيات وولي ديوان الرسائل. من آثاره: ديوان رسائله، وشعر بمائة ورقة. توفي نحو ٢٥٠هـ/ ٨٦٥م.
«الأعلام» الزركلي. ج٢ ـ ص٢٢٦.
«معجم المؤلفين» كحالة. مج ٣ ـ ص٣٠٢.

(٥) محمد بن الزيات (١٧٣ ـ ٢٣٣هـ / ٧٨٩ ـ ٨٤٧م). ابن عبد الملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر المعروف بابن الزيات. أديب، كاتب، شاعر، نحوي، لغوي، وزير المعتصم والواثق والمتوكل. نشأ في بيت تجارة في الدسكرة قرب بغداد ولَمّا عرض الواثق عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكل، فلم يفلح. وولي المتوكل فنكبه، وعذبه إلى أن مات ببغداد. وكان من العقلاء والدهاة وفي سيرته قوة وحزم. له ديوان رسائل وديوان شعر.
وكانت وفاته سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م.
«الأعلام»: الزركلي. مج ٦ ـ ص٢٤٨. «معجم المؤلفين»: كحالة. مج ١٠ ـ ص٢٥٤.

يجده عند مشايخه الذين أخذ منهم الشعر والأدب، وبهم عَرَف ماهية الشعر، وقام بحق الأدب والكتابة[1]، ومن غيرهم من أئمة ذلك العصر. ولم يكن اتصاله بهؤلاء العلماء في تلك البيئات العامل الوحيد في تكوين شخصيته وعقليته أو توجيهه تلك الوجهة التي نلمسها في أدبه. ولا يجوز أن نقفَ عندَ المسجد والمِربد والشيوخ أو الأعراب أو دكاكين الوَرّاقين التي كان يكتريها وينامُ فيها للنظر في ذخائرها، بل هناك إلى جانب ذلك كلّه بيئة تختلف عن هذه البيئات، هي التي كَوَّنَتْ في نفس الجاحظ شخصيته وتركَتْ فيه أبعد الأثر، ألا وهي بيئة الحياة العاملة الكادحة التي حمل الجاحظ عليها ليجد فيها أسباب حياته المادية فقادته إلى أسباب العبقرية الفنّية[2].

وامتزج الألمُ بالفقر، بالعلم، بالتفكير السديد، بالصبر، بالإيمان الشديدين، ليصل إلى المُبْتَغى. لا خَوْفاً من الفاقة والعَوَز بل حُباً بالحياة. تَدْفعُه رغبة صادقة وحب وأمنيات. لقد أحب الجاحظ العلم والكتاب محبة عجيبة، حتى إنه كان يَعُدُّ الظَفَرَ بكتاب ما شيئاً عظيماً.

قال محمد بن سلمان الجوهري: كُنّا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جِد وهزل، فخرجنا يوماً للنزهة، فبينما نحن على باب جامع البصرة، ننتظر شيئاً أردناه، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة، فعرضت علينا ذلك، فلم نجدْ فيها طائلاً فتركناها، وتخلَّف معها أبو عثمان ونحن ننتظره، فأطال. ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً، وأخذ الأوراق ومضى بها إلى منزله، فلما عاد أخذنا نهزأ به، فقال: «أنتم حمقى والله إنّ فيها ما لا يوجدُ إلا فيها، ولكنّكُمْ جُهَّال، لا تعرفون النفيس من الخسيس»[3].

ويحدث أبو هفان عنه فيقول: لم أَرَقطُّ ولا سمعت مَنْ أَحَبَّ الكُتُبَ

---

(١) «أمراء البيان» محمد كردعلي. ج٢ ـ ص٣١٧.

(٢) «أمراء البيان»: مجد كردعلي. ج٢ ـ ص٣١٧.
«الجاحظ»: الحاجري. ص٩٦.

(٣) عن «أبو عثمان الجاحظ»: للخفاجي ـ ص٦٠.

والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان[1].

ويحدثنا الحاجري عن أسباب عبقريته فيقول: إن الحياة العاملة تضم بين جوانحها شتى الأجناس البشرية تقريباً ولكل جنس منها خلقه ومزاجه وطابعه في تفكيره وتصرفاته ولم تكن طبيعة الحياة فيها لتجعل من هذه الأجناس المختلفة فصائل تعيش مستقلة متميزة، وإنّما هي في اتصال دائم، ومنافسة مستمرة، فتحتكُ الطبائع، وتتلاقح الأمزجة، وتزداد بذلك تعقداً والتواء[2]. وأسواق البصرة صورة من أعنف أشكال التنافس، فكان الجاحظ يتلمّس منها رزقه اليومي، فاتخذ من هذه الحياة اليومية يَنْبوعاً لأدبه. كما اتخذ من طابع الناس وغرائزهم ومنازعاتهم موضوعات لتآليفه.

ولعلَّ المِربد أقربُ البيئات إلى بيئة الحياة العاملة، فهو سوق البادية أو أحد أسواق البصرة التي يغشاها أخلاط من الناس يختلفون في الجنس والمنزلة والعمل، يتلمسون تجارة أو تسوُّقاً أو تَفَرُّجاً. لقد كان حلقة اتصال بين الحياة العربية الصحيحة والحياة العراقية الجديدة، فاحتل مكاناً خطيراً في الحياة الأدبية العلمية، فكان لا بد للمتأدب من غشيانه، ليتلقى فيه اللغة حَيَّة نابضة من أفواه أصحابها، من الأعراب، وليستعين على فهم الأدب والشعر والنقد.

اتخذ الجاحظ منه مدرسة تلقّى فيها أصول البيان العربي بأذنه وقلبه وعقله. فكان ذا أثر بليغ في تفتيح عقله الناشىء، وتثقيف ذوقه الفني[3].

أما مسجد البصرة فيمكن اعتباره بيئة مركزة تتمثل فيها الصورة العقلية والنزعات النفسية والتيارات الاجتماعية لما حوله.

لقد تنوع الجمهور الذي يؤمّه، وتنوعت مسائل العلم فيه. حلقات مختلفة

---

(١) أبو عثمان الجاحظ: د. خفاجي - ص٦٠ - ٦١.

(٢) «الجاحظ»: الحاجري - ص٩٦.

(٣) «الجاحظ» الحاجري. ص١٠٠ - ١٠٢.

الألوان، متعددة المذاهب، مجالس، للقرآن، للوعظ. حلقات الأخبار والنوادر. مجالس للمذاهب السياسية والدينية. يضاف إليها مجالس لا تتقيد بفن أو علم، وإنما تتألف من طوائف من الناس طالَ غِشْيانُهُمْ لِلمسجد حتى نسبوا إليه، فكانوا يُدْعَون بالمَسْجِديين، وهم خليط من الشعراء والرواة والحكماء، يفيضون في شتى الأحاديث والمزاح والسمر. بيئات مختلفة كانت له عوناً على تكوين شخصيته(١).

ومن جملة الحياة العاملة أيضاً، مجالس العلم العامة في مساجد الأحياء وفي أفنية الدور والأندية المُنْتشرة هنا وهناك، أفاد منها الجاحظ كثيراً، كما أفاد من دكاكين الورّاقين للكتب المُدَوَّنة والمترجمة، وهي أوسع البيئات مجالاً وأكثرها مُسايَرَةً للنزعات المختلفة. فلا جرم أن يكونَ أثرها عظيماً في تكوين شخصية جاحظنا العجيب.

كان يمضي حياته الأولى بين مطالب العيش في أسواق البصرة وما وراءها، ومطالب المجد الأدبي الذي يراود خياله الخصيب.

وما زال مُقَسَّمَ القلب مثقل الضمير، حتى أتيح له نبيل من نبلاء البصرة، المشغوفين بالعلم والأدب وحماية المعوزين من ضيق الحياة، ذلك هو مويس بن عمران(٢) أحد أخطر الشخصيات التي اتصل بها، وكان من أصحاب النَّظام ت٢٣١هـ/ ٨٤٥م. ومن خلال هذا الاتصال اكتشف النَّظام عبقرية الجاحظ فساعدها على النمو.

الأستاذ لا يصنع العبقريات ولكنه يكتشفها وينمّيها. (وهكذا أصبح الجاحظ معتزلياً على غرار أستاذه)(٣).

وابتدأت الصورةُ المُستقْبَحَةُ بين الناس تختفي، ليحل محلها صورة

---

(١) الجاحظ: الحاجري. ص١٠٢ ـ ١١٣.

(٢) من بخلاء الناس في عصر الجاحظ، ومن أصحاب النظام. قيل إنه أبخل أهل زمانه (انظر الحيوان للجاحظ ٥/ ٤٦٨...).

(٣) «الجاحظ»: الحاجري. ص١٦٣ ـ ١٧٥.

الأديب الأريب الظريف، الفَكِه، الرائع الحُجَّة، الفصيح اللسان، تُحدِّق إليه الأبصار دهشة، وتُصغي إليه الأسماع منتشية، فهل يكفيه ذلك ويشفي غليله وطموحه[1]؟

كان كُتّاب ذلك العصر وأدباؤه يتمايزون في ضروب العلم وأصنافه. وهَمُّ كل منهم الاختصاص بضرب واحدٍ أو ضربين من أنواع العلوم والمعارف، أو يعد نفسه ليكون كاتب ديوان الخراج، أو مُتَرَسِّلاً في ديوان الإنشاء. وكانت معارفهم لا تخرُج عن حدود حِفْظ كتاب الله الكريم، وأحاديث نبيّه المصطفى ﷺ، بالإضافة إلى معلومات عن الشعر الجاهلي، والمُصَفّى من كلام الأعراب، بعد أن يُحْكِموا علوم النحو والصرف وأساليب اللغة، واشتقاق ألفاظها، وإجادة التعبير بها.

أما إذا أضاف أحدهم إلى ذلك كله شيئاً من العلوم والآداب التي استحدثت كالمنطق والفلسفة وغيرها، فقد صار حُجّةً يُرْجَعُ إليه في عظائم الأمور.

فلما برز الجاحظ واستكحمت مواهبه لم تقف همته عند إحدى تلك الغايات التي بلغها الكُتّاب والأدباء ممن تقدمه أو عاصره، بل عاهد نفسه على أن يَبُذَّهُم جميعاً، ويكون فِكْرهُ دائرة معارف وخزانة علوم، وقد فعل[2]؛ فكان أول من اتخذ التأليف صناعة يُبْرِزُ بها نفسه، وهو القائل: وليس الكِتابُ إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الرويّة، ويحتاجُ من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السِّفْلَةِ والحشوِ[3]. ويحطُّه من غريب الأعراب ووحشيّ الكلام، وليس له أن يهذّبه جداً، ويُنقّحه ويُصفّيه وَيُرَوّعه، حتى لا يَنْطقَ إلا بلُبِ اللُّبِّ، وباللفظ الذي قد حُذِف فُضوله، وأُسْقِط

(١) «أبو عثمان الجاحظ» د. خفاجي، ص٦٢.

(٢) «البيان والتبيين» تحق السندوبي. ط٤، مط الاستقامة. القاهرة ١٩٥٦. ج١. ص ٥ ـ ٦.

(٣) الحشو من الكلام: الفضلُ الذي لا يُعتمد عليه كذلك هو من الناس. وحُشوةُ الناس: رذالتهم. والمعنى صغار الناس وأسقاطهم. «لسان العرب» ابن منظور (حشو): مج ١٤ ـ ص١٨.

زوائده، حتى عاد خالصاً لا شوْب فيه، فإنَّه إن فعل ذلك، لم يفهم عنه إلا بأن يجدّد لهم إفهاماً مراراً وتكراراً، لأن الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها(١).

من أجل هذا أصبحت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارس الحياة الاجتماعية في عصره. فطارت شهرة صاحبها في البصرة والكوفة وبغداد وفي عواصم العالم الإسلامي، وبين العلماء والأدباء والمفكرين.

وقد رأى أبو عثمان ما رأى من عظمة الخلافة العباسية في عصر الرشيد وشاهد مصرع البرامكة وما انطوت عليه الأحداث، وأدرك وفاة الرشيد والصراع بين الأمين والمأمون، ومقتل الأمين وجلوس المأمون على عرش الخلافة في المحرم من ١٩٨هـ/ ٨١٤م(٢).

وفي هذه الفترة، وهي الشق الثاني من حياته، تبدلت حياة أبي عثمان من الحرمان والفاقة إلى الغِنى والثراء، وبعد أن كان يشكو الفقر أصبحت له ضيعة تُنسَبُ إليه، واقتنى مالاً وبيتاً وعني بأبواب بيته فاختار لتركيبها أمهر النجارين(٣).

وفي خلافة المأمون، بلغت الحياة الاجتماعية أقصى درجة من الرخاء والحضارة.

وكان الجاحظ على صلة فكرية بالمأمون، الذي كان يقدِّره لعبقريته واعتزاله، والجاحظ بدوره كان يجلّ الخليفة لسعة ثقافته وميوله الاعتزالية.

وعندما أمر المأمون العلماء بالكتابة في الإمامة، استجاب له الجاحظ، وألّف كتابَ الإمامة(٤).

---

(١) «الحيوان» للجاحظ. تحق هارون مج ١ - ص٨٩ و٩٠.
(٢) «أبو عثمان الجاحظ»: خفاجي - ص٦٤.
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) «الجاحظ»: د. الحاجري - ص١٨٢.

قال الجاحظ: ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به، وصرت إليه وقد كان أمر اليزيدي(١) بالنظر فيها ليخبره عنها.

قال لي: قد كان بعض من يُرتضى عقله ويُصدَّق خَبَرهُ خبرّنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة، فقلنا له: قد تُرْبي الصِّفة على العِيان، فلما رأيتُها رأيتُ العِيانَ قد أربى على الصِّفة، فلما فليتها أربى الفلْيُ على العِيان كما أربى العيان على الصفة.

وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه، ولا يفتقر إلى المُحْتَجِّينَ عنه، قد جَمَعَ استقصاءَ المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجَزْل والمَخْرج السَّهْلِ، فهو سوقي مُلوكيّ، وعاميّ خاصيّ(٢). قال الجاحظ: فوالله لَما أَفَدْتُه من تَعَلُّم صِفَةِ هذا الكتاب آثر عندي من الكتاب(٣).

وعاصر الجاحظُ محنةَ القولِ بخلْقِ القرآن، واشترك في تفاصيلها، لذلك أَسْنَدَ إليه الخليفةُ رِئاسة ديوانه، فصدع على كره منه بالأمر، ولكنه سرعان ما اعتذر للخليفة ما وسعه الاعتذار عن قبول المنصب فأعفاه منه بعد ثلاثة أيام. وكان سهل بن هارون يقول: «لو ثبت الجاحظ في هذا الديوان لأفل نجم الكتّاب»(٤).

ثم تولى المعتصم بن الرشيد عام ٢١٨هـ/ ٩٣٣م عرش الخلافة العبّاسية

---

(١) اليزيدي ت٢٠٢هـ/ ٨١٦م. يحيى بن المبارك بن المغيرة، أبو محمد العدوي المعروف باليزيدي. وقيل له اليزيدي لأنه كان منقطعاً إلى يزيد بن منصور الحميري، خال ولد المهدي يؤدِّبُ ولده فنسب إليه، ثم اتصل بالرشيد فجعل المأمون في حجره وأدبه. وكان ثقة. سكن بغداد. وكان أحد القراء الفصحاء عالماً بلغات العرب أخذ عن أبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد. كان يجلس في أيام الرشيد مع الكسائي ببغداد في مسجد واحد يُقرئان الناس. فكان الكسائي يؤدب محمد الأمين وكان اليزيدي يؤدب عبد الله المأمون.
«تاريخ بغداد» الخطيب البغدادي. مج ١٤. ص١٤٦ ـ ١٤٨ رقم ٧٤٦٥.

(٢) «البيان والتبيين» تحق هارون. ج٣ ـ ص ٣٨٤ ـ ٣٧٥.

(٣) «أدب الجاحظ»: السندوبي ـ ص١٢١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٦٦ ـ ٦٧.

(٤) «معجم الأدباء» ياقوت الحموي ج١٦. ص٧٩.

بعد المأمون[1]. إلا أن الجاحظ كان في بغداد، فأصبح في سامرّا، منذ انتقلت الدولة إليها وقد اتخذ داره في عَسْكَرِها. في جوار ابن الزيات، وسِنُّه تجاوزت الستين[2]. وكان وزير المعتصم محمد بن عبد الملك الزيات صديقاً حميماً للجاحظ، وهذا الوزير هو الذي قرَّب أحمد بن أبي دؤاد إلى الخليفة وقرّب الجاحظ أيضاً لِيُصْبح ذا حُظْوة عند المأمون. وفي أيامه مات الشاعر أبو تمام ٢٣١هـ/ ٨٣٥م بالموصل[3]. وكان الجاحظ في هذه الفترة كثير المال عظيم النفوذ.

ولما تربّع المتوكل على عرش الخلافة (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٦- ٨٧٦م)، أمر بترك النظر والجدل وأنْهى مِحْنة القولِ بخلق القرآن. وبعد أشهر من خلافته قَتَل وزيره ابن الزيّات ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م. ورفع منزلة أبي دؤاد، فخاف الجاحظ وهرب إلى البصرة، فقيل له: لم هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور، وأمر ابن أبي دؤاد أن يُؤتى بالجاحظ من البصرة، فجيء به مُقيدَ الرجلين، مغلولَ العنق بسلسلة، في قميص سَمْل، فدخل على ابن أبي دؤاد، فلما وقع نظره عليه قال: والله ما علمتك إلا متناسياً للنِّعمة، كفوراً للِصّنيعة مُعدِّداً للمساوىء، وما فُتِّني باستصلاحي لكَ، ولكن الأيام لا تُصلحُ منك لفسادِ طويَّتِكَ ورداءة داخلتك، وسوء اختيارك، وتَقَالُبِ طَبْعِك. فقال له الجاحظ: خَفِّضْ عليك - أَيَّدَكَ الله - فوالله لَأَن يكونَ لكَ الأمرُ عليَّ خَيْرٌ مِن أنْ يكونَ لي عليك، ولأنْ أُسيءَ وتُحْسِنَ، أحسنُ عنكَ من أنْ أُحْسِنَ فتُسيءَ، وأن تعفوَ عني في حال قُدْرَتِكَ أجملُ من الانتقام مني. فعفا عنه[4].

(١) «تاريخ الخلفاء»: السيوطي تحق محي الدين عبد الحميد. ط١. مط. السعادة مصر ١٩٥٢ - ص٣٣٥.

(٢) «الجاحظ»: الحاجري - ص٢٦٠.

(٣) يجعل ابن الأثير وفاة أبي تمام سنة ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م. ويجعلها صاحب الخزانة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م. «الكامل في التاريخ» ابن الأثير. مج ٥ - ص٢٦٩. «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي. ط١. دار صادر - بيروت - مج١ - ص١٧٢.
«أبو عثمان الجاحظ» د. خفاجي - ص٧٣.

(٤) «معجم الأدباء» ياقوت الحموي. مج ١٦ - ص٧٩. «أبو عثمان الجاحظ» خفاجي - ص٧٦ - ٧٧.

وفي هذه الأثناء عاش الجاحظ أيضاً في نعمة وبحبوحة. ولما مات المتوكل، شاهد بعده أبو عثمان عهود ثلاثة من الخلفاء هم: المنتصر (٢٤٧ـ ٢٤٨هـ/ ٨٦٠ ـ ٨٦١م) والمُستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/ ٨٦١ ـ ٨٦٥م). والمُعتز بن المتوكل (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٥ ـ ٨٦٨م)(١).

كانت سِنُّ الجاحظ متقدمة، عندما أَخَذَتِ الأيامُ تُذَوِّب من قوته، فَأَثْقله المرض، وأَلْزَمَهُ الفراش، نسأل الله العافية وحسن الختام.

كان مرضه فالجاً نصفياً، ويروى عنه أنه كان (بسر من رأى) عندما دخل أبو معاذ الطبيب يعوده وقد فلج، فلما أخذ مجلسه، أتى رسول الخليفة يطلبه، فقال الجاحظ. وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل، ولعاب سائل، أحد الشقين لو غرز بالمسال ما أَحَسَّ والآخر يمر به الذُباب فَيُغَوِّثُ، وأكثر ما أشكوه الثمانون وأنشد يومئذ أبياتاً من قصيدة عوف بن مُحَلِّم الخزاعي، أبو المِنْهال ت٢٢٠هـ/ ٨٣٥م، ومنها:

إن الثمانين ـ وبُلِّغْتُها   قد أحوجتْ سمعي إلى تَرجُمانْ(٢)

ويروى عن أبي العباس المبرِّد تلميذه وصديقه أنه قال: دخلت على الجاحظ في آخر أيامه، فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج لو حزّ بالمناشير ما شعر به، ونصفه الآخر مُنَقْرَسْ، لو طار الذباب بقربه لآلمه. وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ثم أنشد:

أَتَرجو أَنْ تكونَ وأنتَ شيخٌ   كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كَذَبَتْكَ نفسُك لَيْسَ ثوبٌ   دَرِيسٌ كالجديدِ من الثيابِ(٣)

وحَدَّث يموت بن المزرِّع قال: دخل إلى خالي أناس من البصرة في العِلَّةِ التي مات فيها، فسألوه عن حاله فقال:

عليلٌ من مكانينِ   مِنَ الأَسقامِ والدينِ

---

(١) «أبو عثمان الجاحظ» د. خفاجي. ص٨٠.
(٢) عن المرجع نفسه ص٨٣.
(٣) معجم الأدباء: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٣.

ثم قال: أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوف من بعضها التَّلَف وأعظمها نَيِّف وتسعون سنة. قال يموت: كان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما شعر من خدره وبرده(١). وقيل عن علته أيضاً: إنه كان في وليمة فأكل اللبن والسمك معاً ففلج من ليلته(٢).

وأكبرُ الظَّنِ أَن هذه القصة من صنع الأطباء الذين أعلن الجاحظ الخصومة عليهم، ثم هَبَّتْ رِياحُ الموت على تلك الشُعلة المُتَّقِدَة فأطفأتْها، فمات الجاحظ. سواء من قصة الكتب التي وقعت عليه أو من علته، وما أسرع ما ذاع خبر موته واضطرب به جو العراق.

وكانت وفاة الجاحظ سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م بإجماع المؤرخين(٣). رحمه الله.

لن ننهي حياة الجاحظ وسيرته قبل تناول مُشكلة زواجه التي تعرض لها حسن السندوبي في مقدمة كتاب «البيان والتبيين». قال: لم يشأ اتخاذ زوجة تشاركة بأساء الحياة وضَرّاءها. بل انصرف إلى اتخاذ الجواري والفتيات... وقيل كان عقيماً...

فالأصل في الإنسان أن يكون ولوداً، وما العُقْمُ إلا عارض، وقد يكون هذا النقص حاصلاً في الخَلْق والتكوين، وقد يأتي حادثاً.... ولم ير مانعاً من القول بأن الجاحظ لم يَلِدْ لِنَقْصٍ كان به، لأنه كان معروفاً بقوته البدنية، حتى إن الفالج لم يحل بينه وبين التفكير والكتابة والتأليف.

---

(١) «مروج الذهب»: لأبي الحسن المسعودي ـ تحق محي الدين عبد الحميد ط٤. المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ ـ ج٤ ـ ص١٩٥ ـ ١٩٧.

(٢) «الجاحظ» د. الحاجري ـ ص٤٤٧.

(٣) «تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي» مج ١٢ ـ ص٢٢٠.
«الكامل في التاريخ» ابن الأثير. مج ٥ ـ ص٣٥١.
«ضحى الإسلام» أحمد أمين ـ ج١ ـ ص٣٨٧.
«أدب الجاحظ» السندوبي ـ ص١٨٧.
«تاريخ آداب اللغة العربية» ـ زيدان. ج٢ ـ ص١٩٣.

ثم قال: «لم أقف على رأي في عِلّة إعراضه عن التزوّج واكتفائه بالتّسرّي. وهل كان يوجب الزواج أو كان يذهب إلى الامتناع عنه! غير أن حالته التي درج عليها طوال أيام حياته تُبيِّن عن أنه كان يؤثر التسريّ، ويرى فيه مُتعة، كما يُخال أنه كان يرى في الزواج ربقة»(1).

ونحن نرى رأي السندوبي ونذهب إلى ما ذهب إليه لأننا لم نستطع العثور على السبب الحقيقي الذي جعل الجاحظ يعرض عن الزواج ويكتفي بالتّسرّي.

٤ ـ آثـــاره

وَرَّثَ(2) أبو عثمان أُمّته، وأُمم العالم، مؤلفات عديدة، قَلَّما نجدُ رجلاً مثله في تعدُّدِيّة طاقاته، خَلَّفَ مثلها. وهذه التَّرِكَة(3) ثروة للناطقين بالضاد، ولوحة مُتْقَنَة، مُبْدِعَة، صادقة، لصورة العصر الذي عاش فيه.

طاولتْ(4) عيناه كل شيء تقريباً، فلم يدع باباً إلا ولجه(5)، ولا موضوعاً إلا طَرَقه(6). انقادت(7) إليه اللغة انقياداً، وأطاعته ألفاظها، فأحسن قيادتها وتدبيرها(8).

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق السندوبي. ج١ ـ ص١٣ ـ ١٤.

(٢) وَرَّثَه توريثاً: أدخله في ماله على وَرَثته، وتوارثوه كابراً عن كابر. وورَّث في ماله: أدخل فيه من ليس من الوراثة. «لسان العرب» ابن منظور. ورث. مج ٢ ـ ص٢٠٠.

(٣) تركة الرجل: ما يبقى من تراثه المتروك بعد موته. «لسان العرب» ابن منظور. ترك. مج١٠ ـ ص٤٠٥.

(٤) طاولني فطلته، أي كنت أشد طولاً منه. قال الشاعر:
تطاولتُ كي يبدو الحصيرُ فما بدا لعيني، ويا ليت الحَصيرَ بداليا
«لسان العرب» ابن منظور [طول] مج ١١ ـ ٤١٢.

(٥) الولوج: الدخول. «لسان العرب» ابن منظور. ولج. مج٢ ـ ص٣٣٩.

(٦) أصلُ الطرْق الضّرب، وتَطَّرق إلى الأمر: ابتغى إليه طريقاً.
«لسان العرب» ابن منظور. طرق. مج١٠ ـ ص٢١٥ و٢٢١.

(٧) انقاد انقياداً: خضع خضوعاً. تقول قدته فانقاد واستقاد لي إذا أعطاك مقادته.
«لسان العرب» ابن منظور. قود. مج ١٣ ـ ص٣٧٠.

(٨) التدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إلى عاقبته. والتّدَبُّر: التفكير فيه.
«لسان العرب» ابن منظور. مج ٤ـ ص٢٧٣.

كانت غاياته نبيلة، وبواعثه نظيفة حميدة، فاعتبر الكتابة شيئاً مستقلاً عن الذات لا تابع لها. لعلَّه أول من فهم الأدب فَهْماً صحيحاً وأنزله من أبراجه العالية إلى العامة. رأى الكلام نابعاً عن رغبة في النفس وحاجة ملحَّة لراحتها ـ ولكن تفيضُ النفس عند امتلائها ـ فذاب في الواقعية، مدرسة مستقلة جاحظية، عالج فيها الأمور بموضوعية، ومزجها بالجِدّ والهزل، فجاءت جديدة عصرية، وانتشرت بين الناس، حتى ملأت الأرجاء، وأخاله ابتدع طريقة خاصة ليُبْعِدَ القارىء عن العصبية، ويُشوّقه إلى الرغبة الفورية، فضاقت قاعات العلوم على رَحْبها بِرُوّادِه ومُحبّي أدبه وظرفه، وزخْرَفَ المكتبات والمتاحف العالمية والعربية بمخطوطاته ومؤلفاته التي لم يبقَ مِنْها، مع الأسف، إلا القليل.

ونستطيع القول: إن آثار الجاحظ على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي، لأنها صورة واقعية لعصره.

فمن الأقوال المأثورة: أربعة لم يُلْحَقوا ولم يُسْبَقوا: أبو حنيفة في فِقْهه، والخليلُ في أَدَبِه، والجاحظ في تَأْليفه، وأبو تمام في شعره[1].

كان الجاحظ عبقرياً، شق طرق المعرفة بلا حدود، ومَعْلَمة فريدة جمع فأوعى، ومعجزة بقيت، فشمخ الدهر بها وَزَهَا...

قَدَّرَ سِبط بن الجوزي[2]، مؤلفات الجاحظ بثلاثماية وستين مؤلفاً، وذكر ياقوت في معجمه مائة وثمانية وعشرين مُصَنَّفاً[3].

---

(١) «أبو عثمان الجاحظ»: خفاجي. ص٢٨٥.

(٢) يوسف سبط بن الجوزي: (٥٨١ ـ ٦٥٤هـ/ ١١٨٥ ـ ١٢٥٦م). هو يوسف بن قُز أوغلي (أي ابن البنت) بن عبد الله البغدادي، تركي رحل إلى دمشق وعاش قرابة نصف قرن. يلقب بأبي المظفر شمس الدين. محدِّث، حافظ، فقيه مفسر، مؤرخ، واعظ، ولد ببغداد وتوفي بمنزله في سفح جبل قاسيون في دمشق.
«معجم المؤرخين الدمشقيين»: د. صلاح الدين المنجد. ط١ ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧٨ ـ ص٩٠ ـ ٩٤.

(٣) «معجم الأدباء» ياقوت الحموي. ج١٦ ـ ص١٠٦ ـ ١١٠ وفيه تقدير ابن الجوزي لمؤلفات الجاحظ.

وأحصى الدكتور خفاجي مئة وسبعة وثمانين كتاباً[1].

وعدّ الدكتور جميل جبر حوالى مائة وأربعين كتاباً[2].

كما أحصى السندوبي مائة وسبعة وستين كتاباً من مؤلفات الجاحظ[3].

وذكر الجاحظ من مُصَنَّفاته في مُقَدِّمة «الحيوان» عدداً أقل من ذلك[4].

والحقيقة أن مؤلفات الجاحظ غير المتوافرة لدينا لا تعنينا، بقدر ما يعنينا البحث في مؤلفاته المتوافرة، ولا شك في أن الرجل بلغ من التأليف درجة لم يضاهه فيها أحد لا من قبل ولا من بعد، على ما نعلم، ولم يَطْرُقْ باباً إلا وفُتِحَ له.

وَبِوُدِّنا لو نُدْرِجُ هذه الآثار إدراجاً كاملاً بحسب تأليفها، لكن أحداً لم يفعل ذلك حتى الآن، بسبب ضياع عدد كبير منها من جهة، واختلاف تواريخ تأليفها من جهة ثانية.

فانبرى كل باحث ومحقق بترتيبها بأشكال مختلفة حسب تقديره، وترجيحه، واستقرائه، واستنتاجه. ثم مضت أقلام الأدباء تتناقل أسماءها كما وضعت. وحاولنا أن نَسُدَّ شيئاً من الفراغ، فعمدنا إلى إثبات أكبر عدد من مؤلفاته دفعة واحدة، مما لم نلحظه في أي من المراجع التي عدنا إليها، مُتَّبِعين الترتيب الهجائي في أسمائها.

وهذه هي قائمة آثاره . . .

---

(١) «أبو عثمان الجاحظ» د. خفاجي - ص٢٨٥ - ٣٠٨.

(٢) «الجاحظ» د. جميل جبر - ص٢٩ - ٧٠.

(٣) «أدب الجاحظ» السندوبي - ص١١٦ - ١٥٨.

(٤) «الحيوان» تحق هارون. المقدمة.

الهمـــزة

١ ـ كتاب (الاحتجاج لِنَظْم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه)

ذكره الجاحظ في مقدمة كتاب «الحيوان»[(١)]. وذكره ياقوت باسم (نظم القرآن) ومثلهما فعل الحاجري وجبر، وأورده السندوبي باسم (الاحتجاج لنظم القرآن) فقط. ونعتقد أن جميع الأسماء هي لمسمى واحد.

نَقَدُه الباقلاّني في التمهيد فقال: وقد صَنَّف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى[(٢)]. ونستطيع أن نتمثلَ بعض الشيء صِفَةَ هذا الكتاب في حديث الجاحظ: أنه لم يَدَعْ فيه مسألة لرافضيّ ولا لحديثيّ ولا لحشويّ ولا لكافر ولا لمنافق مقموع ولا لأصحاب النَّظّام ولِمَنْ نجم بعد النظّام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة. لم ينشر الكتاب[(٣)].

٢ ـ كتاب (آي القرآن)

قال الجاحظ «ولي كتاب جَمَعْتُ فيه آياً مِنَ القُرْآن، لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتَها رأيتَ فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول. فمنها قوله تعالى: حين وصف خمر الجنة: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾[(٤)].

---

(١) «الحيوان»: تحق عبد السلام محمد هارون. ج١ ـ ص٩.
(٢) «أدب الجاحظ»: السندوبي. ص١١٧.
(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. ج١٦ ـ ص١٠٧.
«الجاحظ»: حياته وآثاره. الحاجري. ص٣٢١.
«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي. ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.
«الجاحظ»: د. جميل جبر. ص٦٩.
(٤) سورة الواقعة، الآية: ١٨.

وهاتان الكلمتان قد جمعتا عيوب خمر أهل الدنيا.

وقوله عز وجل حين ذكرنا فاكهة أهل الجنة فقال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[(١)]. جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني. وهذا كثير قد دَللناكَ عليه فإن أردته فموضعه مشهور[(٢)]. وهو كتاب غير منشور.

٣ ـ رسالة في (**إثم السُكْر**). كتاب في الأحكام. لم يُنشر[(٣)].

٤ ـ كتاب (**أُحدوثة العالم**). يبحث في الاعتزال والكلام. لم ينشر[(٤)].

٥ ـ كتاب (**إحالة القدرة على الظلم**). في الاعتزال والكلام. لم ينشر[(٥)].

٦ ـ كتاب (**الأخبار**) ومنه قطعة في (المنية والأمل) للمرتضى. وذكر ياقوت كتاباً بعنوان (الأخبار وكيف تصح) وكتاباً بعنوان (تصحيح الأخبار). ونعتقد أن العنوانين الأخيرين لكتاب واحد لا يختلف عن (الأخبار) وهو كتاب في المعارف العامة. لم ينشر[(٦)].

٧ ـ رسالة إلى (**أبي النجم وجوابه**)، قد تكون نفس رسالة الجاحظ إلى (أبي النجم في الخراج). ذكرهما الباحثون على أنهما متغايران. والرسالة كتاب

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣٣.

(٢) «الحيوان»: للجاحظ تحق هارون ج٣. ص٨٦. «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي. ص١١٧. «الجاحظ»: جبر. ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي. ص٢٨٦. «الجاحظ»: الحاجري ص٣٢٦.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧ ـ ١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٩ ـ ٣٠٠.

يبحث بما يعرف بزَمَنِنا المعاصر، بعلم الاقتصاد. لم ينشر[1].

٨ ـ كتاب (**آل إبراهيم بن المدبّر في المكاتبة**): كتاب في أحكام عتق العبيد. لم ينشر[2].

٩ ـ كتاب (**الإخوان**): يبحث في الأخلاق والمجتمع. لم ينشر[3].

١٠ ـ كتاب (**أخلاق الملوك**): يبحث في الأخلاق والمجتمع. لم ينشر.

يقول الدكتور جبر: إن هذا الكتاب يُسمَّى (التاج في أخلاق الملوك) نُشر في القاهرة سنة ١٩١٤ ونقله «بِلاّ» إلى الإفرنسية، تضمن طائفة من أنظمة الدولة العباسية ومن مشاهد حياة الخلفاء والعظماء في حفلاتهم الرسمية وما اقتبسوه منها عن الفرس. تَعَرَّضَ لأَحوالِ أمراء المؤمنين وساداتِ المسلمين في مجالسهم الخاصة وفي أنديتهم العامة، وفي سَحَرِهم وطَرَبِهم ومراتعِ لَهْوِهِمْ ومجالسِ مُنادمتهم ومباسطاتهم ومناظرتهم.

لم يُشِرْ أحد من المتقدمين إلى هذا الكتاب. أما أسلوبه فليس بالأسلوب الجاحظي المعهود[4] قال زيدان: هو كتاب في جملة مخطوطات كتب زكي (باشا) وقد قام على طبعه، وترجمة الجاحظ في ابن خلّكان. ج ١ـ ص٣١٨،

---

(١) «أبو النجم هلال الأنباري»: مولى بني سليم من أهل بغداد، وكان من الكُتّاب المترسلين.
«معجم الأدباء» ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ـ ص١١٧.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥.

(٢) آل المدبّر هم: أحمد ومحمد وإبراهيم. وكلهم كاتب بليغ وشاعر مجيد وما منهم إلا من ولي الولايات الجليلة، وعَمِلَ للسلطان الأعمالَ النافعة في عهد العباسين من المعتصم والمعتضد. وإبراهيم كان صديقاً للجاحظ.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٧.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٨.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٨.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

وطبقات الأدباء ص ٢٥٤[(١)].

١١ ـ كتاب (**أخلاق الشُطّار**): يبحث في الأخلاق والمجتمع. لم ينشر[(٢)].

١٢ ـ كتاب (**أخلاق الفِتْيان وفضائل أهل البطالة**): يبحث في الأخلاق والمجتمع. وقد ذكره الجاحظ في كتاب «التاج» المنسوب إليه. وكتاب «أخلاق الفتيان. . . . .» لم ينشر[(٣)].

١٣ ـ كتاب (**الاستبداد والمشاورة في الحرب**): يبحث في تَفَرُّد القائد برأيه أو مشاورة أعوانه في أيام الحرب. لم ينشر[(٤)].

١٤ ـ كتاب (**الأخطار والمراتب والصناعات**): يبحث فيما يسمى بزماننا بعلم الاقتصاد. لم ينشر[(٥)].

١٥ ـ كتاب (**الأسد والذئب**): يبحث في الحيوان. لم ينشر[(٦)].

---

(١) «تاريخ آداب اللغة العربية» زيدان مج ٢ ـ ص١٩٦. وفيه عدد وافر من المراجع في الحاشية.

(٢) فلان شاطر: معناه أنه أخذ في نحو غير الاستواء. ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء.
«لسان العرب»: ابن منظور. شطر. مج ٤ ـ ص٤٠٨.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٧١.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٣.
ومعنى الشاطر في اصطلاح العصر العباسي هو اللص، ومنها جاءت تسمية الشاطر حسن.

(٣) الفتى: الحديث السِن، والفَتِيَّة مؤنثه، أي الشاب والشابة وجمعه فتيان. ويأتي بمعنى الكامل الجزل من الرجال أو بمعنى الغلام أو بمعنى المملوك.
«لسان العرب»: ابن منظور. فتا. ج١٥ ـ ص١٤٥ ـ ١٤٨.
وفي معناه الاصطلاحي: كانت الفتوه تنظيماً، وهي مأخوذة من قول الرسول الكريم لا فتى إلا علي.
«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٨. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٣.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٨.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٨.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٩.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٢.

١٦ ـ كتاب (**أصحاب الإلهام**): سماه ياقوت «الردُّ على أصحاب الإلهام». يبحث في الفِرَق والآراء. لم ينشر[١].

١٧ ـ كتاب (**افتخار الشتاء والصيف**): يبحث في الجغرافيا. لم ينشر[٢].

١٨ ـ كتاب (**أفعال الطبائع**): يبحث في الاعتزال والكلام. لم ينشر[٣].

١٩ ـ كتاب (**أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات**): يبحث بما يعرف في عصرنا بعلم الاقتصاد والتجارة. لم ينشر[٤].

٢٠ ـ كتاب (**الاستطاعة وخَلْقُ الأفعال**): من الكتب التي وُضعت في تقرير مذهب الاعتزال. لم ينشر[٥].

٢١ ـ كتاب (**الاعتزال وفضله**): لَعَلَّه كتاب (فضيلة المعتزلة) أو كتاب (الاعتزال وفضله على الفضيلة). والأرجح ثلاثة أسماء لكتاب واحد. وقد رَدَّ عليه ابن الراوندي[٦] بكتاب أسماه (فضيحة المعتزلة). وكتاب الجاحظ يبحث

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٣.

(٣) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٤) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٦) ابن الراوندي ت٢٩٨هـ/ ٩١٠م. هو أحمد بن يحيى بن إسحاق، أبو الحسين. فيلسوف من سكان البصرة، جاهَرَ بالإلحاد. وأحد مشاهير الزنادقة. اختلفوا في سبب إلحاده فقيل: فاقةٌ لحقته، وقيل تمنى رياسة ما نالها فارتدّ. كان من المعتزلة، فعندما انسلخ عن الدين وأظهر إلحاده وزندقته، طردته المعتزلة، فوضع كتباً كثيرة في مخالفة الإسلام. وهو الذي صنَّف كتاباً سماه «فضائح المعتزلة»: فنقضه أبو الحسين ويسمى النقض: الانتصار. قال القاضي: ويقال إنه تاب في آخر عمره. قال الحاكم: لكني رأيت عن أبي الحسين إنكار ذلك. استعان المعتزلة عليه بالسلطان فهرب ولجأ إلى يهودي في الكوفة. قيل إنه مات في بيته.
«فرق وطبقات المعتزلة»: القاضي عبد الجبار الهمذاني. تحق د. النشار وغيره. دار المطبوعات الجامعية بالقاهرة ١٩٧٢ ـ ص٩٧ ـ ٩٨.
«لسان الميزان»: العسقلاني. ج١ ص٣٢٣ ـ ٣٢٤ «الأعلام»: الزركلي. ج١ ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.

في الاعتزال والكلام. لم ينشر[١].

٢٢ ـ كتاب (**الأُنْسُ والسَّلْوَةُ**): ذكره الدكتور خفاجي باسم (الأنس والسلوى) بالألف المقصورة. قيل إنه يبحث في الأدب. لم ينشر[٢].

٢٣ ـ كتاب (**الأوفاق والرياضيات**): لم ينشر[٣].

٢٤ ـ كتاب (**أصول الفُتْيا والأحكام**): سماه ياقوت كتاب (الفُتيا). يبحث في الأحكام الشرعية. لم ينشر[٤].

٢٥ ـ رسالة في (**الأمل والمأمول**): تبحث في الأدب. لم ينشر[٥].

٢٦ ـ رسالة في (**امتحان عقول الأولياء**): بعث بها الجاحظ إلى أبي الفرج بن نجاح بن سلمة. لم ينشر[٦].

٢٧ ـ كتاب (**الأمثال**): يبحث في الأدب. لم ينشر[٧].

---

(١) انظر «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧ ـ ١٠٨. و«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٠. و«الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. و«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٢) السُلْوة والسَلْوَة: السُلوُّ. يقال هو في سَلْوةٍ من العيش أي في رَغَدٍ منه، واسقني سلوة من نفسك: أي رأيت منك ما سلوت به عنك. السَلْوَى: كلّ ما يُسليّكَ.
«المنجد في اللغة والأعلام»: ط٢٢ ـ دار المشرق بيروت ١٩٧٣ ـ ص٣٤٨.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٥. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦.

(٣) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٥. «الحيوان»: للجاحظ. تحق هارون ج١ ص٧، «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦.

(٦) ليس المقصود بالأولياء: أولياء الله أو أولياء الأمر. وإنّما المقصود العلماء. ولم نجد ضمن مراجعنا ترجمة لأبي الفرج:
انظر «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦.

(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦.

٢٨ ـ كتاب **(الأمصار)**: ذكره الدكتور خفاجي باسم (الأمصار وعجائب البلدان) وقال: ربما هو كتاب (الأوطان والبلدان). الذي تحدث فيه الجاحظ عن مكة والمدينة، ويقال له كتاب (البلدان). وكتاب الجاحظ هذا يبحث في الجغرافيا[١].

٢٩ ـ كتاب **(أُمَّهات الأولاد)**: لم ينشر[٢].

٣٠ ـ رسالة في **(استنجاز الوعد)**: منشورة ضمن (مجموعة رسائل) ومطبوعة بمصر سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م. ومنشورة أيضاً ضمن (الفصول المختارة). المطبوعة بهامش كتاب (الكامل). موجودة في المتحف البريطاني (ثاني ١١٢٩: ٢١)[٣].

ومن وحي العنوان نرى أنه استنجاز وعد الله سبحانه بنصره المؤمنين، كما في آيات الوعد في القرآن الكريم.

٣١ ـ كتاب **(استطالة الفهم)**: ذكره القاضي شهاب الدين الخفاجي[٤]، في كتابه (طراز المجالس). قال: صَنَّف الجاحظ كتاب (الاستطالة) وجمع فيه نُبَذاً

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٣.

(٢) «يقول الدكتور خفاجي أن هذا الكتاب يبحث في الإنسان والأجناس، ونرى أن العنوان يوحي بمعنى فني (لأمهات الأولاد) في ذلك العصر. وهن الإماء اللواتي وَلَدن من أسيادهن، وكانت لهن أحكام خاصة.

«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٤.

(٣) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٩ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦.

(٤) هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر. قاضي القضاة، شهاب الدين الخفاجي المصري ت١٠٦٩هـ/ ١٦٥٨م. أحد العلماء الأفذاذ وصاحب التصانيف البارعة في العلم والأدب وولي قضاء بلاد الروملي، ثم قضاء سلانيك، ثم قضاء مصر. وعنه عُزل ورحل إلى الروم، ثم أعيد منفياً إلى مصر وبها عُيِّن قاضياً. له مؤلفات عديدة، ورسائل ومقامات وأشعار. توفي في مصر عن نيف وتسعين عاماً. وهو صاحب كتاب «شفاء الغليل فيما من كلام العرب عن الدخيل»: تحق محمد عبد المنعم الخفاجي الصادر في القاهرة عام ١٩٥٢.

«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٩ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦.

«الأعلام»: الزركلي. ج٣ ص١٧٧.

من كلام الحُكماء والشُعراء. يبحث كتاب الجاحظ في الأدب ولم ينشر.

٣٢ ـ كتاب **(الأصنام)**: وضعه الجاحظ في ذكر أصنام الجاهلية، وقيل إنه صحّح فيه نَسَبَ النَّضر بن كنانة جَدّ النبي ﷺ، وهو من الكتب الفَنيّة التي ظهرت لموضوع واحد[١].

٣٣ ـ كتاب **(الإمامة على مذهب الشيعة)**: هل هو الرسالة التي طبعت بمصر سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م. ضمن «مجموعة الرسائل»؟ أم هو بعنوان آخر «بيان مذاهب الشيعة»؟ أم هو «الإمامة عن الشيعة»؟ هذا ما يتساءل عنه الباحثون. وأغلب الظن أن هذه العناوين لكتاب واحد. وهو كتاب يبحث بما يعرف اليوم بعلم السياسة. لم ينشر[٢].

٣٤ ـ كتاب **(إمامة معاوية بن أبي سفيان)**[٣]: كتاب، بما يسمى اليوم، بعلم السياسة. لم ينشر. يقول الحاجري: لعله كتاب (بني أمية). أو (النابتة).

الأصل في وضع هذ الكتاب هو التشيّع لمعاوية وآله. يقول المسعودي:

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١١٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٨.

(٢) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٢. «الجاحظ»: الحاجري ـ ص٢٠٥ ـ ٢١٠.

(٣) **معاوية بن أبي سفيان**: (٢٠ق هـ ـ ٦٠ هـ / ٦٠٣ ـ ٦٨٠م). ويسمّى صخر بن حرب بن أميّة ابن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي: مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب. كان حليماً وقوراً. ولِدَ بمكة وأسلَمَ يوم فتحها ٨هـ/ ٦٠١م. وتعلم الكتابة والحساب فجعله الرسول ﷺ في جُمْلة كُتّابه، ولما ولي أبو بكر، ولاّه قيادة الجيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان فكان على مقدمته في فتح صيدا وعَرْقَةَ وجبيل وبيروت. ولما ولّي عمر، جعله والياً على الأردن، ورأى فيه حزماً وعلماً فولاه دمشق بعد موت يزيد. وجاء عثمان، فجمع له الديار الشامية، وجعل وُلاة أمصارها تابعين له. قُتل عثمان وولّي علي بن أبي طالب، فوجه لفوره بعزل معاوية. وكان معاوية قد علم بالأمر قبل وصوله، فسارع ونادى بثأر عثمان واتهم علياً بدمه. نَشِبَتْ حروب طاحنة بينهما وانتهى الأمر بخلافة معاوية في الشام وإمامة علي في العراق. ثم قُتل عليّ وبويع بعده الحسن ابنه، فسلَّمَ الخلافة لمعاوية سنة ٤١هـ. الذي سماه أهل السُنّة بعام الجماعة. مات معاوية في دمشق عن ثمانين عاماً.

«تاريخ الخلفاء»: للسيوطي تحقق محي الدين عبد الحميد ـ ص١٩٤ ـ ٢٠٥.

كتاب (إمامة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان)، في الانتصار له من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وشيعته الرافضة، يذكر فيه رجال المروانية (نسبة إلى مروان بن الحكم) ويؤيد فيه إمامة بني أُميّة وغيرهم[1] في مسار مذهب المعتزلة الذين يرى بعضهم جواز إمامة كل الناس سواء كانوا قرشيين أو غيرهم من المسلمين.

٣٥ ـ كتاب (**إمامة وُلد العباس**)[2]: صَنَّفَ الجاحظ هذا الكتاب، يَحْتَجُّ فيه لإمامةِ ولد العباس، ويذكر فعل أبي بكر[3] في فَدَكٍ[4] وغيرها. وقصته مع فاطمة رضي الله عنها ومطالبتها إياه بإرثها من أبيها صلى الله عليه وسلم،

---

(١) «مروج الذهب»: المسعودي ج٣. ص٢٥٣.
وانظر «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج ١٦ ص١٠٧ «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٠ ـ ١٢١ «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٢ و٦٩ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٠ ـ ٢٩٢. «الجاحظ»: الحاجري ـ ص١٨٧ ـ ١٩٣ «الأعلام»: الزركلي مج ٧ ص٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) **هو العباس بن عبد المطلب** ت٣٢هـ/ ٦٥٢م. عم الرسول ﷺ، وإليه ينتهي نسب العبّاسيين. كان طويلاً أبيض. وكانت إليه في الجاهلية، السقاية في زمزم والعمارة، ثم دفعهما النبي إليه عام الفتح. كان يوم عقبة مع النبي ﷺ. فعقد له على الأنصار، وقد كُفّ بصره عن تسعة وثمانين سنة مات في خلافة عثمان بالمدينة المنورة.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني. مج٢ ص٢٦٣ رقم ٤٥٠٧.

(٣) **أبو بكر الصديق** ١٣هـ/ ٦٠٦م. الخليفة الأول لرسول الله ﷺ. واسمه عبد الله بن أبي قُحافة. بويع بالخلافة يوم سقيفة بني ساعدة، وقام بالبيعة له عمر بن الخطاب، فحسم بذلك أسباب الخلاف بين المهاجرين والأنصار. نهض بأعباء الخلافة خير نهوض، ونهد لحروب الردّة فكان فيها من الموفقين. مزيداً من أخباره في «تاريخ الخلفاء»: السيوطي ص٢٧ ـ ١٠٧.

(٤) فَدَك: قرية بالحجاز قرب المدينة، كانت من الأملاك الخاصة لرسول الله ﷺ. وذلك أن النبي بعث، بعد منصرفه من خيبر إلى أهل فَدَك، مُحيصه بن مسعود يدعوهم إلى الإسلام، فوجدهم في خوف، صالحه أهلها على نصف الأرض بتربتها، فقبل ذلك منهم وأمضاه رسول الله، فكان خالصاً له دون سائر المسلمين لأنه لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب. فلما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، وقام بعده بالأمر أبو بكر، طالبته فاطمة بحقها في الميراث فلم يورّثها. ولمتكلمي الشيعة والمعتزلة في هذا الشأن مجالات ومناظرات... غير أن عمر لما تولى الخلافة دفعها إلى بني هاشم فكانت في يد علي والعباس. فلما ولّي معاوية أقطعها مروان بن الحكم ثم وجهها لعبد العزيز وعبد الملك ابنيه ثم جمعها عمر بن عبد العزيز وردها على بني هاشم. ثم دفعها المأمون إلى بني فاطمة...
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج ١٦ ـ ص١٠٧ انظر الحاشية.

واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أيمن[١]، وما جرى بينها وبين أبي بكر من المخاطبة، وما كثر بينهما من المنازعة، وما قالت وما قيل لها عن أبيها عليه الصلاة والسلام من أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»[٢]، وما احتجّت به عليه من قوله عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾[٣].

على أن النبوة لا تورث فلم يبق إلا التوارث. . .

قال المسعودي: كِتاب صَنَّفه عمرو بن بحر الجاحظ وهو المُتَرْجَم بكتاب «إمامة ولد العباس». . .

ولم يصنّف الجاحظ هذا الكتاب، ولا استقصى فيه الحِجاجَ للراوندية، وهم شيعة ولد العباس. لأنه لم يكن مذهبه ولا كان معتقده ولكن فعل ذلك تماجناً وتطرّباً[٤].

وقد يُظَن أنه كتاب «العبّاسية» وربما هو غيره، أو هو كتاب «إمامة بني العباس». يبحث فيه الجاحظ إثبات حق العباسيين في الخلافة من ناحية الوراثة ومناقشة الآراء المختلفة التي كانت تثيرها هذه المسألة. لم ينشر[٥].

٣٦ ـ رسالة في (**أمر الحكمين وتصويب رأي علي**):[٦] لم تنشر.

لعلها نفس الكتاب الذي ذكره ياقوت بعنوان (تصويب علي في تحكيم الحكمين). تبحث الرسالة في أحكام شرعية عقائدية يبرز الجاحظ فيها اعتزاله بمناهضة الخوارج.

---

(١) هي جارية، تسمى بركة، كانت لأم رسول الله، ورثها منها وأعتقها، تزوجها رجل من الخزرج يسمى عبيد، فولدت له أيمن. ثم تزوجها زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن يزيد.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج ١٦ ـ ص١٠٧.

(٢) ورد الحديث في «مروج الذهب»: بحرفيته. «مروج الذهب»: المسعودي ج ٣ ص٢٥٣.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٦.

(٤) «مروج الذهب»: المسعودي. ج٣ ـ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢١/ ١٢٤. «الجاحظ»: للحاجري ص١٩٣ ـ ١٩٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٢.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٠.

٣٧ ـ كتاب **(الاسم والحكم)**: قيل هو كتاب في الأدب. لم ينشر[١].

٣٨ ـ كتاب **(أديان العرب)**: يبحث في عبادة العرب القديمة. لم ينشر[٢].

٣٩ ـ كتاب **(الإبل)**: يبحث في الحيوان. لم ينشر[٣].

٤٠ ـ كتاب **(أطعمة العرب)**: يبحث في أصناف الأطعمة عند العرب. لم ينشر[٤].

٤١ ـ رسالة في **(استحقاق الإمامة)**: هذه الرسالة تتناول الشيعة في فرعيها: الزيدية والرافضة. تحفل بحجج الزيديّين التي تؤيد الإمام علي. ويحاول أبو عثمان أَنْ يُبيِّن أنّ الإمامةَ ضرورية لِمَنْع الضُّعفاء من الناس من الجنوح عن جادة الحق وأنّ وحدة الإمام ضرورية لتنسيق الأمور العامة[٥]. ويؤلف ذلك رأي المعتزلة فيمن يستحق أن يكون إماماً.

البـــاء

٤٢ ـ كتاب **(البُخَلاء)**:

من أروع كتب الجاحظ، وأنفعها وأوفاها معالجة لموضوعه.... جمع فيه أخباراً تتصل ببخلاء عصره، تناول فيه المتكلمين والمعتزلة. ولا ندري هل قيمة الكتاب في الجمال اللفظي أم في استقامة المعنى أم في خصب الخيال؟ أم في هذا التصوير الدقيق الذي لا يقاس إليه تصوير أو يدانيه؟ تصوير حياة البصرة وبغداد في عصر الجاحظ[٦].

---

(١) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦.

(٢) ومنه نسخة خطية بمكتبة أحمد تيمور بدار الكتب المصرية.
«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ـ ص٣٠٨.

(٣) يقول ياقوت: إنه ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه. (يعني منسوب إليه). «معجم الأدباء» ياقوت الحموي ج١٦ ـ ص١٠٦. «أدب الجاحظ»: السندوبي ـ ص١٤٥. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ـ ص٣٠٣.

(٤) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ـ ص٣٠٨.

(٥) «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٣.

(٦) «الأدب والنقد»: المجموعة الكاملة لطه حسين. ط١. دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٣. مج ٥ ـ ص١١٨.

نشره فان فلوتن سنة ١٩٠٠، ونَشَرَ رِشَرْ قِسْماً منه، ونشر وليم مارسيه تصحيحات له، فطبع في عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٤م، وأُعيد طبعه عام ١٩٣٨م من قِبَل لجنة من أعضاء المجمع العلمي العربي، بتحقيق: العوامري والجارم وبتعليق وليم مارسيه. ونشره طه الحاجري في القاهرة عام ١٩٤٨م. ثم نشرته دار صادر في بيروت عام ١٩٥٨م بشروح وَبِتَبْويبات.

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى الألمانية ونُشِر سنة ١٩٣٠م ثم إلى الإفرنسية سنة ١٩٥١ بواسطة شارل بلا(١).

٤٣ ـ كتاب (**بصيرة غنام المرتد**): لم ينشر(٢).

٤٤ ـ كتاب (**البيان والتبيين**): كتاب في البلاغة والإعجاز. سنعرض له في حينه من هذه القائمة. إن شاء الله.

٤٥ ـ رسالة في (**بيان مذاهب الشيعة**)(٣).

٤٦ ـ (**البُلدان**)(٤).

٤٧ ـ (**البلاغة والإعجاز**): يبدو أنه كتاب فني في البلاغة. لم ينشر(٥).

٤٨ ـ (**البغال ومنافعها**): كتاب في الحيوان. نشره شارل بلا(٦).

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج ١٦ ـ ص١٠٧.
«أدب الجاحظ»: السندوبي ـ ص١٢٥.
«تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان مج ٢ ـ ص١٩٥.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٣٤ ـ ٣٩.
«البخلاء»: للجاحظ تحق طه الحاجري ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٣. المقدمة.
«أبو عثمان الجاحظ»: خفاجي ص٢٩٧ و٣٠٩ و٣١٥ «الجاحظ»: طه الحاجري ص٦١٨.

(٢) يعلق الدكتور خفاجي في حاشيته: بأن هذا الكتاب أُحرِق لرِدَّته.
«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٥ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩.

(٣) راجع الرقم ٣٣ من قائمة آثار الجاحظ.

(٤) راجع الرقم ٢٨ من القائمة.

(٥) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ـ ص٢٩٧.

(٦) وتوجد منه نسخة خطية بمكتبة الموصل ١٤ و٢٦٥.
انظر «الجاحظ»: جبر ص٦٨ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٣.

التاء

٤٩ ـ رسالة **(التربيع والتدوير)**: هي موضوع فلسفي بحت وإن كساه الجاحظ من بلاغته وأسلوبه الأدبي الرفيع. كتبه أبو عثمان في مائة وخمسين صفحة، يَتَنَدَّرُ به على صاحبه أحمد بن عبد الوهاب، الذي هو إلى الرفض أميل، ويصف ما هو عليه، من دمامةٍ وقِصَر وبشاعةٍ وجهل رداً على ادعاءاته المزيفة.

لقد أراد الجاحظ فَضْحه بالهُزْءِ منه، فعرض له مائة مسألة، وطلب إليه الجواب عنها، وبعد أن بسط جهله أحاله في جواب كل مسألة إلى كتاب من كتبه ليعرف الجواب «فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها من خرافة وما فيها من محال، وما فيها من صحيح، وما فيها من فاسد، فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي، وابتدىء بنفي التشبيه والقول بالبداء، واستبدل بالرفض الاعتزال[(١)].

وهذه المسائل تتعلق بالعلوم والآداب والتاريخ والأنساب والطبيعة والفلسفة، قد عيّ بها المؤرخون وفلاسفة اليونان. حتى إذا فرغ الجاحظ، كَتَبَ فصلاً في المُزاح يصل منه إلى الاعتذار، ثم يعود ليسخر فيمدح صاحبه بالجمال الأخّاذ ويخبره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو أدركه لضنع به أعظم مما صنع بنصر بن حجاج[(٢)].

---

(١) تلطف بالرجوع إلى «الجاحظ»: الحاجري ـ ص٢٧٥ ـ ٢٨٤. وإلى «الفن ومذاهبه في النثر العربي»: شوقي ضيف. دار المعارف مصر ط٥ ص١٧٧ ـ ١٨٨.

(٢) نصر بن حجاج بن عِلاط السُلمي. شاعر من أهل المدينة. كان جميلاً. قالت إحدى نساء المدينة:

يا ليت شعري عن نفسي، أزاهقه ... مني، ولم أقض ما فيها من الحاج
هل من سبيل إلى خمر فأشربها؟ ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج؟

عندئذ طلبه عمر بن الخطاب وحلق رأسه ثم نفاه إلى البصرة. «الأعلام»: الزركلي ج٨ ـ ص٢٢. «الأدب والنقد طه حسين». المجموعة الكاملة. مج ٥ ـ ص٦٠٨ ـ ٦١٣.

وهذه الجرأة وعدم الخوف من أحد، يجيبنا عنها ياقوت بقوله:

قيل لأبي هفان: لم لا تهجو الجاحظ وقد ندَّدَ بك وأخذ بِمُخَنَّقِك؟ فقال: أمثلي يُخدعُ عن عقله، والله لو وَضع رسالة في أرنبةِ أنفي لما أَمْسَتْ إلا بالصين شُهرةً، ولو قلت فيه ألفَ بيتٍ لما طَنَّ منها بيتٌ في ألف سنةٍ[1].

فإن دَلَّت الرسالة على شيء فإنما تدل على قُدرة الجاحظ في التَّفَنُّن بأسلوبه الأدبي وهضمه للفلسفة اليونانية القديمة وما انضاف إليها من فلسفات حتى عصره.

طبعت الرسالة (التربيع والتدوير) في لندن ١٩٠٣م وقيل، نشرها المستشرق فان فلوتن بليدن ١٩٠٧م وقيل: إنها نُشرت في اسطنبول ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٥م. كما قيل: إنها نشرت في نفس العام في مصر ضمن (مجموعة رسائل). ثم نشرها السندوبي في كتابه (رسائل الجاحظ) سنة ١٩٣٣م ثم نشرها المستشرق شارل بِلاًّ بعد ترجمتها إلى الإفرنسية في طبعة علمية واضعاً حواشيها ومقدّماتها سنة ١٩٥٥م[2].

٥٠ ـ **(تصويب علي في تحكيم الحكمين)**: هو كتاب سياسي، مُهدىً إلى أبي حسّان[3] وقد عثر السندوبي على البقية الباقية من هذا الكتاب، وفيه صورة عن الطريقة التي اتَّبَعها الجاحظ في الاعتذار لعليّ كرّم الله وجهه في قبوله

---

(١) المخنق: موضع الخَنْق من العُنق، أو هو العنق. أخذ بمخنَّقه: ضيق عليه وشدد «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج ١٦ ـ ص٩٩ و١٠٧ «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٧ «الجاحظ»: جبر ـ ص٥٣ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص ٢٩٨/ ٣٢٣.

(٢) يقول الدكتور خفاجي: هناك نسخة خطية للرسالة موجودة في المتحف البريطاني (ثاني ١١٢٩: ٣).

«أدب الجاحظ»: السندوبي ـ ص١٢٧ «الجاحظ»: جبر ص ٥٣ ـ ٥٥. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ـ ص٢٩٨.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٧ ـ ١٢٨. تلطف بالرجوع إلى «الجاحظ»: جبر ص ٦٨ ـ وإلى الرقم ٣٦ من القائمة.
و«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٠ مع الحاشية.

التحكيم. قال الجاحظ: مَنْ عرفه (يعني الإمام علي) عرف أنه غير ملوم في الانقياد معهم إلى التحكيم، فإنه مَلّ من القتل وتجريد السيف ليلاً ونهاراً حتى ملّت الدماء من إراقته لها، وقلَّت الخيل من تقحّم الأهوال بها، وضجر من دوام تلك الخطوب الجليلة والأرزاء العظيمة واستلاب الأنفس، وتطاير الأيدي والأرجل بين يديه، وأكلت الحرب أصحابه وأعداءه، وعطلت السواعد، وخُدِّرت الأيدي التي سلمت من وقائع السيوف بها، ولو أنَّ أهل الشام لم يستعفوا من الحرب ولم يستقيلوا من المقارعة والمصادمة، لأدت الحال إلى قعود الفيلقين معاً، ولزومهم الأرض وإلقائهم السلاح فإن الحال أفضت بعظمتها وهَوْلها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه.

٥١ ـ كتاب **(تحصين الأموال)**: يبحث بما يعرف اليوم بعلم الاقتصاد. لم ينشر[١].

٥٢ ـ **(تفضيل النطق على الصمت)**: كتاب في أدب الجدل والمناظرة. طبع بمصر ضمن (مجموعة رسائل) سنة ١٣٢٤[٢].

٥٣ ـ **(تفضيل البطن على الظهر)**: كتاب في الجنس[٣].

٥٤ ـ **(تفضيل بني هاشم على من سواهم)**: كتاب سياسي[٤].

٥٥ ـ **(تفضيل صناعة الكلام)**[٥].

٥٦ ـ **(تنبيه الملوك والمكايد)**: يُشَكُّ في نِسْبته إلى الجاحظ[٦].

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥.

(٢) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٨. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٥ ومنه نسخة في المتحف البريطاني (ثاني ١١٢٩/ ٢٢).

(٣) مخطوط في المتحف البريطاني (١١٢٩ : ١٧ ثاني). «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٥.

(٤) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٢. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٨٨.

(٥) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٨.

(٦) يقول الخفاجي: ومنه نسخة خطية بكوبرلي ١٠٦٥ ولها مصورة شمسية بالقاهرة ثاني ٦٩ برقم ٢٣٥٤. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٥٢.
«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص ٣٠١.

٥٧ ـ **(تهذيب الأخلاق)**: يبحث في الأخلاق والمجتمع[١].

٥٨ ـ **(التمثيل)**: كتاب في الأدب. لم ينشر[٢].

٥٩ ـ **(التفاح)**: كتاب في الثمار. لم ينشر[٣].

٦٠ ـ **(التفكر والاعتبار)**[٤].

٦١ ـ **(التبصُّر بالتجارة)**: يبحث بما يسمى اليوم بعلم الاقتصاد. نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (١٢، ٣٢١ـ٣٥٥)[٥].

٦٢ ـ **(التسوية بين العرب)**: ذُكر كتاب (العرب والعجم) وكتاب (الموالي والعرب) وكتاب (العرب والموالي) ونعتقد أن هذه التسميات لمصنف واحد. يبحث بالطعن على الشعوبية العرقية المتعصبة ويدعو إلى التسوية الإسلامية ونصرة العرب. لم ينشر[٦].

٦٣ ـ **(جمهرة الملوك)**: كتاب في الأُسَرِ المالكة. لم ينشر[٧].

٦٤ ـ **(الجوابات)**: لم ينشر[٨].

---

(١) الظاهر أنه منحول، وأنّه من تأليف أحد المسيحيين، وقد يكون عدي بن يحيى الذي نشر الكتاب في القاهرة باسمه، كما نُشر فيها أيضاً باسم محي الدين بن عربي. تلطف بالرجوع إلى «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص ٢٩٤.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٨.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠١.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٥) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥ مع الحاشية.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٤. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٣٣.

(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٨.

(٨) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٩.

٦٥ ـ (**جوابات كتاب المعرفة**): لم ينشر[١].

٦٦ ـ (**الجواري**): قد يكون كتاب (مفاخرة الجواري) أو (مفاخرة الغلمان والجواري). يبحث في الجنس والشذوذ. لم ينشر[٢] ويؤكد استاذنا الدكتور محمد الخطيب أنه رآه مطبوعاً في مصر.

٦٧ ـ (**جوابات في الإمامة**): سياسي. لم ينشر[٣].

٦٨ ـ (**الجِدّ والهَزْل**): يوحي عنوانه بأنه كتاب أدب[٤].

الحاء

٦٩ ـ رسالة (**الحاسد والمحسود**): كتاب في الأخلاق والمجتمع[٥].

٧٠ ـ (**حانوت عَطّار**)[٦]: يوحي عنوانه بمقام العطّار والعطارة في ذلك الوقت.

٧١ ـ (**الحُجّات**)[٧]: ربما تعني الأدلة.

٧٢ ـ (**الحُجَّةُ في تثبيت النُّبوة**)[٨]: يبدو أنه شبيه بكتاب القاضي الفاضل عبد الجبار المعتزلي البغدادي واسمه (تثبيت دلائل النبوة) وهو في إثبات النُّبوات على مذهب المعتزلة.

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٨. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٨ ـ ٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠.

(٣) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٢.

(٤) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي. ص٣٠٥ «الجاحظ»: الحاجري ص٢٦٧ ـ ٢٧٥.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٧) ذكره القاضي شهاب الدين الخفاجي في كتابه (طراز المجالس). راجع «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٩.

(٨) نفسه ص١٢٩.

٧٣ ـ (**الحجر والنُّبوّة**): لم ينشر[(١)]. ولم تُضْبَطْ كلمة الحجر.

٧٤ ـ (**الحزم والعزم**): لم ينشر[(٢)]. يبدو أنه كتاب في أدب العقيدة استناداً إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[(٣)] والفرق بين العزم وبين الحزم.

٧٥ ـ (**حكاية قول أصناف الزيدية**): ذكر الخفاجي (أصحاب) بدل أصناف[(٤)].

يبحث في مرد اهتمام الجاحظ بالزيدية الذين كانوا على المذهب المعتزلي الصريح، «دون أكثر فرق الرافضة وأصناف الشيعة.

٧٦ ـ رسالة (**الحلية**): ذكرها السندوبي والخفاجي بالباء المُعْجمة وياقوت بالياء[(٥)].

٧٧ ـ (**حيل اللصوص**): كتاب في فن القصة. لم ينشر.

٧٨ ـ (**حيل المكْدين**): كتاب في فن القصة. لم ينشر[(٦)].

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. وانظر «الذّرة عند المتكلمين في كتاب (أهم الفرق السياسية والكلامية) د. البيرنصري نادر. ط٢. مط. الكاثوليكية ـ بيروت ص١٢١ ـ ١٧١.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٠.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠.

(٦) قال البغدادي. وأما كُتُبُه (يعني الجاحظ) المزخرفة فأصناف. منها كتاب في «حيل اللصوص»: وقد علّم بها الفَسَقة وجوه السرقة.... وفي «حيل المكدين»: ذريعة للمحتالين يجتلبون بها ودائع الناس وأموالهم. وكتاب «حيل اللصوص» مخطوط بالموصل ٢٦٤٠.
انظر «الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادي ـ تحق محي الدين عبد الحميد. مط. المدني القاهرة ص١٧٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٣ الحاشية.
«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٠.

٧٩ ـ **(الحنين إلى الأوطان)**: كتاب في المعارف العامة. لم ينشر[١].

٨٠ ـ **(حجج النُبوّة)**: مطبوع في رسائل الجاحظ، يشير فيه إلى التحدي وخَلْق القرآن وامتحان ابن حنبل عام ٢١٩هـ/ ٨٣٣م[٢]. (راجع الرقم ٧٢ من القائمة).

٨١ ـ **(الحجاب وذَمُّه)**: طبع في (رسائل الجاحظ). جمع السندوبي[٣]، وموضوعه ما يسمى اليوم بالسياسة.

٨٢ ـ **(حُجَج النصارى على المسلمين)**: يبحث في مقارنة الأديان[٤].

٨٣ ـ **(الحول والعور)** يبحث في بعض العلل البشرية. لم ينشر[٥].

٨٤ ـ **(الحيوان)**: كتاب كبير. أنشأه أبو عثمان في سبعة أجزاء وقَدَّمَهُ إلى

---

(١) الظاهر أنه منحول. أنظر «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٥٣.
«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠١.

(٢) من أئمة المذاهب أحمد بن حنبل ١٦٤ ـ ٢٤١هـ. لقي كثيراً من ألوان الشدة والعنت في عهد المأمون والمعتصم لعدم اتفاقه مع المعتزلة في القول بخلق القرآن، فامتحن في هذه المسألة، وسجن وعذب وبقي كذلك إلى عهد المتوكل الذي ترك القول بخلق القرآن، وأطلق سراح ابن حنبل الذي توفي ببغداد، ويقول بروكلمان. وتفصيل ذلك أنه بينما كان المأمون معسكراً بطرطوس في إحدى غزواته للبيزنطيين اعتُقِل ابن حنبل في بغداد وسِيق إلى مقرِ قيادته مصفداً بالأغلال. ووافت المنون الخليفة قبل أن يَبْلُغَ العالِمُ الأسيرُ مقرَ القيادة... فأُعيدَ إلى بغداد ولكن اضطهاده لم ينقطع.
«الكامل في التاريخ»: ابن الأثير. ج٥ ـ ص٢٢٢ ـ ٢٢٦.
«تاريخ الشعوب الإسلامية»: كارل بروكلمان ـ ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.
«تاريخ الإسلام»: حسن إبراهيم حسن ج٣ ـ ص٣٤٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٤. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٥.

(٣) قال ابن خلدون: إن حظ السلطان من المُلْك إنما هو جلوس السرير وإعطاء الصفقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء خَلْفَ (الحجاب). وإن الحل والربط والأمر والنهي ومباشرة الأحوال الملوكية وتفقُدها من النظر في الجيش والمال والثغور إنَّما هو للوزير، (مقدمة ابن خلدون) تحق حُجر عاصي ـ ص١٢٧.

(٤) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ـ ص٢٩٠.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣١. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٥.

الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، فأجازه عنه بخمسة آلاف دينار. يُعَدُّ من أهم كتب الجاحظ وأشهرها، كما يُعد أثراً من آثار السِنّ والتجربة، حَفَلَ بمختلف صفوف المعارف وضروب الآداب.

هو أول كتاب عربي جامع في علم الحيوان، ألّفه في سِنِ متقدمه، قال: وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه[1].

وكان من أهداف أبي عثمان أن يُبيِّنَ ما في الحيوان من الحِجج على حكمة الله، سبحانه، العجيبة وقدرته الباهرة.

طبع بمصر عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م. ثم حققه هارون ونشره بمصر عام ١٩٤٥م[2].

الخاء والدال

٨٥ ـ **(خلق القرآن)**: بحث في القرآن الكريم على رأي المعتزلة. لم ينشر[3].

٨٦ ـ رسالة في **(الخراج إلى أبي النجم)**: تلطّف بالرجوع إلى الرقم ٧ من هذه القائمة.

٨٧ ـ **(الدلالة على أن الإقامة فرض)**: لعله كتاب (استحقاق الإمامة) أو رسالة (وجوب الإمامة) يبحث، بما يسمى اليوم، بعلم السياسية. لم ينشر[4].

٨٨ ـ **(الدلائل والاعتبار على خلق الآثار)**: منسوب إلى الجاحظ. عثر

---

(١) «الحيوان»: للجاحظ. تحق هارون. ج١ ص١٤ و٢٥ و٢٧ وج٤ ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٠ ـ ١٣١. «تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان ج٢ ص١٩٥. «الجاحظ»: جبر ـ ص٣٠ ـ ٣٣. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٢. «الجاحظ»: الحاجري ـ ص٣٩٧ ـ ٤٢٣.

(٣) «الجاحظ»: الحاجري ـ ص٣٣٤. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٦.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٢.

عليه محمد راغب الطباخ الحلبي وطبعه منسوباً إلى الجاحظ ١٩٢٨م. ولعله للحارث بن أسد المحاسبي أحد أفاضل الزُّهاد(١).

٨٩ ـ **(الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير)**: لعله نفس الكتاب السابق(٢).

الــذال

٩٠ ـ **(ذم النبيذ)**: كتاب في الأحكام الشرعية. لم ينشر(٣).

٩١ ـ **(ذم الزنا)**: كتاب في الأحكام الشرعية. لم ينشر(٤).

٩٢ ـ **(ذم اللواط)**: كتاب في الأحكام الشرعية. لم ينشر(٥).

٩٣ ـ **(ذمّ القوّاد)**: ذكره الشهابي في (طراز المجالس) يبحث في الأحكام الشرعية. لم ينشر(٦).

٩٤ ـ **(ذم أخلاق الكتاب)**: ذُكِرَ باسم (ذم الكُتّاب). عثر على هذه الرسالة في مكتبة نور الدين بك مصطفى. ثم طبعت بالمطبعة السلفية ضمن (ثلاث رسائل للجاحظ) سن ١٣٤٤ هـ(٧).

---

(١) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٥٣.

(٢) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٥) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٦) قاد ـ يقود ـ قائد وجمعها قُوّاد. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة قود ج٣ ص٣٧٠ وربما كان للقواد في عصر الجاحظ مصطلح فني!
«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٧.

(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢. «الجاحظ»: جبر ـ ص٥٩.

٩٥ ـ **(ذم العلوم ومدحها)**: لم ينشر(١). يبدو أنه في ذم العلوم الصناعية وقيودها.

٩٦ ـ **(ذم الوِراقة)**: ذكره ياقوت باسم (الوُرّاق). لم ينشر(٢).

٩٧ ـ **(ذوي العاهات)**: لم ينشر(٣).

٩٨ ـ **(ذكر ما بين الزيدية والرافضة)**: ويتفق مع رسالة (استحقاق الإمامة) كتاب في الفِرَق والآراء. لم ينشر(٤).

٩٩ ـ **(الردُّ على من ألحد في كتاب الله عز وجل)**: كتاب في الجدل والمناظرة. لم ينشر(٥).

١٠٠ ـ **(الردُّ على الجُهَمية)**: كتاب في الاعتزال والكلام. لم ينشر(٦).

---

(١) العلوم: صِنفان: طبيعي، ونقلي، الأول: يهتدي إليه بفكره والثاني يأخذه عمن وضعه. أُنظر البحث: في «مقدمة ابن خلدون»: تحق حجر عاصي ص٢٧٦ ـ ٢٧٧. وكتاب الجاحظ مخطوط في مكتبة الفاتح باسطمبول ٣٨٩٨. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٥.

(٢) انظر فصل في صناعة الوراقة في (مقدمة ابن خلدون) تحق حجر عاصي ص٢٦٨ ـ ٢٦٩ و«معجم الأدباء» ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢ «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٦.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠.

(٤) برزت الرافضة بعد زمان علي رضي الله عنه، وهي أربعة أصناف: زيدية وإمامية وكيسانية وغُلاة. والزيدية من الرافضة، فمعظمها ثلاث فرق وهي الجارودية والسليمانية، والبُتْرية. وهذه الفرق الثلاث يجمعها القول بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في أيام خروجه. وكان ذلك في زمن هشام بن عبد الملك.
«الفرق بين الفرق»: البغدادي. ص٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣.
«الملل والنحل»: الشهرستاني. تحق محمد سيّد كيلاني دار المعرفة بيروت ١٩٨٠ ج١. ص١٣٦.
وانظر «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٠.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٦.

(٦) الجهمية أتباع جهم بن صفوان، الذي قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال.... وزعم أن الجنة والنار تفنيان. وزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط... مزيد من المعلومات في «الفرق بين الفرق»: البغدادي ص٢١١ ـ ٢١٢ وانظر «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨.

١٠١ ـ **(الردّ على القوليّة)**: كتاب في الاعتزال والكلام. لم ينشر[١].

١٠٢ ـ **(الرد على من زعم أن الإنسان جُزء لا يتجزأ)**: كتاب في الفلسفة على رأي المعتزلة. لم ينشر[٢].

١٠٣ ـ **(الرد على أبي إسحاق النظام وأشباهه)**: كتاب في الجدل داخل مذهب المعتزلة. لم ينشر[٣].

١٠٤ ـ **(الردّ على اليهود)**: يبحث في مقارنة الأديان. لم ينشر[٤].

١٠٥ ـ **(الردّ على النصراني واليهودي)**: يبحث في مقارنة الأديان. لم ينشر[٥].

١٠٦ ـ **(الردّ على المُشبِّهة)**: ذكره جبر باسم (الردّ على التشبية)، ينتقد الجاحظ فيه النابتة التي تحرّف آيات القرآن الكريم[٦].

---

(١) ربما المقصود بالقولية بالذين قالوا إن يد الله مغلولةٌ غُلّت أيديهم.
«الفرق بين الفرق»: البغدادي ص٢٧٢ ـ ٢٧٦.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨.

(٣) ومنه نسخة خطبة في المتحف البريطاني ثاني ١١٢٩.
انظر «الفرق بين الفرق»: البغدادي ص١٣١ ـ ١٣٢.
و«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣.
«الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩. «الجاحظ»: الحاجري ص٣٦٦.

(٥) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩.

(٦) المُشبّهة صنفان: صنف شَبَّهوا ذات الباري بذات غيره، وصنف آخرون شَبَّهوا صفاته بصفات غيره. وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف شتى.
«الفرق بين الفرق»: البغدادي ص٢٢٥ ـ ٢٣٠.
والنابتة أو (بني أمية): هو التشيع لمعاوية وآله. انظر الرقم ٣٤ من هذه القائمة.
وانظر «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩. «الجاحظ»: الحاجري ـ ص٣٩٩.

١٠٧ ـ **(الرّدُّ على النصارى)**: يبحث في مقارنة الأديان[١]. راجع الرقم ٨٢.

١٠٨ ـ **(الرَدُّ على العثمانية)**: كتاب في الفرق والآراء. لم ينشر[٢].

١٠٩ ـ **(الرسائل الهاشميات)**: كتاب فيما يسمى اليوم بعلم السياسة. لم ينشر[٣].

١١٠ ـ **(رسائل الجاحظ)**: وعددها اثنتا عشرة[٤]. نشرت

١١١ ـ **(الرَدُّ على أصحاب الإلهام)**: راجع الرقم ١٦ من القائمة.

الـزاي

١١٢ ـ **(الزرع والنخل والزيتون والأعناب)**: أهداه أبو عثمان إلى إبراهيم بن العباس الصولي رئيس ديوان الرسائل في عهد المأمون، فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار. كتاب في النبات والأشجار[٥].

(١) طبع في المطبعة السلفية ١٣٤٤هـ ضمن ثلاث رسائل ونشره فنكل في ثلاث رسائل بالقاهرة عام ١٩٢٦. ومنه نسخة خطية بالمتحف البريطاني ثاني ١١٢٩/٦، انظر «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٢. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩. «الجاحظ»: الحاجري ص٣٥٩.

(٢) العثمانية نسبة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه. يحكي الكتاب حُجج العثمانية من ناحية الخصومة بينهم وبين العلويين وإبطالهم الخصائص التي ينسبها هؤلاء لعلي.
فمثلاً: فليس على أول الناس إسلاماً فأولهم في ذلك أبو بكر. انظر «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧ و«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩١ «الجاحظ»: الحاجري ص١٨٥ ـ ١٨٧.

(٣) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩١.

(٤) «تاريخ آداب اللغة العربية»: زيدان ج٢ ص١٩٥ الحاشية.
«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٩.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٦. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٢.

السـيـن

١١٣ ـ **(السلطان وأخلاق أهله)**: كتاب في السياسة. لم ينشر[١].

١١٤ ـ **(السودان والبيضان)**: لعله كتاب: (رسالة فخر السودان على البيضان)[٢] مطبوع.

١١٥ ـ **(سحر البيان)**: كتاب في البلاغة والأدب[٣].

١١٦ ـ **(سلوة الخريف بمناظرة الربيع والخريف)**: يقال إنه منحول[٤].

١١٧ ـ **(الشارب والمشروب)**: كتاب في الأَحكام الشرعية[٥].

١١٨ ـ **(الشعوبية)**: كتاب في العصبية العرقية[٦].

الـصـاد

١١٩ ـ **(صناعة القُوّاد)**: ربما هو كتاب (القوّاد) نفسه أو (القوّاد وأسباب الصناعات)[٧].

١٢٠ ـ **(الصُّرحاء والهُجناء)**: كتاب في علم الأنساب[٨]. لم ينشر.

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩١.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٦.

(٣) ومنه نسخة خطية في كوبريلي ١٢٨٤.
«تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان مج٢ ص١٩٥.
«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٩.

(٤) طبع ونشر في اسطمبول بمطبعة الجوائب ١٣٠٢هـ وفي بيروت ١٣٢٠هـ.
«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٥٣ «تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان ج٢ ص١٩٥ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٣.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص٢٠٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٦. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٣.

(٦) ذُكر في «البخلاء»: الجاحظ تحق الحاجري ص٢٦٣. وانظر «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٠ «الجاحظ»: الحاجري ص٣٠٠.

(٧) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠ وتلطف بالرجوع إلى الرقم ٩٣ من هذه القائمة.

(٨) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٤. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٤٠.

١٢١ ـ **(صناعة الكلام)**: لعله كتاب (تفضيل صناعة الكلام)[١].

١٢٢ ـ **(الصّوالجة)**[٢].

الـطـاء

١٢٣ ـ **(الطفيليون)**: لم ينشر[٣].

١٢٤ ـ **(طبقات المغنين)**: يبحث في أصوات المغنين[٤].

الـعـيـن

١٢٥ ـ **(العبر والاعتبار)**: راجع الرقم ٦٠ و٨٨ و٨٩.

١٢٦ ـ **(العُثْمانية)**: تَعَرَّض فيه للإمام عليّ بالنقد وَرَدَّ عليه علماء من الشيعة[٥]. راجع الرقم ١٠٨.

١٢٧ ـ **(رسالة في العفو والصفح)**: تبحث في الأخلاق. لم ينشر[٦].

١٢٨ ـ **(عناصر الأدب)**: كتاب في الأدب. لم ينشر[٧].

---

(١) تلطف بالرجوع إلى الرقم ٥٥ من هذه القائمة.
ذكره ياقوت باسم صياغة. «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧.

(٢) الصولجان: العُود المِعْوَجّ. فارسي معرّب والجمع صوالجة: وهو ما يعطف طرفها، وإذا كانت غير معوجة فتسمى عصا. «لسان العرب»: ابن منظور صلج ج٢ ص٣١٠.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠١.

(٤) رسالة في طبقات المغنين ومنه قطعة طبعت بمصر عام ١٣٢٤. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٤. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٤٥.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٥٦ و٦٨. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩١.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٥. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٦. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٩.

١٢٩ ـ **(العِرافة والزَّجْر والفِراسة على مذهب الفرس)**[1].

١٣٠ ـ **(العُرْسُ والعروس)**: كتاب في المعارف العامة[2].

١٣١ ـ **(العِشْقُ والنِّساء)**[3]: نشر.

١٣٢ ـ **(العرب والعجم)**: راجع الرقم ٦٢ من هذه القائمة.

١٣٣ ـ **(العرب والموالي)**: أو (فضل الموالي على العرب)[4].

١٣٤ ـ **(عصام المريد)**[5].

١٣٥ ـ **(العالم والجاهل)**[6].

١٣٦ ـ **(العُرجان والبُرْصان)**[7]: وقد نشر مؤخراً تحت عنوان «البُرْصان والعُرجان والعميان والحولان «بتحقيق محمد مرسي الخولي. مؤسسة الرسالة بيروت ط١. ١٩٧٢ وط٢. ١٩٨١. وعدد صفحاته ٤٤٥ص. ونشر أيضاً بدار الاعتصام للطبع والنشر القاهرة ـ بيروت. طبع في مطابع الأهرام التجارية ١٩٧٢ ونشرته وزارة الثقافة العراقية بنفس العنوان سنة ١٩٨٢، تحق محمد عبد السلام هارون، وعدد صفحاته ٦٨٦ص.

١٣٧ ـ **(العَبَّاسية)**: راجع الرقم ٣٥ من هذه القائمة.

---

(١) ومنه نسخة في ليدن أو ١٢١٠ «تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان. ج٢ ص١٩٥. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠.

(٢) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠.

(٣) طبعت هذه الرسالة في رسائل الجاحظ. وهي أصل (رجوع الشيخ إلى صباه). ومنه نسخة خطية في المتحف البريطاني ثاني (١١٢٩ : ٦).
«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٥. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠.

(٤) هكذا ذكره ابن عبد ربه في «العقد الفريد»: ابن عبد ربه الأندلسي. تحق أحمد أمين وغيره. دار الكتاب العربي ـ بيروت ط٣. مج ٢ ص٧٤.
«أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٥. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٤.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠.

(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٥. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٨. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠.

الغـــيـــن

١٣٨ ـ **(غِش الصناعات)**: كتاب يبحث فيما يسمى اليوم بعلم الاقتصاد. لم ينشر[(١)].

١٣٩ ـ **(الغلمان)**[(٢)].

١٤٠ ـ **(الغِناء والمُغنون والصفة)**: يبحث في المعارف العامة[(٣)]. وخاصة في أنواع الأصوات الغنائية وطبقاتها وأسمائها.

الـــفـــاء

١٤١ ـ **(الاعتزال وفضله)**: راجع الرقم ٢١ من هذه القائمة.

١٤٢ ـ **(فضيلة الكلام)**: كتاب في الاعتزال والكلام[(٤)].

١٤٣ ـ **(فرط جهل الكندي)**: كتاب في الجدل والمناظرة[(٥)].

١٤٤ ـ **(الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم)**: كتاب في المنافرة. لم ينشر. ويسميه السندوبي: فخر عبد شمس ومخزوم[(٦)].

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٦. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٨. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥.

(٢) «الجاحظ»: جبر ص٦٨.

(٣) ألفه الجاحظ سنة ٢١٥هـ ويسمى أيضاً (طبقات المغنيّن) راجع الرقم ١٢٤ من هذه القائمة وانظر «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠١.

(٤) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٨ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩.

(٥) الكندي: فيلسوف عربي ٢٥٣هـ/ ٨٦٦م. ويسميه ياقوت (فرط جهل يعقوب بن إسحاق الكندي) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٠.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٦. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٢. «الجاحظ»: جبر ص٦٩.

١٤٥ ـ **(فخر هاشم وعبد شمس)**: كتاب في المنافرة[١].

١٤٦ ـ **(الفصل ما بين العداوة والحسد)**: كتاب في الأخلاق[٢].

١٤٧ ـ **(الفرق في اللغة)**[٣].

١٤٨ ـ **(فضل اتخاذ الكتاب)**: وذُكِرَ «الكتب» بدل «كتاب»، لأن الجاحظ مدح فيها الكُتب وحثَّ على جمعها[٤].

١٤٩ ـ **(فضل العلم)**: كتاب في المعارف العامة[٥].

١٥٠ ـ **(فنون شتى مستحسنة)**: كتاب في المعارف العامة[٦].

١٥١ ـ **(فضائل الترك)**: يبحث في فضائل العرق التركي[٧].

١٥٢ ـ **(فخر السودان على البيضان)**[٨]: انظر الرقم ١١٤ من هذه القائمة.

١٥٣ ـ **(فرق ما بين الجن والإنس)**[٩]: يبحث في المخلوقات المرئية وغير المرئية.

١٥٤ ـ **(فرق ما بين الجن والملائكة)**[١٠]: يبحث في الفرق بين النوعين.

---

(١) هو كتاب (فضل هاشم على عبد شمس) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٦ «الجاحظ»: جبر ص٦٦. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٢.

(٢) «الجاحظ»: جبر ص٦٤. «الجاحظ»: الحاجري ص٣٧٣. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

(٣) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٩.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٩.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠.

(٦) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠١.

(٧) ومنه نسخة مطبوعة في آيا صوفيا سنة ١٨٩٨.
«تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان ج٢ ص١٩٥.

(٨) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٦ «الجاحظ»: جبر ص٦٢. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٤١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٤.

(٩) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٥.

(١٠) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٥.

١٥٥ ـ **(فرق ما بين النبي والمتنبي)**[١]: أو كتاب (النبي والمتنبي) يبحث في القصائد.

١٥٦ ـ **(فضل ما بين الرجال والنساء)**[٢].

١٥٧ ـ **(فضل الفرس على الهِملاج)**[٣].

١٥٨ ـ **(فضائل سلالة النبي)**[٤]: يبحث في فضائل السادة الأشراف.

١٥٩ ـ **(الفِتيان)**[٥].

١٦٠ ـ **(فخر القحطانية والعدنانية)**[٦]: في المنافرة والعصبية.

١٦١ ـ **(الفُتيا)**[٧]: راجع الرقم ٢٤ من هذه القائمة.

القاف

١٦٢ ـ **(القحاب)**[٨].

١٦٣ ـ **(القحطانية والعدنانية)**[٩]: راجع الرقم ١٦٠ من هذه القائمة.

---

(١) بالإضافة إلى المرجعين السابقين للسندوبي والخفاجي: انظر «الجاحظ»: جبر ص٦٨.

(٢) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٦. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٧.

(٣) الهِملاج: هو البرذون السهل القياد. ذكره ياقوت (فضل الفرس). (وعلى الهِملاج) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٦.

(٤) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٨.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٦) «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٧) «الفرق بين الفرق»: البغدادي ص١٧٧. وفيه يقول إن الكتاب مشحون بطعن أستاذه النظام على أعلام الصحابة.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «الجاحظ»: الحاجري ص٣١١.

(٨) قحب، يقحُبُ، قُحابا إذا سعل وأصله في الأبل. والقَحبة تقال للبغيّ لأنها كانت في الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها وهو سُعالها. وقيل: الفاجرة.
«لسان العرب»: ابن منظورقحب مج١ ص٦٦١ ـ ٦٦٢. وذكره الخفاجي باسم (القحاب والكلاب واللاّطة) لأن البغدادي في «الفرق بين الفرق»: ذكره بهذا الاسم في ص١٧٧.

(٩) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٨. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٣٠.

١٦٤ ـ (القضاة والولاة)[1]: يبحث في التنظيم القضائي والإداري.

١٦٥ ـ (القلم)[2]: رسالة في الأدب. لم تنشر.

١٦٦ ـ (القُوّاد)[3]: انظر الرقم ٩٤ من هذه القائمة.

١٦٧ ـ (القِيان)[4]: رسالة متخصصة في القيان.

١٦٨ ـ (القُرآن)[5]:

الكاف

١٦٩ ـ (الكِبْرُ المُسْتَحْسَنُ والمُسْتقبح)[6]: يبحث في المعارف العامة.

١٧٠ ـ (كتمانُ السر وحفظ اللسان): ذكره ياقوت باسم (كتمان السر) يبحث في الأخلاق والمجتمع[7].

١٧١ ـ (الكَرَم): رسالة بعث بها الجاحظ إلى أبي الفرج بن نجاح. تبحث في الأخلاق والمجتمع[8].

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٨.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٩.

(٣) لعله الكتاب الذي نشره القاضي شهاب الدين الخفاجي في كتاب طراز المجالس باسم (القواد وأسباب الصناعات) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٤) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٥٨. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٥١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

(٥) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٠.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

(٨) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٤.

١٧٢ ـ (**الكيمياء**): رسالة في المعارف العامة. لم تنشر[١].

١٧٣ ـ (**الكِلاب**)[٢]: ذكره البغدادي باسم (القحاب والكلاب واللاطة). راجع الرقم ١٦٢ من هذه القائمة.

اللام

١٧٤ ـ (**اللصوص**)[٣]: متخصص باللصوص. ذكره البغدادي باسم (حيل اللصوص) راجع الرقم ٧٧و ٧٨ من هذه القائمة.

١٧٥ ـ (**اللاشي والمتلاشي**)[٤]: زعموا أنه في الاعتزال والكلام.

الميم

١٧٦ ـ (**المُغَنُّون**): لعله كتاب (طبقات المغنين). راجع القرم ١٢٤ من هذه القائمة.

١٧٧ ـ (**المحاسن والأضداد**): قيل إنه منسوب إلى الجاحظ[٥].

١٧٨ ـ (**مناقب الترك وعامة جند الخلافة**)[٦].

١٧٩ ـ رسالة في (**مَنْ يُسمّى مِنَ الشُّعَراءِ عمراً**): لم تنشر[٧].

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠١.

(٢) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٩.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٤) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨.

(٥) «ما زال الجدل قائماً حول نسبته. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٥٥ ـ ١٥٨. «تاريخ آداب اللغة العربية» جرجي زيدان. ج٢ ص١٩٥. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٦) ذكره ياقوت باسم (مناقب جند الخلافة وفضائل الترك). وربما هو كتاب (فضائل الترك) نفسه راجع الرقم ١٥١ من قائمتنا. وضعه الجاحظ لإرضاء المعتصم الذي اتخذ من الترك عامة الجند وولاهم، إرضاءً لأمّه التركية، حتى كاد ديوان الجند في عهده يخلو من اسم عربي. «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧/١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٢. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٥. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٩٣. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٤.

(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٣. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠.

١٨٠ ـ رسالة في (موت أبي حرب الصفار البصري): لم تنشر[١].

١٨١ ـ (المُختار من كلام الجاحظ وحِكَم علي)[٢].

١٨٢ ـ رسالة في (الميراث): تبحث في علم الفرائض والمواريث. لم تنشر[٣].

١٨٣ ـ (المخاطبات في التوحيد): كتاب يبحث في علم الكلام. لم ينشر[٤].

١٨٤ ـ (مدح التّجارة وذم عمل السلطان): كتاب يبحث في ما يسمى اليوم بعلم الاقتصاد. نشر عام ١٣٢٤هـ[٥].

١٨٥ ـ (مَدْحُ الكُتَّاب): لم ينشر[٦]. وهو غير كِتاب (ذم الكُتَّاب) المُشار إليه تحت رقم ٩٤ من هذه القائمة.

١٨٦ ـ (مدح النبيذ): رسالة في الأحكام الشرعية[٧]. وهو غير كتاب (ذم النبيذ). راجع الرقم ٩٠ من قائمتنا.

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٣. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٨.

(٢) «تاريخ آداب اللغة العربية»: جرجي زيدان. ج٢ ص١٩٥. من الواضح أن شخصاً قد اختاره من نفائس كلام الجاحظ والإمام علي، ولا يجوز لزيدان أن ينسبه للجاحظ كمؤلَّف قائم بذاته.

(٣) انظر آية الميراث: (فريضة من الله) سورة النساء، الآية: ١١. و«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١١٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٣. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٦.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٣٩. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩.

(٥) وذكر باسم (مدح التُجار...... «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٥. «الجاحظ»: الحاجري ص٢٨٤. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠.

(٧) رسالة أهداها الجاحظ إلى الحسن بن وهب. «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٦.

١٨٧ ـ (مدح الوِرَاقة): متخصص في الوراق. انظر الرقم ٩٦ من قائمتنا[١].

١٨٨ ـ (المُزاح والجِد): لم ينشر[٢].

١٨٩ ـ (مسائل القرآن): بَحْث في القرآن الكريم. لم ينشر[٣].

١٩٠ ـ (المسائل): كتاب في الاعتزال والكلام[٤].

١٩١ ـ (مسائل العثمانية)[٥]: انظر الرقم ١٢٦ من هذه القائمة.

١٩٢ ـ (مسائل كتاب المعرفة): كتاب في الاعتزال والكلام. لم ينشر[٦].

١٩٣ ـ (المضاحيك): أو (مضاحيك البغدادي)[٧] كتاب في فن الأقصوصة.

١٩٤ ـ (المعاد والمعاش)[٨]: كتاب يبحث فيما يسمى اليوم «علم الاقتصاد».

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٦.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٠. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «الجاحظ»: الحاجري ص٣٢٦. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٦. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٤) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٠. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٩.

(٥) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٠.

(٦) ويطلق عليه اسم (المعرفة). انظر (أدب الجاحظ) السندوبي ص١٤٠.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٧) «الفرق بين الفرق»: للبغدادي ص١٧٣. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٤.

(٨) ويسميه الخفاجي (المعاد والمعاش في الأدب وتدبير الناس ومعاملتهم). راجع «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٨. «الجاحظ»: الحاجري ص٣٢٧.

١٩٥ ـ **(المعادن)**: كتاب متخصص في المعادن[١].

١٩٦ ـ **(معارضة الزيدية)**: كتاب في الجدل والمناظرة[٢].

١٩٧ ـ **(المَعْرِفة)**: راجع الرقم ١٩٢.

١٩٨ ـ **(المُعلمون)**: كتاب في الفضائل والأدب[٣].

١٩٩ ـ **(المُغنون والغِناء والصنعة)**: راجع الرقم ١٤٠ و١٧٦. ويسميه ياقوت (المُقَيِّنين)[٤].

٢٠٠ ـ **(مفاخرة السودان والحمران)**: راجع الرقم ١١٤.

٢٠١ ـ **(مفاخرة المسك والرماد)**: كتاب في الأدب[٥].

٢٠٢ ـ **(المُلَحُ والطُرَف)**: كتاب في فن الأقصوصة[٦].

٢٠٣ ـ **(الملوك والأمم السالفة والباقية)**: كتاب في التاريخ. لم ينشر[٧].

٢٠٤ ـ **(المعارف)**: راجع الرقم ١٩٧.

٢٠٥ ـ **(مسائل وجوابات المعرفة)**: كتاب في الاعتزال والكلام[٨].

٢٠٦ ـ **(المودة والخلطة)**: رسالة موجهة إلى أبي الفرج الكاتب ـ تبحث في الأخلاق الاجتماعية[٩].

---

(١) ويسميه الخفاجي (المعادن والقول في جواهر الأرض). «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤١.

(٢) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤١.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٠. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤١. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤١. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٨.

(٥) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٦.

(٦) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤١. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٤.

(٧) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٢. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠.

(٨) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨.

(٩) «ومنه نسخة خطية بالمتحف البريطاني (ثاني ١١٢٩: ١١). انظر «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥.

٢٠٧ ـ **(مائة مثل من أمثال علي)**: كتاب في الأدب(١).

٢٠٨ ـ **(مقالات الزيدية والرافضة)**: راجع الرقم ٩٨.

٢٠٩ ـ **(مناظرة بين الخؤولة والعمومة)**: كتاب في الأدب(٢).

النـــون

٢١٠ ـ رسالة في **(نفي التشبيه)**: تبحث في الاعتزال والكلام(٣).

٢١١ ـ رسالة في **(النابتة)**: راجع الرقم ٣٤.

٢١٢ ـ **(النُبْلُ والتَّنبُّل وذم الكبر)**: كتاب في الأخلاق الاجتماعية(٤).

٢١٣ ـ **(النواميس في حيل أهل الغش والتدليس)**: كتاب يبحث في ما يسمى اليوم، بعلم الاقتصاد وغش الصناعات(٥).

٢١٤ ـ **(النرد والشطرنج)**: كتاب في المعارف العامة. لم ينشر(٦).

٢١٥ ـ **(النّغل)**: كتاب في المعارف العامة(٧).

٢١٦ ـ **(نوادر الحَسَنْ)**: كتاب في القصص. لم ينشر(٨).

٢١٧ ـ **(النبُّوات)**: كتاب في الجدل(٩).

---

(١) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٩.
(٢) نفسه ص٣٠٦.
(٣) نفسه ص ٢٨٨.
(٤) نفسه ص٢٩٤.
(٥) نفس ص ٢٩٦..
(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠١. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٣. «الجاحظ»: جبر ـ ص٧٠.
(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٦. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠١. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٣.
(٨) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٤. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.
(٩) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٥.

٢١٨ ـ **(نقْضُ الطب)**: كتاب في نقض المسلمات الطبية بطريقة أدبية. لم ينشر[١].

٢١٩ ـ **(النساء)**: لعله كتاب (العشق والنساء). راجع الرقم ١٣١.

٢٢٠ ـ **(الناشي والمتلاشي)**: لعله كتاب (اللاشي والمتلاشي). لم ينشر راجع الرقم ١٧٥[٢].

٢٢١ ـ **(النواميس)**[٣].

٢٢٢ ـ **(النصراني واليهودي)**[٤]: يبحث في مقارنة الأديان.

الـــواو

٢٢٣ ـ **(وجوب الإمامة)**[٥]: يبحث في العقائد وعلم السياسة.

٢٢٤ ـ **(الوعد والوعيد)**: سمّاه ياقوت (بالوعيد). يبحث في المعارف العامة[٦].

٢٢٥ ـ **(الوكلاء والموكِّلين)**: ويسمى كتاب (الوكلاء). يبحث في الاقتصاد. لم ينشر[٧].

٢٢٦ ـ **(وصف العوام)**: رسالة في الأخلاق والمجتمع[٨].

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩ «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٣٠٦ «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٣. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩.

(٣) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٤.

(٤) المرجع نفسه ص١٤٣.

(٥) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٤. «الجاحظ»: الحاجري ص١٩٨.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٨. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨٨. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٩. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٤.

(٧) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٧. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٦. «الجاحظ»: جبر ـ ص٦٨. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٤.

(٨) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٥.

الـهـاء والـيـاء

٢٢٧ - **(الهدايا)**: منحول[١].

٢٢٨ - **(اليتيمة)**: رسالة في السياسة. لم تنشر[٢].

* * * * *

هذه المؤلفات الكثيرة المتنوعة، حصلنا على أسمائها من مراجعنا المتوافرة. قيل: إن مؤلفات أبي عثمان بلغت حدود الثلاثماية والستين مؤلفاً[٣]. ولم نوفق إلا بالأسماء التي أثبتناها في قائمتنا، ذلك يعني جهل أسماء أكثر من مئة واثنين وثلاثين كتاباً أو مصنَّفاً.

وقد ضاع أيضاً معظم الكتب التي عرفنا أسماءها، ولم يبق إلا القليل الأقل؛ وهذا الأقل حفظ لأبي عثمان، مكانته المتفوقة حتى اليوم، مما يعني، أنها تحوي، غزارة العِلْم وتنوعه، وطول باعه في معالجة فنون الكلام، والجدل والوصف والنقد والتحليل والاستطراد... تناول كل شيء تقريباً فهو مرآة عصره وديوان فكره ونتاجه الحضاري.

وقد يجف القلم عند الكلام عن الجاحظ، لأن كتبه تجدد شبابها مع كل جيل لتكون هادية ومعلمة ومثقِّفة ومربية.

وإذا رأينا في القائمة التي أثبتناها، كتباً متشابهة في الأسماء أو معادة ومكررة، فإثباتها ضروري، في رأينا، من باب التحقيق والبحث العلمي الأمين خوف الضياع واللبس. وما هي إلا باب فتحناه أمام من ينشد البحث للبحث، وتجدر الإشارة إلى أن نسبة ما نشر من كتب الجاحظ المعروفة لا تتعدى العشرة في المئة. وإليك ثبتاً بأسمائها وأرقامها حسب ورودها في قائمتنا:

---

(١) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٥٨. «الجاحظ»: جبر - ص٦٩.

(٢) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص١٠٩. «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٩٢. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٤٤. «الجاحظ»: جبر - ص٧٠.

(٣) «الحيوان»: الجاحظ تحق عبد السلام هارون ج١ ص٥ مقدمة المحقق.

الرقم في القائمة	اسم الكتاب	الرقم في القائمة	اسم الكتاب
١٠	أخلاق الملوك	٨٨	الدلائل والاعتبار على خلق الآثار
٣٠	رسالة في (استنجاز الوعد)	٩٤	ذم أخلاق الكتاب
٤٢	البخلاء	١٠٧	الرد على النصارى
٤٤	البيان والتبيين	١١٠	رسائل الجاحظ
٤٨	البغال ومنافعها	١١٦	سلوة الخريف بمناظرة الربيع والخريف
٤٩	رسالة التربيع والتدوير	١٢٤	طبقات المغنين
٥٢	تفضيل النطق على الصمت	١٣١	العشق والنساء
٥٧	تهذيب الأخلاق	١٣٦	العرجان والبرصان
٦١	التبصر بالتجارة	١٥١	فضائل الترك
٨٠	حجج النبوة	١٦٦	القوّاد
٨١	الحجاب وذمه	١٨٤	مدح التجارة وذم السلطان
٨٣	الحيوان		

٥ ـ أسلوبه ونقدُه

لكل أديب تصور ذهني يترجمه بألفاظ وجمل وتراكيب ذات معان، يرتاح لها، حتى يوصل أفكاره إلى القارىء. وهذه الطريقة تدعى بالأسلوب.

فالأسلوب لغة هو الطريق والوجهة[1]، وهو خطة الأديب التي يشد بها القارىء ليبسِط له ما يريد ويقصد. (وينقل أحمد الشايب في كتابه «الأسلوب»، نصاً لابن خلدون، يؤكد فيه هذا الأخير علاقة كل من اللفظ والمعنى

(١) كل طريق ممتد هو أسلوب، وقيل هو الوجهة والمذهب. وأساليب القول: أفانينه. وفي رأينا طريقة عرض الكاتب ما في نفسه وأفكاره إلى الناس، نهج وطريق. هو أسلوب. راجع «لسان العرب»: ابن منظور مادة سلب. مج١ ص٤٧٣.

بالأسلوب. وأهم من ذلك كله «أن الأسلوب في الأصل صورة ذهنية تتملأ بها النفس وتطبع الذوق، من الدراسة والمِران، وقراءة الأدب الجميل، وعلى مثال هذه الصورة الذهنية تتألف العبارات اللفظية الظاهرة التي اعتدنا أن نسميها أسلوباً لأنها دليله وناحيته الناطقة الفصيحة»[1].

وسمِّي الأسلوب كذلك، لأنه يسلب (يأخذ) من الكاتب شخصيته ولون نفسه ليبسطها إلى الناس. لذلك قيل: الأسلوب هو الرجل أو (الشخصية)، من هنا نرى الفرق بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي، وبالتالي الفرق بين العالم والأديب والفرق بين الأدب الإنشائي والأدب الوصفي، لأن الأدب الإنشائي، من روايات وقصص ومسرح وشِعْر بألوانه، ونثر بفنونه، يكون موضوع الأدب الوصفي ونقده.

«والنقد، كلمة تستعمل عادة بمعنى العيب» ـ كما يقول الدكتور أحمد أمين[2] وأصلها من نقد الدراهم أي معرفة جيدها من رديئها، فهو إذاً تمييز جيد الشيء من رديئة. وهو يلي الأثر الأدبي لأنه يتخذه موضوعاً له؛ فيقوم بتقديره وبيان قيمته ومستواه، بين أمثاله من الآثار الأدبية. وقد وجد النَّقد منذ وجد الأدب، فلم يكدِ الشاعر الأول أو الخطيب الأول، يلقي بكلماته حتى بانت على وجه السامع انطباعات وملامح، هي صدى تأثره، ولم يلبث أن أبدى استحسانه أو استهجانه بشتى الوسائل. وهذه أولى خطوات النقد الأدبي.

ولا يخفى أننا لا نعني بالنقد الذم والاستهجان، ولا المدح والاستحسان بل تقويم المؤلفات الفكرية، بالكشف عن مواضع الجمال وتحليلها وتعليلها وهو روح كل دراسة أدبية، لأنه يعلل ويحلل الجمال.

لذلك قال سانت باف (Sainte Beuve): الناقد من يحسن القراءة ويحسن

---

(١) عن كتاب «صفي الدين الحلي»: للدكتور ياسين الأيوبي. ط١ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧١ ـ ص١٦٩.

(٢) «النقد الأدبي»: أحمد أمين. ج١ ط٤ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧ ج١ ص١٧.

تعليمها للغير(١). فالكاتب موضوعه الحياة والناقد موضوعه الحياة من خلال ما كتب الأديب. وبمقدار ما يكون الناقد ناجحاً، يمكن أن يتحرر من عواطفه. من هنا صعوبة وجود الناقد الناجح.

ويعتبر النقد الأدبي عاملاً بعيدَ الأثر في حياة الأديب وبعثها من سكونها إن كانت ساكنة، وتوجيهها إلى الأهداف الإنسانية السامية، من خير وحق وجمال إن حاولت الانحراف.

كما يتناول النقد الأدبي كل ما يتصل بالنص الأدبي وما فيه من معان وأسلوب فَيُعنى بالجُزئيات اللغوية والنَّحْوية، كما يُعنىٰ بالأفكار وأهدافها القريبة والبعيدة، ومدى قدرة النص واستعداده لتحقيق هدفه.

ثم ينتقل النقد إلى وزن الأثر الأدبي، فيبحث في قيمته، وصلته بعقل كاتبه وعواطفه، ومزاجه، وموهبته وبيئته وعصره وثقافته، فيضيء الأثر الأدبي ويظهر محاسنه، أو يساعد على تخليصه من الشوائب. وعند ذلك نحسن الحكم ونطمئن إلى التقدير.

وينبغي لمن يتولى هذه المهمة أن لا يكتفي بأدوات الناقد القديم، من معرفة باللغة والنحو والبلاغة فحسب، لأنه بذلك يكشف عن خطأ اللفظة أو اكتشاف ركاكة العبارة، بل عليه أن يتسلح بثقافة عامة تجعله في مستوى يؤهله فهم الأثر الأدبي حتى لا يغيب عنه جانب من جوانبه، وإلى جانب هذه البديهيات، يجب عليه أن يكون ذا شخصية تتمتع بالذوق والذكاء والشجاعة، وتُلِم بعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة والمنطق، وتاريخ الفكر، وتعتمد

---

(١) ترجم الدكتور أحمد أمين كلمات سانت باف على الشكل التالي: أن تعرف كيف تقرأ كتاباً قراءة جيدة دون أن تتوقف عن مواصلة تذوقه، ذلك هو كل فن النقد تقريباً... ويعقب الأستاذ أمين: إن الميزة الكبرى التي يمتاز بها باف ذكرها بنفسه شارحاً: وهي أن المهمة الأولى والأخيرة للناقد هي أن يقرأ فيفهم، فيُحب، فيقدِّر، ثم يُسهِّل للآخرين ما قرأه وما فهمه وما أحبه.
«النقد الأدبي»: أحمد أمين ج٢ ص٣٦٧ ـ ٣٧٠.

على علم الجمال وإلى غيره من العلوم، لِتهدي القرّاء إلى الآثار الخالدة.

غير أن مفهوم النقد الأدبي قد تغير عما كان عليه في زمن الجاحظ، بحيث كان الحكم على الآثار الأدبية، يعتمد مقاييس أخرى ويسلك سبلاً أكثر بساطة. كانوا يحصرون نظرتهم في العبارات نفسها، هل تتكون من ألفاظ فصيحة وجمل صحيحة ذات معان واضحة؟ وهل تدل على طبع أو تكلّف؟ أو على جِدّةٍ أم تقليد؟

النقد يومئذ كان فناً يمارسه الكُتّاب على هواهم. مستعينين بخبرتهم الشخصية وفهمهم الذاتي، لذا يُعَدُّ الجاحظ مؤسس علم البلاغة العربية التي يقوم النقد على كثير من أصولها.

فهو أول من جمع ما يتصل به من كلام سابقيه ومعاصريه وبسطه بعد أن أضاف عليه ما عَنّ له من آراء، وقلّما نجد بلاغياً أو ناقداً لم يفد من توجيهاته وكتاباته.

(كان الجاحظ شيخاً للنقاد وإماماً للأدباء، وأستاذاً للمتكلمين، وفيلسوفاً من فلاسفة الإسلام، لا ينكر أحد فضله على النقد الأدبي وتأسيس مبادئه ووضع أصوله، فاضل بين الشعراء وتكلم في الطبع والتكلف، وبيّن أقدار الألفاظ والمعاني وتحدث عن العاطفة وأولية الشعر، والتوليد فيه، وصنّف مذاهب الشُعَراء بعبارات تنم عن وقع الشعر في نفسه)[1].

كانت غاية الجاحظ الدفاع عن العرب ضد الشعوبية. وطريقته في الكتابة قادته إلى البحث البياني والبلاغي والشعر والخطابة.

ففي تضاعيف كتاب «البيان والتبيين» وغيره، نجد آراءه في النقد الأدبي ولكنها لا تشكل على الغالب إطاراً شافياً لأنَّها نقدات عابرة.

(١) عن كتاب (في النقد الأدبي عند العرب) د. درويش دار المعارف مصر ١٩٧٩ ـ ص١٥٢ عن كتاب «أرسطوطاليس في الشعر»: ص٢٤٨.

وسنذكر شيئاً من آرائه بإيجاز، دون أن نتعرض لها بالتوسع، تاركين ذلك لحينه إن شاء الله.

وأول ما نراه، يمكن أن نسمّيه بالأدب الجيد. لأنه يرى أنَّ المعاني في متناول الجميع، ولا يكفي المعنى أن يكون شريفاً حتى يكتسب به الكلام صفة البلاغة، وإنّما الأسلوب المحكم بكل عناصره هو الذي يجلوه ويضفي عليه من نعوت البلاغة، وبالتالي يحدث تأثيره في النفوس(١).

لقد أراد أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال. وهذا من أصول البلاغة(٢). فالجاحظ حريصٌ على الطبع نَفُورٌ من التكلف، لا يحب أن يكون اللفظ ساقطاً سوقياً أو وحشياً غريباً(٣). ولكنه يرى أن الإعراب (بالكسر) يفسر نوادر المولدين كما أن اللحن يفسر كلام الأَعراب (بالفتح)(٤).

والحقيقة أن الألفاظ خدم للمعاني، وضعت للدلالة على الأفكار. فلولا الفكرة ما كان اللفظ. وحُسْنُ اللفظ يستلزم حُسْنَ المعاني. والجاحظ لم يُرَجِّح جانب الألفاظ من حيث هي ألفاظ، وإنّما يُرَجِّحها من حيث ائتلافُها مع معانيها وانسجامها مع ضخامتها، وهذا ما عبَّر عنه أحياناً بالسَبْك وأحياناً بالصياغة(٥).

ويُعَدُّ الجاحظ من أوائل من تطرق إلى السرقات الشعرية بعين الناقد البصير. وفي معرض رأيه في الشعر يرى شعر العرب أفضل من شعر المولدين، كما نقد النَّحْويين الذين لا يهتمون إلا إلى إعراب الكلمة(٦). وقد حاول التحقيق

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب»: د. عبد العزيز عتيق. ط٣ دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٤ ص٣٢٧.

(٢) انظر «الحيوان»: تحق هارون. مج ٤ ص٩٠.

(٣) «القاضي الجرجاني والنقد الأدبي»: د. عبده قلقيله. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ - ص١٤٤.

(٤) «الحيوان»: مج١ ص٢٨٢.

(٥) «في النقد الأدبي عند العرب»: د. درويش ص١٥٧ ـ ١٥٨.

(٦) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٢٤.

الأدبي. وذلك في خطبة لمعاوية نسبها إلى علي بن أبي طالب وأقام عليها الحُجَّة(١).

والتحقيق الأدبي، كما هو معلوم، فرع من فروع النقد الأدبي.

سار الجاحظ في حديثه عن أولية الشعر، كما سار في كلامه على المنتحل، ليصل في النهاية إلى طريقةٍ تُصَوِّرُ مَنْهجه في نقض بعض الآراء الأدبية العامة(٢).

ونَبَّه إلى العاطفةِ وأثرها في الأدب، وذلك عند تحدثه عن المراثي. كما دعا إلى البعد عن الهوى والمحاباة في النقد الأدبي(٣)، حتى يكون النقد موضوعاً معللاً بعيداً عن التعصب والتزام الحياد بين آراء القدماء وآراء المعاصرين له. لا يحب (الجاحظ) التكلف، وخاصة بالشعر، لأنه يعدّه افتعالاً للفظ والموضوع. وهذا أقرب إلى الزيف منه إلى الصدق الفنيين، ولم يخلط بينه وبين التجويد الفني(٤).

وربما استعمل كلمة بديهة مرادفة لكلمة الارتجال:

«وكانوا أُميّين لا يكتبون ومطبوعين لا يكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وهم عليه أقدر»(٥).

فاستعمال اللفظتين بمعنى واحد غير مستحب، لأن بينهما فرقاً دقيقاً بَيِّناً، الارتجال غير معدّ ذهنياً والبديهة تتصف بالروية والتفكير(٦).

ونحمِل قوله على التغليب لا التعميم. ونراه يهتم بالأسلوب وقصر الصور

---

(١) المرجع نفسه مج٢ ص٥٩ ـ ٦١.

(٢) «الحيوان». تحق هارون مج٦. ص٨٩ و٩٠.
و«في النقد الأدب عند العرب»: د. محمد طاهر درويش ص١٥٤.

(٣) «القاضي الجرجاني والنقد الأدبي»: د. قلقيلة ص١٤٦.

(٤) «الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم»: د. عثمان قوافي. ط٢. دار المعرفة الجامعية. مصر ١٩٨٤ ص١٧٥ ـ ١٧٦.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون ج٣ ص٢٨.

(٦) «لسان العرب»: ابن منظور ج١٣ ص٤٧٥ ج١١ ص٢٧٠.

البلاغية على العرب. لم يستطع الجاحظ أن يتخلى عن عصره لأنه كان ينظر إلى الأثر الأدبي نظرة جزئية. فهو يحكم على الشاعر من خلال بيت، ويهتم بالأسلوب أكثر من المعنى. وبمعنى آخر لم يميز بين النقد والبلاغة والبيان، فهي مترادفات تدل على معنى واحد عنده. اشترط في فصاحة الكلمة سلامتها من تنافر الحروف، واهتم بالبيان اهتماماً واضحاً، لكنه لم يثبت له على تعريف واحد، ويعرض لبعض مباحثه بمعناه الاصطلاحي ويطلق عليه اسم البديع[١]، كما يعرض للتقسيم[٢]، ويرى أن الاستعارة تكسب الكلام طلاوة وتلبس الأسلوب خيالاً[٣].

وأفصح عن الكتابة[٤]، وعَرَّف الإيجاز[٥]، وذكر المجاز[٦] وغير ذلك من فنون البلاغة، التي سنعرفها في حينه إن شاء الله.

واهتدى إلى مبدأ: أن اللفظ لا يسقط والمعنى لا يبور حتى يصلح لمكان من الأماكن[٧].

كَتَبَ الجاحظ إلى الناس جميعاً، على اختلاف ثقافاتهم ومداركهم لا إلى طائفة مختصة فهو عاميّ خاصيّ.

وإذا قرأت شيئاً من علومه حسبت أنه واضع هذا العلم ومُخْرِجُه، يتلاعب بقارئه كما يشاء، بلغة متينة صحيحة جزلة صافية، وجملة قصيرة موجزة، وبلاغة فذة مستحدثة، وبيان ناصع سهل. يشد القارىء إليه شداً لأنه لا يُحس

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥١ وج٤ ص٥٥.

(٢) المصدر نفسه. ج١ ص٢٤٠.

(٣) حين جعل للسحاب عينين وجعلّ المطرّ بكاءً للسحاب على طريق الاستعارة.
انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥٢.

(٤) المصدر نفسه. ج١ ص٨٨.

(٥) «الحيوان»: تحق هارون ج٣ ص٨٦.

(٦) سألتني عن أُناس أكلوا ... شربَ الدهرُ عليهم وأكل
وهو كلمة مجاز «الحيوان»: هارون ج٥ ص٢٨.

(٧) «القاضي الجرجاني والنقد الأدبي»: د. قلقيلة ص١٤٨.

في جملته عسراً، بل يجد يسراً في الفهم ومرونة وفوقها موسيقى تلذ العقل والشعور والأذن معاً وجملة تناسب الموضوع(١).

يثقف قارئه ويطربه ثم يضحكه ويرهبه، وتارة يبكيه ويُخْشِع فؤاده، ثم يُرْجعه إلى الجِدّ ويدفعه إلى التفكير والتأمل من جديد حتى إذا أنهكه بسط له نادرة أو فكاهة تريح أعصابه.

وهذا الأسلوب المحدث لم يكن معروفاً بين كتاب عصره أو فيمن سبقوه. فالعمل الأدبي أساسه الدقة في اختيار الكلمة ووضعها في موضعها. وكل كلمة من كلمات الجاحظ لها إيحاء معيَّن لا تنسجم إلا معه، ونكهة خاصة مميَّزة يحسن اختيارها من بحره، ليتم رسم صورته الزاهية، كما يختار الفنان ألوانه.

إنشاؤه سلس، على متانة في السبك، بعيد عن التصنع غالباً، ولا يهتم بالتزويق اللفظي والتنميق البلاغي.

قال بديع الزمان الهمذاني ت٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م في وصف كلامه: «فهو بعيد الإشارات قليلُ الاستعارات، قريبُ العبارات، منقادٌ لعُريان الكلام يستعملُه، نفورٌ من مُعْتاصِهِ يُهْمِلُه، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمةً غيرَ مسموعة»(٢).

وأسلوب الجاحظ في كل ما كتب صورة لجلال ذوقه الأدبي. وضع فيه الألفاظ في مواضعها، وأسبغ على الجملة روعة البلاغة وحسن النظم. وكان هدفه الإفهام والوضوح بأداء فني جليل بعيد عن الخشونة والغرابة والتعقيد. شعاره: لكل مقام مقال.

---

(١) النقد الأدبي»: طه حسين من «المجموعة الكاملة»: ط١٠. دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٣ ـ مج ٥ ـ ص٦١٥.

(٢) «مقامات بديع الزمان الهمذاني»: تحق الشيخ محمد عبده. المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨ ـ ص٧٥ ـ ٧٦.

«نقد النثر»: قدامة بن جعفر البغدادي. دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠ ص٣ ـ ٨.

فليس هو بالرجل الخيالي، وليس أدبه مرتبطاً بعاطفة تتحكم فيه، لأنه رجل الفكر والمنطق. تعابيره تنفذ إلى القلوب وتمتلك المشاعر، ببيان ساحر، فهو أديب نادر. أَفْتَنَ الكثيرين وسيُفْتِنُهم أكثر بسهولة لفظه واستطراداته وتوازنه وقصر عباراته. فتح باب البلاغة والبيان على مصراعيه أمام الأجيال التي لحقته(١).

ومن واقع الحياة أيضاً، راح يرقب أثر الأدب في القلوب والعقول. وأخذ يسجل نتائج تجربته، وأفاد من هذا في حديثه عن التلقي وصور التعبير الأدبي.

إن سطحية الدرس البلاغي المتأخر وجفافه يرجعان إلى أصحابه، الذين بدأوا الحديث فيه من فراغ وليس عن تجربة ولأنهم عنوا فيه بالشكل دون المضمون(٢).

قال ثابت بن قُرَّة (٢٢١ـ ٢٨١هـ/ ٨٣٦ـ ٩٠١م)(٣): ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس فإنه:

عَقِمَ النساءُ فلا يَلِدْنَ شبيهَه ... إن النساءَ بمثلِهِ عُقُمُ

فقيل: أَحْصِ لنا هؤلاء الثلاثة قال: أولهم عمر بن الخطاب، وثانيهم الحسن البصري، وثالثهم أبو عثمان الجاحظ(٤).

وجملة القول، إن إمام النُقَّاد، نقل موضوع الأدب والنقد من معناه الضيق إلى أوسع معانيه، فكان يدرك أن العمل الأدبي مستمد من الحياة نفسها. لقد فتن أسلوبه الكثيرين وما زال، ويتمنى كل من جاء بعده أن يكون تلميذه. ولا نجد كلاماً يفيه حقه أكثر من القول: إنّه أسلوب جاحظيّ.

---

(١) «تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي»: أنيس المقدسي ط٦. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩ ص١٦٨ ـ ١٧٨.

(٢) «البلاغة والنقد بين التاريخ والفن»: د. مصطفى الصاوي الجويني. الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية ١٩٧٥ ص٢٣٣.

(٣) «الأعلام»: الزِركلي. مج٢ ص٩٨.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص٩٥ ـ ٩٧.

٦ ـ مَـذْهَبُـهُ وآراؤه

المَذْهَبُ هو المعتقد الذي يُذْهَبُ إليه[١].

والرأي هو الحديث أو الفكر الذي يؤخذ به ويتبَّع، وجمعه آراء[٢]. وقد جمع العلماء بين معنى الدين والمِلَّة والشَّريعة والمذهب، قال الشريف الجرجاني الحنفي: الدِّين والمِلَّةُ مُتَّحدان بالذات، ومختلفان بالاعتبار، فإن الشريعة من حيث أنها تطاع تسمى ديناً، ومن حيث إنها تُجْمَع تسمى مِلَّة، ومن حيث إنها يُرْجع إليها تُسمى مذهباً. وقيل الفرق بين الدِّين والمِلّة والمذهب، أن الدين منسوب إلى الله تعالى، والمِلّة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد[٣].

والمقصود بمذهب الجاحظ وآرائه، ميله إلى الاعتقاد بآراء مُعيَّنة مُحدَّدة، هي مذهب الاعتزال.

هي قضايا ألزم نفسه بها، وجَنَّد لأجلها قلمه، فكساها حُلَّة أدبية بلاغية لإبرازها.

وقد درس الاعتزال بالبصرة على يد النظام[٤]، وبشر بن المعتمر[٥]،

---

(١) المذهب ـ مَفْعَل ـ من الذهاب.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة ذهب مج١ ص٣٩٤.

(٢) الرأي: الاعتقاد. اسم لا مصدر له، والجمع آراء.
قال سيبويه: لم يُكسَّر على غير ذلك.
«لسان العرب»: ابن منظور. رأي ج١٤ ص٣٠٠.

(٣) «التعريفات»: السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني. مط. القسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ ص٩٤ و٩٥.

(٤) من أقوال النظام. إبطال الجزء الذي لا يتجزأ، ثم بنى عليه قوله بالطَّفرة التي لم تَسْبق إليها وهمُ أحدٍ مثله. وأخذ من الثنوية: بأن فاعل العدل لا يقدر على فعل الجور والكذب وأنكر معجزات الرسول عليه السلام. وقال بتكفير بعض شيوخ المعتزلة. لمزيد من المعلومات أنظر «الفرق بين الفرق»: عبد القاهر البغدادي ص١٣١ ـ ١٥١. وتلطف بالرجوع إلى ص ٣٢ من هذا الكتاب حيث قمنا بترجمته.

(٥) بشر بن المُعْتَمِر (ت ٢١٠هـ/ ٨٢٥م). الهلالي البغدادي. أبو سهل. فقيه معتزلي مناظر. من أهل الكوفة. وتنسب إليه الطائفة البشرية. كان من أفضل علماء المعتزلة وهو الذي أحدث= =

وثُمامة[1]، وغيرهم انفرد الجاحظ من بين المعتزلة بآراء خاصة به، وسمى أتباعه أنفسهم «بالجاحظية»[2] نسبة إليه.

فما الاعتزال؟ وكيف نشأ؟ وما آراء الجاحظ فيه؟

حديثٌ طويلٌ مُعَقَّدٌ، سَنَعْرِضُ مُوجزاً له لإتمام سياق البحث.

لَمْ يُتَحْ للمسلمين التَّخَلُّصُ مِنْ بِدْعَةِ التَّفُرق، رغم يُسْرِ ووضوح الإسلام الحنيف، منذ بداية انقسام آرائهم، إلى فِرقٍ ونحلٍ. وبدايةُ هذا الانقسام كان يومَ أشار عمرو بن العاص على معاوية، برفع المصاحف، أمام أصحاب عليّ بن أبي طالب، قصد التحكيم، في صِفّين[3]. وثانيهِ، يوم أخذ معاوية البَيْعة لابنه يزيد، وخرج عن أمر الشورى[4].

القول بالتولد وأفرط فيه عن أصحابه بمسائل ست. مات ببغداد.

«الفرق بين الفرق»: البغدادي ص١٥٦ ـ ١٥٩.

«الملل والنحل»: السهرستاني مج١ ص٦٤.

«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٥٥.

(١) ثُمامة بن أشرس النميري (ت٢١٣هـ/ ٨٢٨م). أبو معن من كبار المعتزلة وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين. كان له اتصال بالرشيد ثم بالمأمون. وكان ذا نوادر ومُلَح.

ويُسمى أتباعُه الثماميّة نسبة إليه. كان زعيم القدرية في زمان المأمون والمعتصم والواثق. وقيل إنه هو الذي أغوى المأمون بأن دعاه إلى الاعتزال. انفرد عن سائر أسلاف المعتزلة ببدعتين أكفرته الأمة كلها فيهما.

«الفرق بين الفرق»: البغدادي ص١٧٣ ـ ١٧٥. «تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي ج٧. «لسان الميزان»: العسقلاني مج٢ ص٨٣. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦١.

«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص١٠٠.

(٢) الجاحظية هم أتباع الجاحظ، تبعوه في مسائل انفرد بها عن المعتزلة، ونسبوا أنفسهم إليه. وسنعرض لهذه الفرقة في حينه إن شاء الله.

«فرق وطبقات المعتزلة»: القاضي عبد الجبّار الهمذاني. تحق علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي. دار المطبوعات الجامعية. الإسكندرية ١٩٧٢ ص٢١٦ ـ ٢١٧.

«الفرق بين الفرق»: البغدادي ص١٧٥.

«الملل والنحل»: الشهرستاني مج١ ص٧٥.

(٣) «تاريخ الخلفاء»: للسيوطي ص١٧٤.

(٤) نفسه ص١٩٦.

ويقف علماء الكلام، من حديث رسول الله ﷺ، عن افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، ثلاثة مواقف. فأما أحدها، فألا يتعرضوا له بنفي ولا إثبات[1]، وهم أهل السنة والجماعة.

قال البغدادي، بعد السند، قال رسول الله ﷺ:

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة. وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[2].

ثم أورد الحديث مسنداً بشكل آخر: .... ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين مِلّة، تزيد عليهم مِلّة، كلهم في النار إلا مِلةً واحدة. قالوا يا رسول الله وما المِلّة التي تتغلب؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي[3].

ثم أورد الحديث، بشكل ثالث، مَعنعناً: «إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فِرْقَةً، وإن أُمَّتي ستفترق على اثنتين وسبعين فِرقة، كلّها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة»[4].

ثم يُعَلّق البغدادي في الحاشية قائلاً: إعلم أن العلماء يختلفون في صحة هذا الحديث فمنهم من يقول: إنه لا يصح من جهة الإسناد... ومنهم من اكتفى بتعدد طرقه... ثم إعلم أن الاختلاف المقصود بهذا الحديث هو الاختلاف في أصول العقيدة... فاعرُضْ كل ما تسمع على كتاب الله وما صح من قول رسوله، فإن وافقتهما فهو الحق الذي يجب أن تَعُضّ عليه بالنواجذ ولا تفارقه أو تميل عنه[5].

وأورد المرتضى الحديث المذكور، بشكل مغاير، كما أوردته المعتزلة مُعَنْعَناً:

---

(١) مقدمة محقق كتاب «الفرق بين الفرق»: محمد محي الدين عبد الحميد ص٦.
(٢) «الفرق بين الفرق»: البغدادي ص٥.
(٣) نفسه ص٦.
(٤) نفسه ص٧.
(٥) نفسه. الحاشية ص٧ ـ ٨.

«ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أبرّها وأتقاها الفئة المعتزلة»[١].

ظهرت المعتزلة في أواخر القرن الأول للهجرة النبوية الشريفة، عندما افترق المسلمون في آخر خلافة عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، إلى شيعة وخوارج ومرجئة[٢]. ولكل منهم رأيه في الخلافة والسياسة، مستنداً إلى النصوص التي تتعلق بها. ثم تحور النزاع إلى مسائل كلامية مع المعتزلة. والمعتزلة فرقة من الأزارقة، والأزارقة فرقة من الخوارج، يسمون أنفسهم أصحاب العدل (العدلية) والتوحيد أو (الموحدة)، ويلقبون بالقدرية والعدلية[٣].

أما سبب تسميتهم بالمعتزلة. يقول البغدادي: فقد حَدَثَ في أيام الحسن البصري[٤] خِلاف واصل بن عطاء[٥] الغزّال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين وانضم إليه عمرو بن عبيد بن باب[٦] في بدعته، فطردهما الحسن عن مجلسه،

---

(١) «باب ذكر المعتزلة»: من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل: لأحمد بن يحيى المرتضى. تحق. توما أرنلد. دار صدار بيروت عن مطابع حيدرآباد ص٢.

(٢) «أهم الفرق الإسلامية»: السياسية والكلامية. د. البير نصري نادر. ط٢ المطبعة الكاثوليكية. بيروت ـ التمهيد ص٧٠.
«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص١٣٤.

(٣) أصحاب العدل: لقولهم بعدل الله تعالى وحكمته.
أصحاب التوحيد: لقولهم لا قديم مع الله.
القدرية: لفظ يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى.
«باب ذكر المعتزلة»: للمرتضى ص٢.
«الملل والنحل»: الشهرستاني مج١ ص٤٣.

(٤) الحسن البصري (ت١١٠هـ/ ٧٢٧م). يكنى أبا سعيد، واسم أبيه يَسار مولى لأمرأة من الأنصار. إمام أهل البصرة. مات وله تسع وثمانون سنة.
«مروج الذهب»: المسعودي. ج٣ ص٢١٤. «الأعلام»: الزركلي ج٢ ص١٨٥.

(٥) واصل بن عَطَاء (٨٠ ـ ١٣١هـ/ ٧٤٨م). البصري المتكلم. كان يجلس في سوق الغَزَّالين. فلقّب بالغزال. كان يلثغ بالراء ونقل عنه أنه تجنبها في خطابه، سمع عن الحسن البصري.
«لسان الميزان»: العسقلاني. ج٦ ص٢١٤.

(٦) عمرو بن عبيد (ت١٤٤هـ/ ٧٤٨م). أبو عثمان. كان شيخ المعتزلة في وقته ومُفْتيها. بصري زاهد. عابد، معتزلي ـ قَدَرِيُّ. مات وهو في طريقه إلى مكة، ودُفِنَ بمران على ليلتين من مكة وصلى عليه سليمان بن علي، ورثاه أبو جعفر المنصور.
«مروج الذهب»: المسعودي. ج٣ ص٣١٤ ـ ٣١٥.

فاعتزلا إلى سارية من سواري مسجد البصرة، فقيل لهما ولأتباعهما «معتزلة» لاعتزالهم قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر(١).

تناولت المعتزلة مسائل الله والإنسان والعالم بالنظر العقلي الخالص.

قال القاضي الهمذاني: ولقد اتفق المعتزلة في آرائهم وعلى أصولهم الخمسة وهي: التوحيد والعدل، ولهذين الأصلين تُرَدُّ الأصول الخمسة، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد.

ولقد ظهر الاعتزال أول ما ظهر بالبصرة ثم ببغداد(٢).

وقبل أن نعرض، موجزاً، لأصول ومفاهيم المذهب المعتزلي، لا بد لنا من إثبات نبذة ابن النديم في فهرسه، عن عبد الله بن محمد بن كلّاب القطان، الذي هو من بابية الحشوية، وله مع عبّاد بن سليمان المعتزلي مناظرات.

كان ابن كلاّب، يقول: إن كلام الله هو الله، وكان عبّاد يقول: إنه نصراني بهذا القول.

---

(١) «الفرق بين الفرق»: البغدادي ص٢٠ ـ ٢١.
وانظر «فِرَق وطبقات المعتزلة»: القاضي عبد الجبار الهمذاني. تحق النشار وغيره. دار المطبوعات الجامعية ـ الإسكندرية ١٩٧٢ ص١٣١.

(٢) ثم يورد القاضي الهمذاني اتفاق المعتزلة وإجماعهم على المسائل الآتية:
١ ـ نفي صفات الباري تعالى.
٢ ـ كلام الله مخلوق.
٣ ـ إن أفعال العباد مخلوقة لهم، وأفعال الحيوانات خارجة عن قدرة الله.
٤ ـ حال الفاسق. منزلة بين المنزلتين.
٥ ـ وجوب كثير من الأشياء على العبد من غير أن يكون من أمر الله تعالى فيه أمر. مثل: النظر والاستدلال، وشكر المُنعم.
٦ ـ إنكار مفاخر زائدة لرسول الله، زائدة على الأنبياء: كالشفاعة والمعراج.
٧ ـ إنكار عذاب القبر.
وتفرّعت مدرسة المعتزلة فرعين هما: فرع بغداد وفرع البصرة.
وعُدّ الجاحظ من فرع البصرة.
انظر «فرق وطبقات المعتزلة»: القاضي عبد الجبار الهمذاني ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

قال أبو العباس البَغَويّ[1]: دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي فجرى الحديث، إلى أن سألته عن ابن كلاّب فقال: رحم الله عبد الله، كان بجنبي فيجلس إلى تلك الزاوية، وأشار إلى ناحية من البيعة، وعنّي أخذ القول. ولو عاش لَنَصَّرْنَا المسلمين. قال البغوي: وسأله محمد بن إسحاق الطالقاني فقال: ما تقول في المسيح؟ قال: ما يقوله أهل السنة من المسلمين في القرآن[2].

قصد فيثون الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[3] فانبرى المعتزلة للقول بأن القرآن حادث مخلوق وليس أزلياً، وعندهم أن من أثبت معنى وصفة قديمة، فقد أثبت الهين[4].

من هنا نرى أن أصل الخلاف في الرأي، لم يكن بين المسلمين أنفسهم، ولكنه كان رداً على النصارى.

قال المأمون: «وضاهوا (أي المسلمون القائلون بقدم القرآن) به قول النصارى في ادعائهم في عيسى ابن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وتأويل ذلك أنّا خلقناه[5] لهذا أُفتي بأن القرآن لا يترجم، ولكن معانيه هي التي تترجم.

أما أصول المعتزلة فهي:

التوحيد وهو عند المعتزلة أن الله تعالى واحد في ذاته، لا قسمة ولا صفة له، وواحد في أفعاله لا شريك له. فلا قديم غير ذاته، ولا قسيم له في أفعاله.

---

(١) أحمد البغوي (١٦٠ ـ ٢٤٤هـ/ ٧٧٧ ـ ٨٥٩م). محدّث أصله من مرو الروذ، رحل وجمع وصنّف المسند وحدّث. «معجم المؤلفين»: كحالة مج٢ ص١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) «الفهرست»: لابن النديم دار المعرفة بيروت ١٩٧٨ ـ ص٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

(٤) «فرق وطبقات المعتزلة»: القاضي عبد الجبار الهمذاني ص١٣٧.
«أهم الفرق الإسلامية»: د. البير نصري نادر ص٧٣ ـ ٧٤.

(٥) «أهم الفرق الإسلامية»: د. ألبير نصري نادر ص٧٥. والآية المذكورة هي الثالثة من سورة الزخرف.

ومحال وجود قديمين ومقدور بين قادرين، وذلك هو التوحيد.

والتوحيد عند أهل السنة: إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له(١).

العدل عند المعتزلة هو ما يقتضيه العقل من الحكمة، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة.

ومعناه عند أهل السنة: وضع الشيء موضعه، وهو التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم، والظلم، بضده، فلا يتصور منه جور في الحكم وظلم في التصرف.

والله تعالى عدلٌ في أفعاله، بمعنى أنه متصرف في مُلْكه ومِلكه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد(٢).

وعَرّف القاضي الهمذاني العدل: بأنه كلام يرجع إلى أفعال القديم تعالى جلّ وعزّ، فالعدل مصدر عَدَل يعدِل عدلاً. ثم قد يُذكر ويراد به الفعل وقد يذكر ويراد به الفاعل(٣)...

لقد اضطرب المعتزلة في حق الذات الإلَهية، بتعريفهم العدل، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو موجد العقل ومُحدث الحكمة.

«ومعنى الوعد والوعيد عند المعتزلة: أن لا كلام في الأزل، وإنما أمر ونهى، وعد وأوعد، بكلام محدث، فمن نجا فبفعله استحق الثواب، ومن خسر فبفعله استوجب العقاب، والعقل من حيث الحكمة يقتضي ذلك.

---

(١) «الملل والنحل»: الشهرستاني مج١ ص٤٢. ولأجل الاطلاع على شروحات وردود تفصيلية عليك بالرجوع إلى كتاب (شرح الأصول الخمسة): القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني. القاهرة ص٥٧ ـ ٦٥ ـ ١٥٥ ـ ١٦٠ ـ ١٦١ ـ ١٦٧ ـ ٢٢١ ـ ٢٨٤. «فرق وطبقات المعتزلة»: للقاضي عبد الجبار الهمذاني ص١٣٧ ـ ١٨٢.

(٢) «الملل والنحل»: لشهرستاني مج١ ص٤٢.
«فرق وطبقات المعتزلة»: للقاضي عبد الجبار الهمذاني ص١٨٣.

(٣) «شرح الأصول الخمسة»: القاضي عبد الجبار الهمذاني ص٣٠١.

ومعناه عند أهل السنة: كلامه الأزلي، وعد على ما أمر، وأوعد على ما نهى، فكل من نجا واستوجب الثواب فبوعده، وكل من هلك واستوجب العقاب فبوعيده، فلا يجب عليه شيء من قضية العقل»[1].

والأصل الرابع هو المنزلة بين المنزلتين: وهو، عند المعتزلة، الإقرار بأن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر.

قال الحسن البصري: الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سُمّي المرء مؤمناً وهو اسم مدح، والفاسق لم يستجمع خصال الخير، فلا يستحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً وليس هو بكافرٍ أيضاً، لأن الشهادة وبعض أعمال الخير موجودة فيه لا وجهَ لإنكارها لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً فيها إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

لكنه يُخَفَّفُ عليه العذاب وتكون دركته فوق دَرَكَةِ الكفّار[3].

والأصل الخامس هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[4].

وأما من خالف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً وقال: إن الله تعالى لم يكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً فإنه يكون كافراً، لأنه رد ما هو معلوم ضرورة من دين النبي ﷺ ودين الأمة. فإن قال: إن ذلك مما ورد به التكليف ولكنه مشروط بوجود الإمام فإنه يكون مخطئاً[5].

---

(١) «فرق وطبقات المعتزلة»: القاضي عبد الجبار الهمذاني ص١٨٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٣) «باب ذكر المعتزلة»: من كتاب «المنية والأمل». . . للمرتضى ص٣ ـ ٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٥) «شرح الأصول الخمسة»: القاضي عبد الجبار الهمذاني ص١٢٦.

ويعلق الدكتور محمد الخطيب على موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله: وأياً كان رأي العلماء.... فأنني أقول أنه لا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم وعلى هذا يجب إزالة الظلم بأي شكل من الأشكال وطريق من الطرق فالقيام بالظلم والإقرار له والسكوت عليه لا رخصة فيه مطلقاً لا في كبير الأمر ولا في صغيره. ورأس الأمر وسنامه بعد الإيمان بالله تعالى وتوحيده وهو أعدل العدل الأمر بالعدل والنهي عن الظلم[١].

هذه هي باختصار أصول المعتزلة الأساسية، التي حيكت حولها المناظرات. ونرى أن وجود المعتزلة، كمذهب وأشخاص، قد انتهى منذ عهد بعيد، بالرغم من أن أفكارهم ما زالت معروضة في طيّات القراطيس، لأن شَمْلَ المسلمين التأم على الحق، بعد أن بهرت الفلسفة الدخيلة عقول بعض المسلمين وفرّقتهم.

نحن لا ننكر فضل العقل ورجاحته على الإنسان، لأنه بسببه ميّزه الله تعالى على سائر مخلوقاته، ولكنا لا نحب أن يكون العقل أداة تفرقة بدل أن يكون أداة جمع ووعي وتآلف.

من هنا نصل إلى لُبّ موضوعنا ونسأل ما هي آراء الجاحظ المعتزلية؟ الجاحظ من شيوخ المعتزلة، وليس في مقدورنا أن نعرف تماماً وجهة نظره وآرائه الاعتزالية بمجملها، لأن أكثر كتبه في هذا الموضوع قد فقد. غير أن بعض الرواة والمؤرخين رووا له آراء في هذا المذهب سنلقي عليهم تبعة أقوالهم.

فخلاصة مذهب الجاحظ في الاعتزال تقوم على النقاط التالية:

الصدق والكذب

إن جمهور العلماء يرى أن الخبر ينقسم إلى صادق وكاذب. والراجح عندهم أن صدق الخبر مطابقةُ حُكْمِهِ للواقع، وكَذِبُه: عدمها.

---

(١) «دستور الحكم في الإسلام والمبادىء الأساسية التي قام عليها» أطروحة دكتوراه غير منشورة إعداد محمد أكرم الخطيب، جامعة الأزهر في القاهرة ١٩٨٠ مج٢ ص٥٦٣.

وقال غيرهم: إن صدق الخبر مطابقة حكُمه لاعتقاد المخبر، صواباً كان أم خطأ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له، وهذا هو مذهب النَظّام[1] أستاذ الجاحظ.

ويزعم أبو عثمان أن الخبر ثلاثة أقسام. صادق - كاذب - غير صادق ولا كاذب[2].

فالصادق عنده: هو مطابقة الخبر للواقع مع اعتقاد المخبر بالخبر أنه مطابق له.

والكاذب: هو عدم مطابقته للواقع مع اعتقاد المخبر أنه غير مطابق له.

أما الخبر الذي ليس بصادق ولا كاذب فليس نوعاً واحدا[3].

فالصدق في الخبر عند الجاحظ هو مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده، والكذب عدم مُطابقته مع اعتقاده.

أما الجمهور فاقتصر على الواقع، والنظام اقتصر على الاعتقاد[4].

مذهب المعرفة

اختُلف في المعارف إن كانت ضرورية أو نظرية. وذهب الجاحظ بالقول إن المعارف كلها ضرورية وهي تستتبع العمل[5].

قال الشهرستاني: «إن المعارف كلها ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك

---

(١) ترجمته في ص ٣٢. من هذا الكتاب.

(٢) «عُقود الجُمّان في علم المعاني والبيان»: عبد الرحمن السيوطي مط الشرفية مصر ١٣٠٥هـ ص٩.

«علم المعاني»: د. عبد العزيز عتيق. ط٢ دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١ ص٤٤.

(٣) نفسه ص٤٤.

(٤) «التلخيص»: في علوم البلاغة: للإمام جلال الدين القزويني. تحق عبد الرحمن البرقوقي. ط٢ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٣٢ ص٣٩ - ٤٠.

«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص١٤٦ - ١٤٧.

(٥) «الحيوان»: تحق هارون مج٢ ص٩٧.

من أفعال العباد وليس للعبد كسب سوى الإرادة، وتحصل أفعاله منه طباعاً»[1].

والمعرفة، في رأي الجاحظ، ليست من فعل الإنسان لأنها متولدة إما من اتجاه الحواس أو من اتجاه النظر. لذلك قال: إن الإنسان في تحصيل معارفه ليس له إلا توجيه الإرادة، وما يحدث بعد ذلك فاضطرار وطبيعة[2]. وهذا ما دفع المعتزلة إلى النظر والمجادلة في مسألتين:

هل الإنسان يخلق أفعال نفسه، أو يخلقها الله فيه؟ ثم هل الأفعال المتولدة من فعل تنسب إلى الفاعل أو لا تنسب؟

واتفق المعتزلة على أن الإنسان يخلق أفعال نفسه، لأنه إذا قال بسيطرة الإنسان على إرادته لم يخالف المبدأ العام، وإن قال إن ما تولد بعد ذلك طبع وضرورة[3].

آراؤه الأخرى:

عَوَّلنا على جمع بعضها من المراجع التي توافرت لدينا، لأن كتب الجاحظ، التي تبحث في مثل هذه المواضيع فقدت كما نَوَّهنا.

ـ الخلق كلُّهم عقلاء عالِمون بأن الله تعالى خالقهم، وعارِفون بأنهم محتاجون إلى نبي، وهم محجوبون بمعرفتهم. وهم صِنْفان: عالم بالتوحيد وجاهل به فالجاهل مغدور، والعالم محجوج[4].

ـ الكفار بين معاند، وبين عارف قد استغرقه حبه لمذهبه، فهو لا يشكر بما عنده من المعرفة بخالقه، ويصدّق رسله[5].

ـ المسلم الذي يعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا يرى

---

(١) «الملل والنحل»: للشهرستاني مج١ ص٧٥.
(٢) «ضحى الإسلام»: أحمد أمين مج٣ ص١٣٢ ـ ١٣٥.
(٣) المرجع نفسه مج٣ ص١٣٤ ـ ١٣٥.
(٤) «الملل والنحل»: للشهرستاني مج١ ص٧٥.
(٥) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٠٥.

بالأبصار، وأنه عدل لا يجور، ولا يريد المعاصي، ثم أقر بذلك كله فهو مسلم حقاً، وإن عرف ذلك كله ثم جحده وأنكره وقال بالتشبيه والجبر، فهو مشرك كافر حقاً، وإن لم ينظر في شيء من ذلك كله واعتقد أن الله تعالى ربه، وأن محمداً رسول الله، فهو مؤمن لا لوم عليه، ولا تكليف عليه غير ذلك(١).

ـ ليس للإرادة أصل، ولكنها جنس من الأعراض. إذا انتفى السهو عن الفاعل وكان عالماً بما يفعله، فهو المريد على التحقيق. وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهي ميل النفس إليه(٢).

ـ محال أن يعدم الله الأجسام بعد وجودها، وإن أوجدها بعد عدمها، ولا يمكن البتة إفناؤها إلا أن يُرَقّقها، ويُفَرِّق أجزاءها فقط، فالأعراف تتبدّل، والجواهر يستحيل عليها الفناء(٣).

ـ إن القدر خيرُه وشرُّه من العبد، وتقول طائفة أخرى: كل شيء بقضاء وقدر، وتقول ثالثة: كل شيء بقضاء وقَدَر إلا المعاصي.

ويندد الجاحظ بمن ذهب في قول: إن الإيمان والكفر مخلوقان في الإنسان مثل العمى والبصر، وأن الله يعذِّب الأبناء ليغيظ الآباء(٤).

ـ جائز أن يوصف الله تعالى بأنه مريد، بمعنى أنه لا يصح في حقه السهو في أفعاله، ولا الجهل بها، ولا يجوز أن يُغلب أو يُقهر(٥).

ـ لا يُدْخِل الله النار أحداً، ولكن النار هي التي تجذب أهلها إليها بطبيعتها، ثم تمسكهم فيها عن الخلود، وليس معنى الخلود أن يصلوا فيها عذاباً أبداً، وإنما هم يصيرون إلى طبيعتها(٦).

---

(١) «الملل والنحل»: للشهرستاني مج١ ص٧٥ ـ ٧٦.
(٢) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٠٥ ـ ١٠٦.
(٣) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٠٥ و«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص١٥١.
(٤) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٠٦ و«أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص١٥١.
(٥) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٠٦.
(٦) المرجع عينه ص١٠٦ وانظر «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص١٥٠.

ومذهب الجاحظ في ذلك مذهب الفلاسفة في نفي الصفات، ومذهبه في إثبات القَدَرِ خيره وشره من العبد هو مذهب المعتزلة[1].

إن اتصال المسلمين بورثة الحضارات اليهودية والمسيحية والفارسية والهندية، أثار كثيراً من المُشْكلات الفِكْرية. . .

وكان من الواجب أن يحارب مفكرو الإسلام على عدة جبهات في آن واحد. . . وهكذا تميز المعتزلة. . . باتجاههم العقلي في معالجة العقائد والقضايا الفلسفية التي تدور حولها[2].

والجاحظ من معتزلة بغداد، جمع بين العقل والمنطق والفلسفة والعلم والأدب. . ومهما تكن الآراء المروية عنه، فليس بحاجة إلى من يَدْفَعُ عنه تهماً.

ويكفيه من الغَمْزِ، أنه صَحَّحَ نَسَبَ الرسول الأَعظم ﷺ[3]، ودافع، دفاعاً مجيداً، عن العرب ضد الشعوبية[4]. كما جَوَّد في مسائل كثيرة.

وعلى الجملة، فإن آراء الجاحظ مِنْهَجُ شَكٍ في دراسة مُشْكلة الحياة وتفسيرها، وربما كان واضع «عِلْمِ الشَّك المنهجي» الذي نادى به ديكارت فيما بعد بقرون عدة.

الشك عند ديكارت أول وسيلة إلى اليقين العلمي، وعنده، أنه لا ينبغي أن نؤمن بمدركات العقل لأن العقل كثيراً ما يُخطىء بالاستدلال. فما دام الإنسان يشك فهو يفكر وما دام يفكر فهو موجود.

والجاحظ قبله بسبعة قرون دعا إلى الشك: فاعرف مواضع الشك

---

(١) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص١٥١.
لمزيد من معرفة آراء الجاحظ انظر «فرق وطبقات المعتزلة»: القاضي الهمذاني ص٢١٦ ـ ٢١٧ و«الفرق بين الفرق»: البغدادي ١٧٥ ـ ١٧٨.

(٢) «أهم الفرق الإسلامية»: د. ألبير نادر ص٦٩.
«دراسات في الفلسفة الإسلامية» د. محمود قاسم. ط٥ دار المعارف مصر ١٩٧٣ ص١٠.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣١٠.

(٤) نفسه مج٣ ص٢٩.

وحالاتها الموجبة له لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً. . .[1].

فهل كان الجاحظ دليل ديكرت إلى نظريته؟ لا نشك في ذلك، وإن كان يعوزنا البرهان القاطع.

لقد اتسعت دائرة المعارف العامة في عصر الجاحظ، بما أضفى عليها من علوم وآداب وأكسبَ مَنْ تلاه الأَصالةَ والمعرفةَ.

٧ ـ آراء في الجاحظ

إنَّها آراء وأحاديث متفرقة، جَمَعْنا بَعْضَها ولم نُعَلِّقْ عليها، وَأَملْنا فَتْح المجال لمن أراد الاستزادة والبحث.

مما قيل فيه:

ـ أول من بحث في طبائع الأشياء كالحيوان والنبات والمعادن، وأقام أركان بحثه واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختبار. ورحل، في سبيل تحقيقه العلمي والطبيعي، إلى كثير من الأقاليم والأقطار. وهذه الطريقة هي مفخرة علماء أوروبا وأميركا وإنكلترا في هذا العصر[2].

ـ ولقد صدق القاضي الفاضل في قوله: ما منا معاشر الكتَّاب إلا مَنْ دخل من كتب الجاحظ الحارة، وشَنَّ عليها الغارة، وخرج وعلى كتفه منها كارة[3].

ـ كان عقل الجاحظ قوياً قَلَّ أَنْ يَقْبَلَ الأوهام، بل يهزأ بمن يقبلها، يعتمد على التجربة، ويبني على ضوئها أحكامه، ويشك ويدعو إلى الشك حتى تثبت النظرية، ويَسْتَغْرب الإنسان اليوم من صحة منطقه، وسَبْقِهِ إلى نظرات في منهج البحث لم تُعْرف إلا في العصر الحديث، وسَبْقه إلى اتجاهات قَيِّمة في سيكولوجية الحيوان[4].

---

(١) «الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص٣٥.

(٢) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٩٩.

(٣) نفسه ص٢٠٢.

(٤) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص١٦٧.

ـ الجاحظ من أئمة النقد، والسابقين إلى وضع أصوله ومناهجه ومختلف مذاهبه وطرقه(١).

ـ نَقَدَهُ المسعودي المؤرخ(٢) صاحب مروج الذهب فقال عن كتابه (الأمصار). هو كتاب في نهاية الغثاثة، لأن الرجل لم يسلك البحار، ولا أكثر الأسفار، ولا تعرف الممالك والأقطار وإنما هو حاطب ليل، ينقل عن كتب الوراقين(٣).

ـ واتهمه (رينان) المفكر الفرنسي، وتبعه (كارّادي ڤو): بأنه كبقية علماء العرب الإسلام في الاعتماد على الحفظ، لا على البحث، وأن الطابع الأدبي لا العلمي، هو الغالب على كتب الجاحظ(٤).

ـ وقال ابن أبي دؤاد(٥) لمحمد بن منصور، وكان حاضراً:

أنا أثقُ بِظَرْفه ولا أثق بدِينه(٦).

ـ وقال ثابت بن قُرَّة(٧):

أبو عثمان الجاحظ، خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين، ومِدْرَةُ المتقدمينَ والمتأخرينَ، إن تَكلَّمَ حكى سحبانَ(٨) في البلاغة، وإنْ ناظرَ ضارع

---

(١) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٣٩.

(٢) علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٥ أو ٣٤٦هـ/ ٩٥٦ أو ٩٥٧م). أبو الحسن، المؤرخ المشهور. «معجم المؤلفين»: كحالة. مج٧ ص٨٠.

(٣) عن «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٨١.

(٤) نفسه: اقرأ دفاعه عن أبي عثمان ص٢٨٢.

(٥) أحمد بن أبي دؤاد (١٦٠ ـ ٢٤٠هـ/ ٧٧٧ ـ ٨٥٤م). ابن جرير بن مالك الأيادي أبو عبد الله، أحد قضاة المعتزلة المشهورين. «الأعلام»: الزركلي مج١ ص١٢٤.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي مج١٦ ص٨٠.

(٧) ثابت بن قُرَّة (٢٢١ ـ ٢٨٨هـ/ ٨٣٦ ـ ٩٠١م) ابن زهرون الحراني الصابىء، أبو الحسن طبيب وفيلسوف، وله كتب الهندسة والموسيقى. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٩٨.

(٨) سَحْبان وائل (ت٥٤هـ/ ٦٧٤م). هو سحبان بن زفر بن إياس الوائلي من باهلة. خطيب يُضْرب به المثل في البيان. اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام وكان إذا خطب يسيل عرقاً ولا يُعيد كلمة. «الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٧٩.

النّظامَ(١) في الجدالِ وإن جَدَّ خرج في مِسْك عامر بن عبد قيسٍ(٢) وإنْ هزَل زَاد على مزيدٍ(٣) حبيب القلوبِ ومزاجِ الأرواحِ، وشيخِ الأدب ولسانِ العرب. . . .

جمع بين اللسان والقلم، وبين الفِطْنة والعلم، وبين الرأي والأدب، و بين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم(٤).

ـ وقال أبو الفضل بن العميد(٥):

ثلاثة علوم، الناس كلُّهم عيال فيها على ثلاثة أنفس.

أما الفقه فعلى أبي حنيفة(٦)، لأنه دَوَّن وخلَّد ما جعل من يتكلّم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه. وأما الكلام فعلى أبي الهذيل(٧). وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة، فعلى أبي عثمان الجاحظ(٨).

ـ خاض الجاحظ عُباب أبحاثه بقلبه ونفسه، لا بعينيه وأذنيه فقط. . . .

---

(١) ترجمته في ص ٣٢ من هذا الكتاب.

(٢) ابن عبد قيس (ت٥٥هـ/ ٦٧٥م). هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس العنبري، تابعي وأول من عرف بالنُسْك بالبصرة. تلقن القرآن من أبي موسى الأشعري مات ببيت المقدس في خلافة معاوية. «الإصابة»: العسقلاني مج٣ ص٨٥. «الأعلام»: الزركلي ج٣ ص٢٥٢ ٢٥٣.

(٣) مَزيد: هو مزيد بن مرثد بن الديان، من بني مالك بن عوف، من ثعلبة من بني أسد بن خزيمة، من عدنان. جد آل مزيد أصحاب الحلة المزيدية بين الكوفة وبغداد (ت٣٧٠هـ/ ٩٨٠م). «الأعلام»: الزركلي ج٧ ص٢١٢.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي مج١٦ ص٩٧ ـ ٩٨.

(٥) محمد بن العميد (ت٣٦٠هـ/ ٩٧١). أبو الفضل المعروف بابن العميد. أديب كاتب، شاعر، لغوي، حكيم، فلكي، سياسي من الوزراء مدحه المتنبي.
«معجم المؤلفين»: كحالة ج٩ ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٦) أبو حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٦٧م) هو النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي إمام الحنيفية فقيه مجتهد وأحد الأئمة الأربعة. أراده عمر بن هبيرة على القضاء فامتنع ورعاً وأراده المنصور العباسي على قضاء بغداد فأبى. فحبسه إلى أن مات. «أبو حنيفة»: الإمام محمد أبو زهرة. ط٢ دار الفكر العربي ١٩٤٧ ص١٤ ـ ١٩ ـ ٥٢.

(٧) لعله محمد العَبْدي (١٣٥هـ/ ٧٥٢م) هو محمد بن عبد الله بن مكحول العبدي، أبو الهذيل عالم مناظر. «معجم المؤلفين»: كحالة مج١٠ ص٢٤٩.

(٨) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي ج١٦ ص١٠٢ ـ ١٠٣.

ذلك لأنه أرضى نفسه بما كتب، فأرضى أمته وأخذ بمجامع قلبها، والسلطان يومئذ سلطان العلم والأدب، لا سلطان الثرثرة والدعوى[1].

ـ يُعدُّ الجاحظ من أكبر رجال المنهج الفني والتيار الأدبي، لإعطائه الألفاظ والمعاني حقهما، وقد دفعه هذا الاتجاه إلى طلب البعد عن الغلو في استعمال الألفاظ في تصوير المعاني وتخييلها، ولا يريد منها إلا ما كان صادقاً[2].

ـ تناول الجاحظ في كتبه أغلب الفنون التي تناولها الشعراء، وتفوق عليهم وأتى بما لم يوفق الشعراء في جميع عصورهم إلى أن يؤدُّوه[3].

ـ ومع ذلك فالعرب لم يخطئوا حين عَدُّوا الجاحظ مؤسس البيان العربي[4].

ـ وقال المسعودي، وهو من خصوم الجاحظ، في نعت كتب الجاحظ:

وكُتُبُ الجاحظ مع انحرافه المشهور[5]، تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نَظَمَها أحسن نظم، ورَصَفَها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوَّف ملَلَ القارىء، وسآمة السامع، خرج من جِدٍ إلى هزلٍ، ومن كلمةٍ بليغةٍ إلى نادرةٍ طريفة[6].

ـ رصد الجاحظ بعض مظاهر التغيير الذي نشأ عن امتزاج العرب بالفرس وقد ظهر أثره في المجتمع العباسي بشكل واضح[7].

---

(1) «أمراء البيان»: محمد كرد علي ص٤٨١ ـ ٤٨٢.
(2) «في النقد الأدبي عند العرب»: د. درويش ص١٦١.
(3) «الأدب والنقد»: طه حسين المجموعة الكاملة مج٥ ص٦٠٨.
(4) «نقد النثر»: قدامة بن جعفر ص٣.
(5) يريد ما كان عليه من الاعتزال وعداوة الشيعة. وكان المسعودي شيعياً.
(6) عن «الحيوان»: تحق هارون ج١ ص٩.
(7) «في الأدب العباسي»: الرؤية والفن. د. عز الدين إسماعيل. دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٥ ص٢٥٧.

ـ لو قلنا إن الجاحظ كان أوسع أهل زمانه معرفة لم نبعد، ولو بقيت كتبه كلها وجمعنا ما فيها ورتبناه أبجدياً لخرج منها (دائرة معارف) شاملة وافية دالة على معارف عصر الجاحظ[1].

ـ وقال أبو منصور الأزهري[2] في مقدمة تهذيب اللغة:

وممن تكلم في اللغات بما حصره لسانه وروى عن الثقات ما ليس من كلامهم، الجاحظ وكان أوتي بَسْطَة في القول وبياناً عذباً في الخطاب ومجالاً في الفنون، غير أن أهل العلم ذَبُّوه وعن الصدق دفعوه.

وقال ثعلب[3]: كان كذّاباً على الله وعلى رسوله وعلى الناس[4].

ـ أمّا الإلمام بما له من صفات، أو استيعاب ما له من مناقب وسمات، فأمر فوق متناول الأيدي والأقلام[5].

ـ غلب عليه أمران: الكلام على طريقة المعتزلة، والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة.... وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وإحدى حجج اللسان العربي[6].

ـ وقال أبو القاسم الإسكافي[7]:

---

(١) «ضحى الإسلام»: أحمد أمين مج٣ ص١٣١.

(٢) محمد الأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠هـ/ ٨٩٥ ـ ٩٨٠م) الشافعي أبو منصور. أديب، لغوي، ولد في هراة بخراسان وعني بالفقه أولاً ثم غلب عليه علم العربية فرحل في طلبه.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج٨ ص٢٣٠.

(٣) ثعلب (٢٠٠ ـ ٢٩١هـ/ ٨١٦ ـ ٩١٤م). هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس. إمام الكوفيين بالنحو واللغة. راوية، محدث، ثقة، صحبة، ولد ومات ببغداد، صدمته فرس فسقط في هوة وتوفي على الأثر. «الأعلام»: الزركلي ج١ ص٢٦٧.

(٤) «لسان الميزان»: العسقلاني ج٤ ص٣٥٧.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق السندوبي ج١ ص١٦.

(٦) «جواهر الأدب»: أحمد الهاشمي. تحق لجنة من الجامعيين ـ مؤسسة المعارف بيروت مج٢ ص١٧٣ ـ ١٧٤.

(٧) عبد الجبار الإسكاف (ت٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م). الإسفراييني الشافعي المعروف بالإسكاف، أبو القاسم. فقيه، أصولي، متكلم. صحب إمام الحرمين وصنّف في أصول الفقه والجدل وأصول الدين. «معجم المؤلفين»: كحالة ج٥ ص٨١.

استظهاري على البلاغة بثلاث: القرآن، وكلام الجاحظ، وشعر البحتري[1].

- وقال ابن دريد[2]: مُتَنَزَّهَات القلوب هي كتب الجاحظ، وأشعار المحدثين، ونوادر أبي العيناء[3].

وبعد. لا جرم أن الألم يصقل النفس ويكشف عن معدنها، فإن كانت موهوبة أصيلة برقت وشعّت، وإن كانت بها نزوة عابرة أضاءت ثم خبتت وهذا ما يفسر لنا الموهبة والأصالة عند الجاحظ. نحن نسلّم أن لكل عصر جاحظه، ولكن جاحظنا طينة عجيبة في دهره، ولا نعتقد أن الأيام ستخلف مثله.

جمالٌ في بشاعة، وشموخ في قصر، وشهلة في جحوظ، مع ذكاء نادر، وعلم متمكّن وافر. طالت عينه كل شيء فصوره بأروع صور، ابتدع ألواناً لم تكن موجودة في عصره، فكان إمام الأدباء والعلماء والنقاد، بغض النظر عما كان يضمر أو يعتقد، فهو جليس الباحثين ومُفَكِّهُ المُقطِّبين والمفكرين والشعراء والمتأدبين. تَصِل كلمته إلى الروح وهل بعد الروح شيء؟...

---

(١) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٦٣.

(٢) ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ/ ٨٣٨ - ٩٣٣م). هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري، أبو بكر، أديب، شاعر، لغوي، نحوي، نسابة، ولد بالبصرة وقرأ على علمائها. ودفن بالخيزرانية - «معجم المؤلفين»: كحالة مج٩ ص١٨٩.

(٣) «أبو العيناء (١٩١ - ٢٨٣هـ/ ٨٠٧ - ٨٩٦م). محمد بن القاسم بن خَلاَّد بن ياسر الهاشمي بالولاء أبو العيناء: أديب فصيح من ظرفاء العالم ومن أسرع الناس جواباً. اشتهر بنوادره ولطائفه وكان ذكياً جداً حسن الشعر مليح الكتابة والترسل. كُف بصره بعد الأربعين. أصله من اليمامة ومولده بالأهواز ووفاته بالبصرة. «الأعلام»: الزركلي ج٦ ص٣٣٤ ونظر «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٦٣.

الفصل الثاني

كتاب البيان والتبيين

١ ـ التعريف بكتاب البيان والتبيين

هو بصفة عامة كتاب أدب، يتضمن مختارات من ذاكرة الجاحظ العجيبة، بل هو معرض أدب وبلاغة وآيات قرآنية مجيدة، وأحاديث نبوية شريفة، وصفوة أشعار وحكم، وخطب للخلفاء والبُلَغاء والمشاهير، مزجها الجاحظ بآرائه الخاصة وأفردَ لها مسائلَ متنوعة، واستطرد إلى نوادر فكهة لِيُبْعِدَ السآمة والضجر عن القارىء.

لقد أَلَّفَ أبو عثمان كتاب «الحيوان» في السنوات الأخيرة من حياته، وكان مريضاً مُسِناً، وصدَّرَ كُتُبَه في مقدمته، لكنه لم يذكر بينها «البيان والتبيين».

وإذا قرأنا كتاب «البيان والتبيين» وجدنا ذكراً لكتاب «الحيوان» في غير موضع!

قال: كانت العادة في كتب الحيوان أن أَجْعَلَ كلَّ مُصْحَفٍ[1] من مصاحِفها عشرَ ورقاتٍ من مُقطّعاتِ الأعراب، ونوادر الأشعار، لما ذكرت عَجبك بذلك، فأحببتُ أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله[2].

(١) يستعمل الجاحظ كلمة مُصْحف بمعناها اللغوي، أصحف: أي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة صحف مج٩ ص١٨٦.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٣٠٢.

ويقول: وهذا باب يقع في كتاب الإنسان، وفي فصل ما بين الذكر والأنثى، تاماً، وليس هذا الباب مما يدخل في باب «البيان والتبيين»، ولكنه قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارىء الكتاب، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم، كان ذلك أروح على قلبه وأزيد في نشاطه(١).

في هذا القول يشير الجاحظ إلى باب فصل ما بين الذكر والأنثى من كتاب «الحيوان». وهذا الباب لم يُتِمّه الجاحظ على ما يشتهي ويرضى، واعترف بطول الكتاب، ليبعد الملل عن القارىء أو ربما لظروف خاصة به لم يشر إليها قصداً أو سهواً...

ونعتقد أن الجاحظ ربما كان يؤلف الكتابين معاً. وقد فرغ من كتاب «الحيوان» قبل كتاب «البيان والتبيين».

وهذا هو رأي الدكتور حاجري حين أوضح فكرته بقوله: نستطيع القول بأن الجاحظ وضع كتاب «البيان والتبيين» في أثناء وضعه لكتاب «الحيوان». وأنه فرغ (من كتاب الحيوان)، قبل أن ينتهيَ من كتاب «البيان والتبيين».

وكأنه حين عرض له القول في «البيان» وهو يبدأ كتابه «الحيوان» بتلك التقسيمات التقليدية، يمهّدُ بذلك للقول في موضوعه، فيقسم العالم بما فيه إلى جماد ونام، والنامي إلى نبات وحيوان، والحيوان إلى فصيح وأعجم، ثم يأخذ في الحديث عن وسائل الإفصاح وصور البيان.

كان هذا الذي عرض له استطراداً مما أثاره إلى أن يَخُصَّ البيان بكتاب على حدة فوضع هذا الكتاب الذي لم يلبثْ أن بلغ الصِكاكَ(٢).

وقد أجمع المتقدمون من أكابر العلماء والأدباء، على أن كتاب «البيان والتبيين» من أفضل ما وضع في الأدب.

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ مج١ ص١٨٦.

(٢) يمكن أن تعني علو القَدْرِ والمنزلة، والصّك الذي يكتب للعُهدةِ، وأصله جك، الكتاب بالفارسية وجمعه صكوك وصِكاك. وكانت الأرزاق تسمى صِكاكاً لأنها كانت تُخرج مكتوبة. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة صكك مج١٠ ص٤٥٧. تلطف بالرجوع إلى «الجاحظ»: د. حاجري. ص٤٢٥.

قال عبد السلام محمد هارون في تحقيق كتاب «البيان والتبيين»:

إنَّه ليس يوجد أديب نابه في العربية لم يسمع بهذا الكتاب أو لم يفد منه، وقلما نجد أديباً من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب(١).

وقال ابن رشيق القيرواني: «وقد استفرغ، أبو عثمان الجاحظ، وهو علاّمة وقته، الجَهْد. ووضع كتاباً لا يُبْلغ جودةً وفضلاً، ثم ما ادعى إحاطة بهذا الفن(٢) لكثرته وأنَّ كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجل»(٣).

وأما ابن خلدون المغربي(٤) فيبدي لنا رأي القدماء في هذا الكتاب إذ يقول عند الكلام على علم الأدب:

وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة(٥).

وكتاب «الكامل» لِلمبِّرد(٦)، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ، وكتاب

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤.

(٢) يقصد بفن البيان.

(٣) «العُمدة»: لابن رشيق. تحق محمد محي الدين عبد الحميد. ط٥. دار الجيل. بيروت ١٩٨١ مج١ ص٢٥٧.

(٤) ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م). هو عبد الرحمن بن محمد.... الإشبيلي الأصل، التونسي، القاهري، المالكي، المعروف بابن خلدون، أبو زيد. عالم، أديب، مؤرخ، اجتماعي، حكيم. ولي كتابة السِّر بفاس ورحل إلى غرناطة، واعتُقِل. رجع إلى تونس فأكرمه السلطان. ففر إلى الشرق من الساعين له بالشَّرّ. اجتمع بتيمورلنك وتوفي بالقاهرة.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج٥. ص١٨٨ ـ ١٨٩.

(٥) ابن قُتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦هـ/ ٨٢٨ ـ ٨٨٩م). هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد. عالم في اللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه وغريب الحديث والشعر والفقه والأخبار وأيام الناس.... سكن بغداد وحَدَّث بها وولي قضاء دينور. «معجم المؤلفين»: كحالة مج٦. ص١٥٠ ـ ١٥١.

(٦) المُبِّرد (... ـ ٢٣١هـ/ ... ـ ٨٤٦م). هو محمد بن يزداد بن سويد المروزي البغدادي، أبو عبد، شاعر، كاتب، من الوزراء. ولاّه المأمون الوزارة وتوفي بسر من رأى.
«معجم المؤلفين»: كحالة. مج١٢ ص١١٤. «الأعلام»: الزركلي مج٨ ص١٤.

«النوادر» لأبي علي القالي[1]. وما سوى هذه الأربعة فتُبَّعٌ لها وفروع عنها[2].

أولى طبعاته في القسطنطينية سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م. بمطبعة الجوائب. بين مجموعة باسم «خمس رسائل» ضِمنها كتاب «منتخبات البيان والتبيين». ولم يذكر الناشر اسم من انتخبه، غير أنه زعم أنه للجاحظ، ولم يعرف عن الجاحظ أنّه تعرَّض كتاب من كتبه للانتخاب أو الاختيار أو التلخيص أو الاختصار[3].

وطبع في مصر سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م في مجلَّدين في المطبعة العلمية. وعني بهذه الطبعة السيد حسن أفندي الفاكهاني إلى نهاية الكراسة السابعة من الجزء الأول، وباقي الكتاب بعناية الشيخ محمد الزهري الغمراوي، وهذه النشرة مجرَّدة من الضبط وبها تعليقات يسيرة في الجزء الأول فقط[4].

ثم طبع سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩٠٩م بمطبعة الرغائب، باعتناء الأديبين خليل بيدس وشريف النشاشيبي[5].

ثم طُبع في ثلاثة مجلدات في مطبعة الفتوح والمطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م. وأشرف على طبعه الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب[6] وطبعه سنة ١٣٤٥هـ و١٣٥١هـ/ ١٩٢٦ و١٩٣٢م، الأستاذ الجليل

---

(١) القالي (٢٨٠ ـ ٣٥٦هـ/ ٨٩٣ ـ ٩٦٧م). هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون... البغدادي المعروف بالقالي، أبو علي، لغوي، نحوي، من أروى أهل زمانه للشعر الجاهلي. توفي بقرطبة.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج٢ ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦ «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٥ ـ ١٢٦. «الكامل في اللغة والأدب»: المبرِّد مج١ ص١ وانظر «مقدمة ابن خلدون»: تحق حُجر عاصي. دار الهلال. بيروت ١٩٨٣. ص٣٤٣.

(٣) «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٦. «البيان والتبيين»: للجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٠ مقدمة المحقق.

(٤) «البيان والتبيين»: للجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٩. و«الجاحظ»: جبر ـ ص٤٠. مقدمة المحقق.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٠ مقدمة المحقق.

(٦) «نفسه» ج١ مقدمة المحق هارون. ص١٩.

حسن السندوبي في مصر، مع تعليقات وشروح في الحواشي، بثلاثة أجزاء ألحق بها بعض الفهارس(١).

ثم طبع في مطبعة بيت المقدس سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م(٢). وطبع بمصر سنة ١٩٤٨م بتحقيق عبد السلام محمد هارون في أربعة أجزاء بمجلدين، واتبع منهجية البحث في تحقيقه وشرحه وفَهْرَسَته(٣) وأعاد طبعه الأستاذ حسن السندوبي سنة ١٩٥٦م في ثلاثة أجزاء، في مصر، في مطبعة الاستقامة(٤). ثم جُدِّدت الطبعات. . .

وهذا ما توصلنا إلى معرفته من أمر طباعة كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ موضوع بحثنا هذا.

٢ ـ الغايةُ من تأليفه

أَلَّف الجاحظ كتاب «البيان التبيين» وأهداه إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد(٥) فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار(٦).

كانت غاية الجاحظ إرضاء القاضي ابن أبي دؤاد بعد الأحداث التي حصلت بينهما. وأما غاياته الأخرى المستترة، فربما كانت في رغبة الجاحظ وضع أسس البيان العربي الذي يعتبر من مؤسسيه، أو ربما أراد إضافة أشياء لم يتمها في كتاب «الحيوان» فأفرد لها «البيان والتبيين». أو إظهار مقدرته البلاغية، وعرض ما في ذاكرته العجيبة بعد أن بلغ من الكبر عِتياً.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون. مقدمة المحقق هارون. ص٢٠.

(٢) نفسه مقدمة المحقق هارون. ص٢٠.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي بمصر ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق السندوبي. ط٤. المكتبة التجارية الكبرى. مطبعة الاستقامة. القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦.

(٥) أحد قضاة المعتزلة المشهورين، ورأس الفتنة في خلق القرآن. انظر ترجمته ص١٠٦ من هذا الكتاب.

(٦) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي مج١٦ ص١٠٦. «أدب الجاحظ»: السندوبي ص١٢٥. «لسان الميزان»: ابن حجر العسقلاني مج٤ ص٣٥٧.

ولنا الأخذ بالظاهر، الذي أجمع عليه أكثر الباحثين، وهو:

إرضاء القاضي ابن أبي دؤاد وتخصيصه بكتاب ذي شأن. فما هي حقيقة الأحداث التي حصلت بينهما، حتى دفعت الجاحظ لكتابة هذا الكتاب القيّم وإهدائه له؟.

قال المرزُباني[(١)]: وكان الجاحظ مُلازماً لمحمد بن عبد الملك[(٢)] خاصاً به. وكان منحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد[(٣)] للعداوة بين أحمدَ ومحمدٍ.

ولما قُبِضَ مُحمدٌ هرب الجاحظ فقيل له: لِمَ هربت؟ فقال: خِفْتُ أن أكون ثاني اثنين إذ هُما في التَّنُّور، يريد ما صنع بمحمد وإدخاله تنور حديد فيه مسامير كان هو صنعه لِيُعذِّب الناس فيه، فَعُذِّب هو فيه حتى مات (يعني محمد بن الزيات)[(٤)].

وعندما قتل ابن الزيّات أمر ابن أبي دؤاد بمثول الجاحظ أمامه مكبلاً بالحديد. ويُكمل ياقوت القصة فيقول: حدّث إسحاق الموصلي[(٥)] وأبو العيناء[(٦)] قال:

كنت عند أحمد بن أبي دؤاد بعد مقتل ابن الزيات، فجيء بالجاحظ مقيداً... فلما نظر إليه قال: والله ما عَلِمْتُك إلا متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، مُعَدِّداً للمساوىء، وما فُتّني باستصلاحي لكَ...

(١) محمد المَرزُباني (٢٩٦ ـ ٣٨٤هـ/ ٩٠٩ ـ ٩٩٤م). هو محمد بن عمران بن موسى بن سعيد المرزُباني، الخراساني الأصل، البغدادي، أبو عبد الله، كاتب، إخباري، رَاويةُ أدب، كثير السماع. «معجم المؤلفين»: كحالة. مج١١ ص٩٧.

(٢) ترجمة ابن الزيات في ص٣٢ من هذا الكتاب.

(٣) ترجمة أحمد بن أبي دؤاد في ص ١٠٦ من هذا الكتاب.

(٤) «معجم الأدباء ياقوت الحموي مج١٦ ص٧٦.

(٥) إسحاق الموصلي (١٥٥ ـ ٢٣٥هـ/ ٧٧٢ ـ ٨٥٠م). هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمي الموصلي. أبو محمد ابن النديم. من أشهر ندماء الخلفاء، تفرد بصناعة الغناء وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلوم الكلام، راوياً للشعر حافظاً للأخبار شاعراً.... «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٢٩٢.

(٦) انظر ترجمته في ص١١٠ من هذا الكتاب.

فقال له الجاحظ:

خَفِّضْ عليك - أيدك الله - فوالله لأن يكون لك الأمر عليَّ خير من أن يكون لي عليك، ولأن أُسيءَ وتُحْسنَ، أحسنُ عنكَ مِن أَنْ أحسنَ فَتُسيءَ، وأن تعفوَ عني في حال قُدْرَتِك أجملُ من الانتقام مني.

فقال له ابنُ أبي دؤاد: قبَّحكَ الله، ما عَلِمْتُكَ إلا كثير تزويق الكلام... ما تأويلُ هذه الآية؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

قال: تِلاوتها تأويلُها - أَعَزَّ الله القاضي - فقال: جيئوا بِحَدَّادٍ.

فقال: لِيَفُكَّ عني أو ليزيدني؟ فقال: بل لِيفُكَّ عنك.

فجيء بالحداد فَغَمزَهُ بعض أهل المجلس أن يَعْنفَ بساقِ الجاحظ، ويطيلَ أمره قليلاً، فلطمه الجاحظ وقال:

إعملْ عملَ شهرٍ في يومٍ وعمل يوم في ساعةٍ وعمل ساعةٍ في لحظةٍ، فإنَّ الضَّرَرَ على ساقي، وليس بجذع ولا سَاجَةٍ[2]. فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه. وقال ابن أبي دؤاد... أنا أثقُ بظَرْفِهِ ولا أثقُ بِدينِهِ، ثم قال: يا غلام: صِرْ به إلى الحمام وأَمِطْ عنه الأذى، واحملْ إليه تَخْتَ ثيابٍ وطويلةً[3] وخُفّاً، فَلَبس ذلك ثم أتاهُ فتصدَّر في مجلسه، ثم أقبل عليه وقال: هاتِ الآن حديثَكَ يا أبا عثمان[4].

وانكبَّ بعد ذلك على تأليف «البيان والتبيين». إرضاءً للقاضي. وقد مدحه بأقوال منثورة ومنظومة منها:

حَسَنُ الصمتِ والمقاطعِ إما   نَصَتَ القومُ والحديثُ يدورُ

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٢.

(٢) السَّاجُ: خَشَبٌ يُجلب من الهند، واحدته ساجة. وقال ابن الأعرابي: يقال الساجَةُ الخشبة الواحدة المشرحبة المربعة كما جلبت من الهند.

«لسان العرب»: ابن منظور مادة سوج مج٢ ص٣٠٣.

(٣) تخْت الثياب: خزانتها، والطويلة: ثياب بعينها مفتوحة من الأمام تُشْبه العباءة.

(٤) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي مج١٦ ص٧٩ - ٨٠.

ثم مِنْ بَعْدِ لحظةٍ تُورثُ اليُسـ ـرَ وعِرضٌ مهذبٌ موفورُ(١)

وكَتَبَ إليه أيضاً:

لا تراني وإنْ تطاولتُ عمْداً بين صَفَّيْهِمُ وأنت تسيرُ
كُلُّهُمْ فاضلٌ عليَّ بمالٍ ولساني يزينه التَّخبيرُ
فإذا ضَمَّنا الحديثُ وبيتٌ وكَأنّي على الجميع أميرُ
رُبَّ خصمٍ أَرَقُّ مِنْ كُلِّ رُوحٍ ولفرْطِ الذُّكا يكادُ يَطيرُ
فإذا رامَ غايتي فهو كابٍ وعلى البُعدِ كوكبٌ مبهورُ(٢)

ويقول ياقوت:

وكتابُ «البيان والتبيين» نسختان: أولى وثانية، والثانية أَصَحُّ وأَجْودُ(٣).

وإن صحَّ قولُ ياقوت فلسنا ندري أية النُسختين بين أيدينا؟.

٣ ـ مضمونــــه

استهل أبو عثمان، رحمه اللهُ، كتابه بالبسملة ثم بدعاءٍ رائعٍ استعاذ فيه من فتنة القول والعمل، ومن التكلُّفِ والعُجْب ومن السلاطة والهَذْر والعِيِّ والحَصر.

ومَثَّل على كلٍّ منهما بمنثور القول ومنظومه. ثم ذكر كيف طلب موسى عليه السلام ـ من ربه أنْ يَحُلَّ عُقْدَةَ لِسانه، ويصحبه أخوهُ هارون، إلى فرعون الطاغي، لأنه أفصح منه.

ثم بَيَّنَ كيف عَلَّمَ الله تعالى عبادَهُ البيان: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾(٤).

---

(١) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي مج١٦ ص٨١.

(٢) الكابي: الساقط، والمبهور: المغلوب بضوء غيره من الكواكب.
«معجم الأدباء»: ياقوت الحموي مج١٦ ص٨١.

(٣) نفسه. مج١٦ ص١٠٦.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٢.

ومُدِح القرآن الكريم بالبيان والفصاحة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(١).

ثم بَيّن كيف عرض الله سبحانه، لِنَبِيِّه محمد عليه السلام، حال قريش من بلاغة المنطق، وذكر العرب وما فيها من المكر والدهاء ومن بلاغة الألسن، واللَّدد عند الخصومة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾(٢). ثم استشهد بالشعر، فذكر الذين يُحْسنون في القول ويسيئون في العمل، وعَدَّدَ شيئاً من خِصال العرب، التي تجعلُ الحديثَ والبَسْط والتأنيسَ والتَّلقِّي بالبِشر من حقوق القرى وإتمام الضيافة. ثم انتقل إلى صفة أخرى من صفات قريش والعرب. قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾(٣).

ولأجل البيان قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(٤) لأن مدار الأمر على البيان والتَّبيُّن، وعلى الإفهام والتَّفهُّم(٥). ثم ذكر كيف ضرب سبحانه مثلاً برداءة البيان وعِيِّ اللسان، حين شَبَّه أهلَه بالنساء والولدان.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾(٦).

من هذا المنطلق وهذا الأسلوب بدأ الجاحظ دوره في تعليم البيان. فأخذ بعرض عيوب اللسان وذكر اللَّجْلاجِ والتمتام والألْثغ(٧)، والفأفاء، وذي الحُبسة

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.
(٤) سورة إبرهيم، الآية: ٤.
(٥) «البيان والتبيين»: للجاحظ. تحق هارون مج١ ص١١.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ١٨.
(٧) اللّجلاج: الذي يجول لسانه في شِدْقِه. «لسان العرب»: ابن منظور مادة لجج. ج٢ ص٣٥٥.
التمتام: أن يَعْجل بكلامه فلا يكاد يُفْهِمك. نفسه مادة. تمم مج١٢ ص١٧.
الألثغ: الذي لا يستطيع الكلام بالراء. نفسه مادة. لثغ مج٨ ص٤٤٨.

والحُكْلة والرُتَّة وذي اللَّفَفِ والعجلة[١]، وذَمَّ التشديق والتقعير والتقعيب[٢]، وعاب الفَدَّادين[٣]، حتى وصل إلى فحْش لُثغة واصل بن عطاء[٤]، فَرَامَ إسقاط الراء من كلامه، فحاجَّ خصومه وفاوض الإخوان ببلاغته وفصاحته.

وتوقف أبو عثمان عند اللَّفْظِ الفصيح، فذكر أنَّ البُرَّ أفصح من القمح والحنطة وأن لغة أهل مكة أفصحُ من لغة أهل البصرة؛ لأن ألفاظَها (يعني أهل مكة) أحكى الألفاظِ للقرآن[٥]. وأكثرُها له موافقة...

وضرب الأمثال. ثم قال: وفي القرآن معان لا تكادُ تَفْتَرِق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس[٦]. ثم استطرد بمن لَقَّب واصلاً بالغزّال ومن نفى ذلك. وذكر خصومة واصل لبشّار[٧]، وهجاء صفوان الأنصاري لِبَشَّار، وخَلَصَ

(١) الفَأْفَاء: حُبسة في اللسان. نفسه مادة. فتأ مج١ ص١١٩.
الحُكْلة: كالعُجْمة لا يبين صاحبها الكلام. نفسه مادة. حكل مج١١ ص١٦٢.
الرُتَّة: العَجَلة في الكلام. نفسه مادة رتت مج٢ ص٣٣.
اللَّفف: كَثْرةُ لحمِ الفخذين، وهو في الرجال عيب. ورجل ألَفّ: ثقيل. قال المبرِّد: اللَّفف: إدخال حرف في حرف. نفسه. مادة. لفف مج٩ ص٣١٧ ـ ٣١٩.
العجلة: السرعة: نفسه. مادة عجل. مج١١ ص٤٢٥.

(٢) التقعير: أن يتكلم بأقصى قَعْرِ فمه، والتقعيب في الكلام: كالتقعير. نفسه. مادة قعب مج١ ص٦٨٤.

(٣) الفَدَّاد: الجافي الصوت والكلام. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٣.

(٤) واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١هـ/ ٦٨٧ ـ ٧٣٨م) البصري الغزّال المتكلم البليغ الذي كان يلثغ بالراء. نقل عنه أنه هجر الراء وتجنبها في الخطابة. وسمع من الحسن البصري وغيره قال أبو الفتح الأزدي: رجل سوء كافر. كان من أجِلاّء المُعتزلة.
«لسان الميزان»: ابن حجر العسقلاني مج٦ ص٢١٤ ـ ٢١٥ رقم ٧٥٢.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٧ ـ ١٩.

(٦) «المصدر نفسه»: تحقق هارون مج١ ص٢١.

(٧) بشار بن برد (٩٥ ـ ٦٧هـ/ ٧١٤ ـ ٧٨٤م). العقيلي بالولاء، أبو معاذ، أشعر المولدين على الإطلاق. أصله من طخارستان غربي نهر جيحون، ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل إنها اعتقته من الرِّق. وكان ضريراً. نشأ في البصرة، وقدِم بغداد، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. اتُّهِم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودُفِنَ بالبصرة. =

إلى القول بأن واصلاً لُقِّب بالغزّال لأنه كان يُكْثِر الجُلوس في سوق الغَزّالين. وهو كقولهم خالد الحذّاء.

ثم انتقل إلى ذكر الحروف التي تدخلها اللُّثغة. فقال إنها أربعة: القاف تلفظ طاء، والسين تلفظ ثاء، واللام تلفظ ياء وكافاً، والراء تلفظ ياء أو غاء أو ذالاً أو ظاء.

وهذه اللّثغة تمنع المرء من الفصاحة، وتدخله في العيِّ والحصر، وتلوي لسانه وتُعْدِمُهُ البيان.

ثم ذكر مُسْتَكْرَهاتِ الخطابة، وأَحبَ المبسوط في موضعه، والموجز والكناية، والوحي باللَّحظ، ودلالة الإشارة، فعدد بعض أسماء الخُطباء الشُّعراء، والمَطبوعين على الشعر من المولَّدين، وأشار إلى خصلة إياد وتميم التي ليست لأحد من العرب.

واستشهد على ذلك بقول الرسول عليه السلام: «إنَّ مِنَ البيان لسحراً»(١) ويقول معاوية: «لقد أوتيت تميم الحِكْمة مع رقة حواشي الكلم»(٢). وقاده الكلام إلى عيوب الأشْفى والأشْدق والأَفْلَح والأروق والأفقم(٣)، وضرب أمثلة على عِيِّهم.

= «الأغاني»: للأصفهاني مج٣ ص١٢٩ ـ ١٣٥ «تاريخ بغداد»: للخطيب البغدادي مج٧ ص١٢ «الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ط١. قسطنطينية. عالم الكتب بيروت ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م. ص١٧٧ «الفهرست»: لابن النديم. دار المعرفة بيروت ص٢٢٧.
«خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»: الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي مج١ ص٥٤١ ـ ٥٤٢. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٥٢.

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٣.
(٢) نفسه تحق هارون مج١ ص٥٤.
(٣) الشُفا: اختلاف الأسنان، وقيل اختلاف نبتة الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج. والسِّن الشافية: هي الزائدة على الأسنان. «لسان العرب»: ابن منظور مادة شفا مج١٤ ص٤٣٥.
الأشْدق: الواسع الشدق، أي جانب الفم. نفسه مادة شدق مج١٠ ص١٧٣.
الأفلح: من الفَلح: شِقٌ في الشَّفَةِ السُفلى. نفسه مادة فلح مج٢ ص٥٤٨.
الأروق: الذي تطول أسنانه. نفسه مادة روق مج١٠ ص١٣٥.
الأفْقم: أن تدخل الأسنان العليا إلى الفم. نفسه مادة فقم مج٢ ص٤٥٧.

ثم ذكر الأضداد، من فصحاء العرب في البيان والبلاغة. والتفت الجاحظ إلى ما يعتري اللسان من ضروب الآفات، فعاودَ التكلُّم في اللثغة وأثر الوراثة فيها، كأنه طبيب مجرَّب، والثنايا السُفلى المنزوعة والصفير الذي يخرج منها، فسقوط الأسنان جميعها عنده أصلحُ للمرء في الإبانة عن الحروف، منه إذا سقط أكثرها وخالف أحد شطريها الشطر الآخر(١).

ورأى، بعد التجربة، أن الجمع بين الحار والقار يُسْقِطُ الأسنان، وأن التشمير والسَّمْك في الأسنان يُفسِد البيان(٢). ومن كان لسانه يملأُ جَوْبَةَ فمِهِ، لم يضرَّ سقوط أسنانِه إلا بالمقدار المُفْتقر، والجُزء المحتمل.

كذلك الحيوان كلما كان لسانه عريضاً كان أفصح وأبْيَنَ، كالببغاء. وتقول الهند: لولا أن الفيلَ مقلوبُ اللسان لكان أنطقَ من كل طائر(٣). ثم بسط قول الهيثم بن عَديّ»(٤):

وَلِكُل لغةٍ حروف تدورُ في أكثر كلامها كنحو استعمال الروم للسين واستعمال الجرامقة للعين(٥). وقول الأصمعي(٦): ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسرياني ذال(٧).

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص ٥٥ ـ ٦١.

(٢) التشمير: التقليص، والسَّمْك: الارتفاع نفسه مج١ ص٦١.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦٤.

(٤) الهَيْثَم بن عديّ (١١٤ ـ ٢٠٧هـ/ ٧٣٢ ـ ٨٢٢م) بن عبد الرحمن الثعلبي الطائي البحتري الكوفي، أبو عبد الرحمن، مؤرخ عالم بالأدب والنسب، أصله من منبج، وإقامته وشهرته في الكوفة. كان يرى رأي الخوارج، وَعَدَّهُ علماء الحديث من المدلسين ومن غير الثقات. توفي في فم الصلح قرب واسط.

«الفهرست»: لابن النديم ص١٤٥ «لسان الميزان»: ابن حجر العسقلاني مج٦ ص٢٠٩.

«الأعلام»: الزركلي مج٨ ص١٠٤.

(٥) الجرامقة طائفة من الكلدانيين أي السريانيين. «التنبيه والإشراف»: المسعودي. دار التراث ـ بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م. ص٦٨.

(٦) انظر ترجمته في ص٣١ من كتابنا.

(٧) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦٥.

وعَقَّبَ الجاحظ: ومِنْ أَلْفاظ العرب أَلفظ تتنافر...

ويكون الشعر مستكرهاً إذا كانت أَلفاظه لا يقع بعضها مماثلاً لبعض...

وأَجْوَدُ الشِّعر ما رأيته متلاحم الأَجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه قد أُفرِغ إفراغاً واحداً، وسُبِكَ سَبْكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِهان[1].

ثم التفت إلى اقتران الحروف فقال:

فإن الجيم لا تقارن الظاء، ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير. والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال، بتقديم ولا بتأخير. وَمَثَّل بأبي دَبُوبة الزِّنجي، مولى آل زياد، كان يقف بباب الكرخ وينهق، فلا يبقى حمار إلا يردّ عليه، وإذا نبح، نبحت الكلاب جميعها وراءه. وعاود القول باللُّثغة فقال: والذي يعتري اللسان مما يمنع البيان أمور: منها اللُّثغة التي تعتري الصبيان إلى أن يَنشَأوا وهو خلافُ ما يَعْتري الشيخ الهرم الماج[2]، المسترخيَ الحَنَكِ، المرتفعَ اللّثة، وخلاف ما يعتري أصحاب اللُّكَن من العجم، ومن يُنَشَّأ من العرب مع العجم[3]. ثم ساق الأمثال.

وانتقل إلى باب البيان، فأورد له تعاريف عديدة منها: إنّ البيان اسم جامع لكل شيء كشفَ لك قناعَ المعنى، وهَتَكَ الحجاب دون الضمير، حتى يُفْضيَ السامع إلى حقيقته، ويَهْجُمَ على محصوله كائناً ما كان بذلك البيان ومِنْ أيِّ جنس كان الدليل، لأن مدار الأمرِ والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنَّما هو الفَهم والإفهام، فبأيِّ شيءٍ بلغتَ الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم قال: إن حُكْم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأَن المعاني مبسوطة إلى

---

(١) البيان والتبيين: الجاحظ: تحق هارون مج١ ص٦٥ ـ ٦٧.

(٢) الهرم الذي يمج ريقه ولا يستطيع حبسه.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧١.

غير غاية. . . وأسماء المعاني مقصورة. . . . معدودة. . . وجميع أصناف الدلالات على المعاني خمسة أشياء لا تنقُص ولا تزيد: اللَّفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد،[1]، ثم الخط، ثم الحال التي تُسمى النُّصبة[2].

واعترف أنَّ من حق هذا الباب أن يكون في أول الكتاب. قال: ولكنّا أخّرناه لبعض التدبير[3]، وساق الأمثال.

واستطرد بقوله: وأحسنُ الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه. . . فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً. . . صنع في القلوب صنيع الغيث في التُّرْبَةِ الكريمة، ثم أورد قول عامر بن عبد قيس[4]: الكلمةُ إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان. قال الجاحظ: ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد والدنيّ الساقط، يُعَشِّشُ في القلب ثم يبيض ثم يُفرِّخ[5].

واستحسن، قبل أن يختم هذا الباب، قول الإمام إبراهيم بن محمد[6]: يكفي من حظ البلاغة أَنْ لا يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فَهْمِ السامع[7]. وصَدَّرَ باب البلاغة بالبسملة ثم الحمد، وساق لها

---

(١) العَقْدُ: ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج٣ ص١٤٧.

(٢) النّصبة: ضُبِطَتْ بكسر النون. ضَبْطَ اسم الهيئة.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧٦.

(٤) عامر بن عبد قيس. انظر ص ١٠٧ من كتابنا.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٨٥.

(٦) إبراهيم الإمام (٨٢ ـ ١٣١هـ/ ٧٠١ ـ ٧٤٩م). هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها، وهو الذي وجه أبو مسلم الخراساني والياً على دعاته وشيعته في خراسان. ثم ظهر أمر إبراهيم، وعلم به مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين، فقبض عليه وزجّه في السجن بحران ثم قتله في حبسه. فكانت البيعة من بعده سراً لأخيه السّفاح. «تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٩ ص٤٣٥ ـ ٤٤١.
«الأعلام»: الزركلي مج١ ص٥٩.

(٧) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٨٧.

تعاريف عديدة، ثم قال: ومن البصر بالحُجَّة، والمعرفة بمواضع الفُرصة، أنْ تَدَعَ الإفصاحَ بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أَوْعَرَ طريقة، وربما كان الإضراب عنها صَفحاً أبلغَ من الدَّرَك[1] وأحقَّ بالظفر. وساق الأمثال.

ثم انتقل إلى الإطناب والإشارة، وأورد ترجمةَ صحيفةٍ هندية عن التعريف بالبلاغة حتى وصل به الكلام إلى ذكر آلة القَصَص، وآلة المغنّي، وآلة الشعر، وآلة السُؤدد... وهذا الباب يقع في كتاب «الجوارح». وهو وارد عليكم إن شاء الله[2].

وذكر في باب جديد، ناساً من البلغاء والخطباء والأَبْيِنَاء والفُقهاء والأُمراء ممن كان لا يكاد يَسكت مع قلة الخطأ والزلل.

وتَطَرَّقَ إلى عِيِّ الإسهاب والإكثار، ثم عد الساكت بين النائم والأخرس، وساق الأمثال مُسْتَثْنِياً أحاديثَ القَصص والرِّقة، ثم استطرد إلى تعريف البيان والبلاغة، وضرب أمثلة على الإيجاز والمعاني والألفاظ. ثم عاد إلى التَحَدُّثِ عن الإطالة والإكثار في الخطب وأنواعها، ومدح جهير الصوت وسعة الفم لأنهما يساعدان الخطيب على الإفصاح، وعاب التشادق.

ووصل به الكلام إلى إيراد قول الفرزدق: أنا عندَ الناس أشعرُ العرب، ولربما كان نزعُ ضِرسٍ أيسر عليّ مِنْ أَنْ أقولَ بيت شعر[3].

وساق أمثالاً على الإقناع بالحجة، والفصاحة ونصح الخطباء، وأثبت كلام بشر بن المعتمر وخلاصته: أنْ يأخذ المرء ساعة نشاطه، ويحسن الاستفادة منها، ويبعد عن التّوعُّر، فإنَّ حق المعنى الشريف في اللفظ الشريف، فضلاً عن كونه رشيقاً عذباً فخماً سهلاً، ويكون المعنى ظاهراً، ويراعي اللفظ العاميّ والخاصيّ... ولا يجب أن تُكْرَه القافية على اغتصاب الأماكن. فإن

---

(١) الدّرك أي إدراك الأمور.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٩٤ ـ ٩٥.

(٣) نفسه تحق هارون مج١ ص١٣٠.

ابتليتَ بتكلّف القول فلا تعجل ولا تضجر. فصناعة التحبير يجب أنْ تكون أشهى الصناعات للكاتب. وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات... ومدَحَ العرب وعلماءهم الذين اشتقوا الأسماء ووضعوا أوزان القصيد، كما عدّدوا عيوب القافية. وسمّوا الحال والظروف، ووضعوا اصطلاحات للحساب(١).

ثم تعرّض لأنواع الكلام، وتَمَلُّح الاعرابي بإدخال بعضٍ من كلام الفارسية في شعره، وذمّ اللّفظ العاميّ والسوقي وتعرّض لأنواع العِيّ، وأبرزَ تلذُّذَه بحديث الأعراب العقلاء الفصحاء، واستحبابه للنادرة الباردة جداً من النادرة الحارة جداً. وانتقل إلى اللّحْنِ في الكلام ومثّل عليه، واستملح بعضه واستطرد بمحفوظاته الرائعة ليثبت قيمة الكلام ونوّه بأن اللسان أقطعُ من السيف، وبأن الكلام ينفذ حيث لا تنفذ الإبر.

ثم وَضّحَ قول العتّابي(٢) في البلاغة، ولخّص قول النّبطيّ والخراسانيّ والفارسيّ فيها، ومدح عرب الجزيرة، حيث اللغة البِكْر الصافية وساق الأمثال(٣).

وفي باب مديح اللسان مَثَّل بالشّعر والنثر، وذكر في الباب الذي يليه، مَنْ مدح شِدَّة العارضة وقُوةَ المُنَّة وظُهور الحُجَّة وثباتَ الجَنان، وكَثْرة الريق، والعلو على الخصم، وهجاء خلاف ذلك، واستطرد بقوله: بأن هذا الباب يقع في كتاب الإنسان وفي فصل ما بين الذكر والأنثى، تاماً، ولا يدخل في باب

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١. ص١٣٥. ١٣٩.

(٢) العتّابي (ت٢٢٠هـ/ ٨٣٥م). هو كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد العتابي. أبو عمر. أديب، شاعر، ناثر، أصله من الشام من أرض قنسرين، صحب البرامكة ثم صحب طاهر بن الحسين وعلي بن هشام القائدين.
«الفهرست»: ابن النديم. ص١٧٥ ـ ١٧٦.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج٨ ص١٤٥ «الأعلام»: مج٥ ص٢٣١.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٦١. ١٦٥.

البيان والتبيين، ولكن قد يَجري السبب فيُجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً للقارىء[1].

وتَعَرَّض من جديد إلى السَّلاطة والهَذر والتكلُّف والإسهاب، ومثَّل على الصمت بالأحاديث النبوية الشريفة، والأقوالِ المأثورة والمنظومة ثم مدح الإيجاز وطلاقة اللسان، ثم قال: وكانوا يأمرون بالتَّبيُّن والتَّثَبُّت، وبالتحرُّز من زَلَلِ الكلام، ومن زَلَلِ الرأي ومن الرأي الدَّبَرِيّ[2]، وكانوا يأمرون بالتحلُّم والتعلُّم. واستطرد إلى المِلح، وأوصى بعدم ترك التماس البيان والتبيين، وذم العِي، واستعاذ من البذاءة والأحاديث المُدَلَّسة، وانتقل إلى الشعراء فذكر الهجاء، وبلاغة عبد الحميد الأكبر[3] وابن المقفع[4]، واستهتار الفرزدق[5] بالنساء، وساق بعض الأمثال.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٨٦.

(٢) قال الجاحظ: الرأي الدَّبَرِيّ: هو الذي يعرض من الصواب بعد مضي الرأي الأول وفوت استدراكه. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٩٧.

(٣) عبد الحميد الأكبر (ت١٣٢هـ/ ٧٥٠م). هو عبد الحميد بن يحي بن سعيد العامري بالولاء المعروف بالكاتب. عالم بالأدب، يُضرَب به المثل في البلاغة. أصله من قيسارية. سكن الشام. وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب. «الأعلام»: الزِركلي مج٣ ص٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٤) ابن المقفع: (١٠٦ ـ ١٤٢هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٥٩م). هو عبد الله بن المقفع، من أئمة الكتّاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق. أصله من فارس، وولد في العراق مجوسياً مزدكياً وأسلم على يد عيسى بن علي عمّ السفّاح. اتهم بالزندقة، فقتله سفيان بن معاوية. انظر ترجمته في كتاب «كليلة ودمنة»: تصحيح أحمد حسن طبّارة. ط٤ المطبعة الوطنية. بيروت ١٩٣٣. ص٦ ـ ٧. «خزانة الأدب»: للبغدادي مج٣ ص٤٥٩ ـ ٤٦٠.
«لسان الميزان»: ابن حجر العسقلاني مج٣ ص٣٦٦ ـ ٣٦٧.
«الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٤٠.

(٥) الفرزدق (ت١١٠ هـ/ ٧٢٨م). هو همّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس شاعر من النبلاء من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة. وكان يقال لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة، ولولاه لذهب نصف أخبار الناس. كان شريفاً في قومه عزيز الجانب يحمي من يستجير بقبر أبيه، وجدِّه. قارب المئة وكان مشتهراً بالنساء وليس له بيت نسيب واحد. «خزانة العرب»: للبغدادي مج١ ص١٠٥.
«الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص١١١ ـ ١١٤ «الأعلام»: الزركلي مج٨ ص٩٣.

ثم انتقل إلى باب ذَكَر فيه ما قيل في المعاني الظاهرة باللفظ الموجز، ومن ملتقطات كلام الناس، فأورد أقوالاً لهم ولبعض النُساك، ولِعُمَر بن عبد العزيز[1].

كما مَثَّل على حُسْنِ البيان والتَّخَلُّص من الخصم بالحق والباطل، وتخليص الحق من الباطل، والإقرار بالحق، وترك الفخر بالباطل[2].

وانتقل إلى باب شعر يدخل في باب الخطب[3] ونوّه بالمقصود من تعريف العَتّابي للبلاغة[4] وأَتْبَعَهُ بباب ذكرفيه الكلام الموزون للمدح وتفضيل إصابة المقادير، وذمّ الخروج من التعديل، ثم أتْبعه بما قيل في الخُطَبِ واللَّسَنِ وساق الأمثال.

واستطرد بقول أبي عمرو بن العلاء[5]:

كان الشاعر في الجاهلية يُقَدَّمُ على الخطيب[6]. . . .

ثم انتقل إلى باب ذكر فيه مَنْ كان يعيب النَّوْك والعِيّ والحُمْق، وأخلاق النساء والصبيان وساق الأمثال.

ولم يَسْلَمِ المعلمون من نكاته قال: ومِنْ أمثال العامّة «أحمقُ مِنْ مُعلِّمِ كُتَّاب»[7].

---

(1) عمر بن عبد العزيز (٦١ ـ ١٠١هـ/ ٦٨١ ـ ٧٢٠م) بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص الخليفة الصالح، والملك العادل. ولي بالخلافة بعهد من سليمان فبويع في مسجد دمشق. ولم تطل مدته، قيل دُسّ له السُم وهو بدير سمعان من أرض المعرّة فتوفي به.
«تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٨ ص١٣٧.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٩ ص٢٤٦ ـ ٢٦٠. «الأعلام»: الزركلي مج٥ ص٥٠.

(2) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢١٢.

(3) المصدر نفسه تحق هارون مج١ ص٢١٨.

(4) المصدر نفسه تحق هارون مج١ ص٢٢٠.

(5) أبو عمرو بن علاء (٧٠ ـ ١٥٤هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٧١م). هوزَبّان بن عمّار التّميميّ المازنيّ البصريّ، أبو عمرو. من أئمة اللغة والأدب وأحد القُرّاء السبعة. ولد بمكة ونشأ بالبصرة ومات بالكوفة.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٤١.

(6) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٤١.

(7) نفسه: مج١ ص٢٤٨.

وعدّد أصناف المعلمين، وبَيَّن الفرق بين الشُّجاع والبطل، ولم ينسَ فضل من علّمه في الصِغَر.

ثم نصح المتأدبين بتجنّب السوقيّ والوحشي من الكلام. قال:

ولا تجعل همَّكَ في تهذيب الألفاظ، وشُغْلك في التَّخَلُّص إلى غرائب المعاني. وفي الاقتصاد بلاغٌ وفي التوسُّط مجانبة للوعورة، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه[1]، وساق الأمثال.

وفي باب الخِطَبِ القصار من خِطب السلف ومواعظ من مواعظ النُساك، وتأديبِ من تأديبِ العلماء، مَثَّلَ بآيات كريمة وأحاديث شريفة وكثير من الشعر ليروي عطش القارىء[2].

واستطرد إلى نفع الصمت، وتقليب اللسان، ولم ينسَ قول دَغْفَل بن حنظلة[3]: إنَّ لِلْعِلْمِ أربعة: آفة، ونكداً، وإضاعة، واستجاعة. فآفته النسيان، ونكده الكذِب، وإضاعته وضعُه في غير موضعه، واستجاعته أنّك لا تشبع منه[4].

ثم انتقل إلى باب ذكر فيه ما قالوا من الحديث الحسن الموجز المحذوف، القليل الفضول. ومَثَّل عليه. وأتبعه بباب الأسجاع، أورد فيه كثيراً من الأحاديث الجميلة. وأردفه بباب أفرغ فيه ما نَسِيَهُ في الباب السابق، ثم أثبت

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه تحق هارون مج١ ص٢٥٧ ـ ٢٧١.

(٣) دَغْفَل لقب. وقيل: دغفل الذهلي النسابة، وهو دغفل بن حنظلة السدوسي، أدرك النبي ﷺ ولم يسمع منه، ووفد على معاوية، وأتاه قدامة بن ضرار القريعي فنسبه دغفل حتى بلغ أباه الذي ولده. فقال: وولد ضرار رجلين أما أحدهما فناسك وأما الآخر فشاعر، فأيهما أنت فقال: أنا الكناني السفيه وقد أصبت في نسبي وكل أمري فأخبرني حتى أموت. قال: ليس ذلك عندي. وقتلت دغفل الشراة ولا مصنف له.
«الفهرست»: لابن النديم. ص١٣١ «الإصابة»: العسقلاني مج١ ص٤٦٤ ـ ٤٦٥ رقم ٢٣٩٩.

(٤) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص٢٧٣.

خُطبة قصيرة للنبي ﷺ[١]، وذكر الكلمات المسجعة التي خطب بهن الخليفة سليمان بن عبد الملك.

وانتقل إلى أسماء الخطباء والبلغاء والأبيناء، ذاكراً قبائلهم وأنسابهم وذكر بعض خطب الخوارج وأصحاب الأخبار.

وذكر أسماء الكُهّان والحُكّام والخطباء والعلماء من قحطان، ثم النُسّاك والزُهّاد من أهل البيان وأسماء الصوفية من النُساك ممن كان يجيد الكلام، فالقصاص، مُنْهِياً هذا القسم من الكتاب بما قيل في المخاصر والعصي: وهو باب مهم أثبت فيه حُبّه الحقيقي للعرب وهاجم الشعوبية، والتفت إلى ما ذكر مِنْ أنَّ أثرَ السيف يمحو أثر الكلام. وساق الأمثال.

ابتدأ كتابه الثاني بالبسملة والحمد، ثم بالردّ على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب ورؤسائهم قال: أحببنا أن نُصيِّرَ صدر هذا الباب كلاماً من كلام رسول رب العالمين... وعلى أنَّ خُطَباء السَّلف الطيبين و... ما زالوا يسموُّن الخُطبة التي لم تُبْتَدأ بالتحميد وتُستفتح بالتمجيد «البَتْراء» ويسموُّن التي تُوشَّح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي ﷺ «الشَّوهاء»[٢]. وفصّل أنواع خُطب العرب من أهل المدر والحضر، ثم أثنى على الشعراء الذين يمكثون حولاً في تنقيح قصائدهم، الحوليات والمنقحات، وجعل الشعراء أربع طبقات[٣]، وانتقد الذين يتكسبون بشعرهم.

ثم ذكر كلاماً للرسول الأعظم صلوات الله عليه مما لم يسبقه إليه عربي[٤]، ثم أثبت خُطبة الوداع[٥]، وأقوالاً للصحابة الكرام والعلماء والمحدثين والشعراء، وما قاله الخليفة أبو بكر الصديق[٦] رضي الله عنه،

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه تحق هارون مج٢ ص٦.

(٣) المصدر نفسه تحق هارون مج٢ ص٩.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٥.

(٥) المصدر نفسه تحق هارون ج٢ ص٣١.

(٦) راجع ترجمته ص٥٣ من هذا الكتاب.

لعمر(1) رحمه الله، حين استخلفه عند موته. وأولى خطب علي(2) كرّم الله وجهه (يعني الخطبة الأولى). ثم أتبَعَهَا بثلاث له (يعني لعليّ).

ثم أثبت خطبة لعبد الله بن مسعود(3) ولعُتْبة بن غزوان السُلميّ(4) ولمعاوية بن أبي سفيان(5) ولزياد(6)، وبعض مُقَطَّعات الكلام ومواعظ النساك.

وباب مزدوج الكلام أثبت خِطباً مسندة كخطبة عمر بن عبد العزيز(7)

---

(1) انظر ترجمته ص٢٣ من هذا الكتاب.

(2) علي بن أبي طالب (٢٣ ق.هـ - ٤٠ هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م). ابن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن، أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين، وابن عم النبيّ وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلاماً بعد خديجة. ولد بمكة، ورُبِّي في حجر النبي ﷺ ولم يفارقه. ولما آخى النبي ﷺ بين أصحابه قال له: أنت أخي.
ولي الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان، فعزل معاوية من ولاية الشام فعصاه معاوية فاقتتلا. وبعد التحكيم افترق المسلمون على ثلاثة أقسام، مناصر لمعاوية في الشام، ومناصر لعليّ بالكوفة، وناقم على عليّ بالتحكيم.
أقام علي بالكوفة، دار خلافته، إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي غيلة.
«تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٦ ص٨٣. «الإصابة»: ابن حجر العسقلاني ص٥٠٦ - ٥٠٣ رقم ٥٦٩٠. «الأعلام»: الزركلي مج٤ ص٢٩٥ - ٢٩٦.

(3) ابن مسعود: ت٣٢هـ/ ٦٥٣م. هو عبد الله بن مسعود الهذلي. أبو عبد الرحمن، صحابي ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم رسول الله الأمين وصاحب سرّه ورفيقه في حَلِّه وترحاله وغزواته. نظر إليه عمر يوماً فقال: وعاء مُلِيءَ عِلْماً. قدِم المدينة في خلافة عثمان بن عفان، فتوفي فيها.
«الإصابة»: العسقلاني. ص٣٦٠ رقم٤٩٥٥ «الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٣٧.

(4) انظر ص٢٣ من هذا الكتاب.

(5) انظر ص٥٢ من هذا الكتاب.

(6) زياد: (١ - ٥٣هـ/ ٦٢٢ - ٦٧٣م). هو زياد بن أبيه. أمير من الدهاة والقادة الفاتحين والولاة. من أهل الطائف. اختلف في اسم أبيه. أدرك النبي ﷺ ولم يره، أسلم في عهد أبي بكر. ولما توفي علي امتنع زياد على معاوية الذي اكتشف أنه أخوه من أبيه فألحقه معاوية بنسبه. قال الأصمعي: أول من ضرب الدنانير ونقش عليها اسم الله ومحا اسم الروم... وخطبته البتراء مشهورة. مات ولم يُخَلِّف غير ألف دينار.
«تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٦ ص١٦٢ «خزانة الأدب»: للبغدادي مج٢ ص٥١٧.
«لسان الميزان»: السعقلاني مج٢ ص٤٩٣ «الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٥٣.

(7) ترجمته في ص ١٢٨ من هذا الكتاب.

وخطبة لأبي حمزة الخارجي[١]، وخطبة لقطريّ بن الفُجاءة[٢] وخُطبة لمحمد بن سليمان[٣]، ولعُبَيْد الله بن زياد[٤]، ولقُتيبة بن مسلم الباهلي[٥]، وللأَحْنَف بن قيس[٦]، وللحجاج[٧]، وليزيد بن الوليد[٨]، وليوسف بن

---

(١) أبو حمزة: (ت١٣٠هـ/ ٧٤٨م). هو المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدي السليمي البصري ثائر فتّاك من الخطباء القادرة. ولد بالبصرة وأخذ بمذهب الأباضية. «الكامل»: ابن الأثير. مج٤ ص٢٩٧ حوادث سنة ١٢٨، وص٣٠٧ حوادث سنة ١٣٠. «الأعلام»: الزركلي مج٧ ص١٩٢.

(٢) قطري بن الفجاءة: (ت٧٨هـ/ ٦٩٧م). أبو نعامة. واسمه جبونه، من رؤساء الخوارج، الأزارقة، وأبطالهم، من أهل قطر. كان خطيباً فارساً شاعراً. «الكامل في التاريخ»: لابن الأثير مج٤ ص١٧١. «تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٧ ص٢٧٤. الأعلام»: الزركلي مج٥ ص٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) محمد بن سليمان: بن علي الهاشمي أمير البصرة. لا يعرف بالنقل، وحديثه غير محفوظ. قال البزاز: لا نعلمه يروي عن النبي ﷺ. ولاّه المنصور على البصرة ثم على الكوفة، ولاّه المهدي وعزله الهادي وأقره الرشيد إلى أن مات. اختلف في وفاته حوالي ١٧٣هـ/ ٧٨٨م.
«لسان الميزان»: العسقلاني مج٥ ص١٨٨ ـ ١٨٩.

(٤) عبيد الله بن زياد بن أبيه (٢٨ ـ ٦٨هـ/ ٦٤٨ ـ ٦٨٦م). خطيب من الشجعان. ولد بالبصرة وكان مع والده لمّا مات في العراق. ولاّه عمه معاوية خراسان ونقله إلى إمارة البصرة، فقاتل الخوارج أشد قتال. كان مقتل الحسين رضي الله عنه على يده. قتله ابن الأشقر.
«تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٦ ص١٦٦. «الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٩٣.

(٥) قُتَيْبة بن مسلم الباهلي: (٤٩ ـ ٩٦هـ/ ٦٦٩ ـ ٧١٥م). أبو حفص. أمير فاتح من مفاخر العرب. كان أبوه كبير القدر عند معاوية. ولي خراسان، وغزا أطراف الصين. قتله وكيع بن حسان التميمي. «تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٨ ص١٠٣ «الخزانة»: للبغدادي مج٣ ص٦٥٧. «الأعلام»: الزركلي مج٥ ص١٨٩ ـ ١٩٠.

(٦) الأحنف بن قيس: (٣ق.هـ ٧٢هـ/ ٦١٩ ـ ٦٩١م). التميمي. أبو بحر. أحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يُضْرَبُ به المَثَلُ في الحلم. ولد بالبصرة. أدرك النبي ولم يره، اعتزل الفتنة يوم الجمل، وشهد صِفِّيْن مع علي. ولي خراسان.
«الإصابة»: العسقلاني مج١ ص١١٠ رقم ٤٢٩ و«الأعلام»: الزركلي مج١ ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٧) الحَجَّاج بن يوسف الثقفي: (٤٠ ـ ٩٥هـ/ ٦٦٠ ـ ٧١٤م). أبو محمد. قائد، داهية سفاك خطيب. قلده عبد الملك أمر عسكره، قمع الثورة في العراق وبنى مدينة واسط وأول من ضرب درهماً عليه (لا إله الله محمد رسول الله) وأول من بنى مدينة بعد الصحابة وأول من اتخذ المحامل. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص١٦٨.

(٨) يزيد بن الوليد: (٨٦ ـ ١٢٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧٤٤م). أبو خالد من ملوك الدولة المروانية الأمويّة في الشام. مات بالطاعون وقيل: مات مسموماً.
«تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٢ ص٣٢١ ـ ٣٢٢. «الكامل في التاريخ»: لابن الأثير مج٥ ص١١٥. «التنبيه والإشراف»: للمسعودي»: ص٢٨٠ «الأعلام»: الزركلي مج٨ ص١٩٠.

عمر[1] وغيرهم. . . وانتقل إلى باب: من اللغز في الجواب والتشديق وإلى ما يقول كل إنسان قدر خلقه وطبعه، ووشَّحَهُ بالشواهد[2].

ورجع إلى اللَّحن فقال: قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[3] فاللَّحن في هذا الموضع غير اللحن في ذلك[4].

وفي باب النّوكى[5]، ساق شواهد متنوعة ثم أورد باباً من الكلام المحذوف وأثبت بعض الخطب ومثَّل على تشبيه الشيء بشعر قبل أن ينتقل إلى نوادر الأعراب، ثم تكلم على الشيب والزُّهد، والبَلَهِ الذي يعتري من قِبَلِ العِبادة وساق الأمثال.

وكعادته زَيَّنَ كِتابه الثالث بالبسملة ثم قال: هذا ـ أبقاك الله ـ الجُزء الثالث من القول في البيان والتبيين وما شبه ذلك من غرر الأحاديث. . .

ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعِنِهم على خُطباء العرب[6].

---

(١) يوسف بن عمر الثقفي: (ت٢٧هـ/ ٧٤٥م). أبو يعقوب. أمير ولي اليمن أيام هشام. عزله يزيد وحبسه في دمشق ثم قتله. وكان يضرب به المثل في التيه والحمق.
«الأعلام»: الزركلي مج٨ ص٢٤٣.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٧٥.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣٠.

(٤) معنى اللَّحن في الآية الكريمة هو المقصد أو الفحوى أو المغزى. أي إذا تكلموا عندك، فَيُعَرِّضوا بما فيه تهجين أمرك وأمر المسلمين. قال أبو زيد: لحنت له اللَّحن: إذا قلت له قولاً يفقهه عنك ويَخْفى على غيره. أما معنى اللَّحن الآخر فهو الإمالة عن صحيح المنطق أو العدول عن الصواب. انظر فصل اللحن من الباب الثاني ص٢٠٤.
«فتح القدير»: لمحمد علي بن محمد الشوكاني ط٣. دار الفكر بيروت ١٩٧٢ مج٥ ص٤٠.
«تفسير الجلالين»: جلال الدين بن محمد بن أحمد وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي مكتبة الملاح. دمشق ص٦٧٥.

(٥) الأَنْوك: الأَحمَق وجمعه النوكى. «لسان العرب»: ابن منظور. نوك مج١٠ ص٥٠١.

(٦) الشعوبية: نسبة غير قياسية إلى الشعوب. وهم فريق من الناس لا يرون للعرب فضلاً على غيرهم بل يبالغون في حَطِّ قدرهم. والتسوية: أي التسوية بين العرب والعجم.
انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ حاشية ص٥.

ثم عدَّدَ اتهاماتهم، ودعا من أَحَبَّ صناعةَ البلاغة ويعرفُ الغريب ويَتَبَحَّرُ في اللغة أن ينظر في كتاب كارْوَنْد[1] وسير الملوك، ثم هاجم الشعوبية. واستطرد إلى القول بالعصا وما يجوز فيها من المنافع والمرافق وأثبت الآيات الكريمة في ذكرها. وقال: وأما العصا فلو شئت أن أشغل مجلسي كلّه بخصالها لفعلت[2]. وسرد مجال استخداماتها وهاجم الشعوبية وذكر أن الرهبان تتخذها من غير سقم. وساق شواهده الكثيرة ثم استطرد، إلى عادات أهل الحرم وأسماء الإبل، والعَمَامَةِ والقناع في أسواق العرب، ولَهْج العرب بذِكر النّعال، وعَظَّمَ شأن عصا موسى عليه السلام وسواك النبي ﷺ[3]. وذكر أزياء الخلفاء العامة والخاصة.

وابتدأ، في كتاب الزهد، بذكر أخلاق الزُّهاد ومواعظهم ووشّاه بكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والأشعار. ثم بأخلاط من شعر ونوادر وأحاديث للتَّفْكِهَة، وبرسالة لإبراهيم بن سيَّابة[4] إلى يحيى بن خالد بن برمك[5]. وسمّى الباب التالي: ذكر حروف من الأدب. ثم استطرد إلى العصا ومما يضم إليها، وكأنه تذكر شيئاً عن الصبا فكتب كثيراً من الشعر.

ثم التفت إلى خطباء الخوارج فعدَّدَ أسماءهم وأقوال علمائهم. وفي باب الدعاء، صدّره بالآيات الكريمة، وأقوال للأعراب والعلماء، ثم أدعية للصحابة

---

(١) كارْوَنْد، مكون من كلمتين فارسيتين «كار»: ومعناها الصناعة، و«ند»: بمعنى المديح والثناء. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٤.

(٢) المصدر نفسه تحق هارون مج٣ ص٤٣.

(٣) المصدر نفسه تحق هارون مج٣ ص١١٣.

(٤) إبراهيم بن سيابة: كسحابة وأصل معنى السياب البلح أو البسر. هو شاعر من شعراء الدولة العباسية من موالي الهاشميين. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤٠٥.

(٥) يحيى البرمكي (١٢٠ ـ ١٩٠هـ/ ٧٣٨ ـ ٨٠٥م). ابن خالد، أبو الفضل، الوزير السريّ الجواد. مؤدب الرشيد. ويقال إن الرشيد وضع من زوجته فكان يدعوه: يا أبي. اشتهر بجوده وبحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد بالبرامكة فقبض عليه وسجنه في الرَّمة إلى أن مات. «تاريخ بغداد»: للخطيب البغدادي مج١٤ ص١٢٨. «الأعلام»: الزركلي مج٨ ص١٤٤.

والخلفاء. ومنها دعاء الغنويّ[1] في حبسه، وترداد صالح المريّ[2] في مجالسه..

وفي باب: القول في إنطاق الله عز وجل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، بالعربيّة المبينة على غير التّلقين وعلى غير التدريب والتّدرّج، وكيف صار عربياً أعجمي الأبوين[3]، قال: كان أول عربي من جميع بني آدم ﷺ ثم ذكر كيف بعث الله تعالى محمداً ﷺ إلى العجم فضلاً عن العرب واستطرد إلى القول في الأطفال الخُرْس، ومعجزة القرآن الكريم.

وفي باب: كانت العادة في كتب الحيوان قال: إنه، عندما ألف كتابه، كان حاضر الذهن، فكأنه يشير إلى ضخامة كتابه، فأفرد باباً سمّاه: وجه التدبير في الكتاب إذا طال ونصح القارىء أن يَخْرُج من شيء إلى شيء ومن باب إلى باب، لينشط ذهنه وحتى لا يدخل إلى قلبه الملل.

ثم أفرد باباً لبقية كلام النوكى والموسوسين والجفاة والأغبياء وساق أمثلة فكهة وشواهد.

وانتقل إلى رواة المسجديين والمِربديين[4] ومن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الأعراب والأراجيز وأشعار اليهود واستطرد إلى ذكر آيات حكيمة وأحاديث شريفة وشيئاً من صفات محمد ﷺ.

ثم ذكر فضل الشعر والخوف، وتلخيص المعاني ومن عَزّى بعض الملوك. وخرج بالقول: بأن الشاعر أرفع قدراً من الخطيب.

---

(١) لعله طفيل الغنوي «الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٢٢٨ «معجم المؤلفين»: كحالة مج٥ ص٤١.

(٢) هو صالح بن بشير بن وادع المرّيّ (ت١٧٢هـ أو ١٧٦/ ٧٨٧ أو ٧٩١م). أبو بشر البصري القاضي الزاهد، أحد رواة الحديث العُبّاد البُلغاء. كان مملوكاً لامرأة من بني مُرّة بن الحارث فاعتقته. عن محقق «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١١٣.

(٣) العَجَم: خلاف العرب.
والأعجمي: الذي في لسانه عجمة لا يفصح بالعربية.

(٤) المِربديين: نسبة إلى المِربد.

كما ذكر أن من الشعراء الإسلاميين من لا يقدر على الرجز وهو في ذلك يجيد القريض كالفرزدق(١) وجرير(٢)، ومن يجمعهما.

وختم كتابه بأقوال حكيمة للبلغاء ثم قال:

وهذا - أبقاك الله - آخر ما ألفناه من كتاب «البيان والتبيين».

ونرجو أن نكون غير مُقصِّرين... فإن وقع على الحال التي أردنا، وبالمنزلة التي أمّلنا، فذلك بتوفيق الله وحسن تأييده، وإن وقع بخلافها فما قصّرنا في الاجتهاد ولكن حُرِمنا التوفيق والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) انظر ص١٢٧ من هذا الكتاب.

(٢) جرير (٢٨ - ١١٠هـ/ ٦٤٠ - ٧٢٨م). هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي من تميم. أبو حرزة. أشعر أهل زمانه. ولد ومات في اليمامة. ولم يثبت أمام شعره سوى الفرزدق والأخطل.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٨ ص٥ - ٨٩.
«خزانة الأدب»: للبغدادي مج١ ص٣٦ و٣٠٧.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ص١٠٨ - ١١١.
«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص١١٩.

الفصل الثالث

مفهوم الجاحظ للأدب والشعر والبلاغة وعلومها

١ ـ بين الفصاحة والبلاغة

الفصاحة لغة هي البيان والظهور(١). فإذا قلنا: أفصح العجمي: تَكلَّمَ بالعربية. وفصح: انطلق لسانه بها وخلصت لغته من اللُّكنة. وأفصح الصبي في منطقه: فهم ما يقول في أول ما تكلّم(٢).

وقيل: هي في اللغة لا تخلو من معنى الظهور، فيكون فعلها لازماً، كقولهم فصح اللبن إذا ظهر من رغوته، أو عن معنى الإبانة، فيكون فعلها في المعنى متعدياً، كأفصح الأعجمي: أبان مراده. وتُنقِل عُرفاً إلى وصف الكلمة، فيُقال: كلمة فصيحة، وإلى الكلام، فيقال: كلام فصيح، وتركيب فصيح، وإلى المتكلم، فيقال: متكلم فصيح(٣).

والفصاحة في المفرد هي: خلوصه من تنافر الحروف، والغرابة ومخالفة القياس اللغوي أي الضابط المتقرر من استقراء الاستعمال اللغوي. والخلوص هنا

---

(١) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة فصح مج٢ ص٥٤٤.

(٢) «أساس البلاغة»: الزمخشري تحق عبد الرحيم حمود. دار المعرفة. بيروت ١٩٨٢ ص٣٤٣.

(٣) «عقود الجمان في علم المعاني والبيان»: عبد الرحمن السيوطي. ص٣.

«شروح التلخيص»: هي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني... على الأصول الخمسة: للخطيب القزويني وابن يعقوب المغربي، بهاء الدين السبكي، ومختصر الإيضاح لمؤلف التلخيص، وحاشية الدسوقي. مط. عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٣٧م مج١ ص٧.

بمعنى النفي من كل واحد من الثلاثة المذكورة لا من مجموعها. فالتنافر منها معنىً في حروفها يوجب عسر النطق بها، نحو «مستشزرات» في قول امرىء القيس:

وفَرْعٍ يَزينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كَقِنْو النخلة المُتَعَثْكِلِ
غدائرهُ مستشزرات إلى العلى تضل المداري في مثنّىً ومرسلِ

مستشزرات أي مرفوعات، إن روي بفتح الزاي، أو مرتفعات، إن روي بكسرها. وإنّما كان الثقل في مستشزرات، لتوسط الشين، وهي مهموسة رخوة، بين التاء، وهي مهموسة شديدة، والزاي وهي مجهورة. والغرابة هي كون الكلمة وحشية أي غير مأنوسة الاستعمال، ويلزم كونها غير ظاهرة المعنى بالنسبة لمن كانت تلك الكلمة وحشية لديه.

والوحشية قسمان: قبيحة مستكرهة ذوقاً، لعدم تداولها في لغة خُلّصِ العرب أي أهل البادية دون المولدين. ومن المعروف أن اللغة الصافية هي لغة أهل البادية العذراء التي لم تختلط بغيرها، وحسنة وهي غير مُخِلّة بالفصاحة بالنسبةِ للعرب الخلص. ومنها غريب القرآن والحديث فغرابة المستحسنة إخلالها بالفصاحة نسبي.

فهي غريبة عند المولدين وليست غريبة على خُلّصِ العرب.

والمخالفة للقياس اللغوي، هي كون الكلمة غير جارية على القانون الذي يتقرر به حكم المفردات اللغوية، والمفردات اللغوية يتقرر حكمها بالقانون التصريفي. فإذا اقتضى قلب الياء ألفاً مثلاً فوردت الكلمة بخلاف ذلك فقد خرجت عن القانون فتكون غير فصيحة...

والفصاحة في الكلام: خلوصه من ضعف التأليف، ويحصل هذا الخلوص بكون الكلام جارياً على القانون المشهور، وخلوصه من تنافر الكلمات وذلك بأن لا يَثْقُلَ على السمع. وخلوصه من التعقيد، وذلك بأن لا يضعف فهم المعنى من الكلام بوجه يرجع إلى اللفظ، لا بوجه يرجع إلى المعنى. مثلاً، ضرب غلامه زيداً؟

والفصاحة الكائنة في المتكلم هي ملكة، وهي كيفية راسخة في النفس. والمقصود بالملكة، صفة أو هيئة راسخة في النفس يقتدر بها على التعبير المقصود بلفظ فصيح.

والكيفية عرض لا يتوقف تعقله على تعقل الغيرِ، كالعلم بفن من الفنون(١).

والفصاحة في اصطلاح أهل المعاني، عبارة عن الألفاظ البيِّنة الظاهرة، المتبادرة إلى الفهم، والمأنوسة الاستعمال بين الكتاب والشعراء، لمكان حسنها(٢).

والفصاحة تورث الكلام حسناً إذ يَسْهُل على اللسان النطق به لتآلفه، ويسهل على العقل فهمه لترتيب ألفاظه وفق ترتيب معانيه.

وإذا تساءلنا عن معيار الفصاحة في العصر الحدث، وجدنا أنَّ المحدثين لم يضيفوا، على ما نعلم، شيئاً على علوم الأقدمين.

والتطور في معاني الكلم نتج عن اقتحام المدينة الغربية لبلاد الشرق واستعمارها، مما أكسب جموداً، وتوجيهاً خاطئاً مقصوداً. فَبِقَدْر ما نتمسك بأصالة التراث، بِقَدْرِ ما تتجلى الحقيقة لنا وللأجيال القادمة. ومن تخلى عن تراثه لا أصل له.

فالفصاحة خير وسيلة للتعبير عن الحقيقة.

والبلاغة لغة: بلغ الشيء يبلغُ بلوغاً وبلاغاً. وصل وانتهى. والبلاغة: الفصاحة: والبليغ: حسن الكلام، فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه. والجمع بُلَغاء(٣).

---

(١) «عقود الجمان في علم المعاني والبيان»: السيوطي ص٤. ٧.
«شروح التلخيص»: التفتازاني مج١ ص٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٨ ـ ٩٥ ـ ١١٧ ـ ١١٨ ـ ١١٩ ـ ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) «جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع»: أحمد الهاشمي. ط١٢. مؤسسة المعارف. بيروت. ص٥ ـ ٢٢.

(٣) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة بلغ. مج٨ ص٤١٩ ـ ٤٢٠.

وفي الاصطلاح تكون وصفاً للكلام والمتكلِّم:

فالبلاغة في الكلام، مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته. والحال: هو الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص، ويختلف مقتضاه اختلاف مقامات الكلام. فمقام التنكير يخالف مقام التعريف. . .

ولكل كلمة، مع أخرى تصحبها في أصل المعنى، مقام.

فيوصَف اللفظ بها باعتبار إفادته المعنى بالتركيب لا من حيث إنه لفظ وصوت، لأنه باعتبار ذلك لا يوصف بكونه مطابقاً أو غير مطابق ضرورة، فإن ذلك يتحقق عند تحقق المعاني والأغراض التي يصاغ لها الكلام.

وقد يسمى هذا الوصف فصاحة أيضاً كما يسمى بلاغة.

أما الفصاحة، بهذا الاعتبار، فهي صفات اللفظ دون المعنى قطعاً.

وللبلاغة حَدَّان: أعلى، يخرج بارتقائه حداً يخرج عن طوق البشر وهو الإعجاز، وهو مُنْصَبٌّ في كلامه تعالى، وما يقرب منه، هو كلام النبي ﷺ؛ وأسفل: هو ما لو غير الكلام عنه إلى ما دونه، التحق عند البُلغاء بأصوات الحيوانات، في خلوه عن الحُسْن، وإن كان صحيح الإعراب. والبلاغة في المتكلم على نَسَقِ الفصاحة فيه، فيُقال هي ملكة يَقْتدر بها على تأليف كلام بليغ.

فكل بليغ، كلاماً كان أو متكلماً، فصيح، لجعل الفصاحة شرطاً للبلاغة وليس كل فصيح بليغاً كلاماً كان أو متكلماً، لأن الفصيح قد يعرى عن المطابقة له. فالبلاغة مرجعها إلى التحرز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وإلا لأدَّاه بغير مطابقة، وإلى تمييز الفصيح من غيره وإلا لأَوْرَدَ المُطابق بلفظ غير فصيح فلا يكون بليغاً.

بعضه يعرف من علم اللغة وهو الغرابة، وبعضه من علم الصرف أو التصريف وهو مخالفة القياس، وبعضه من علم النحو وهو ضعيف التأليف والتعقيد اللفظي، وبعضه يُدرك بالحس وهو التنافر.

لم يبق مما ترجع إليه البلاغة إلا الاحتراز عن الخطأ في التأدية، فوُضِعَ له علم المعاني، وإلا، تمييز السالم من التعقيد المعنوي من غيره، فَوُضِعَ له علم البيان. ثم احتاجوا إلى معرفة توابعها، فَوُضِعَ له علم البديع(١). وقد اختلف الناس في البلاغة والفصاحة من صفات اللفظ أو المعنى وهل هما مترادفان؟

قال حازم نقلاً عن أفلاطون: الفصاحة لا تكون إلا لموجود والبلاغة تكون لموجود ومفرد(٢).

والفصاحة جزء من البلاغة، والكلام الفصيح يصف المفرد والكلام والمتكلم، بينما الكلام البليغ يصف الكلام والمتكلم فقط.

والجاحظ، في «البيان والتبيين» لم يحدد التعاريف البلاغية كما نفهمها اليوم، بل زرع في كتابه بذور العلوم البلاغية، التي نمت وازدهرت، بفضل عناية علمائنا بشرحها وتحديدها والتوسع بها، حتى كادوا لا يُغْفِلوا شيئاً منها.

٢ ـ مفهوم الجاحظ

* للأدب.
* والشعر.
* والبلاغة وعلومها.

خلق الله، سبحانه، الإنسان في أحسن تكوين، ووهبه نعمة العقل والنطق، ثم فَضَّلَهُ على سائر مخلوقاته، واختار له أنبياء، ليهدوه سبل الخير والصراط المستقيم الموصل إلى الحقيقة الأزلية. فرهف حسُّه ورقَّتْ مشاعره، وزاد تَحَسُّسُه بحقيقة الوجود حتى أدرك أنه اجتماعي لا تتم سعادته وتتحقق آماله إلا مع أفراد جنسه.

---

(١) «عقود الجمان»: السيوطي. ص٦ ـ ٧ ـ ٨ وحاشية ص٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠. «شروح التلخيص»: التفتازاني مج١ ص١٢٢ ـ ١٣٢ ـ ١٣٤ ـ ١٣٧ ـ ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) «شروح التلخيص»: التفتازاني مج١ ص١٣٥.

ولأجل هذا وُجِدَتْ اللغة لتكون وسيلة تفاهم دائم وربط بين الإنسان وبني جنسه، فَتُوصِل ما تجيش به النفس إلى الآخرين. من هنا كانت أهمية الكلام وصياغته.

ففي معنى الأدب جاء في «اللسان»: الأدب الذي يَتَأَدَّبُ به الأديب من الناس، سمي أدباً لأنه يَأْدِبُ الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح، وأصل الأدب الدُّعاء...

قال أبو زيد: أَدُبَ الرّجل يأْدُبُ أَدْباً فهو أديب. وأدَّبه فتأدب: أي علَّمه.

واستعمله الزّجّاج في الله عز وجل فقال: وهذا ما أَدَّبَ الله تعالى به نبيه ﷺ[1].

ويقول ابن خلدون في علم الأدب: وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومفاهيمهم... وإذا أرادوا حَدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل عِلْم بطَرَف[2].

ويقول طه حسين: إن الأدب في جوهره إنما هو مأثور الكلام نظماً ونثراً، وإن هذا الكلام المأثور لا يستطيع أن ينهض الأديب بفهمه وذوقه إلا إذا اعتمد على ثقافة قوية وعلى طائفة من العلوم الإضافية لا بد منها[3]....

ويُعَرِّفه الدكتور درويش: بأنه ذلك الفن الرفيع من القول، الذي يصدر جماله عن طبع الشاعر والكاتب والخطيب، في القصيدة التي ينظمها، والكلمة التي يرسلها، والخطبة التي يرددها، فتقع على مواضع الحسن من النفس، فتثيرها حماسة ونجدة[4].

ونخلص إلى القول في تعريف جوهر الأدب:

---

(١) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة أدب مج١ ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) «مقدمة ابن خلدون»: تحق حجر عاصي. ص٣٤٣.

(٣) «الأدب والنقد»: المجموعة الكاملة. طه حسين مج٥ ص٣٣.

(٤) «في النقد الأدبي عند العرب»: د. محمد طاهر درويش. ص١٣.

إنه فيض النفس عن مكنوناتها، بلغة متمكنة جميلة. وكيفما عرّفنا الأدب وجدنا الجاحظ في كل لون من ألوانه، وفي كل مذهب من مذاهبه أديباً عملاقاً.

لقد حمل لواء النثر الفني والبيان العربي في العصر العباسي، ولا شك في أنه استفاد كثيراً من العلماء الذين سبقوه أو عاصروه.

وكانت طريقته في الكتابة تشبه طريقة ابن المقفع من حيث سهولة العبارة والجزالة التي يصعب تقليدها.

قال الدكتور جبر: وفضلاً عن دراسته الدقيقة لمجتمعه، تناول أدبه الشعوب: كالأتراك والزنوج والهنود والفرس والعرب، فمهّد بذلك السبيل لابن خلدون في وضع أسس علم الاجتماع الحديث(١).

وتكفي شهادة ابن خلدون بكتاب «البيان والتبيين» بأنه ركن وأصل في فن الأدب(٢).

أما الشِّعْر - بكسر الشين وسكون العين - فهو الكلام الموزون المقفى كما في المنتخب وعند أهل العربية.

وهو الكلام الموزون المقفى الذي قصد إلى وزنه وتقفيته قصداً أولياً، والمتكلم بهذا الكلام يسمى شاعراً...

فإن الشاعر يكون المعنى منه تابعاً للفظ لأنه يقصد لفظاً يصح به وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التخيل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ...

فالشعر ما قصد أولاً وبالذات، ثم يتكلم به مراعياً جانب الوزن فيتبعه المعنى(٣)...

---

(١) «الجاحظ»: جبر - ص١٣٥ - ١٣٩.

(٢) «مقدمة ابن خلدون»: تحق حجر عاصي. ص٣٤٣.

(٣) «كشاف اصطلاحات الفنون»: محمد علي التهانوي. تحق د. لطفي عبد البديع حسنين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٧. ص١٠٨ - ١٠٩.

وقال ابن خلدون: وقول العروضيين في حده (أي الشعر) إنه الكلام الموزون المقفى ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له. وصناعتهم إنما تنظر في الشعر باعتبار ما فيه الإعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة. فلا جرم أن حَدَّهم لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية.

فنقول: الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن الرويّ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به(١).

وانتقد أحمد أمين هذا التعريف بقوله: عيب هذا التعريف، أنه لم يلتفت إلى أكبر مزية للشعر، وأحد أركانه وهو إثارة الشعور، فعني بالشكل فقط من بنائه على الاستعارة والأوصاف، وكان خيراً منه أن يقول:

إنه المبني على الخيال المثير للعاطفة(٢).

وقبل أن يعرّف طه حسين الشعر استعرض الآراء حول معانيه فقال: والناس يختلفون في معنى الشعر اختلافاً بيّنا، فمنهم من يرى أنه الكلام الذي يعتمد فيه صاحبه على الخيال، ويقصد فيه إلى هذا الجمال الفني، فهو لا يرى منظومات النحو والصرف شعراً وإن نظمت في الوزن والقافية.

وآخرون يتحللون من بعض هذه القيود دون بعضها الآخر، متأثرين في ذلك بتطور الشعر عند بعض الأمم الأجنبية، كأن يتحللوا من القافية مثلاً، ويكتفوا بالوزن. وقد لا يتفقون فيما بينهم على مقدار التحلل من القافية، فبعضهم يريد إلغاءها، وبعضهم الآخر يرى الاكتفاء منها بالمقدار اليسير، وربما لم يتفقوا في مقدار التزام الوزن نفسه، فمال بعضهم إلى التزام البحر الواحد في

---

(١) «مقدمة ابن خلدون»: تحق حجر عاصي. ص٣٥٥.

(٢) «النقد الأدبي»: أحمد أمين مج١ ص٧٩.

القصيدة الواحدة، ومال بعضهم الآخر إلى الافتنان في هذه البحور فخلط بحراً ببحر من البحور التي عرفها العروضيون، وربما أضاف إلى هذه البحور ما لم يكن للعروضيّين به عهد من قبل. . .

ثم قال: إنه الكلام المقيد بالوزن والقافية، والذي يُقصد به إلى الجمال الفني[1]. والشعر العربي في عصر الجاحظ، كان قد بلغ، على يدي المولدين غاية نهضته وازدهاره، فتعددت مدارسه، وكثر نقّاده، وتباينت مذاهب رواته وعلمائه، فنبغ أعلام، واحتفت جميع البيئات بالشعر والشعراء، وظهر التجديد الشعري في رقة العبارة والتّفنّن في المعاني.

دعا الجاحظ الشعراء، وكذلك فعل النقاد، إلى الطلاوة والعذوبة والسهولة والفصاحة والرقة والوضوح في أشعارهم، وأصبحت القصيدة العربية ذات وحدة موضوعية بيّنة، واستحكمت القصائد وتضمنت أغراضاً جديدة استدعتها البيئة والحياة الجديدتان.

ثم انغمس أبو عثمان في الحديث عن الشعر والشعراء، حتى نطق بالشعر. مما دفع الدكتور الخفاجي للقول: «يَصِحُّ أن نطلق عليه (على الجاحظ) لقب شاعر»[2] لقد بالغ الدكتور بهذه التسمية وعذره المحبة.

صحيح أنّ ياقوت أثبتَ للجاحظ شعراً في معجمه، كمدح الجاحظ لابن أبي دؤاد:

إنْ حالَ لونُ الرأسِ عن لونه ... ففي خضاب الرأس مُسْتَمْتَعُ
هَبْ مَنْ له شَيْبٌ لَهُ حيلة ... فما الذي يحتاله الأصْلَعَ؟[3]

لكن هذا الشعر فرضته الظروف وإظهار المقدرة. وليس شرطاً أن نطلق لقب «الشاعر» على كل من قال شيئاً من الشعر.

---

(١) «الأدب والنقد»: المجموعة الكاملة. طه حسين. مج٥ ص٣١١ـ٢١٢ـ٢١٤ـ٣١٥.

(٢) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي. ص٢١٥ـ٣١٦.

(٣) «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص٨٩.

يقول الهمذاني: عُنِيَ الجاحظ بالنثر وحاول التفوق بالشعر، لكنه كان مشغولاً عنه فلم ينل ما أمل[١].

وأورد ابن رشيق في «العُمْدَة» تحت عنوان «علم الشعر» قوله:

وقال الجاحظ: طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقنُ إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلاّ ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب: كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزّيات[٢].

ومهما يكن، فإن الجاحظ إن لم يبرع في قول الشعر، فقد برع في تذوقه ونقده له.

وكان يرى أن ترجمة الشعر تفسدُ بلاغته، فمتى حُوّل الشعر تقطّع نظمه وبطل، وذهب حسنه، وصار كالكلام المنثور.

قال: «وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلّم بلسان العرب، والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حُوِّل تَقطَّع نظْمُه، وبَطُل وزنه، وذهب حُسْنه، وسقط موضعُ العُجْب، لا كالكلام المنثور والكلام المنثور المبتدأ على ذلك، أحسن وأوقع من المنثور الذي تحَوَّل من موزون الشعر»[٣].

وللجاحظ آراء نقدية في الشّعر، وكان مُغْرماً بالعروض.

قال الجاحظ: وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أُفرِغ إفراغاً واحداً وسُبِكَ سَبْكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان[٤].

---

(١) «مقامات الهمذاني»: ص٧٥ ـ ٧٧.

(٢) «العمدة»: ابن رشيق مج٢ ص١٠٥.

(٣) «الحيوان»: تحق هارون مج١ ص٧٤ ـ ٧٥.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦٧.

كان الجاحظ يُدَقِّق النظر، كناقد، في الشاعر، ينظر إلى لفظه وغرضه ومعناه، ويحلل الطبع ويشيد بالمطبوعين كما يَذُمُّ المُتَكلفين(١). ويشير إلى السرقات الشعرية قائلاً: «ولا يُعْلَمُ في الأرض شاعرٌ تقدم في تشبيه مصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مُخْترع، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظهِ فيسرق بعضه أو يدّعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكاً فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحدٌ منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه. أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط، وقال إنه إذا خطرْ على بالي من غير سماع، كما خطر على بال الأول. . . . ما عدا عنترة الذي أجاد في وصف الذباب فتحامى معناه جميع الشعراء»(٢).

كما أطلق آراءه في موازنات أدبية كثيرة، يحكم من خلالها على الشعراء أحكاماً نقدية أصيلة، فينقد أبا العتاهية والكميت وسواهما(٣):

ولو كان الكميت لم يقل فيه [أي النبي ﷺ] إلا مثل قوله:

وبوركَ قَبْرٌ أَنْتَ فيه وبوركتْ ... به، وله أهلٌ بذلك يَثْرِبُ
لقد غَيَّبوا بَرّاً وحَزماً ونائِلاً ... عشية واراك الصفيحُ المنصَّبُ

فلو كان لم يمدحْه عليه السلام ـ إلا بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب، لما كان ذلك بالمحمود، فكيف مع الذي حَكَيْنا قبل هذا(٤)؟.

كما يعرض الجاحظ لمناهج الرواة، وهم من الطبقات التي عملت في ميدان النقد فيقول: والقضية التي لا أحتشم فيها، ولا أهاب الخصومة منها، أن عامّة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشعرُ من عامة شعراء

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٠ و٥٧.
(٢) «الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص٣١١ و٣١٢.
(٣) «أبو عثمان الجاحظ»: د. خفاجي ص٢٣٧.
(٤) «الحيوان»: تحق هارون مج٥ ص١٦٩ و١٧١.

الأمصار والقُرى، ومن المولّدة (أي المولدين) والنابتة. وليس ذلك بواجبٍ لهم في كل ما قالوه. وقد رأيت أناساً منهم يبهرجون أشعار المولَّدين، ويستسقِطون مَنْ رواها. ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعرِ غيرِ بصيرِ بجوهر ما يروي. ولو كان له بصرٌ لعرف موضع الجيِّد ممَّن كان، وفي أي زمان كان[1].

ويزري الجاحظ بهذا التعصب ويبدي رأيه بصراحة الباحث الأديب الناقد: وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد ومنهم من يجمعهما[2]. . .

ولا يخفي إعجابه ببشار بن برد وأبي نواس:

. . . . ومع هذا فإنا لا نعرف بعد بشار أشعر منه[3]. ويعني أبا نواس. ويقول عن المُوَلَّد: إن الفَرْقَ بين المُوَلَّد والأعرابي: أن المولَّدَ يقول بنشاطه وجمع باله، الأبياتَ اللاحقة بأشعار أهل البدو، فإذا أمعن انحلت قُوَّته، واضطرب كلامه[4].

يعني أن الأعرابي جلود نشط.

اصطلاح البلاغة ـ النشأة والتطور

إن نشوء هذا المصطلح وتطوره في العصر الأموي جاء بمساهمة من صُحار العبدي[5]، في وضع أول لَبِنَة في اصطلاح البلاغة عندما سأله معاوية: ما تَعُدُّون البلاغة فيكم؟ فقال: أن تجيبَ فلاتبطىء (بمعنى أن لا تطيل) وتقول

---

(١) «الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص١٣٠.
(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٠٩.
(٣) «الحيوان»: تحق هارون مج٤ ص٤٥٦.
(٤) نفسه مج٣ ص١٣٢.
(٥) هو صُحار بن العباس العبدي، أبو عبد الرحمن، سكن البصرة ومات فيها، له أخبار حِسان، وكان بليغاً مُفَوَّهاً.
مزيد من أخباره في «الإصابة»: في تمييز الصحابة»: العسقلاني مج٢ ص١٧٠ رقم ٤٠٤١.

فلا تُخْطىء[1]. كما ساهم شبيب بن شيبة[2] عندما لفت الانتباه إلى ضرورة جودة الابتداء وجودة القطع.

كذلك وضع أبو الأسود الدؤلي[3] لِبَنَةَ أخرى، عندما عاب التقعر والإفراط في الغرابة.

وفي العصر العباسي أرسى ابن المقفع[4] ركائز بلاغية فأعاد تأكيد مسألة الإيجاز، وأضاف المساواة، كما لَفَتَ إلى ضرورة أن يكون في فاتحة الكلام ما يشير إلى غرضه[5].

ونسوق بعضاً مما قاله الأقدمون البُلغاء في تعريف البلاغة، قبل الجاحظ:

قال خلف الأحمر[6]: البلاغة لمحة دالة[7].

وقال الخليل[8]: البلاغة ما قَرُبَ طرفاه وبَعُدَ منتهاه[9].

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٩٦.

(٢) شبيب بن شيبة ت١٧٠هـ/ ٧٨٦م. ابن عبد الله التميمي المنقري الأهتمي، أبو معمر، أديب الملوك، وجليس الفقراء، وآخر المساكين من أهل البصرة. «الأعلام»: الزركلي مج٣ ص١٥٦.

(٣) هو ظالم بن عمرو (١ق.هـ/ ٦٠٥ ـ ٦٨٨م) الدؤلي الكناني. واضع علم النحو، أبو عثمان، كان بليغاً فقيهاً شاعراً فارساً سريع البديهة من التابعين المحدثين. سكن البصرة في أيام عمر وتولى إمارتها أيام علي. وكان من البخلاء والمفاليج والعرج. مات بالبصرة. «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة. ص١٧١. «البُرصان والعرجان والعميان والحولان» للجاحظ تحق هارون منشورات وزارة الثقافة والاعلام. الجمهورية العراقية. دار الرشيد بغداد ١٩٨٢. دار الطليعة بيروت ص٤٦١.

(٤) انظر ص١٢٧ من هذا الكتاب.

(٥) «مجلة الفكر العربي»: د. أحمد أبو محلم. العدد ٤٦. السنة الثامنة ص١٥٥ ـ ١٥٦.

(٦) خلف الأحمر: ت١٨٠هـ/ ٧٩٦م. هو خلف بن حيان بن محرز البصري، أبو محرز أحد الرواة للغريب واللغة والشعر. تتلمذ أبو نواس على يده.
«الفهرست»: لابن النديم ص٧٤ «معجم المؤلفين»: كحالة مج٤ ص١٠٤.

(٧) «العمدة»: ابن رشيق القيرواني مج١. ص٢٤٢.

(٨) الخليل بن أحمد: (١٠٠ ـ ١٧٠هـ/ ٧١٨ ـ ٧٨٦م) الفراهيدي، الأزردي، اليحمدي، البصري، أبو عبد الرحمن. نحو لغوي، أول من استخرج العروض وحصّن به أشعار العرب، توفي بالبصرة.
«الفهرست»: لابن النديم ص٦٣ ـ ٦٤ «الكامل في التاريخ»: لابن اللأثير مج٦ ص١٧.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج٤ ص١١٢.

(٩) «العُمْدة»: لابن رشيق مج١ ص٢٤٥.

وقال الضَبيّ[1]: هي الإيجاز من غير عَجْز، والإطناب من غير خطل[2].

فما هو مفهوم الجاحظ للبلاغة العربية وعلومها؟

ترتبط البلاغة العربية عند ذكرها، في الأذهان، بعلومها الثلاثة المعروفة:

علم البيان، وعلم المعاني، وعلم البديع.

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أنَّ كلا من هذه العلوم نشأ مُنفَصِلاً عن غيره من العِلْمين الآخَرَيْن.

والحقيقة أن البلاغة العربية مرت بتطورات ومراحل عديدة، حتى انتهت إلى ما هي عليه. والذي يعنينا من هذه التطورات، حقبة العصر العباسي، حيث شب الجاحظ، وترعرع. فإننا نجد بعضاً من الملاحظات البلاغية، ومحاولات أولية لتدوينها.

و«البيان والتبيين» حفظ لنا قدراً كبيراً من ملاحظات المعتزلة المتصلة بالبلاغة العربية، مستفيدين من التقاليد العربية وما شاع من علوم في ذلك العصر.

«وأول معتزلي خطا خطوة ملحوظة في هذا السبيل هو رئيس المعتزلة ببغداد بشر بن المعتمر، عنه نقل الجاحظ ودَوَّنَ ملاحظاته الدقيقة في البلاغة»[3].

وقول الدكتور عتيق يدعونا للتساؤل!

---

(١) المُفَضَّل الضَبّي: (ت١٦٨هـ/ ٧٨٤م). أبو العباس، أديب، نحوي، لغوي، عالم بالشعر وبأيام العرب، من أهل الكوفة. لزم المهدي وعمل له المُفضليات.
«الفهرست»: لابن النديم ص١٠٢ «لسان الميزان»: العسقلاني مج١ ص٨١.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج١٢ ص٣١٦.

(٢) «العُمْدة»: لابن رشيق مج١. ص٢٤٢.
وتجد عنه التفتازاني أكثر من ثلاثين تعريفاً.
«شروح التلخيص»: التفتازاني مج١ ص١٢٢ ـ ١٣٢.

(٣) «علم البيان»: د. عبد العزيز عتيق. ط٣. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٠. ص٧ و١٠.

هَلْ يُعَدُّ الجاحظ مؤسس البلاغة العربية كما هو شائع في كتب الباحثين؟ أم أول مدوّن لها؟

ومن خلال التأمل في كتاب «البيان والتبيين» نرى، لصحيفة بشر بن المعتمر، التي أثبتها الجاحظ في كتابه، أهمية كبرى في تاريخ البلاغة العربية عامة، وفي نفس الجاحظ خاصة.

فمن الواضح أنه تأثر بمضمونها، بما فيها من أدب وبلاغة، كما تأثر بغيرها من أقوال وآراء سبقته، لذلك نعتبره أول مدوِّن للبلاغة العربية، لأنه توسَّعَ في دراسة هذا العلم وأضاف إليه ما عنَّ له من أفكار وتطلعات.

أما مَنْ هو المؤسس الحقيقي للبلاغة العربية؟ فالجواب عسير في هذا المقام لافتقارنا إلى الوثائق.

وقضايا البلاغة في «البيان والتبيين» مبثوثة في طياته ولا تستخلص إلا بالتأمل الواعي.

وهكذا شاء لها الجاحظ أن تكون.

وكان الجاحظ، في «البيان والتبيين» يُحَمِّلُ لَفْظَ البلاغة غير معنى، فمرة يأتي بمعنى الخطابة، ومرة بمعنى العِيِّ. كقول الشاعر:

جَمَعْتَ صُنوفَ العِيّ مِنْ كل وُجهةٍ وكنتَ جديراً بالبلاغة من كَثَبْ
أبوك مُعِمٌ في الكلامِ ومُخْوِلٌ وخالُك وثَّابُ الجرائيم في الخُطَبْ[1]

ففي البيت الأول نرى العِيّ مرادفاً للبلاغة.

وفي الثاني نرى المقصود بالعِيّ، أي البلاغة، الخطابة.

كذلك اتصلت البلاغة عنده باللِّسان والقلم، في قول بشْر بن المعتمر: «فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك، ولُطْفِ مداخلك واقتدارك

---

(١) «البيان والتبيين»: مج١ ص٥ و٦.
«الحيوان»: ج١ ص٢١٤.

على نفسك، إلى أَنْ تُفْهِمَ العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدّهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام[1].

والمُتَصَفِّحُ لِكِتابِ «البيان والتبيين». يجدُ تعريفات عديدة للبلاغة غير أن الجاحظ استحسن هذا التعريف:

«وقال بعضهم: وهو أحسن ما اجتبيناه ودوّناه. . . .

لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة، حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[2].

وتفضيل الجاحظ لهذا التعريف مرجعه الاتفاق مع مذهبه، الذي يدعو فيه إلى التجويد اللفظي وحسن الصياغة مع تحري المعاني الشريفة.

يقول الدكتور عتيق: وبشيء من التحديد في قضايا البلاغة نرى الجاحظ يقرر في مناسبات عديدة أن حسن البيان يتطلب إعطاء الحروف حقها من الفصاحة وسلامة الإخراج، إذ على مقدار سلامة النطق وفصاحته تكون درجة الإبانة أو البيان[3].

. . . لأن مدار الأمر على البيان والتَّبيُّن، وعلى الإفهام والتفهّم، وكلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد. والمُفْهِمُ لك والمُتَفَهّمُ عنك شريكان في الفضل، إلا أن المُفهم أفضل من المتفهم[4].

لذلك خرج، أبو عثمان، بنتيجة ارتاحت إليها نفسه وسكنت، وهي: تناسُب الألفاظ مع الأغراض، أو كما اشتهرتْ وعَمَّتَ. بمطابقة الكلام لمقتضى الحال. وهي أصل من الأصول البلاغية.

يقول الجاحظ: «ولكل ضربٍ من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع

---

(١) «البيان والتبيين»: مج١ ص١٣٦.

(٢) نفسه مج١ ص١١٥.

(٣) «في تاريخ البلاغة العربية»: د. عتيق. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٠ ص٧٠.

(٤) «البيان والتبيين»: مج١ ص١١.

من المعاني نوع من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال. وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومُلْهٍ، وداخل في باب المُزاح والطيّب، فاستعملتَ فيه الإعراب، انقلب عن جهته. وإن كان في لفظه سُخْف وأبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وُضع على أنْ يَسُرَّ النفوس يُكْرِبُها ويأخذُ بأَكْظامِها»(١).

وقال في موضع آخر: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة في ذلك كلاماً، لكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»(٢).

وعرض الجاحظ قضية اللفظ والمعنى، عرضاً رصيناً، في جوانب مختلفة ومتعددة قرر فيها أن أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه...

فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً عن الاستكراه ومنزّهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة(٣).

وأجمل تَعَمُّق في هذا الموضع قوله: «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السَّبْك، فإنما الشعر صناعةٌ، وضربٌ من النسج، وجنس من التصوير»(٤).

---

(١) الأكظام جمع كظم (بالتحريك) وهو مخرج النفس... «الحيوان»: مج٣ ص٣٩.
(٢) «البيان والتبيين»: مج١ ص١٣٨ ـ ١٣٩.
(٣) «البيان والتبيين»: مج١ ص٨٣.
(٤) «الحيوان»: مج٣ ص١٣١ ـ ١٣٢.

فلا ينبغي أن يُفْهَمَ، أَنَّ الجاحظ ينكر المعنى ويُهْمِلُهُ، بل يرى إطاره الأسلوب المحكم القوي، الذي يشير إلى ألوان المعاني العجيبة، البديعة المخترعة. هذه المعاني يتنازعها الشعراء، كلٌّ يدَّعي أَنَّها من بنات أفكاره.

وقد اهتدى عند معالجته قضية اللفظ والمعنى إلى حقيقة هامة لها أثرها العميق في البلاغة والنقد الأدبي، هي أن لكل أديب معجمه اللغوي الخاص. قال: «لِكُلِّ قومٍ ألفاظ حظيت عندهم، كذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر وصاحب كلام موزون، فلا بُدَّ من أَنْ يكونَ قد لهج وألف ألفاظاً بأعينها، ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ»[1].

وهل هناك أَغْزَرُ مِنْ أَلفاظ أبي عثمان وأعمق من معانيه في تقييمه للَّفْظةِ، حيث إنَّ لكل لفظة دلالتها الخاصة، وليس هناك من لفظة تساوي لفظة أخرى مساواة تامة في دلالتها ومعانيها؟

وفي ذلك يقول الدكتور عتيق:

فليس هناك في رأي الجاحظ ألفاظ مترادفة تتساوى مساواة تامة في الدلالة، وإنَّما الألفاظ إذا كانت من واد واحد فإن كلاً منها يدل على ظل من ظلال المعنى، كألفاظ الشجاع والبطل والبهمة والأَلَسُ، فإنها ظلال متدرجة لمعنى الشجاعة من بدايتها إلى غايتها[2].

فبالرغم من أن الجاحظ يشيد باللفظ، لكنه لا يقدمه على المعنى. لذلك كان يوافق العتّابي القول:

«إنها، تحل من الألفاظ محل الروح من البدن»[3].

فالبلاغة عنده إذاً هي المزاوجة بين اللفظ والمعنى، المُتَمَثِّلةُ بالأسلوب

---

(١) «الحيوان»: الجاحظ نفسه مج٢ ص٣٦٦.

(٢) «في تاريخ البلاغة العربية»: د. عتيق. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٠ ص٨٢. والأَلس: الجنون.

(٣) «المرجع نفسه»: ص٨٣.

المحكم القوي، أو في نظم الألفاظ، وعلينا أنْ نشير إلى مفهوم النَّظْم عند الجاحظ في هذا المقام، فهو يعني التأليف والإنشاء، جاعلاً له أصنافاً من القصيد والرجز والمزدوج والمجانس والأسجاع والمنثور. ونَوَّه بأن القرآن الكريم نظم مُعْجِز. قال:

«وفي كتابنا المُنَزَّل الذي يدلنا على أنه صدق، نَظْمُه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد»(١).

وقناعته بأن البلاغة هي في النظم، دعته إلى تأليف كتاب أسماه «نظم القرآن» أوضح فيه نظريته القائلة بأن إعجاز القرآن هو في نظمه وتأليفه، ولا يسعنا الاستفادة من كتابه لأنه ضاع في جملة ما ضاع من مصنفاته.

وكان الجاحظ يملي على الأدباء نصائح تفيدهم، فتحِسُّ أنك أمام معلّم يقوّم الأقلام ويشحذ التفكير.

يقول محمد كردعلي: . . . . الجاحظ لا يرى للكاتب أن يستعمل من الألفاظ إلا ما تفهمه العامة، والكاتب يكتب لِيُفْهِمَ لا ليُعجم، ويتوخى المعاني الجديدة، التي تصلح فساد القلوب، وتعمر بها الأفئدة والعقول(٢).

وقد أتى البيان عنده، بمعنى الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي. قال: «هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم»(٣).

فالبيان عنده حُسْنُ ذوقٍ، ومتانة أسلوب، ومقدرة لغوية وإيضاح سهل.

«ومدار الأمر على إفهام كل قوم مقدار طاقاتهم والحملِ عليهم على أقدار منازلهم»(٤).

---

(١) «الحيوان»: مج٤ ص٩٠.
(٢) «أمراء البيان»: محمد كردعلي مج٢ ص٣٣٧ ـ ٣٤٨.
(٣) «البيان والتبيين»: مج١ ص٧٥.
(٤) نفسه مج١ ص٩٣.

وفي معرض حديثه عن البيان، ذكر قضايا خارجة عن مباحثه بالمفهوم الاصطلاحي المتأخر، فقد استهجن اللفظ الغريب الوعر المعقَّد، ودعا إلى وجوب التناسب بين اللفظ والمعنى[١].

وقد قَسَّمَ البيان إلى خمسة أقسام: «أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى النِّصبة»[٢].

وفي رده على مزاعم الملاحدة الناشئة، من عجزهم عن إدراك صور البيان في بعض الآيات القرآنية الكريمة وأسرارها البلاغية، ينعى عليهم نقص معرفتهم بأساليب القول ويدعو كل من يبغي الإلمام بمعاني القرآن والسُّنَّة النبوية الشريفة أن يُحْسِنَ فَهْمَ أسرار العربية ودلالات ألفاظها وأساليبها[٣].

وعرّف الحقيقة والمجاز فقال: «الحقيقة تعني استعمال اللفظ فيما وضع له أصلاً، والمجاز يعني استعمال اللفظ في غير ما هو موضوع له، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي[٤].

فالمجاز عنده يقابل الحقيقة، كما أن الاستعارة عنده هي تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه[٥].

والمثل عند الجاحظ يأتي بمعنى المجاز المقابل للحقيقة، كما في قوله عن نار الحرب:

ونـاراه: نـارُ كَـلِّ مُـدَفَّـعٍ وأُخرى يصيب المجرمينَ سعيرها[٦]

إنها نار على طريق المَثَل لا على طريق الحقيقة، ويأتي أيضاً بمعنى التشبيه[٧].

---

(١) «البيان والتبيين»: مج١ ص١٣٦.
(٢) نفسه: مج١ ص٧٦.
(٣) «الحيوان»: مج١ ص١٥٣ ـ ١٥٤. و«في تاريخ البلاغة العربية»: د. عتيق ص٩٤.
(٤) «الحيوان»: مج٥ ص٥.
(٥) نفسه مج٢ ص٢٨٠. «البيان والتبيين»: مج١ ص١٥٣ .
(٦) «الحيوان»: مج٥ ص١٣٣.
(٧) نفسه: مج٧ ص٢٥ وج٤ ص٣٢٢.

وكثيراً ما استعمل المثل بمعنى القول السائر من كلام العرب نثراً وشعراً.

أما الكناية فقد استخدمها بمعناها المعروف، وهو التعبير عن المعنى تلميحاً لا تصريحاً وإفصاحاً، كلما اقتضى الحال ذلك[1].

والإيجاز عنده: الجمع بين المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة[2]. ولم يُعرِّف بكل أقسامه، بل تعرَّض للبديع وقضاياه، فرأيناه يُقدِّم بشاراً والراعي في هذا الفن، ويرى العتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار[3].

كما أورد آراء مختلفة بفن السجع[4]، وبأسلوب الحكيم الذي هو من البديع، وأفرد له باباً خاصاً في «البيان والتبيين»[5]، وأطلق عليه اسم: اللّغز في الجواب. قاصداً به، تلقِّي المخاطب بغير ما يترقبه، إما بتَرْك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنَّه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى.

وكان العرب يستعملون هذا الأسلوب للتظرف. أو التخلص من إخراج السائل أو تقديم الأهم أو التهكم.

كذلك أشار الجاحظ إلى اقتباس الخطباء من آي الذكر الحكيم[6] والتقسيم، عند إيراد قول عَبْدَة بن الطَّبيب[7].

---

(١) «البيان والتبيين»: مج١ ص٨٨.

(٢) «الحيوان»: مج٣ ص٨٦.

(٣) «البيان والتبيين»: مج٤ ص٥٥ ـ ٥٦.

(٤) نفسه مج١ ص٢٨٧ ـ ٢٩٠.

(٥) نفسه مج٢ ص١٤٧ ـ ١٥١.

(٦) «البيان والتبيين»: مج١ ص١١٨ وج٢ ص٦٠.

(٧) عَبدة بن الطبيب: (ت٢٥هـ/ ٦٤٥م). من تميم، شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام وكان أسود شجاعاً شهد الفتوح قاتل الفرس مع المثنى بن حارثة والنعمان بن مقرف بالمدائن ويقال إن في مرثيته أرثى بيت شعر قالته العرب وهو:

وما كان قيسٌ هلكُهُ هَلْكُ واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدَّما

ذكر في «الإصابة»: باسم عَبْدة بن الطيب. مج٣ ص١٠٠ رقم ٦٣٩٢.

«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص١٧١. «الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٧٢.

والـمـرءُ سـاعٍ لأمـرٍ لـيـسَ يُـدْرِكُـهُ   والـعـيـشُ شُـحٌّ وإشـفـاقٌ وتـأْمـيـلُ[1]

وفَطِنَ الجاحظ إلى ما سماه البلاغيون بعده بالاحتراس، وكان قد أطلق عليه اسم «إصابة المقدار». فأفرد له باباً خاصاً في «البيان والتبيين»[2].

ولم يَسْهُ عن المزدوج الذي هو ضَربٌ من السَّجْعِ فَأُعْجِبَ به وأفردَ له باباً خاصاً به أيضاً[3].

ومن الفنون البديعية التي تعرَّض لها الجاحظ، الهَزْل الذي يُراد به الجد وهو أن يقصد المتكلم المدح أو الذم فتخرج من ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال.

ومن القضايا التي عني بها والتي تدخل في باب النقد الأدبي أكثر من باب البلاغة، قضية السرقات الشعرية.

فقد كان رائداً في لفت النظر إليها.

وجملة القول إن الرجل معلم فذ، وقِمّةٌ شاهقة في تاريخ البلاغة العربية. وعمله في «البيان» يمثل خلاصة المعارف البلاغية.

لقد أثرى البيان العربي، وانتقل به إلى مراتب رفيعة. فأثر تأثيراً واضحاً على معاصريه وعلى من جاء بعده، بل تجاوز هذا التأثير للاعتراف به كمرجع أصيل في البلاغة، يغترف منها الباحثون عند تطرقهم إلى موضوعها.

ولا يجوز الحكم عليه بمقاييس العصر الحديث، ففيه كثير من الإجحاف والظلم. وكفى به فخراً أنه أول الدارسين الحقيقيين للبلاغة العربية.

---

(١) الحيوان: ج٤ ص٢٦.

(٢) «البيان والتبيين»: ج١ ص٢٢٧.

(٣) نفسه مج٢ ص١١٦.

الباب الثاني

الشعر والبلاغة في «البيان والتبيين»

الفصل الأول: الشعر وعيوب اللفظ

١ ـ الصمت في الشعر.
٢ ـ العِيّ والحَصَر في الشعر.
٣ ـ اللُّثْغَةُ في الشعر.
٤ ـ الشعر واللحن.
٥ ـ الشعر واللُّكنة.

الفصل الثاني: الشعر وعلم المعاني

١ ـ تمهيد. في نشأة وتطور البلاغة العربية مع التعريف بعلم المعاني.
٢ ـ الإيجاز والإطناب والمساواة في الشعر.
أ ـ الإيجاز في الشعر.
ب ـ الإطناب في الشعر.
ج ـ المساواة في الشعر
٣ ـ الشعر وبقية أركان علم المعاني.

الفصل الثالث: الشعر وعلم البيان

١ ـ التّشـــبيـه.
٢ ـ المجـــاز.
٢ ـ الاســـتعارة.
٣ ـ الكنـــاية.

الفصل الرابع: الشعْر وعلم البديع

١ ـ السَّـــجع.

الفصل الأول

الشعر وعيوب اللفظ

الشعر وعيوب اللفظ

نظرٌ ثاقب، وحس مرهف، وتفكير دائب، وعلم منطقي مُلْزِم، صادر عن توازن عقلي مشهود، تدعمه ذاكرة عجيبة أفرغت من جعبتها ما ينوف على ثلاثة آلاف وأربعماية بيت من الشعر، غير الأرجاز وأنصاف الأبيات، في مؤلف واحد.

سَطَّرَ الجاحظ كل هذا المزيج الرائع، مع شواهده الشعرية، في كتاب البيان والتبيين. ومنْ رِقَّةِ إحساس هذا الرجل، تصديره الكتاب بدعاء عميق شامل، بعد البسملة، يتعوّذ فيه من فِتَنِ القول والعمل، والوقوع في الخطأ والزلل، كما يتعوذ من التكلف بالشيء الذي لا يحسنه، ومن عُجْبِ ما يحسنه، ويتعوذ من البذاءة وفضول الكلام وفقدان الإنسان الإفصاح عما تُحِسُّ به النفس، فيحاول التعبير فيمنعه انعقاد لسانه.

كل هذه الأعراض التي يصادفها كثير من الناس في مراحل حياتهم شملها الجاحظ في دعاء قال فيه: «اللهم إنّا نعوذُ بِكَ[1] من فتنة القول، كما نعوذُ بِكَ

---

(١) عاذ به يعوذ عَوْذاً وعياذاً: لاذ به ولجأ إليه واعتصم.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة عود مج٣ ص٤٩٨.

من فتنةِ العملِ[1]، ونعوذُ بك من التّكَلُّف لما لا نُحْسن[2]، كما نَعوذُ بك من العُجْب بما نحسن[3]، ونعوذ بك من السلاطة[4] والهَذَر[5]، كما نعوذ بك من العِيّ[6] والحَصَر[7] وقديماً ما تعوذوا بالله من شَرّهما وتضرّعوا إلى الله في السلامة منهما»[8].

ومن عجيب المصادفات، أَنَّ الجاحظ أَلّف كتاب «البيان والتبيين» في آخر أيامه[9]. وبذلك حقق الله سبحانه وتعالى أمنيته واستجاب لدعائه[10]، فأمسك عليه لُبّه وعقله، وحفظ له ما في ذاكرته العجيبة، التي هي مرجعه الوحيد في كل ما كتب، والتي هي السبب الرئيسي، على ما نعتقد، في نهجه التأليفي، ولم يوقعه في الزلل والخطل، حتى أتحف من عاصره ومن تلاه بأسمى آيات الأدب وفنون القول.

---

(١) الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار. «لسان العرب»: ابن منظور مادة فتن. ج١٣ ص٣١٧.

(٢) تكلَّفت الشيء إذا تَجَشَّمْته على مشقة وعلى خلاف عادتك. وفي الحديث أنا وأمتي براء من التكلف. وفي حديث عمر رضي الله عنه: نُهينا عن التكلف. أراد كثرة السؤال والبحث عن الأشياء الغامضة التي لا يجب البحث عنها والأخذ بظاهر الشريعة وقبول ما أتت به.
«المصدر نفسه. مادة كلف. ج٩. ص٣٠٧.

(٣) العُجْبُ الزهو.
«المصدر نفسه. مادة عجب مج١ ص٥٨٠ و٥٨٢.

(٤) السلاطة: القهر. والسلط والسليط: الطويل اللسان. السلاطة مصدر السليط والفعل سَلَطَ.
«المصدر نفسه. مادة سلط. مج٧ ص٣٢٠.

(٥) الهَذَر: الكلام الذي لا يُعْبَأ به، هَذر كلامُه هذراً: كَثُرَ في الخطأ والباطل.
والهذر: الكثير الرديء وقيل سَقَطُ الكلام.
«المصدر نفسه. مادة هذر. ج٥ ص٢٥٩.

(٦) قال الجوهري: العي خلاف البيان. وقد عِيّ في منطقه. وفي المثل أعيا من باقل ويقال أيضاً عَيّ بأمره وَعَيِيَ إذا لم يهتد لوجه. «المصدر نفسه. مادة عيا. ج١٥ ص١١٣.

(٧) الحَصَر: ضرب من العِيّ وقيل حَصَرَ الرجل أي عَيِيَ في كلامه وقيل لم يقدر على الكلام. والحَصَرُ ضيق الصدر. «المصدر نفسه. مادة حصر مج٤ ص١٩٣.

(٨) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣.

(٩) «ضحى الإسلام»: أحمد أمين مج١ ص٣٩٠.

(١٠) تلطف بالرجوع إلى الصفحة السابقة من كتابنا، للنظر في دعاء الاستعاذة (كما أسميناه).

فهل كان هذا القَدْرُ الكبير من الأشعار سبباً آخر لإثبات قدرة، أبي عثمان العقلية في آخر أيامه؟.

أم كان تسلية للسامع والقارىء، وإبعاداً للضَّجَر والمَلَل؟

أم تفكهة لمن يحب التنويع والمسامرة؟

الراجح عندنا أن الأسباب الرئيسة لهذا القدر الهائل من الثبت الشعري، هو زيادة الإيضاح والتعليم والتذكر بأن البلاغة متداولة عند العرب سليقة، دون الإحاطة بقواعدها، وإظهار المقدرة على التصوير والتمثيل بالشعر، بعد أن فرغ من الرسم والشرح والإيضاح بالنثر، فكأنه أراد الإحاطة بالفنون الأدبية جميعها، وقد أحاط.

وكأن ما تفوّه به الشعراء، وما تفنّنوا من أساليب وصور، إثبات لأقواله وشرح لآرائه، ودعم لنظرياته البلاغية العامة. لذا نرى أن دور الشعر كان فعالاً في تحقيق غاياته البلاغية وغير البلاغية.

فكيف تَأَتَّى له ذلك في كتاب «البيان والتبيين»؟

١ ـ الصمت في الشعر

الصمت لغة: إطالة السكوت[1] والنُّطْق[2] خِلافه.

قال تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، أي ما يقول[3].

---

(١) صمت يَصْمِتُ صمتاً وصموتاً: أطال السكوت. ويقال لرجل إذا اعْتَقَلَ لسانُه فلم يتكلم أُصْمِتَ فهو مُصْمِتٌ. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة صمت مج٢ ص٥٤ ـ ٥٥.

(٢) نطق الناطق نُطقاً: تكلم. وكلام كل شيء منطقه ومنه قوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ فصوت كل شيء منطقه ونُطْقه. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة نطق. مج١ ص٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٣) وتمام الآية الكريمة: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وجاء في التفسير: ورث سليمان عن داود العلم والنبوة. وكان لداود تسعة عشر ولداً ذكراً، فورث سليمان، من بينهم النبوة، ولو كان المراد وراثة المال لم يخص بالذكر سليمان. وقال جمهور المفسرين هذه الوراثة مجازية لقوله عليه السلام: «العلماء ورثة الأنبياء». =

فالنطق ليس مقصوراً على الإنسان. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾[1] وبذلك يكون غير الإنسان ناطقاً.

وفضل اللغة العربية على الناس عظيم. قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

وهناك فرق بين النطق، والصوت[3] والقول والكلام[4]، عند الإنسان،

= وخاطب سليمان الناس متحدثاً بما خصه الله به، فقدّم منطق الطير، لعدم مشاركته فيها سواه، ومنطق الطير: ما يقول الطير الذي كان جُنْداً من جُنْدِه يسير معه ليظله مِنَ الشمس. ولم يعترض على من قال أنَّ النملة من جملة الطير.

وأعطي (سليمان) كل شيء تدعو له الحاجة. كعلم النبوة والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح والوحش والدّواب وكل ما بين الأرض والسماء.

وقال ابن سيدة: وقد يستعمل المنطق في غير الإنسان. كقوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾. والآية من سورة النمل، الآية: ١٦. انظر «لسان العرب»: ابن منظور. مادة نطق. مج١٠ ص٣٥٤ ـ ٣٥٥. و«فتح القدير»: للشوكاني مج٤ ص١٢٩ ـ ١٣٠.

(١) وتمام الآية الكريمة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

أخبر سبحانه عن السموات والأرض بأنها تُسبِّحه وكذلك من فيها من مخلوقاته، الذين لهم عقول وهو الملائكة والإنس والجان. وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل ثم زاد تعميماً وتأكيداً فشمل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان. (ولا يفقه هذا التسبيح إلا الخالق تعالى ومن شاء له الفهم من عباده). سورة الأسراء، الآية: ٤٤. وانظر «فتح القدير»: الشوكاني مج٣ ص٢٣٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

والإلحاد: الميل. يقال لَحَدَ وألْحَدَ: أي مال عن القصد. وقرأ حمزة والكِسائي: يَلْحَدون بفتح الياء والحاء. والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بها أعجمياً.

واللِّسانُ العربي: هو القرآن الكريم، لأن العرب تقول للقصيدة والبيت لساناً. ومنه قول الشاعر:

لسان الشر تهديها إلينا وخنت فما حسبتك أن تخونا

فكأنه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية وبيان واضح فكيف تزعمون أنَّ بشراً من العجم يُعَلِّم محمداً وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه. وأنتم أهل اللسان العربي ورجال الفصاحة وقادة البلاغة؟... وانظر «فتح القدير»: للشوكاني مج٣ ص١٩٥.

(٣) انظر ص١٦٣ من كتابنا الحاشية رقم ٢ و٣.

(٤) القول: الكلام على الترتيب: كل لفظ قال به اللسان تاماً كان أو ناقصاً.

قال سيبويه: واعلم أن قلت في كلام العرب إنّما وقعت على أن تحكيَ بها ما كان كلاماً لا قولاً. والكلام: جُمَل مثل قام زيد والقول ألفاظ مفردة يُبنى الكلام منها.

«لسان العرب»: ابن منظور. مادة قول مج١١ ص٥٧٢.

فالنطق هو صوت كل شيء، والكلام أعَمُّ من القول لأن القول جُزء من الكلام.

ووسيلة النطق الظاهر، الفم، وأداته اللسان، والإبانة هي أصل الدلالة في الفصاحة والبلاغة.

قال تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨﴾[1] وطلب موسى هذا، عليه السلام، من ربه، دلالة على عيب في اللسان واللفظ ولا يقدر على تقويمِهِ إلا الله تعالى، فصحّة اللسان تساعد على الإفصاح، وعِلّتُهُ تُسَبِّبُ الصمت في بعض الأحيان. وهو عيّ دائم لا دخل للمخلوق به، أو جُبْنٌ وهو مذموم أو حَصَرٌ وهو آفة مؤقتة أو حكمة وتفكير وترفُّع وهو أبلغ أنواع البلاغة.

والجاحظ صدّر كتابه (البيان) بدعاء (الاستعاذة) من عيوب اللفظ قبل أن يتكلم عن البيان والبلاغة، لأن الإبانة هي إعطاء الحروف، التي ينطق بها، حقها من السلامة. ولا شيء يفسد اللسان عن أداء وظيفته كطول الصمت.

والصمت يكون في الشعر كما يكون في النثر. فكيف لعب الشعر دوراً في شواهد الصمت عند أبي عثمان؟

مفهوم الجاحظ للصمت يكاد يكون شاملاً، فقد حلّله تحليلاً بديعاً.

عَدَّه مرضاً وعياً وبالتالي عيباً جسدياً لا يد للإنسان فيه، وسارع في الاستعاذة منه، ثم صور حالاته في النفس الإنسانية تصويراً دقيقاً.

فآلة البيان اللِّسان، والسكوت له عِلَلُه وأسبابه. واستشهد بقول ربيعة الرأي[2] «الساكتُ بين النائم والأخرس»[3].

ثم عدَّه منقصة، لأن حال المُتَكلِّم الجاهل، الذي لا يعرف كيف يصوغ

---

(١) سورة طه، الآية: ٢٨. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧.

(٢) ربيعة الرأي: بن أبي عبد الرحمن، واسم أبي عبد الرحمن فروخ، من موالي المنكدر التيميين، ويكنى أبا عثمان، وكان بليغاً خطيباً، أخذ عن أبي حنيفة وتوفي بالأنبار في مدينة الهاشمية التي بناها أبو العباس سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م. «الفهرست»: لابن النديم. ص٢٨٥.

(٣) «البيان والتبيين»: للجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٠٢.

الكلام ويضعه في موضعه، كحال الصامت الذي لا يدري كيف يتكلم وبم يتكلم لجهله، فيلزم الصمت حتى لا يفضح عجزه.

وعلى هذه الحالة مثّل الجاحظ بقول بشار بن برد الأعمى[1]:

وَعِيُّ الفَعَالِ كعِيِّ المَقَالِ ... وفي الصمتِ عيٌّ كَعِيِّ الكَلِمْ[2]

وصوّره ضَعَةً وجُبْناً، لأن الذي يسكت عن تقصير أو جبن أو خوف أو فزع، هو مُنْتَقَدٌ مذموم يُشْبِهُ ذَكَرَ النَّعام الذي يُخَبِّىء رأسه في التراب ويحسب أنه اختبأ، أو يحتمي بالفراش متثاقلاً كالنساء، حتى يَتَنَصَّلَ ويهرب.

مثّل عليه بقول ابن الأعرابي[3] سيد البلغاء:

وَلَسْتُ بِدُمَّيْجَةٍ في الفِرا ... شِ وَجَّابةٍ يحتمي أنْ يُجيبا[4]

ولا ذي قَلازِمَ عند الحياض ... إذا ما الشريبُ أرابَ الشَّريبا

ويحملنا شريب ابن الأعرابي إلى فخر عمرو بن كلثوم[5].

---

(١) انظر ترجمته ص١٢٠ من هذا الكتاب.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤.

(٣) هو محمد بن زياد بن الأعرابي (١٥٠ ـ ٢٣١هـ/ ٧٦٧ ـ ٨٤٦م). الكوفي، أبو عبد الله لغوي، نحوي، راوية لأشعار القبائل. نسابة. توفي بسر من رأى.
«الفهرست»: لابن النديم. ص١٠٢ ـ ١٠٣. «معجم المؤلفين»: كحالة مج١٠ ص١١.

(٤) وروي بزُميجة. رجل دُمّيجة: إذا كان ملازماً لفراش. وقد فسرها الجاحظ بثقل الحركة. وجّابةٌ: فَرِقٌ، فَزِعٌ. والقلازم: كثرة الصياح. «النوادر في اللغة»: لأبي زيد الأنصاري تحق د. محمد عبد القادر أحمد. دار الشروق. بيروت ١٩٨١. ص٥٨٠. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة وجب مج١ ص٧٩٥. ومادة دمج مج٢ ص٢٧٥. ومادة قلحم. مج١٢ ص٤٩٢.
وانظر «البيان والتبيين»: للجاحظ. تحق السندوبي مج١ ص٨١ وتحق هارون مج١ ص٥٧.

(٥) عمرو بن كلثوم: (ت نحو ٤٠ق هـ/ ٥٨٤م). من بني تغلب أبو الأسود. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. ولد في شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة. وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد. كان من أعز الناس نفساً، وشجاعة، ساد قومه (تغلب) وهو فتى لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره. وعُمِّر طويلاً. قيل نحواً من مئة وخمسين سنة، وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. مات في الجزيرة الفراتية. «خزانة الأدب»: للبغدادي. مج١ ص٥٩ ـ ٥٢١.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص٣٦ ـ ٣٧.
«الأعلام»: للزركلي مج٥ ص٨٤.

ونشربُ إنْ وَرَدْنا الماءَ صَفْواً وَيَشْرَبُ غَيْرُنا كَدِراً وطينا[1]

وَصَعَّد أبو عثمان من معنى الصمت، فوصفه في مرتبة الهجاء المُقْذِع والصِّفَة الوَضِيعَةِ، يَحُطُّ من قَدْرِ صاحبه وشخصيته وإنسانيته، فَيُفْرِدُهُ عن المتكلمين، ويَصِمُهُ بالجُبْن والخرق لأنه لا يحسن وضع الأمور في مواضعها. من ذلك قول ابن الأعرابي في كلمة جامعة لكثير من المعاني:

أُسكُتْ ولا تنطقْ فأنتَ حَبْحابْ كُلُّك ذو عيب وأنت عَيَّابْ

إنْ صَدَقَ القوم فأنت كَذَّابْ أو نطق القوم فأنت هيّابْ

أو سَكَتَ القوم فأنتَ قبقابْ أو قدموا يوماً فأنت وَجّابْ[2]

افتخر الشعراء بكمال الإنسان وجماله، وبالنُّطْقِ والفصاحة وسرعة البديهة والجواب الحسن، فمن تلكأ وتردد وقصّر عن الجواب أو الردّ على الخصوم، أو الشرح والتعليل أو التعليم والمدافعة، لم يُمَثِّل قومه، ولا عُدَّ من أصحاب الرأي والمكانة، لأَنَّ الشاعر كان خطيب القوم والمدافع عن مصالحهم، فكأنه الإعلام الناطق باسم القضية..

لهذا لم يفت الجاحظ التمثيل على حاجة الشاعر لصوته، كحاجة الفارس لرمحه وفرسه، يقول الأحنف بن قيس[3] حين فخر بنفسه:

أنا ابن الزَّافِرِيَّة أرضعتني بثدي لا أجدّ ولا وخيم

أَتَمَّتْنَي فلم تُنْقِصْ عظامي ولا صَوتي إذا جَدَّ الخُصومُ[4]

---

(١) يريد أنهم السادة وغيرهم أتابع لهم.
«شرح المعلقات السبع»: للزّوْزني. دار القاموس الحديث. بيروت ص١٨٨.

(٢) حبحب، حَبْحاب: الصغير الجسم المتداخل العظام. «لسان العرب»: ابن منظور مادة حبحب مج١ ص٢٩٦. القبقاب: كثير الكلام مُخَلِّطه. «لسان العرب»: ابن منظور مادة قبب مج١ ص٦٦٠. وانظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٧.

(٣) انظر ص١٣٢ من هذا الكتاب.

(٤) ثدي أَجَدُّ: إذا يبس. الوخيم: الثقيل. جَدَّ الخصوم تقارعوا. وفي البيت إقواء.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة جدد مج٣ ص١١٠ ومادة وخم مج١٢ ص٦٣١.
وانظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٩.

لم يكتف الجاحظ بذكر حاجة الشاعر لصوته، آلة بيانه، بل أضاف معنىً آخر أشدَّ وأوجع. فمن أراد هجاء أحد جعله سُكّيتاً مُخَلَّفاً ومسبوقاً مؤخراً، وهذا تمام ضعة المقام.

قال الشاعر:

يا رابعَ الشعراء كيف هجوتني وزعمتَ أني مُفْحَمٌ لا أَنْطِقُ[1].

ثم عَمَدَ أبو عثمان إلى تخفيف حِدَّتِهِ، فجعل طلب التستر وراء الصمت والالتزام به نصيحة قيّمة. واقتراح السكوت يؤدي إلى تضاد في المعنى ولَبْس، سلاحٌ ذو حَدَّين، ولا أظنه يعني إلا الهجاء المستور. قال ابن أبي أمية[2]:

شهدتُ الرَّقاشيَّ في مجلسٍ وكان إليَّ بَغيضاً مَقِيتا

فقال اقترِحْ يا أبا جعفرٍ فقلتُ اقترحتُ عليكَ السُّكوتا[3]

وأخذ الجاحظ بتقليب معنى الصمت، فبعد أنْ ذكره عِيّا وهجاء مؤلماً، جعله حكمة، وَصَوْناً للنفس، ووسيلة لتجنب الوقوع في الزلل، وحِفظاً للسر، وتكتماً على الغير بعدم إفشاءِ دخيلته، قال الشاعر:

فلا واللهِ لا أُلفى وشَرْباً أُنازعهم شراباً ما حييتُ

ولا واللهِ ما أُلفى بليلٍ أُراقبُ عِرْسَ جاري ما بقيتُ

---

(١) لم يذكر قائل البيت. والمقصود برابع الشعراء: الشُّعْرور. قال الجاحظ عن الأصمعي عن رؤبة. الشعراء أربعة: الفحل والخنذيذ والشاعر والشعرور.
فحم. المُفْحَم: العييّ وقيل الذي لا يقول الشعر.
«لسان العرب»: ابن منظور مج١٢ ص٤٤٩ وانظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٩ و«العمدة»: لابن رشيق مج١ ص١١٥.

(٢) هو محمد بن أمية بن أبي أمية: كان كاتباً شاعراً ظريفاً. أعجب به أبو العتاهية وهو فتى. وكان ينادم إبراهيم بن المهدي. وربما عاشر علي بن هشام.
راجع «الأغاني»: الأصفهاني مج١٢ ص١٣٩ و«الفهرست»: لابن النديم ص٢٣١.

(٣) وروي البيت الثاني بشكل آخر: فقال اقترح كل ما تشتهي... فقلت...
«البيان والتبيين»: تحق السندوبي مج١ ص٤١٤ وفيه ما يسميه البلاغيون «المشاكلة».
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١. ص٤٠٤.

سأتركُ ما أخافُ عَلَيَّ منهُ مَقالتَه وأجْمَلُهُ السُّكوتُ
أَبَىٰ لي ذاكَ آباءٌ كِرامٌ وأجدادٌ بِمجدِهُمْ ربيتُ(١)

الصمت عيّ لمن يرى في نفسه المقدرة على الإفصاح، وفي الوقت عينه دواء وكَيٌّ لِسَتْرِ العِيّ فإذا أحسّ المرء بعجزه، فالأسلم لصيانة ذاته أن يَسْتُرَعِيَّه بسكوته. قال الشاعر:

عجبت لإدلال العَيِيِّ بنفسه وصَمْتِ الذي قد كان بالقول أَعْلما
وفي الصَّمْتِ سَتْرٌ لِلْعَيِيِّ وإنَّما صحيفةُ لُبِّ المرءِ أَنْ يَتَكَلَّما(٢)

وضاقت بالجاحظ الحِيَل، فوضع الأمور في نصابها، وأعطى الصمت حقَّه من الوصف، واعترف على لسان أبي نواس(٣) بأنه داءٌ، فخير للمرء أنْ يموت به على أن يحيا بالثرثرة الفارغة وداءُ الكلم. الصمت شرّ أفضل من غيره إذا جازت المفاضلة بين الشرور والعيوب:

مُتْ بداءِ الصمت خيرٌ لك من داءِ الكلام
إنَّما المُسْلِمُ مَنْ أَلْـ جَمَ فاه بلجامِ(٤)

(١) الشَّرْب بفتح الشين وسكون الراء: الجماعة يشربون الخمر. وقيل النصيب من الماء.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة شرب مج١ ص٤٨٨.
منازعة الكأس: معاطاتها «لسان العرب»: ابن منظور مادة. نزع مج٨ ص٣٥١. ربيت: نشأت.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة ربب مج١٤ ص٣٠٦.
وانظر «البيان والتبيين»: مج٣ ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٢) هذان البيتان من مليح شعر الخطفي وهو لقب عوف جد جرير بن عطية بن عوف الشاعر، واسمه حُذيفة بن بدر. راجع «لسان العرب»: ابن منظور مادة خطف. ج٩ ص٧٦ ـ ٧٧.
و«البيان والتبيين»: للجاحظ ـ تحق هارون مج١ ص٢٢٠.

(٣) هو الحسن بن هانىء، أبو علي، قيل له أبو نواس، للذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقه. والذؤابة هي الضفيرة من الشعر إذا كانت غير ملوية. ولد بالبصرة ١٤٥هـ/ ٧٦١م. ومات ببغداد ١٩٥هـ/ ٨١١م. «الخزانة» للبغدادي مج١ ص١٦٨ وانظر «الأغاني»: الأصفهاني مج٢٠ ص٣ـ١٨.

(٤) جاء في الديوان إنّما (السالم) بدل (المسلم). «الديوان»: تحق أحمد عبد الحميد الغزالي. دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٢ ص٦٢٠. وروي إنما السالم مَنْ. . . راجع «البيان والتبيين»: تحق السندوبي مج١ ص٢٨٧. و«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٦٩.

ثم سبرغور النفس، وحلّل الضمير الحيّ، فاستخلص بالتجربة والبُرهان أن النَّدَم حَسْرَة إنسانية مقيتة ومن ندم على سكوته مرة وتحسّر كان خيراً له من الندم الدائم وتبكيت الضمير، على كثرة الكلام والوقوع في الخطل والزلل. فمن كثر كلامه كثر خطؤه. وقال لقمان لابنه «أي بني، إني قد ندمت على الكلام، ولم أندم على السكوت».

وقال الشاعر:

ما إنْ ندمتُ على سكوتي مرةً ولقد ندمتُ على الكلام مرارا(1)

وبعد تقليب معنى الصمت، مال الجاحظ إلى إظهاره كوسيلة تعود على صاحبها بالنفع. فالصمت في موضعه بلاغة وحسن إدراك، وعمق في التجربة، ولم يعد عيباً قط بل صِفَةً حميدة يتمتع بها صاحب العقل الراجح. ثم استشهد على الذين لا يعابُ صَمْتُهُمْ بقول أبي العباس الأعمى(2):

خطباءُ على المنابر فُرسا نٌ عليها وقالةٌ غيرُ خُرْسِ
لا يُعابون صامتين وإنْ قا لوا أصابوا ولم يقولوا بِلَبْسِ
بحلومٍ إذا الحلومُ استُخِفَّت ووجوهٍ مثل الدنانير مُلْسِ(3)

وتعليله فيه حسن تَخَلُّصٍ، لأن الصمت في محله إبانة، ووضع الأمور في مواضعها، شريان مُسْتقى من تعريف البلاغة. قال بعض الكلبيين:

فإذا خطبتَ على الرجال فلا تكنْ خَطِلَ الكلام تقوله مُختالا

---

(1) لم يذكر قائل البيت. وقد علّق عليه السندوبي بقوله: ولهذه المناسبة أذكر أن أُغُسْطُسْ قيصر أمبرطور الرومان قال: «لا خطر يتهدد الخير الذي يعود على الإنسان بفضل السكوت».
انظر «البيان والتبيين»: والسندوبي مج1 ص286.
«والبيان والتبيين»: تحق هارون مج1 ص269.

(2) هو السائب بن فروخ مولى بني ليث وقيل بني الدئيل.
كان من شعرا بني أمية المعدودين المقدمين.
«الأغاني»: الأصفهاني مج16 ص228 ـ 235.

(3) روي في الأغاني: إذا الحلوم تقضّت أو اضمحلت، راجع «الأغاني»: الأصفهاني مج16 ص228.

واعلَمْ بأَنَّ مِنَ السكوت إبانةً ومن التَّكلُمِ ما يكونُ خَبَالا[1]

وكأن كلامه موجه إلى المتكلمين والخطباء. وفي شِبْهِ هذا المعنى قال الأعور الشَّنّي[2]:

وكائنْ ترى مِنْ صامتٍ لك مُعجب زِيادتُه أو نَقْصُه في التَّكلُّم
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبق إلا صورةُ اللَّحم والدَّمِ[3]

والصمتُ يُعَلِّمُ الحِكْمَةَ والصبر، لأن الإنسان الذي يعرف كيف ومتى يسكت، يعرف أوان الكلام فيكون حكيماً عاقلاً. قال أبو العتاهية[4]:

... كلُّ امرىء في نفسه أعلى وأشرف من قرينه[5]

وفي شبهه قال عبد الله بن معاوية بن أبي جعفر[6].

---

(١) لم يذكر اسم الشاعر. راجع «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٣٥.

(٢) هو بشر بن منقذ: من عبد قيس من قبيلة شَنّ. كان شاعراً محسناً وله ابنان شاعران يقال لهما جهم وجهيم. وكان المنذرين الجارود ولي اصطخر لعلي بن أبي طالب فاقتطع عنها مائة ألف درهم فحبسه علي بها. لُقِّب الأعور لبيت شعر قاله.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص١٤٩.
وانظر «معجم الشعراء في لسان العرب»: د. ياسين الأيوبي ط٢ دار العلم بيروت ١٩٨٧ ص٦٦.

(٣) البيتان المذكوران ليسا للشَّنّي بل لزهير بن أبي سلمى. ورقمهما في معلقته ٥٩ و٦٠ يقول: كم صامت يعجبك صمته فتستحسنه، وإنما تظهر زيادته على غيره، ونقصانه عن غيره عند تكلمه.
وهذا كقول العرب: المرء بأصغريه لسانه وجنانه.
«شرح المعلقات السبع»: للزوزني ص١٢٢.

(٤) أبو العتاهية: لقب غلب عليه، واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان مولى عَنَزة. وكنيته أبو إسحاق. أمه أم زيد بنت زياد المحاربي مولى بني زهرة قال له المهدي: أنت إنسان متحذلق (متطرف) مُعَتَّه (مجنون في خلقه) فذهب حديثه لقباً له. اتهم بالزندقة وتوفي في خلافة المأمون ٢١٣هـ/ ٨٢٨م.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٤ ص٣ ـ ١١٤. «الفهرست»: ابن النديم. ص٢٢٧.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٩٧.

(٦) هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، من فتيان بني هاشم وشعرائهم. لم يكن محمود المذهب في دينه، وكان يُرمى بالزندقة وكان قد خرج بالكوفة في آخر أيام مروان بن محمد، ثم انتقل عنها إلى نواحي الجبل ثم إلى خراسان، فأخذه أبو مسلم فقتله هناك.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٢ ص٢١٣ ـ ٢٣٨.

إلزم الصمت إنّ في الصمتِ حُكما   وإذا أنت قُلتَ قولاً فَزِنْهُ[1]

لذا استحق الذي يَعْرِفُ كيف يصمت المدح. قال محرز بن علقمة[2].

... صموتاً في المجالس غير عيٍّ   جديراً حين ينطق بالصواب[3]

وقال الشاعر[4] في مديح أحمد بن أبي دُؤاد:

حسنُ الصمتِ والمقاطعِ إمّا   نطقَ القومُ والحديثُ يدورُ
ثم من بَعْدُ لحظةٌ تورِثُ   اليُسْرَ وعِرْضٌ مهذبٌ موفورُ[5]

وهكذا نجد أن الجاحظ قد قلّب معاني الصمت، وأجلى عيوبه وحسناته، وكاد لا يترك معنى، يخطر على بال إلا استشهد لأجله بشواهد شعرية جيدة، وهو الخبير.

وفَرّقَ بين صمت العاقل وَمَدَحَهُ، وبين صمت الجاهل العاجز وذَمَّه، ثم سعى إلى النصح والتسلّح بالصمت عند الضرورة، لأنه يخفي عيوب صاحبه ويبعده عن الادعاء بغير علم، والمباهاة الزائفة، فهو في هذه الحالة ضرورة ملحة لحفظ الكرامة.

ثم ذهب إلى التأكيد بأن الصمت داء، لكنه دواء لداء الثرثرة الفارغة، وجعله حِكمةً للعارفين والعاقلين والمتكلمين، فخير للمرء أن يندمَ على سكوته مرة مِنْ أَنْ يَنْدَمَ على كلامه مراراً.

وأثبته سلاحاً للمرء وعبادة. قال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «من أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج»[6].

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٧٨.
(٢) لم أجد ترجمته في الأصول المتوفرة.
(٣) يمدح الشاعر شريكاً بن عبد الله (٩٥ ـ ١٧٧هـ/ ٧١٣ ـ ٧٩٤م). العالم بالحديث والفقه. «الأعلام»: الزركلي مج٣ ص١٦٣. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٦٤.
(٤) هو الجاحظ نفسه.
(٥) روى ياقوتُ نَصَتَ بدل نَطَقَ ومن بعدِ لحظةٍ بدل من بعدُ لحظةٌ. والأولى أمتن. «معجم الأدباء»: ياقوت الحموي. مج١٦ ص٨٠ ـ ٨١.
(٦) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٣٦٠.

وفي أكثرَ من عشرين شاهداً شعرياً أو ما يزيد على الثلاثين بيتاً، نَوَّرَ مُخْتَلَفَ معانيه، فجاءت مُشِعَّةً مُفْحِمَة.

والذي قاده، في اعتقادنا، إلى بلورة قضاياه البلاغية، إظهاره فضل هذه الأمة التي خرجت من الصحراء، أمة الفصاحة واللسن، لذلك تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله.

لقد أدت شواهد أبي عثمان الشعرية دوراً مُوَضِّحاً في إبراز معظم معاني الصمت وأشكاله، وأنارت من التُّراثِ ضوءاً ساطعاً بلاغياً عريقاً، تراث أمة عَلَّمَتِ العالم معنى وأهميّة اللِّسانِ العربي.

٢ ـ العِيُّ والحَصَرُ في الشعر

العِيُّ خِلاف البيان[١]، ويكون في القول كما يكون في العمل، والحَصَرُ[٢] ضَرْبٌ مِنَ العِيِّ، ولا يكون إلاّ في الكلام، بحيث يضيق الصدر عن الإفصاح. وهما من العيوب الأدبية التي تعاني منها البيئة الإنسانية، فمن أُصيب بأحدها فقد مقومات الفصاحة والبلاغة.

والبيئة العربية، بيئة الصحراء والفروسية، تعودت الفخر المبالغ به كما تعودت الهجاء المُرَّ.

---

(١) عيا بالأمر عِياً وعَيِيَ وهو عَيّ وعَيِيٌّ: عجز عنه ولم يطق إحكامه. والعِيّ تأسيسُ أَصْلُهُ من عَين وياءين وهو مصدر العَيّي وفيه لغتان:
رجل عييٌ: فعيل، ورجل عَيّ: فَعْل. وعَيِيَ في المنطقِ عِياً: حَصِرَ.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة عيا مج١٥ ص١١١ ـ ١١٣.
وانظر ص١٦٤ الحاشية رقم ٧ من هذا الكتاب.

(٢) حَصِرَ صَدْرُه ولسانُه، وحَصِر في كلامه وخطبته عَيّ. قال الزمخشري: نعوذ بالله من العُجْب والبَطَر ومن العِيِّ والحَصَرْ.
. . . وقد حصَرَ على قومه وفي قلبه ولسانه ويديه حَصَرٌ: أي ضيق وعِيٌّ وبُخْلٌ.
والحَصَرُ: ضيق الصدر، وهو ضرب من العِيّ.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة حصر مج٤ ص١٩٣.
«أساس البلاغة»: الزّمخرشي ص٨٥. وانظر ص١٦٤ الحاشية رقم ٨ من هذا الكتاب.

وقد يسهو شاعرها، أحياناً، فيمزج بين العاهة الجسدية وبين العجز والتقصير الناتجين عن ضعف أو جهل، كما هو مُشاهد في كل العصور والبيئات، ويأخذ بالهجاء، بسبب موضوعي أو غير موضوعي، فيفخر بالقوة ويبالغ بالمباهاة ولا تعليل لهذه الظاهرة سوى أنها عادات وتقاليد كانت سائدة في ظروف ذلك العصر.

هذه الحقيقة لم تغب عن خاطر شيخ البلاغيين أبي عثمان، الذي سارع إلى التَّعَوُّذِ من العيوب والاستجارة بالله منها[1]، حتى لا يُفَسَّرَ قَصْدُه، عند الكلام عنها، تفسيراً يسيءُ إلى موضوعيته ويُشوِّه نُبْلَ مقاصده، وربما كان واقعه المؤلم، حافزه الأقوى للبدء بالتعوّذ والاستجارة بالله، فضلاً عن الشيخوخة والوهن والفالج والنُقرس، والتّعلّق بالإيمان والرهبة مِنْ حساب الآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[2].

تعوّذ الجاحظ على لسان النّمر بن تولب[3] من الحَصَر والعِيِّ والمرض.

أَعِـذْنـي رَبِّ مِـنْ حَـصَـرٍ وعـيٍ ومـن نـفـسٍ أُعَـالِـجُـهـا عِـلاجـا[4]

كما تعوّذ من أسبابها، وذلك عند تعرُّض الإنسان، عند القول، لِلنَّحْنَحَةِ والسُّعْلة إذا انتفخ سَحْرُه[5] ونبا حَدُّه، فقال على لسان سُحيم بن حفص[6]:

(١) تلطف بالرجوع إلى ص ١٦١ ـ ١٦٢ من هذا الكتاب.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٣) النّمر بن تولب (ت نحو ١٤هـ/ ٦٤٥م). كان شاعراً جواداً. ويسمى الكيِّس لحسن شِعره. جاهلي أدرك الإسلام فَحَسُنَ إسلامه وأصبح من الصحابة. لم يمدح أحداً ولا هجا أحداً. عاش مئتي سنة. «الخزانة»: للبغدادي مج١ ص١٥٦. «الفهرست»: لابن النديم. ص٢٢٤. «الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ص٦٢. «الأعلام»: الزركلي مج٨ ص٤٨.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣.

(٥) سَحْرُه: يقال ذلك لمن تعدى طوره قال الأزهري: يقال انتفخ سحره للجبان الذي ملأ الخوف جوفه فانتفخ، أي انتفخت رئته حتى رفع القلب إلى الحلقوم.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة سحر مج٤ ص٣٥١.

(٦) سُحيم: لقب له. واسمه عامر بن حفص، كان أسود شديد السواد، ويعرف بالأسود وبأبي يقظان. كان عالماً بالأنساب والأخبار والمآثر والمثالب، ثِقة فيما يرويه (ت١٩٠هـ/ ٨٠٥م).
«الفهرست»: لابن النديم ص١٣٨.

نعوذ بالله من الإهمال ومن كَلالِ الغَرْبِ في المقالِ
ومن خطيبٍ دائم السُّعالِ[1]

وضرب الله، عز وجل، مثلاً لعِيِّ اللسان ورداءة البيان، حين شَبَّهَ أَهْلَهُ بالنساء والولدان فقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[2].

لذا وصف النمر بن تولب، مَنْ يُعَلِّقُ في أذنيه حِلْية، بأنه ضعيف، لأنه يتشبَّهُ بالنساء والولدان. قال:

وكلُّ خليلٍ عليه الرِّعا ثُ والحُبُلاتُ، ضعيفٌ مَلِقْ[3]

وهذا التعوّذ دليل عل صدق نية الجاحظ من الشَّماتَةِ بالعِيّ.

كان جُلُّ اهتمامه أنْ يُخَلِّص الإنسان العاقل من أسباب العِيّ ليكونَ إنساناً سوياً.

ويعرض هذه الأسباب، التي يمكن للبال أن يسهو عنها، عَرْضَ مُنَقِّبٍ عالمٍ، يقفُ القارىء منها مشدوها.

---

(١) غَرْب المقال: حد اللِّسان.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة غَرَب مج١ ص٦٤٥.
«البيان والتبيين»: للجاحظ تحق هارون مج١ ص٤٠.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٨.
والحِلْية: الزينة، أي مظهر الحجة لضعفه عنها بالأنوثة. وأخرج عبد بن حميد عنه (أو من ينشأ في الحلية). قال هو النساء فرق بين زِيِّهن وزِيّ الرجال ونقصهن من الميراث وبالشهادة وأمرهن بالقعدة وسمّاهن الخوالف.
«فتح القدير»: الشوكاني مج٤ ص٥٥٠.
«تفسير الجلالين»: جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي. مكتبة الملاح دمشق. ص٦٤٨.

(٣) الرعثُ والرَّعْثَةُ: ما علِّق بالأذن من قرط ونحوه والجمع رعثةٌ ورعاث.
وكان بشار يلقب بالمُرعَّث: سمي بذلك برعاث كانت له في صغره في أذنه.
قال الجاحظ: الرِّعاث: القِرَطَة. والحُبُلات: كلُّ ما تزيَّنتْ به المرأة مِنْ حَسَنِ الحلْي والواحدة حُبُلَةٌ.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة رعث. مج٢ ص١٥٢.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٢.

ولنتأمل، فيما يلي، الشواهد الشعرية التي ساقها الجاحظ عن العِيّ ووجوهه، ولْنَرَ طَرْحَهُ المثير لمختلف ما قيل فيه في الأزمان الغابرة.

ملازمة العِيّ للإنسان عيب، والبعد عنه فخر، لذا تغنّى الشعراء بسلامتهم منه ومِنْ أشكاله قال الشاعر(1):

وما بيَ مِنْ عِيٍّ ولا أَنْطِقُ الخَنَا إذا جمع الأقوامَ في الخَطْبِ محْفِلُ(2)

ولأنهم يجعلون العَجْزَ والعِيّ من الخرْقِ، أكانا في الجوارح أم في الألسنة. قال زَبّان بن سَيَّار(3):

وقُلنا بلا عيٍّ وسُسْنا بطاقةٍ إذا النار نار الحربِ طال اشتعالُها(4)

وانتقد الذين يحسبون أنّهم يسترون عِيَّهم بحركات ليست خافية على ذوي العقول، وذلك جهلاً منهم بمقامهم. فَيدَّعون الفصاحة والبلاغة والفهم وهم عنها مُقصّرون لما ينتابهم من التَّنْحنَحةِ عند القول والسُعلة، أو بتفتيل الأصابع ومداعبة اللحية.

---

(1) هو يحيى بن سعيد. انظر «البيان والتبيين»: للجاحظ تحق هارون مج١ ص٤ الحاشية رقم ٢.

(2) الخَنَا: القبيح من الكلام. «لسان العرب»: ابن منظور مادة خنا مج١٤ ص٢٤٤.
والخطْب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة والشأن والحال.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة خطب. مج١ ص٣٦٠.

(3) زَبَّان بن سَيَّار: (ت ١٠ق هـ/ ٦١٣م). شاعر جاهلي مِنْ أهل المُنافرات ومن شعراء المفضليات والحماسة.
«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٤١.
وانظر «معجم الشعراء في لسان العرب»: للأيوبي ص١٦٥ رقم ٤٧٩.

(4) يفخر الشاعر بأنه ليس كالذين رفعتهم الأقدار بالمصادفة أو دون أن يكون لهم يد في ذلك، فهو بعيد عن كل عِي. بَنَى أمجاده وسيزيد من بنائها معتمداً على طاقته في السلم والحرب. وهذا البيت من قصيدة جاء فيها:

ولسنا كأقوام أجدوا رياسةً يُرى مالُها أوْ لا يُحَسُّ فِعالُها
يُريغون في الخصب الأمور ونَفْعُهم قليلٌ إذا الأموالُ طال هُزالها...
وقُلنا.... البيت المذكور.

انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤ ـ ٥.

فهذه الحركات لا توصل الفهم إلى الغير ولا تُعَبِّرُ عن بلاغة، بل ربما أثارت الضحك والنقمة.

قال الشاعر(١):

مليءٌ بِبُهْرٍ والتفاتٍ وسَعْلةٍ ومَسْحَةِ عُثْنون وفَتْلِ أصابعِ(٢)

وقال الراجز وهو يمتح بدلوه:

علقتُ يا حارثُ عند الوِردِ بجابىءٍ لا رفِلِ التَّردّي
ولا عَييٍّ بابْتناءِ المجدِ(٣)

---

(١) لم نتبّين اسمه.

(٢) البُهْر: تتابع النَّفَس مِنَ الإعياء.
العُثْنون من اللحية: ما نبت على الذقن وتحته سِفلاً.
وقيل: هو كل ما فضل من اللحية بعد العارضين عن باطنهما.
ويقال لما ظهر منها السَّبَلَه.
وقيل: اللحية كلها.
وقيل: طولها وما تحتها من شعرها.
(وربما قصد الشاعر الشَّعْرَ الناتىء تحت الشَّفَة السفلى مباشرة).
«لسان العرب»: ابن منظور مادة عثن مج١٣ ص٢٧٦.
«البيان والتبيين»: للجاحظ تحق هارون مج١ ص٤.

(٣) الماتح (بالتاء) الذي ينزع الدلو وهو بجوار البئر. والمائح (بالهمز) الذي يدخل البئر فيملأ الدلو. الجاذل: الواقف مكانه لا يبرحه.
الجابي: الذي يطلع فجأة.
الرفِل: الذي يجر ذيل ثوبه.
التردي: لبس الرداء.
والبيت مذكور في «الحيوان».
(وقع الراجز، عند منهل الماء على رجل واقف أمامه، ظهر فجأة، وليس عليه سيماء التكبر، وقد عرف الراجز بفراسة العرب المعروفة، أنَّ هذا الرجل جدير بالوصول إلى المجد والسؤدد، وليس من عِيّ يشكو منه. فالعِيُّ عَيبٌ يمنع ركوب المجد).
«لسان العرب»: ابن منظور مادة مج١٣ ص٢٧٦.
«الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص٤١٩.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤.

وفي مواضع عديدة من (البيان والتبيين) ذكر أبو عثمان شواهد شعرية تظهر أشكال العيّ وأنواعه.

فهناك من يفخر بقلة عِيّه[١]، باعتبار أن الإنسان كائن ناقص. وهناك منْ تُعْييه القوافي وهو خطيب مشهود له[٢]، ذلك أن الإنسان بقدر ما يكون حكيماً في تصرفاته ومواقفه ومعتدلاً في أقواله وأفعاله، يكون جليلاً مُهيباً.

فخير الأمور أوساطها.

ويرى ـ أبو عثمان ـ العِيّ في الفِعل، كالذي يعمل للوصول إلى السيادة ثم يُقَصِّرُ عن المتابعة فيأتي عملُه ومجهوده ناقصين، ونَفَسُهُ قصيراً لأنه لم يستطع الوصول إلى بُغْيته[٣].

كما يرى أنَّ الإكثار في القول والجهد، يؤديان إلى العيّ[٤]، والخضوع للامتحان خيرُ كاشفٍ عن حقيقة المرء وعِيِّهِ[٥].

---

(١) أنشد ابن الأعرابي:

إن زياداً ليس بالبكيّ ... ولا بهيّاب كثير العيّ

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤١.

(٢) قال الشاعر (ولم يذكر اسمه):

وقد يَقْرِضُ الشعرَ البَكِيُّ لسانُهُ ... وتُعْيي القوافي المرءَ وهو خطيبُ

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٠٩.

(٣) قال الشاعر ولم يذكر اسمه:

إذا المرءُ أَعْيَتْه السِّيادة ناشِئاً ... فمطلبها كهلاً عليه شديدُ

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٧٤.

(٤) قال ابن هَرْمة:

إن الحديث تَغُرُّ القومَ خَلْوتُهُ ... حتى يلجّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٠٣.

(٥) قال حُميدُ بن ثور الهلالي:

أتانا ولم يعْدِلْهُ سحبانُ وائل ... بياناً وعلماً بالذي هو قائلُ

فما زال عند اللُّقْم حتى كأنَّهُ ... مِنَ العيِّ لما أنْ تكلّم باقلُ

فسحبان مَثَلٌ في البيان. وبَاقل مَثَلٌ في العِيّ.

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦.

ولم يبخل أبو عثمان بشاهد على العِيّ المُمَيَّز، الذي يُضرب به المثل. قال: «ويقال في الفحل إذا لم يُحسن الضِرّاب: جمل عَيَاياء، وجمل طباقاء». وقالت امرأة في الجاهلية تشكو زوجها:

«زوجي عياياء طباقاء، وكل داءٍ له داءٌ». حتى جعلوا ذلك مثلاً للعييّ الفَدْم، أي الغليظ، والذي لا يتجه للحجة. قال الشاعر:

طَبَاقاءُ لم يشهد خصوماً ولم يَقُدْ ... رِكاباً إلى أكوارها حين تُعْكَفُ[1]

فمن الطبيعي أن تُفَضَّلَ الخِفَّةُ والقوةُ على العيّ، لأنهما دليل على توقُّد ذكاء الإنسان وعافيته. قال أبو قيس بن الأسلت[2]:

الكَيْسُ والقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الـ ... إشفاقِ والفَهَّةِ والهاعِ[3]

---

(١) رجل طباقاء: رجل أحمق، عييٌ، ثقيل.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة طبق ج١٠ ص٢١٤.
الكور بالضم: الرَّحْل. والجمع أكوار.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة كور مج٥ ص١٥٤.
عكف يعكفُ عكوفاً: أقبل عليه مواظباً لا يعرف عنه وجهه.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة عكف مج٩ ص٢٥٥.
وينسب هذا الشعر إلى جميل بن معمر.
«لسان العرب»: ابن منظور مج١٠ ص٢١٤.
و«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١١٠.

(٢) أبو قيس بن الأَسْلَت: ت ١هـ/ ٦٢٣م. واسمه عامر بن جشم بن وائل الأوسي. أبوه الأَسْلَتْ ومعناه المقطوع الأنف. شاعر جاهلي. جعله أبو زيد القرشي من أصحاب المُذَهَّبات ولم يُعْرَف ما إذا كان أَسْلَمَ أم لا. . . .
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٧ ص٦٧ - ١١٩.
«الخزانة»: البغدادي مج٣ ص٤٠٩.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص٢٨٥ - ٢٨٦ رقم ١٠٣٢.

(٣) الكَيْس: الخِفَّة والتوقد. «لسان العرب»: ابن منظور مادة كيس مج٦ ص٢٠٠.
الفَهَّةُ والفهاهة: العِيُ. «لسان العرب»: ابن منظور مادة فكه مج١٣ ص٥٢٥.
هاع يَهاعُ ويهيع هيعاً وهاعاً وهيوعاً. جَبُنَ وفزع.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة هاع مج٨ ص٣٧٨.
ويذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما سمع إنشاد هذا البيت أخذ يردده ويتعجب منه. انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٤١.

وقد حاول العاقلون في مختلف العصور التَّخَلُّص من عيّهم، ليخلصوا من النقد ويُؤْثِروا السَّلامة، بأساليب مختلفة. ولا يمكن ملاحظة ذلك إلاّ بمراقبتهم بعين الناقد الخبير ففي عصر استعمال العصا والرمح والسيف والتُرس، كانت العصا تساعد خطيب القوم، والمتحدثين، والقُصّاص، على الاستمرار في التجويد وإخفاء بعض العيوب. تماماً كما يحدث اليوم بسبحة المتحدث، يداعبها، يتلهى بها بحركات عِدَّة، كأنه يَجِدُ الوقت الملائم للتفكير أَوْ يَلفِتُ نظر السامع لها لِيُلْهيه ويُبْعِد تركيزه وتفكيره فَيَبْهَره.

وفي شبيه هذا المعنى رثى جرير بن الخطفي[1] أحد أجواد العرب وفصائحهم، لأنه كان يجيد استعمال القنا والعصا عند الخطابة. ومن المعروف أن الاعتماد على العصا وغيرها عند الخطابة، عادة جاهلية أقَرَّها الإسلام بل ألزم بعضُ الفقهاء خطيبَ الجمعة أن يعتمد على السيف في كل بلد فتحه عنوة.

قال جرير:

مَنْ لِلْقَناة إذا ما عَيَّ قائِلُها ... أَمْ لِلأَعِنّة يا شَبَّ بْنَ عمّار[2]

والحَصَر كما أسلفنا نوع من العيّ، فمن الطبيعيّ أنْ يرميَ الشعراء أخصامهم به، كما ترمي الفرسان النصال والقنا.

قال مكيّ بن سوداة[3].

حَصِرٌ مُسْهَبٌ جريٌّ جبانٌ ... خَيْرُ عِيِّ الرجالِ عِيُّ السُّكوتِ[4]

---

(١) انظر ص١٣٦ من هذا الكتاب.
وفي الديوان (أم) بدل (من) و(يا عُقْبَ) بدل (يا شَبَّ).
«الديوان»: تحق. محمد الصاوي. دار الأندلس. بيروت. ص٢٣٧.
(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٧٣.
(٣) ذكره المرزباني في معجمه ولم يُعْرف به. ص٤٥٧.
انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣.
(٤) أحسن ما يكون عليه الرجل العيّ، الإكثار من الصمت للسلامة.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤.

وقال آخر، مُتَعَجِّباً لشأن مَنْ جَمَعَ صنوف العِيّ من كل جهة، مع أنه كان جديراً ببلاغة القول، يخاطبه: كان من المنتظر منك أن تكون بليغاً مُفوَّهاً، وأن تُثبت إرْثَكَ لأبيك الذي كان بليغاً والذي ورث الكلام والبلاغة عن عمه وخاله:

جمعتَ صنوفَ العِيّ من كل وُجهةٍ وكنتَ حَرِيّاً بالبلاغة من كَثَبْ[1]

وبما أَنَّ الحَصَر حُصِرَ أكثره في القول، فقد طلب عبد يغوث[2] أن يُطْلَقَ لسانُه، بعد أنْ أُسِرَ فقال:

أقولُ وقد شَدُّوا لساني بنِسعةٍ أمعشرَ تَيْمٍ أَطْلِقوا من لسِانيا[3]

وأنشد خلف الأحمر[4].

وما في يديه غير شدقٍ يُميله وشقشقةٍ خَرْساءَ ليس لها نعبُ

ومن رام قولاً خالفته سجيَّةٌ وضِرسٌ كَقَعْبِ القيْنِ ثَلَّمَهُ الشَّعْبُ[5]

---

(١) ويروى وكنت جديراً. انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥ و٦.

(٢) عبد يغوث بن وقّاص الحارثي ت٥٨٠م من بني كعب. شاعر جاهلي، وفارس شرير وسيّد قومه وقائدهم يوم الكلاب الثاني، بين قومه وبين بني تميم حيث أسر وقتل. وقيل: لما أسره بنو تميم قال لهم: يا بني تميم اقتلوني قتلة كريمة: اسقوني خمراً ودعوني أَنِحْ على نفسي فسقوه الخمر وقطعوا له عرقاً فجعل يشرب والدم ينزف وهو يقول ألا لا تلوماني. «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون. مج٢ ص٣٠٠. «معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص٣٧٣ رقم ١٣٦٥.

(٣) نسع، النسْعُ: سير يُضفر على هيئة أعِنَّة النِّعال تُسد به الرّحال والجمع أنساع ونسوع ونُسْعُ والقطعة نسعة ومما يروى أنهم أسروه وشدوا لسانه بنسعة ليمنعوه من الكلام وأول القصيدة:

ألا لا تلوماني كفى اللوم مابيا فما لكما في اللوم خيرٌ ولا لِيا

«لسان العرب»: ابن منظور مادة نسع مج٨ ص٣٥٢.

«البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج٢ ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٤) خلف الأحمر (ت نجو ١٨٠هـ/ ٧٩٦م). واسمه خلف بن حيان، أبو محرز، المعروف بالأحمر. راوية، عالم بالأدب، شاعر من أهل البصرة كان أبواه موليين من فرغانة. أعتقهما بلال بن أبي موسى الأشعري قيل إنه معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة.

«الفهرست»: لابن النديم ص٧٤ وانظر الحاشية رقم ٣ من ص١٥١ من هذا الكتاب.

(٥) قعب القين: قدح الحداد الضخم. وثلّم الإناء: كسر حرفه. والشعب من الأضداد: الجمع والتفريق والإصلاح والإفساد.

«لسان العرب»: ابن منظور مادة قعب مج١ ص٦٨٣. ومادة ثلم مج١٢ ص٧٨ ـ ٧٩. ومادة شعب مج١ ص٤٩٧. انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٢٩.

ومما مُدح به الخطيب قول الهذلي(١):

ولا حَصِرٌ بخُطْبَتِه إذا ما عزَّتِ الخُطَبُ

ومما ذَمّوا به الحَصَر، وهجوا صاحبه قول الراجز(٢):

وَجْهٌ قبيحٌ ولسان أبكمُ ومِشْفَرٌ لا يتوارى أضْجَمُ(٣)

كان الشعراء يفخرون بطلاقة اللسان، وسرعة البديهة، ويتبارون في القول البليغ والجواب المُرْتجل الذي يُفْرِزُ اللِّسِن الطلِق من اللِّسِنِ الحَصِر(٤).

وأقسى هجاء قرأته في معنى العِيّ والحَصَر قول رؤبة(٥).

حَشْرَجَ في الجوف سحيلاً وشهقْ حتى يُقالُ ناهقٌ وما نَهَقْ(٦)

---

(١) أبو العيال بن أبي عنتر الهذلي. هو أحد بني خُناعة بن سعد بن هذيل. شاعر فصيح مقدام من شعراء هذيل. مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ثم أسلم فيمن أسلم من هذيل. وعُمِّر حتى خلافة معاوية.

«الأغاني»: الأصفهاني مج٢٣ ص٣٩٥.

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣.

(٢) لم نتبيَّنْه.

(٣) الأضْجم: المائل الشدق الأعوج الفم. «لسان العرب»: ابن منظور مادة ضجم مج١٢ ص٣٥٢.

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٨٤ ـ ٢٩٤.

(٤) قال أبو تمامة الضبيّ:

ومناحصينٌ كان في كل خطبة يقول ألا من ناطقٍ مُتكلِّمِ

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٧٦.

(٥) رؤبة بن العجّاج: (ت ١٤٥هـ/ ٧٦٢م). أبو الجَحّاف أو أبو محمد. راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.

كان أكثر مقامه في البصرة وأخذ عنه أعيان اللغة.

«الأعلام»: الزركلي ج٣ ص٣٤.

«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. ياسين الأيوبي. ص١٦١ رقم ٤٦٨.

(٦) شَبَّه رؤبة حالة الشاعر أو الخطيب العيي بحالة الحمار الذي لا يتم عملية النهيق. فالحمار يلفت الانتباه بأصوات يُخْرِجُها من جوفه تشبه الحشرجة، (وهي تردد صوت النفس، أو الغرغرة في الصدر أو الغرغرة عند الموت)، ثم يتبعها بشهيق حتى يظن من يسمعه أنه ينهق. والحقيقة لم تتم عملية النهيق. (حتى: هنا، للتأكيد لذلك رفع الفعل المضارع بعدها) وفي ديوانه «يقالَ» بالفتح (ص١٠٦). «لسان العرب»: ابن منظور مادة حشر. مج٢ ص٢٣٧.

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥١.

وهو تصوير بديع بليغ، الأجدر به أن يُسْتَعْمَل للحيوان فقط.

وأضاف الجاحظ مفهوماً جديداً لأشكال العيّ والحصر لا تخطر على بال، سمّاه عِيّ البناء (تحقيق التطاول) لمن أراد الرفعة ولم يستطع الوصول، وعِيّ القوافي، لمن أكثر من الشعر وهو غير مطبوع عليه، وعِيّ السيادة لمن طلبها فَحَبِطَ مسعاه إليها، وعِيّ الإكثار والجهد والمظهر. . . .

ثم كشف عن المعتدلين الذين يعملون جاهدين للتخلص من العيوب، وأبرزَ العِيّ الغليظ الذي يُضْربُ به المثل، فخلُص إلى نتيجة مُرْضِية:

القوة مع الحكمة، والكياسة مع الخِفّة خيرٌ من العِيّ وأنواعه.

صَوَّرَ هذه العلل البغيضة بْريشة الفنان، وكان عرضه للعيّ والحَصَر مُمْتِعاً بحيث ضحكنا من الذي يعقد لسانه فيفتح فاه ليفترّ عن ضرس كأنه قعر قدح حدّاد مثلّم، وفزعنا من الهجاء المقذع المؤلم، وأشفقنا على من يَسُدُّ فمه بنسعة.

ففي أكثر من خمسين بيتاً من الشعر عرض شواهده عرضاً مشبعاً، دون أن يُدْخِلَ إلى نفس القارىء الملل أو دون أن يتركَ شاردة تغيب عن الموضوع المعالج.

٣ ـ اللُّثْغَـةُ في الشِّـعر

اللُّثغة آفة لسانية، تكون في النثر كما تكون في الشعر، تجعل الإنسان عَيِيًّا في الكلام.

ومن الناس من يولد أَلْثغ، ومنهم من يصاب بأسبابها: كالإصابة المباشرة في اللسان، أو نزع بعض الثنايا الأمامية. . .

ولما كان موضوع بحثنا ـ دور الشعر في «البيان» ـ اقتصرنا على الكلام في لثغة الشعر.

فاللُّثغة لغةً، أَنْ تعدِلَ الحرفَ إلى غيره. والألثغ هو الذي قَصُرَ لِسانه عن

موضع الحرف ولحق موضع أقرب الحروف من الحرف الذي يعثر لسانه عنه.

وقيل: هو الذي لا يُبيِّن الكلام(١).

يَحَارُ المُتَتَبِّعُ لموضوع اللُّثغة في كتاب «البيان والتبيين» بين هدف الجاحظ الظاهر، وبين الغاية الحقيقية التي يرمي إليها.

هل هي جَذْرٌ استكمل به بحثه البياني فقط؟ أم هي سبب، جَنَّدَ نفسه، لأجل المدافعة عن إنسان لا يحب أن يُساء إليه، فأفرد له صفحات عديدة، على خلاف عادته في شرح موضوعاته؟

نعتقد أن أبا عثمان عالج موضوع اللُّثغة ليصيب أهدافاً متنوعة. منها ما يتعلق بموضوع اللسان آلة البيان، ولا يغفر الجاحظ لنفسه نقصان موضوعه قيد أنمله إذا قادر، فالكمال لله وحده سبحانه.

ومنها ما هو أصل في عيوب اللفظ، بدأ به ليصل إلى شرح موضوع البيان، ومنها أن اللُّثغة ترتبط بموضوع شخصي مباشر، هو اعتزاز الجاحظ بمعتزليته، فكيف يُسوِّغُ للغير النيل منها ومهاجمة أحد أركان المعتزلة مهاجمة شخصية؟

لقد أدغم أهدافها جميعها، وحَقَّقَ غرضه بأسلوب أقل ما يقال فيه إنه جاحظي.

واللُّثغة عيب لفظي غير إرادي، وصاحبها لا يستطيع عادة إخفاءه، لذا من النادر جداً أنْ يتخذ الإنسان العيّي وسيلة يتستّر خلفها وينجح.

وإبراز الجاحظ، لطريقة نجاح صاحبه، نجاحٌ لبحثه، ودفاع في الوقت عينه عن صديقه لشهرته ومكانته في عالم الاعتزال.

ولكن الجاحظ خرج بنتيجة مفيدة هي: إن الإنسان بإرادته وعلمه وذكائه وبلاغته وبيانه يستطيع إخفاء عيبه وينتصر عليه بذكاء.

---

(١) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة لثغ. ج٨ ص٤٤٨.

فكيف عالج أبو عثمان موضوع اللُّثغة؟

وكيف دمج سيرة صاحبه فيها؟

وما هو دور الشعر في تحقيق الغايتين؟

رأي الجاحظ مُقْنِعٌ، فقد عَبَّر بلسان الناس إلى الناس فقال:

الناس لا يُعيِّرون الخُرْس، ولا يلومون من استولى على بيانه عَجْزٌ، فتلك طاقة. كلّهم يذمون أشكال العِيّ وعيوب اللفظ والكلام؛ فاللُّثغة من عيوب اللفظ، ومتى أَحَسَّ صاحبها بأذاها، عليه التفتيش عن مخرج لها، لأن البيان يحتاج إلى تمام آلته وإحكام صنعته ومهارة منطقه وسهولة مخرجه وتكميل حروفه، كما يحتاج إلى حلاوةٍ وطلاوةٍ وجزالةٍ وفخامة.

قال الجاحظ: «ولَمَّا علم واصل بن عطاء[1] أَنَّه أَلْثَغ فاحشُ اللَّثْغِ... رام إسقاط الراء من كلامه»[2].

وأن مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية مقالة، ورئيسَ نِحلةٍ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النِحل وزعماء المللِ... وعلم أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، واللسان المُتَمِكّنِ والقوة المُتَصَرِّفة...

رام أبو حديفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله ويتأتى لِسَتْره والراحة من هُجنته،

---

(١) أنشد ضِرار بن عمرو قول الشاعر في واصل بن عطاء:

ويجعلُ البُرَّ قمحاً في تصرُّفه ... وجانب الراء حتى احتال للشعرِ

ولم يُطِقْ مَطَراً والقولُ يُعْجِلُه ... فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطرِ

وضِرار المنشد صاحب الفرقة الضرارية. انفرد بأشياء منكرة. منها قوله: إن الله تعالى يُرى في القيامة بحاسة سادسة، يرى بها المؤمنون ماهية الإله... وواصل بن عطاء صاحب الفرقة الواصلية، ورأس المعتزلة وكنيته أبو عمرو. له مقالات خبيثة، ينكر عذاب القبر، وخالف المعتزلة في خلق الأفعال وفي القدرة. وكما يقول: إن الأجسام إنما هي أعراض مجتمعة.

وبدعته التي خالف بها أقوال جميع الفرق هي: أنَّ الفاسق في هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين. «الفرق بين الفرق»: البغدادي. ص١١٧ ـ ١٢٠. ٢١٣ ـ ٢١٥.

«لسان الميزان»: العسقلاني. ج٣ ص٢٠٣ رقم ٩١٢.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤ ـ ١٥.

حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أقل[1] وكان الجاحظ بذلك يشرح قول الشاعر:

على المرء أن يسعى بمقدار جُهده وليس عليه أن يكون موفقا

فالسقوط لا يكون عجزاً، بل العجز أن يبقى الساقط حيث سقط.

قال أبو عثمان: واللّثغة تكون في أربعة حروف:

في القاف: فإن صاحبها يجعل القاف طاءً، كأنْ يقول قلتُ له: طُلْتُ له.

وفي السين: كقوله بِثْمِ الله، أرادوا بسم الله.

وفي اللام: فإن مِنْ أهلها من يجعلُ اللام ياء فيقول جَمَيْ بدل جَمَلْ، وآخرون يجعلون اللام كافاً فيلفظون ما لعلَّة، مَكْعِكَّة.

وفي الراء: لأن الذي يعرض لها أربعة حروف:

فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو قال عَمْي فيجعل الراء ياءً.

ومنهم من يجعلها غيناً كقوله؛ عَمْغٌ بدل عمرو.

ومنهم من يجعلها ذالاً أوظاءً كقوله: عَمْذٌ وعَمْظٌ بدل عَمْرو[2].

ومَثَّلَ على لُثغة الراء ببيت لعمر بن أبي ربيعة[3]:

واستَبَدَّتْ مَرَّةً واحدةً إنَّما العاجزُ مَنْ لا يَسْتَبِدْ[4]

---

(1) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤ ـ ١٥.

(2) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤. ٣٤ ـ ٣٥.

(3) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة: (٢٣ ـ ٩٣هـ/ ٦٤٤ ـ ٧١٢م). أبو الخطاب. أرَقُّ شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق. ولم يكن في قريش أشعر منه. كان له ولد صالح يُسمى جُوان وبنت تدعي (أمة الواحد).

قال الفرزدق عن نسيبه «هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه».

في «الأغاني»: للأصفهاني أخبار وافية مج١ ص٧١ ـ ٢٣٠. «الأعلام»: الزركلي مج٥ ص٥٢.

(4) ومطلع القصيدة:

ليتَ هِنْداً أنْجَزَتْنا ما تَعِدْ وشَفَتْ أنفُسَنا مما تَجِدْ

«الأغاني»: الأصفهاني مج١ ص١٨٠. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٥.

وتُلفظ (مرةً) على أربعة وجوه اللّثغ؛ مَيَّةَ ومَدَّةَ ومَظَّةَ ومَغَّةَ.

ولما هجا بشارُ الأعمى واصلاً، قال واصل بن عطاء[1] عند ذلك:

«أما لهذا الأعمى المُلْحِدِ المُشَنَّفِ المُكنّى بأبي معاذ مَنْ يقتله؟ أما والله لولا أن الغِيلة سجيةٌ من سجايا الغالية[2]، لبعثتُ إليه من يَبْعَجُ بطنه على مضجعه، ويقتُله في جوف منزله وفي يوم حَفْلِه، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عُقيليٌّ أو سَدُوسيّ»[3].

قال الجاحظ: ألا تريان كيف تَجَنَّبَ الراء في كلامه هذا. فقال: المُشَنَّف بدل المُرعَّث، والمُلْحد بدل الكافر، ولبعثت بدل لأرسلتُ... وعلى مضجعه ولم يقل على فراشه[4]...

وكان إذا أراد أنْ يذكر البُرَّ قال: القمح والحنطة، وهو يعلم أن البُرَّ أَفْصَحُ من لغةِ مَنْ قال: قمح أو حنطة.

وأما اللُّثغة الخامسة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء... فليس إلى تصويرها سبيل.

وربما اجتمعت في الواحد لثغتان في حرفين، كأن يجعل اللام ياء والراء ياءً. قال اللاثغ مرة: مَوِيايَ وُيِّيَ اَيِّيْ، يريد مولاي وَلِّيَ الرّيّ[5].

---

(١) ترجمة بشار وواصل في ص ١٢٠ من هذا الكتاب.

(٢) الغِيلة بالكسر: الخديعة والمكر. السَّجيّة: الطبيعة والخلق.
الغالية: هؤلاء الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقية. وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربما شبهوا واحداً من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق، وهم على طرفي الغلو والتقصير... وبدع الغلاة محصورة في التشبيه والبداء والرجعة والتناسخ. وهم أحد عشر صنفاً. «لسان العرب»: ابن منظور مادة غيل مج١١ ص٥١٢ ومادة سجا مج١٤ ص٣٧٢. «المِلل والنحل»: الشهرستاني مج١ ص١٧٣ ـ ١٨٩.

(٣) «الأغاني»: الأصفهاني مج٣ ص١٣٠ ـ ١٣١.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٦.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٧.

(٥) نفسه مج١ ص٣٦.

وبعد هذا الدفاع عن واصل، الذي صرّح به الجاحظ نفسه بقوله: «وإنما عنيت محاجَّةَ الخصوم ومناقلة الأكْفاء ومفاوضة الإخوان»[1]، تابع الجاحظ عرضه، وكأن ما قاله لم يكن إلا من باب المنطق والحاجة لا من باب الدفاع العنيد.

وتطرق بصورة عامة إلى الآفات التي تعتري اللسان وتؤدي إلى اللّثغ.

قال الجاحظ: وقال الأصمعي[2]: إذا تَتَعْتَعَ اللّسانُ في التاء فهو التمتام وأنشد لرؤبة بن العجّاج[3]:

يا حَمدُ ذاتَ المنطقِ التمتامِ ... كأنَّ وَسْواسَكِ في اللُّمامِ

حديثُ شيطانِ بني هَنَّامِ[4]

وإذا تَتَعْتَعَ اللّسان في الفاء فهو الفأفأة. كما قال أبو الزّحف[5]:

لستُ بفأفاءٍ ولا تمتامِ ... ولا كثير الهُجْرِ في الكلامِ[6]

وإذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو أَلَفٌ. وقيل بلسانه لَفَفٌ[7].

وأنشد لأبي الزّحف رجزاً:

كأن فيه لففاً إذا نطقْ ... من طولِ تحبيس وَهَمٍّ وَأَرَقْ[8]

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج ١. ص١٥.

(٢) انظر ص٣١ من هذا الكتاب حاشية رقم١.

(٣) انظر ص١٨٢ من هذا الكتاب حاشية رقم٥.

(٤) بنو هِنّام: جِنّ.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٧.

(٥) هو ابن عطاء الخطفي، ابن عم جرير الشاعر. لقبه أبو الزّحف. عُمِّر حتى بلغ زمان محمد بن سليمان بن علي بن العباس.
«الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص١٦٣.

(٦) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص٣٨.

(٧) رجل أَلَفٌ بَيِّن اللَّفف: أي عييٌ بطيء الكلام. وإذا تكلم ملأ لسانُه فَمَهُ.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة لفف. ج٩ ص٣١٩.

(٨) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٣٨.

وضرب الجاحظ مثلاً في اللّجلاج[1] على لسان اللّهبيّ[2].

ليس خطيب القوم باللّجلاج ولا الذي يزحَلُ كالهلباجِ[3]

ويُقال في لسانه حُبْسة، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حَدَّ الفأفأة والتمتمة ويُقال في لسانه عُقْلَة إذا تعقَّل عليه الكلام. ويقال في لسانه لُكْنة، إذا أَدْخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول. ويقال في لسانه حُكْلَة، فإنَّما يذهبون إلى نُقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال[4].

قال رؤبة:

لو أنني أوتيت عِلْمَ الحُكْلِ عِلْمَ سليمانَ كلامَ النملِ[5]

وقال التيميّ[6] في هجائه لبني تغلب:

---

(١) اللّجلاج: هو الذي يجول لسانه في شدقه. وقيل سجيّة لسانه، ثقل الكلام ونقصه.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة لجج. ج٢ ص٣٥٥.

(٢) الفضل بن عباس اللّهبي: (ت ٩٥هـ/ ٧١٤م). من شعراء بني هاشم وفصحائهم المشهود لهم. له مواصفات عِدَّة. منها بُخْله، وطمعُه الشديد في المال والطعام. كان شديد الأدمة. انظر أخباره هي:
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٦ ص١١٩ ـ ١٣٥.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي. ص٢٧٦ رقم ٩٩٢.

(٣) الهلباج: الأحمق. يزحل: يزل عن مقامه.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٩.

(٤) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص٣٩ ـ ٤٠.

(٥) ورد الحُكْل، بالسكون بدل الكسر، في «اللسان»: وفيه الشاهد. والحُكْل من الحيوان ما لا يسمع له صوت كالذّر والنمل. وكلام الحُكْل: كلامٌ لا يُفْهَم. حكاة ثعلب.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة حكل. مج١١ ص١٦٢.
وقد سبق تعريف رؤبة في ص١٨٢ حاشية رقم ٥ من هذا الكتاب.

(٦) ذكره الصولي في الأوراق ٧٦ باسم «التيمي بن محمد...»: هكذا عَرَّفه محقق «الحيوان»: هارون جاء في «الحيوان»: وقال التيميّ الشاعر المُتَكلِّم...
«الحيوان»: تحق هارون مج٤ ص٢٤.
و«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤٠.

ولكنَّ حُكْلاً لا تُبينُ ودينُها   عِبادَةُ أعلاجٍ عليها البرانسُ[1]

وذكر الأشفىٰ والأفلح. قال عُبَيْدَةُ بن هلال اليشكَري[2] في هجائه:

أشفى عَقَنْباةٌ ونابٌ وعَصَل   وَفَلَحٌ بادٍ وَسِنٌّ قَدْ نَصَلْ[3]

كما ذكر الأشدق[4]:

وقال النَّمر بن تولب[5] في شُنْعَةِ أشداقِ الجمل:

كم ضربةٍ لك تحكي فاقُراسِيَةٍ   من المصاعب في أشداقه شَنَعُ[6]

---

(١) العِلج: الرجل من كُفّار العجم. «لسان العرب»: ابن منظور مادة علج مج٢ ص٣٢٦ والبرنس قلنسوة طويلة كان النساك يلبسونها في صدر الإسلام. ورد في «الحيوان»: عُجْم وحُكْل لا تبينُ. وعَلّق الجاحظ في «الحيوان»: على هذا البيت بقوله:
فَفَصَلَ بين الحُكْلِ والعُجْمِ، فجعل العُجْم مثل ذواتِ الحافرِ والظّلف والخُفّ، وجعل الحُكْلَ كالذَّرِّ والنملِ والخنافسِ، والأشكال التي ليست تصيح من أفواهها.
«الحيوان»: تحق هارون مج٤ ص٢٤ ـ ٢٥.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤٠.

(٢) عُبَيْدةُ بن هلال: ت ٧٧هـ/ ٦٩٦م. اليشكري: من رؤساء الأزارقة وشعرائهم وخطبائهم. كان في أول (خروجه) من المُقَدَّمين فيهم وأرادوا مبايعته فقال أَدُلُّكم على من هو خير لكم مني: قطريّ بن الفجاءة المازني. فبايعوا قطرياً. ووقع الخلاف بين الأزارقة، ففارق قطرياً وانحاز إلى حصن قومس وسَيِّر الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبي، فحاصره في الحصن وقتله.
«الأعلام»: الزركلي مج١ ص١٩٩.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص٢٣٥ رقم ٧٩٧.

(٣) الشفا: اختلاف الأسنان. وقيل اختلاف نبتة الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة شفا. ج١٤ ص٤٣٥.
والفلح: شق في الشفة السفلى. «لسان العرب»: ابن منظور مادة فلح مج٢ ص٥٤٨.
العصل: الالتواء في الشيء. «لسان العرب»: ابن منظور مادة عصل. مج١١ ص٤٤٩.
عقنباة: حديدة المخالب. «لسان العرب»: ابن منظور مادة عقنب مج١ ص٦٢٥.
ونَصَلْ: أي خرج وظهر.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٥.

(٤) الشِّدْقُ: جانب الفم. ورجل أشدق: واسع الشدق.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة شدق مج١٠ ص١٧٢ ـ ١٧٣.

(٥) انظر ص١٧٤ من هذا الكتاب.

(٦) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٥.
«الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص٣١٠.

وفسّر الجاحظ القُراسِيَة بالبعير الأضجم والضَّجم اعوجاج الفم، والفَقَمُ مِثْلُه. والرَّوَق: ركوبُ السِّنِّ الشَفَةَ[1]. فَيُقال أفقمُ وأَرْوَقُ.

قال ابن الأعرابي: طَلَّقَ أبو رَمادة[2] امرأته حين وجدها لَثْغاء وخاف أن تجيئه بولدِ ألثغ. قال:

لَثغاءُ تأتي بِحِيَفْسٍ أَلْثَغِ تميسُ في المَوْشِيّ والمصَبَّغِ[3]

ويلثغ من كان له ثنايا منزوعة، لأن لسانه لا يضبطه فمه فلا يبينُ كلامه ويُخرج صفيراً مع كلامه. لذلك ذكر عبد الله بن معاوية[4] سلامة لفظ أحدهم بقوله:

قَلَّتْ قوادِحُها وتَمَّ عديدُها فله بذاكَ مزيّةٌ لا تُنكَرُ[5]

ثم أشار الجاحظ بأن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحرف، منه إذا سقط أكثرها وخالف أحد شطريها الشطر الآخر[6].

قال أبو الهنديّ[7] في اللّثغ:

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٥.

(٢) لم نعثر على ترجمته.

(٣) فسّر الجاحظ (الحِيَفْس) بالولد القصير الصغير، الدميم الخلقة.
وفي «عيون الأخبار ذكر»: طَلَّق زيادٌ امرأته بدل أبو رمادة.
والبيت مشروح هناك. «عيون الأخبار»: عبد الله بن قتيبة. دار الكتاب العربي. بيروت مج٤ ص٧. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٧.

(٤) تجد ترجمته في ص ١٧١ حاشية ٦.

(٥) المزيّة: الفضل. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٩.

(٦) نفسه ج١ ص٦١.

(٧) أبو الهندي: ت١٨٠هـ/ ٧٩٦م. واسمه عبد المؤمن، وقيل غالب، بن عبد القدوس. من بني يربوع. شاعر أموي أدرك دولة بني العباس، جزل الشعر مطبوع، حسن اللفظ، لطيف المعنى، ظريف ماجن معظم شعره في الخمر ومجالسه، وقيل هو أول من وصف الخمر في الإسلام. خَمَل ذِكرُه لِبُعْدِه عن بلاد العرب، إذ قضى أيامه في بلاد الفرس. مات بِسِجِستان مخنوقاً بحبل وهو سكران. تأثر به أبو نواس فأخذ كثيراً من معانيه وخاصة الاستغفار بعد الفجور.
«الشعر والشعراء»: ابن قتيبة. ص١٦١.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص٣٦٨ ـ ٣٦٩ رقم ١٣٤٤.

سقيتُ أبا المطرَّح إذْ أتاني وذو الرَّعثاتِ منتصبٌ يصيحُ
شراباً تهرُبُ الذِّبَّانُ منهُ ويلثغُ حين يشربُه الفَصيحُ[1]

وجاء الجاحظ بشاهد على اللثغ فقال نقلاً عن أبي محمد اليزيدي[2]:

وَخَلَّةُ اللَّفْظِ في الياءات إن ذُكِرَتْ كخلّةِ اللفظ في اللاماتِ والألفِ[3]

وقال أهل التجرِبة: إذا كان في اللحم الذي فيه مفارزُ الأسنان تشميرٌ وقِصَرُ سَمْك، ذهبت الحروف وفسد البيان[4].

ولم يَبْقَ للجاحظ إلا التمثيل على ألسنة الذين يَنْخَرِطون في العرب ويتعلمون لُغَتَهُم. قال:

ألا ترى أنَّ السِنْدِيّ، (الذي يُجلب من السند)، إذا جُلِبَ كبيراً فإنه لا يستطيع إلاّ أن يجعل الجيم زاياً.

وكذلك النَّبطيُّ[5] (من النَّبط) القُحُّ، خلاف المِغْلاق[6] الذي نشأ في بلاد النَّبَط، لأن النَّبطيَّ القُحّ يجعل الزاي سيناً، فإذا أراد أن يقول زورق قال: سَوْرَق.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦٠.
«الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص٣٨٠.

(٢) اليزيدي: نسبة إلى يزيد بن منصور الحميري خال المهدي. واسمه يحيى، وكنيته أبو محمد ت٢٠٢هـ/ ٨١٧م.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج٤ ص٤٢٦ ـ ٤٢٧.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٢.

(٤) نفسه مج١ ص٦١.

(٥) النَّبيطُ والنَّبطُ: جيل ينزلون سَوَاد العِراق، وهم الأنْباط، والنَّسَبُ إليهم نَبَطِيٌّ.
وفي كلام أيوب بن القِرِّيةِ: أهل عمان عَرَب استنبطوا، وأهل البحرين نبيطُ استعربوا: وسموا نَبَطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة نبط مج٧ ص٤١١.

(٦) المِغْلاق: المِرْتاجُ. استغلق عليه الكلام: أي أُرْتُتِجَ عليه.
واستغلق الرجل: إذا أُرْتِجَ عليه فلم يتكلم.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة غلق. مج١٠ ص٢٩١ ـ ٢٩٣.

ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول مُشْمَعِلّ قال مُشْمَئِلّ. والذي يعتري اللسان مِمَّا يمنع البيان أمور منها: اللُّثْغَةُ التي تعتري الصبيان إلى أن يُنَشَّأوا، وهو خلاف ما يعتري الشيخ الهرم الماجّ المسترخي الحنك المرتفع اللّثة[1].

وبعد هذه الجولة الممتعة مع أبي عثمان، نستطيع القول إنه حَرَّكَ موضوعه على محاور عديدة، أصاب فيها هدفه.

لقد دافع عن رجل الاعتزال الأول واصل بن عطاء، بِتَبْريرات منطقية، ومِنَ المُلاحَظِ أَنَّه لم يُمَثِّلْ على لُثْغَتِهِ، لا بالشعر ولا بالنثر، وتعليله أنْ لا سبيل إلى ذلك، ولكن وَصَفَهُ بأَنَّه فاحش اللَّثغ.

ونعتقد أن ذلك من حسن التخلص.

ثم ساق الحروف التي تحصل بها اللثغة ومَثَّل عليها، وسمّى أنواع اللَّثغ واختصر التمثيل عليها، وحكى نوادر مضحكة عن اللّثغ، ثم شرح الأسباب التي تؤدي إليه.

ولم يكتف بذلك، بل مثل على لثغة الأعاجم، الذين يتعلمون اللغة العربية ليتكلموا بها، وصوَّرَ لفظهم الألثغ، وكلماتهم المضحكة التي لا تسفر عن معنى، فجاء موضوعه غنياً في العرض والمعلومات في أكثر من عشرين شاهداً شعرياً مفيداً، أَدَّت دورها في إبراز موضوع اللُّثغة.

ويَكْتَنِفُكَ شعور باللَّذَةِ بعد أن تنهيَ قراءة بحثه، فتشعر أنه ذَكَّرَكَ بشيء أو لَفَتَ انتباهك أو عَلَّمَكَ ما لم تكن تعلمه، أو أَضَافَ جديداً إلى معلوماتك أو وضّحَ ما كنت تسأل عنه.

فتحمدُهُ في سرِّك، وتعجبُ به في دخيلتك، فكأنه كفاك المؤونة.

٤ ـ الشِّعْرُ واللَّحْنُ

قال ابن الأثير: اللَّحْنُ هو الميل عن جهة الاستقامة، ولَحَنَ فلان في

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧٠ ـ ٧١.

كلامه، إذا مال عن صحيح المَنْطِق. وقيل اللَّحَنَ هو العدول عن الصواب[1].

إلى هذا المعنى، وفي غير موضع، في كتاب «البيان والتبيين» أشار الجاحظ إلى موضوع اللّحن، وساق شواهده الشعرية التوضيحية كعادته[2].

ثم أظهر عيوبه، وجَسَّمَ أَقْبَحَها، وعلى بعض ألسنة الأعاريب مَثَّلَه، وفي أقوال القَرَويين عَمَّمَه، مُسْتَثْنِياً ما نَخَّلَهُ علماء العربية من صحيح الأقوال والمعاني.

ولم ينس لحن عوام المدن، وعزا ذلك إلى الاستعداد الفطري وإلى نقص العلم والمعرفة. كما حرص على شعور قارئه، فلم يكد يُصوِّر بشاعة اللحن حتى أَبْدَلَه بصورة لطيفة مستملحة، فشعر القارىء بضرورة إعادة النظر والتقدير.

وهكذا نراه يتلاعب بالعواطف والعقول ما شاء له التلاعب، تحت وطأة تياراته وقوة إقناعه.

فهل ترى شخصية أَقْدَر، وعلماً أَوْفَر، ودرساً أَمْتَع، وَمُعَلِّماً أسرع، من صاحب هذه المحاضرة الصغيرة الكبيرة؟

قال الجاحظ: «متى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنَّك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولّدين والبلديّين، خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير»[3].

---

(١) قال ابن بري وغيره: للحن ستة معان: الخطأ في الإعراب أو العدول عن الصواب والفعل منه لَحَنَ، واللغة: أي لغة العرب في إعرابها، وترجيع الصوت التطْريب والغِناء والفعل منه لَحَّنَ، والفِطنة: لَحَنْتُ لحناً جعله ابن الأعرابي مضارع لَحِنَ، والتعريض والإيماء والإشارة، والمعنى أو الفحوى كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي فحواه ومعناه.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة لحن. مج١٣ ص٣٧٩ ـ ٣٨٢.

(٢) انظر تعليق الجاحظ على قول العتابي: (ت ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م). في من أبلغ حاجته..
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٦٢.

(٣) نفسه: تحق هارون مج١ ص١٤٥ ـ ١٤٦.
«الحيوان»: تحق هارون مج١ ص٢٨٢.

وتابع يقول: «وزعم أبو العاصي أنّه لم يَرَ قَرَوِيّاً قط لا يلحن في حديثه. ويستشهد على ذلك بقوله: وقد روى أصحابنا أن رجلاً من البلديين قال لأعرابي: «كيفَ أَهْلِك»؟ قالها بكسر اللام ـ قال الأعرابي: صَلْباً. لأنه أجابه على فَهْمه، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهلِهِ وعياله»[1].

وحتى تكون نظريته دقيقة شاملة قال: «ولأهل المدينة[2] ألسنٌ ذَلِقَةٌ، وأَلْفاظ حسنة، وعبارة جيدة. واللَّحن في عَواقِّهم فاشٍ وعلى مَنْ لم ينظر في النّحو منهم غالب»[3].

ثم تَعَرَّض شيخ المعلمين لِقُبْح اللَّحن فقال: «ثم اَعلم أَنَّ أَقْبَحَ اللَّحنِ لحن أصحابِ التَّقعير[4] والتَّقعيب[5] والتَّشْديق[6] والتَّمْطيط[7] والجهورة[8] والتَّفْخيم[9].

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٦٣.
(٢) والمقصود هنا بالمدينة، عامة المدن.
(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤٦.
(٤) التَّقعير: التَّعميق، والتقصير في الكلام: التشدق فيه. التَّقعُر: التَّعمُق. يقالُ هو يَتَقَعَّرُ في كلامه إذا كان يتنحى وهو لَحّانه ويتعاقلُ وهو هِلْباجة.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة قعر. مج٥ ص١٠٨ ـ ١٠٩.
(٥) التَّقعيب في الكلام كالتَّقعير. قَعَّبَ فلان في كلامه وقَعَّرَ بمعنى واحد.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة قعب مج١ ص٦٨٤.
(٦) تَشَدَّق في كلامه: فتح فمه واتسع. ويقال مُتَشَدِّقٌ في مَنْطِقِهِ إذا كان يتوسع فيه ويتفيهق.
«لسان العرب»: ابن منظور مج١٠ ص١٧٣.
وللجاحظ فصل خاص بالتشديق والأشداق.
«البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج٢ ص١٥١.
(٧) مَطَّ، يَمُطُّ مَطّاً: مَدَّ. والمطمطة: مدُّ الكلام وتطويلة.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة مط. ج٧ ص٤٠٣.
(٨) جهر بالقول إذا رفع صوته فهو جهيرٌ، وأَجْهَرَ فهو مُجْهِرٌ: إذا عُرِف بشدة الصوت. وأَجْهَرَ وجَهْوَرَ بالكلام أعلنه. والجَهْوَرِيُّ: هو الصوت العالي.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة جهر ج٤ ص١٥٠.
(٩) التَّفْخِيم: التعظيم. فَخَّمَ الكلام: عَظَّمَهُ.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة فخم. ج١٢ ص٤٤٩.

وأقبحُ من ذلك لحنُ الأعاريب النّازلين على طُرُقِ السابلةِ، وبقُربِ مجامع الأسواق»[1].

وعَلَّلَ منهم اللَّحْن بقوله: «ولولا طولُ مخالطة السامع للعجم وسماعِه للفاسد من الكلام لما عَرَفَه. ونحن لم نَفْهَم عنه إلا للنّقص الذي فينا»[2].

ثم أظهر أن التبايُن في اختلاف لهجات العرب في الجاهلية، يؤدي، في بعض الأحيان، إلى اللّحن، ومَثَّلَ بكلام الكسائي[3] مع بعض فتيان البادية، مشيراً إلى رحابة اللغة العربية واتساع معاني مفرداتها.

أنشد الكِسائي:

عَـجَـبٌ مـا عَـجَـبٌ أعـجـبـنـي	مِـنْ غُـلامٍ حَـكَـمـيٍّ أُصُـلاَ
قلتُ هل أحسستَ رَكْباً نزلُوا	حَـضَـنـاً مـا دونـه قـال هَـلاَ
قـلـت بَـيِّـن مـا هـلا هـل نـزلـوا	قـال حَـوْبـاً ثـم ولّـى عَـجِـلا
لـستُ أدري عـنـدهـا مـا قـال لـي	أنَـعَـمْ مـا قـال لـي أم قـال لا
تـلـك مـنـه لـغـةٌ تُـعْـجِـبُـنـي	زادت الـقـلـب خـبـالاً خَـبَـلا[4]

---

(1) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤٦.

(2) نفسه مج١ ص١٦٢.

(3) الكسائي: ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م. واسمه علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي. أبو الحسن. مُقرىء، مُجوِّد، لغوي، نحوي، شاعر، نشأ في الكوفة واستوطن بغداد وتوفي في يرينون إحدى قُرى الريّ. «الفهرست ابن النديم ص٢٣٥ «معجم المؤلفين»: كحالة مج٧. ص٨٤.

(4) الغلام المشار إليه في البيت، هو عُمر بن لجأ من تميم، شاعر إسلامي وراجز فصيح.
والحكمي: نسبة إلى الحَكَم بن سعد العشيرة.
وأُصُلاً: من معانيها: صار ذا أصل، أو وقت الأصيل بمعنى العشي والسياق يقوّي معنى العشي.
والحَضَنْ: جبل بنجد.
وهَلاَ: بمعنى نعم كما أنَّ أَجَلْ تكون بمعنى نعم إلا أنها أفضل أو أحسن من نعم. ولم يَفْهم الكسائي معناها.
والحَوْب: الواحدة حَوْبَة. بالفتح: لغة لأهل الحجاز. والحُوْب مثلها: لتميم.
من معانيها: القرابة. أو زجرٌ للبعير ليمضي والسياق يقوي هذا المعنى.
«لسان العرب»: ابن منظور ماد حوب مج١ ص٣٣٨ ـ ٣٤٠.
مادة أجل مج١١ ص١٢. مادة وهلا مج١٥ ص٣٦٤. =

ولأجل التَّعَمُّقِ في بيان معنى اللحن، ساق الجاحظ قول إبراهيم بن أدهم(١).

«أَعْرَبْنا كلامَنَا فما نَلْحَن، وَلَحَنَّا في أعمالنا فما نُعْرِبُ حرفاً»(٢) وأنشد:

نُـرقِّـعُ دُنْـيـانـا بـتـمـزيـق ديـنـنـا فلا دينُنا يبقى ولا ما نُرَقِّعُ(٣)

ومما ساقه الجاحظ من شواهد اللّحن قول بشر المَرِيسيّ(٤):

«قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأَهْنَؤُها»

فقال قاسم التَّمّار(٥): هذا على قوله:

- «الأغاني»: الأصفهاني مج٨. ص٦٩ ـ ٧٢.
«الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص١٦١.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٦٤.

(١) إبراهيم بن أدهم (ت١٦١هـ/ ٧٧٨م). أبو إسحاق. زاهد مشهور. كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقّه ورحل إلى بغداد، وجال العراق والشام والحجاز وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة. وكان يعيش في العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحَمْلِ والطَّحْن واشترك مع الغزاة في قتال الروم. مسجده وقبره في أعالي مدينة جبلة على الساحل السوري.
«الأعلام»: الزركلي مج١ ص٣١.

(٢) أراد ابن أدهم من قوله: من يضبط لغته بحسب قواعدها، لا يخطىء في القراءة وتأدية المعنى أي لا يلحن. ومن لا يتبع الأصول، في العمل وفي كل شيء، يحصد النقص والخلل في القول والفعل. وأسمى ذلك لحن العمل.

(٣) «الحيوان»: تحق هارون مج٦. ص٥٠٦.
«العقد الفريد»: لابن عبد ربه. تحق أحمد أمين وغيره. . . ج٣ ص١٧٦.

(٤) بشر بن غياث بن أبي كريمة المَريسيّ ت٢١٩هـ/ ٦٣٩م. أبو عبد الرحمن والمريسيّ نسبة إلى المَرِيس ومريسة بالصعيد. وضَبَطَها الصغاني بتثقيل الراء.
هو مولى زيد بن الخطاب، من أصحاب الرأي، فقيه إلا أنه اشتغل بالكلام وجرّد القول بخلق القرآن. قال بِشر: وقد سئل عن رجل وهو على أحسن حال وأهنأها. فضحك الناس من لحنه.
«تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج٧ ص٥٦ ٦٧ رقم ٣٥١٦.
«لسان الميزان»: العسقلاني مج٢ ص٢٩ رقم ١٠٤.
«العقد الفريد»: ابن عبد ربه تحق أحمد أمين وغيره. . مج٢ ص٤٨٢.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢١٢ ـ ٢١٣.

(٥) قاسم التمار متقدم من أصحاب الكلام.
العقد الفريد»: لابن عبد ربه. مج٢ ص٤٨٢.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢١٢.

إنَّ سُلَيمى واللهُ يكلؤها ... ضَنَّتْ بشيء ما كان يَرْزَؤها[1]

فصار احتجاج قاسم أطيب من لحنِ بشر.

ومن الذين هجوا أصحاب اللَّحن يحيى بن نوفل[2]. قال في خالد بن عبد الله القَسْري[3].

قال يحيى:

بَلَّ السراويل من خوف ومن وَهَلٍ ... واستطعم الماء لمَّا جَدَّ في الهربِ
وألحنُ الناسِ كلُ الناس قاطبةً ... وكان يولعُ بالتشديق في الخطبِ[4]

وفي شبيه هذا المعنى قال البَرْدُخْت[5]:

---

(١) ذكر البغدادي البيت، وأورد فيه (يكلأها). بدل (يكلؤها).
«تاريخ بغداد»: البغدادي مج٧ ص٥٧ رقم ٣٥١٦. «العقد الفريد»: لابن عبد ربه مج٢ ص٤٨٢.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢١٣.

(٢) يحيى بن نوفل (ت ١٢٥/٧٤٣م). الحميري اليماني. أبو معمر. شاعر هَجّاء يكاد لا يمدح أحداً. وكان في أيام الحجّاج الثقفي.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ص١٧٤ ـ ١٧٥. «الأعلام»: الزركلي مج٨ ص١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) خالد القَسْري بن عبد الله بن يزيد بن أسد: (٦٦ ـ ١٢٦هـ/ ٦٨٦ ـ ٧٤٣م) أبو الهيثم. من بجيلة. أمير العراقيين وأحد خطباء العرب وأجوادهم. يماني الأصل من أهل دمشق. ولي مكة سنة ٨٩هـ للوليد بن عبد الملك ثم ولاّه هشام الكوفة والبصرة سنة ١٠٥هـ. وكان يُرمى بالزندقة وللفرزدق هجاء فيه.
«الحيوان»: تحق هارون مج٦ ص٣٩٠ وج٢ ص٢٦٧. «الأغاني»: الأصفهاني ج٩ ص٥٤ ـ ٥٨ ـ ٥٩. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٢٩٧.

(٤) (يقصد الشاعر باستطعم الماء). وهي مقصودة هنا. (بأنه اختلط عليه الأمر لارتباكه) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٢٢.
«الحيوان»: تحق هارون مج٢ ص٢٦٧ وج٢ ص٣٩٠.

(٥) البَرْدُخْت: من بني ضَبَّة، جاء إلى جرير فقال له تهاجيني. قال: ومن أنت؟ قال: البردخت. قال وما البردخت؟ قال: الفارغ بالفارسية. قال: ما كنت أشغل نفسي بفراغك. وهو الذي يقول:

إذا كان الزمان زمان عك ... وتيم فالسلام على الزمان
زمان صار فيه العز ذلا ... وصار الزج قدام السنان

«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص١٦٧ ـ ١٦٨.
«العقد الفريد»: لابن عبد ربه مج٢ ص٤٨١ ـ ٤٨٢.

لقد كان في عَيْنَيْكَ يا حفصُ شاغلٌ   وأنفِ كثِيلِ العَوْدِ عَمَّا تَتَبَّعُ
تَتَبَّعُ لَحْناً في كلامٍ مُرقَّشٍ   وخَلْقُكَ مَبْنِيٌّ على اللَّحنِ أَجْمَعُ
فَعَيْنُكَ إقواء وأنفُكَ مُكْفَأٌ   ووجهُكَ إيطاءٌ فأنتَ مُرقَّعُ(١)

وكان الجاحظ قد عَلَّق على الإيطاء بقوله: ولم أسمع بالإيطاء(٢).

وقال بعضهم: ارتفع إلى زياد رجل، وأخوه في ميراث، فقال: إن أبونا مات. وإِنَّ أخينا وَثَب على مال أبانا فأكله. فأما زياد فقال: الذي أضعت من لسانك أَضَرُّ عليك مما أضعت من مالك. وأما القاضي فقال: فلا رحم الله أباك ولا نَيّحَ عَظْم أخيك! قُمْ في لعنة الله(٣)!

(وقال بعض العبيد في بعض العبيد)، في ذكر أشداقهم وتشادقهم:

وقد كان مفتوقَ اللَّهاةِ وشاعراً   وأَشْدَقَ يَفْري حين لا أحدٌ يَفْرِي(٤)

وتلاعب الجاحظ بمعنى اللحن، ربما ليُسَرِّي عن قارئه، فقال على لسان مالك بن أسماء(٥) في بعض نسائه، وكانت لا تصيب الكلام وربما لَحَنَتْ:

---

(١) (خلقُك = خِلقتك وهيئتك). الإقواء: هو اختلاف المجرى الذي هو حركة الروي المطلق بكسر وضم.
والأنف المُكْفأ: غير السّوي. والإكفاء بكسر وضَمّ: هو اختلاف حرف الروي.
والإيطاء: من عيوب القافية. وهو إعادة الرويّ بلفظها ومعناها بعد بيتين أو ثلاثة أو سبعة أبيات وهذا يدل على قلة إلمام الشاعر بمفردات اللغة إذ عليه ألا يكرر ألفاظ القافية.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢١٤ ـ ٢١٥.
«علم العروض والقافية»: د. عتيق ط٨ دار النهضة العربية. بيروت ١٩٦٩ ص١٦٧.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٣٩.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٢٢.

(٤) نفسه مج٢ ص٢٨٩.

(٥) مالك بن أسماء بن خارجة بن حِصْن بن حذيفة بن بدر الفزاري.
كان الحجاج بن يوسف ولّى مالك بن أسماء بعد أن تزوج أخته هند بأصبهان بعد حبس طويل في خيانة ظهرت عليه. ثم خلاه بعد ذلك وطالت أيامه بأصبهان فظهرت عليه خيانة أخرى فحبسه وناله بكل مكروه. «الأغاني»: الأصفهاني مج١٧ ص١٥٩ ـ ١٦٦.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص٣٠٧ رقم ١٠٩٢.

أَمُغَطًّى مِنّي على بَصَري لِلْـ ـحُبِّ أَمْ أنتِ أكملُ الناس حُسْنا
وحديثٍ ألَذُّه هو مِمَّا ينعتُ الناعتون يوزن وَزْنا
منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحيا ناً وخيرُ الحديثِ ما كان لَحْنا[1]

من خلال عَرْضِ الجاحظ المُمْتِع لموضوع اللّحن، أَجَلْنا النظر في معناه وفي أقسامه، واستمتعنا ما يزيد على العشرين شاهداً، ساقها، لتوضيح مفهوم اللحن في الكلام. وعرفنا أن دواءه المفيد الوحيد، هو التضلع في اللغة وعلومها.

والسؤال الذي يراود أفكارنا هو:

هل مال الجاحظ عن مفهوم اللّحن: الذي هو العدول عن الصواب؟

فمن خلال أبيات مالك بن أسماء، نلمس الولَهَ الشديد الذي يُعْمي البصر والبصيرة: قال الشاعر:

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلةٌ ولكنَّ عين السُّخْطِ تُبْدي المساويا

ففي نظر ابن أسماء، ألَذُّ حديثٍ حديثُ محبوبَتِهِ، وأفضل منطق منطقها حتى إنه استملح اللحن وجعله خير الحديث لأجلها.

---

(١) قال صاحب الأمالي: ومعناه أنها تصيب أحياناً.
وقال الخطيب البغدادي: قلت أفما سمعت بخبر هند بنت أسماء بن خارجة، مع الحجاج حين لحنت في كلامها فعاب ذلك عليها، فاحتجّتْ ببيتي أخيها؟ فقال لها: إن أخاك أراد أن المرأة فطنة، فهي تلحن بالكلام إلى غير المعنى في الظاهر لتستر معناه وتورّي عنه وتُفْهِمه من أرادت بالتعريض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ من سورة محمد، الآية: ٣٠.
ولم يردِ الخطأ من الكلام. والخطأ لا يستحسن من أحد.
(لما سمع الجاحظ كلام والد الخطيب البغدادي) وجم ساعة ثم قال: لو سقط إليّ هذا الخبر لما قلت ما تقدم. فقلت له: فأَصْلِحْه، فقال الآن وقد سار الكتاب أي (البيان والتبيين) في الآفاق، هذا لا يُصلح.
«الأمالي في لغة العرب»: إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي. دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨ مج١ ص٥ ـ ٦. «تاريخ بغداد»: للخطيب البغدادي مج١٢ ص٢١٤ ـ ٢١٥.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٧ ص١٦٤.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤٧.

وأبو عثمان أورد شاهده بعد أن بحث موضوع اللحن وتَقَلُّبَ معانيه ومقدار مساوئه، فمن غير المنطق أن يميل عن مفهوم اللحن في قول ابن أسماء، لأن الخطأ لا يستحسن من أحد، ولأن بُعْدَ شاهدِهِ لا يكون إلا في إبعاد المَلَلِ عن القارىء وتسليته.

وعندما تنبه إلى مقدار تأثير كلامه، وشواهده في الناس، وأن كتابه «البيان» سار في الآفاق[1] عرف أنه لم يصب غايته في شاهده.

ومهما يكن الأمر فالأدب صورة الحياة، ولم يستملح الجاحظ الخطأ في الحياة بل ترك للقارىء الحكم على الشاهد بعد أن أجاد تصوير اللحن وتحديد مفهومه.

ولا يجوز أن نختم هذا القسم من البحث دون تدوين قول عبد الملك بن مروان:

اللحن هُجْنَةٌ على الشريف، والعُجْب آفة الرأي. وكان يقال: اللَّحن في المنطق أقبح من آثار الجُدَريّ في الوجه[2].

٥ ـ الشّغْرُ واللُّكْنَةُ

من عيوب اللفظ التي تناولها الجاحظ بالشرح والنقد، اللُّكنة، وهي عُجْمَةٌ في اللّسان وعِيٌّ عند العرب[3].

قال الجاحظ: ويقال في لسانه لُكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانَه العادةُ الأولى إلى المخرج الأول[4].

---

(١) انظر حاشية ص٢١٢ من هذا الكتاب.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢١٦.
«العقد الفريد»: ابن عبد ربه مج٢ ص٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(٣) الألْكَنُ: الذي لا يقيمُ العربية من عجمة في لسانه.
قال المبرِّد: اللُّكن أن تعترض على كلام المتكلم، اللغةُ الأعجمية: ويقال فلان يَرْتَضِخُ لُكْنة رومية أو حبشية أو سندية أو ما كانت من لغات العجم.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة لكن. مج١٣ ص٣٩٠.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٩ ـ ٤٠.

وهذا بحث في اقتران الحروف، بعد أن فرغ من القول في اقتران الألفاظ، يُبيِّنُ أنَّ النُّطْقَ العربي مرهون بمخارج الكلام المستقيم، ويذكرنا بأن هذه اللغة، هي لغة القرآن الكريم، لغة الذوق والبلاغة والفصاحة، وقد انبثق عنها علوم التجويد والقراءات والنحو والصرف والعروض والقافية. . .

ولا يجوز التساهل مع الذي ينحرف عن القاعدة، لذا كان من السهل على أهلها أن يميزوا أجناس الناطقين بها، لِتَبَحُّرِهِمْ بالعلوم ولإحاطتهم واستيعابهم لُكْناتِ الشعوب الأعجمية التي انصهرت مع العرب من جَرَّاءِ الفتوحات العريضة. فميَّزوا النَّبَطي من الخُرَاساني والمُتَخرِّج من كُتَّاب الأهوازِ، من اليمني والسِّنْديّ وغير ذلك من أجناس العجم(١)، من هنا جاءت أهمية اللُّكنة في عيوب اللفظ العربي.

فمن اللُّكَنِ مَنْ كان خطيباً أو شاعراً أو كاتباً داهياً، مثل زياد بن سلمى، أبي أُمامة وهو زيادٌ الأعجم(٢). قال أبو عبيدة(٣): كان يُنشد قوله:

فتى زادَهُ السُّلطان في الوُدِّ رِفَعةً   إذا غَيَّرَ السلطانُ كلَّ خليلِ(٤)

فقال: فكان يجعل السين شيناً والطاء تاء فيقول فتى زاده الشُّلْتان. . .

---

(١) «البيان والتبيين» تحق هارون مج١ ص٦٩ ـ ٧١.

(٢) زياد الأعجم (ت١٠٠هـ/ ٧١٨م). ابن سليمان أو سليم، من شعراء الدولة الأموية، ومنشأه بفارس. قال صاحب الخزانة: هو مولى بني عبد القيس أحد بني عامر، كان ينزل إصطخر وكانت فيه لكنة فلذلك قيل له الأعجم. كان جزل الشعر، حسن الألفاظ على لكنة في لسانه، عاصر المهلب بن أبي صفرة الذي كان يخشى هجاءه. كما كان الفرزدق يتحاشى أن يهجو بني عبد القيس خوفاً منه. ويقال إنه شهد فتح اصطخر مع أبي موسى الأشعري وله وفادة على هشام بن عبد الملك مات في خراسان.
«الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص٩٩.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٥ ص٣٠٧ ـ ٣١٩.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج٤ ص١٩٣ ـ ١٩٤.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٥٤.

(٣) انظر ص٣١ من هذا الكتاب.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧١.

ومنهم سُحَيْم عبد بني الحَسْحاس[1]، قال لِعُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه: وأنشد قصيدته التي أولها:

عُمَيْرَة وَدِّعْ إنْ تَجَهَّزْتَ غاديا كفى الشَّيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

لو قَدَّمْتَ الإسلام على الشيب لأَجَزْتُكَ. فقال سُحَيْم لِعُمَر ما سَعَرْتُ، يريد ما شعرت، جعل الشين المعجمة سيناً غير معجمة[2].

ومنهم صُهَيْب بن سِنان النَّمريّ[3] صاحب رسول الله ﷺ، الذي كان يرتضِخ لُكنة رومية. و«أزْدَ انْقاذار» لُكْنته نبطية، وعُبَيْد الله بن زياد لُكنته فارسية، وكانوا يجعلون الحاء هاءً.

قال الجاحظ: فهذا ما حَضَرَنَا من لكُنة البُلغاء والخُطباء والشُعراء والرُؤساء[4].

أما عن لُكْنة العامة فمن شواهد الجاحظ عليها: «وقالت أم ولد[5] لجرير بن الخطفي[6] لبعض ولدها (وقع الجُرذان في عِجان)[7] أُمكُم، فأبدلت

---

(١) سُحَيْم عبد بني الحَسْحاس، أبو عبد الله، مخضرم، أسلم، هو عبد حبشي اشتراه بنو الحسحاس وهم بطن من أسد. شاعر مجيد، عرف بغزله الصريح وتشبيبه ببنات أسياده، قتله عمر بن الخطاب ويقال إنه أُحرق في أخدود، ويقال قُتِلَ في خلافة عثمان.
«الأغاني»: «الأصفهاني»: مج٢٢ ص٣٢٦ ـ ٣٣٧.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج١ ص٢٧٢ ـ ٢٧٤.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص١٨٠ رقم ٥٤٠.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧١ ـ ٧٢.

(٣) صُهيب بن سنان بن مالك النّمري الرومي ت ٣٨هـ/ ٦٥٩م. يكنى أبو يحيى. قيل له ذلك لأن الروم سَبَوْه صغيراً، فنشأ صهيب بالروم فصار ألكن. ونقل البغوي أنه كان أحمر شديد الصهوبة تشوبها حمرة وكان كثير شعر الرأس يخضب بالحِنّاء وكان من المستضعفين ممن يعذب في الله. هاجر إلى المدينة المنورة مع علي بن أبي طالب وعاش سبعين عاماً.
«الإصابة في تميز الصحابة»: العسقلاني مج٢ ص١٨٨ ـ ١٨٩.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧٢ ـ ٧٣.

(٥) أمهاتُ الأولادِ والجواري بصفة عامة كانوا من السبي وهم أعاجم.

(٦) انظر ص١٣٦ من هذا الكتاب.

(٧) العِجان كلمة فاحشة وهو لكنة عجين من عجن وهو معروف. «لسان العرب»: ابن منظور ج١٣ ص٢٧٨.

الذال من الجرذان دالاً وضّمت الجيم وجعلت العجين عِجاناً[١].

وقال بعض الشعراء في أُمّ ولدٍ له، يذكر لُكْنَتَها:

أولُ ما أسمعُ منها في السّحر تذكيرُها الأنثى وتأنيثُ الذّكَرْ
والسّوءَةُ السّوْآءُ في ذِكْرِ القمرْ

وفي موضع آخر قال الجاحظ: قال بعض الشعراء في جارية له لكناء... وذلك لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر قالت: الكَمَرْ بقوله: قد فهم الشاعر عن جاريته، ولكنه لم يفهم عنها من جهة إفهامه لها، ولكنه لما طال مقامه في الموضع الذي يكثر فيه سماعه لهذا الضرب، صار يفهم هذا الضرب من الكلام[٢].

وعن الذي يرتضخ لُكنة فارسية قال:

أوفد زيادٌ عبيد الله بن زياد[٣] إلى معاوية. فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت ولكنْ قَوِّمْ من لسانه.

وكانت في عُبَيْد الله لُكنة، لأنه نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة، وكان زياد قد زوّجها من شيرَوَيْه الأُسواري[٤].

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧٣ ـ ٧٤ ـ ١٦٥.

(٢) نفسه: تحق هارون مج١ ص١٦٥.

(٣) عُبَيْد الله بن زياد بن أبيه: (٢٨ ـ ٦٧هـ/ ٦٤٨ ـ ٦٨٦م). والٍ، فاتح، من الشجعان جبّار، خطيب، ولد بالبصرة ونقله معاوية إليها أميراً سنه ٥٥هـ. فقاتل الخوارج ولمامات يزيد سنة ٦٥هـ بايع أهل البصرة لعبيد الله. ثم ما لبث أن وثبوا عليه، فاستطاع الإفلات إلى الشام، ثم عاد يريد العراق فلحق به إبراهيم بن الأشتر في جيش يطلب ثأر الحسين وقتل عبيداً. وكان خصوم ابن زياد يدعونه ابن مرجانة وهي أمه.
«الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٩٣.

(٤) الأُسوار والإسوار: قائد الفرس، وقيل: هو الجيّد الرميّ بالسهام، وقيل هو الجيّد الثابت على ظهر الفَرَس، والجمع أساورة وأساور والنسبة أسواري.
ولم أجد ترجمة لشيرويه المذكور.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة سور. ج٤ ص٣٨٨.

وكان قال مرّة: افتحوا سيوفكم، يريد سُلُّوا سيوفكم، فقال يزيد بن مُفَرِّغ[1]:

ويومَ فتحت سيفك من بعيد   أضعتَ وكلُّ أمرك للضّياع[2]

وجملة الكلام في هذا الباب أن الجاحظ تمكّن من تصوير عيوب اللفظ شعراً فلم يترك شيئاً عن الصمت إلا ذكره، وقلّب معاني العِيّ والحَصَر، وشرح اللُّثغة بدقة، وعرض اللحن بواقعية، وشرح اللُّكنة بإيجاز مستدركاً أنَّ هذا الباب كبير ويُكْتَفى منه بالذي ذكر.

فإذا دَقَّقْنا النظر في ذلك، وجدنا أن اللغة العربية لا تسلم قيادتها بسهولة حتى لأبنائها، فما بالك بالذي يحاول أن يتعلم ألفاظها وهو مُتَشَرِّبٌ غيرها منذ صغره.

وفي عصر الجاحظ، كان الخوض في هذا الموضوع حساساً جداً، لذا لم يسهب أبو عثمان فيه، وهو الصريح، خوفاً من حَرَجِهِ أمام المسؤولين، الذين تعتريهم من عيوب اللفظ الشيء الكثير، وربما تسببوا في ضرره.

والدِّين الحنيف أتى لهدي الناس جميعاً، عرباً كانوا أم عجماً أم غير ذلك.

فمن أسلم وهو أعجمي ولم يستقم فلا يُنْتَقَصُ قَدْرُه، وانتقادنا له لن يُقَوِّم لسانه، بل يضعه في موقف السخرية والهُزْء، وكأننا بذلك نسخر منه.

لم تخف على أبي عثمان هذه الحساسيّة الظاهرة، ففضل الاختصار والإشارات الواضحة، محققاً بذلك غرضه البلاغي ورسالته النقدية الاجتماعية.

---

(١) يزيد بن زياد بن ربيعة: المُلقَّب بالمُفرِّغ: (ت ٦٩هـ/ ٦٨٨م). الحميري، يكنّى أبا عثمان، شاعر غزل، وهو الذي وضع سيرة تُبَّع وأشعاره، كان من أهل تباله، قرية في الحجاز مما يلي اليمن، واستقر بالبصرة، وكان هجاء مقذعاً، وله مديح، ونظمه سائر وهو صاحب البيت الشائع:

العبد يُقْرَعُ بالعصا   والحرُّ تكفيه الإشارة

سكن الكوفة، ومات فيها. «الأغاني»: الأصفهاني مج١٨ ص١٨١ ـ ٢٢٠ وفيه شاهد الجاحظ في ص٢٠٦ «خزانة الأدب»: البغدادي مج٨ ص١٨٣.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢١٠ ـ ٢١١.

الفصل الثاني

الشعر وعلم المعاني

١ ـ تمهيد: في نشأة البلاغة العربية وتطورها مع التعريف بعلم المعاني

كانت العلوم العربية وحدة غير محددة ولا متميزة، تختلط مسائلها البلاغية بعضها ببعض من غير تمييز أو فصل.

كان عرب الجاهلية، أصحاب اللغة الصافية، يُمَيِّزون، بفطرتهم وأحاسيسهم النقدية المرهفة، بين محاسن الشعر، وعيوبه، باختيار الألفاظ والمعاني والصور البلاغية...

قال الجاحظ «وكلامُ الناس في طبقات كما أَنَّ الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزلُ والسخيفُ، والمليحُ والحَسَنُ، والقبيحُ والسَمْجُ، والخفيفُ والثقيلُ، وكله عربي، وبكُلٍ قد تكلّموا، وبكُلٍ قد تمادحوا وتعايبوا. فإن زعم زاعمٌ أنه لم يكن في كلامهم تفاضُل، ولا بينهم في ذلك تفاوت فَلِمَ ذكروا العَيِيَّ والبكيءَ والحَصِرَ والمُفْحَمَ والخَطِل والمُسْهَب؟[1]...»

وفي صدر الإسلام كان هدف الباحثين في البلاغة العربية، معرفة إعجاز كتاب الله سبحانه، وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام، الذي أوتي جوامع الكلم، وكان أفصح من نطق بالضاد، بالإضافة إلى الاطلاع على أسرار البلاغة

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤٤.

والفصاحة، في غير القرآن والحديث، من كلام العرب شعراً ونثراً، وتعمقُهم في أسرار الإعجاز وأسبابه هو لاعتبارات مُكَمِّلة للإيمان وبرسالة النبي ﷺ.

«وذاك: أنّا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرتْ، هي أن كان على حدٍّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلاّ مَنْ عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنّه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان. . .

ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعضٍ، كان الصادُّ عن ذلك صاداً عن أن تعرف حجة الله تعالى. وكان مَثلُه مَثَلَ من يتصدَّىٰ للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى ويقوموا به، ويتلوه ويقرئوه. . .

ذاك لأنا لم نتعبد بتلاوته وحفظه، والقيام بأداء لفظه على النحو الذي أُنْزِل عليه، وحراسته من أن يُغَيَّرَ ويُبَدَّل إلا لتكون الحجة قائمة على وجه الدهر»(1).

وصِدْقُ الخبرِ ومطابقته للاعتقاد وكذبه عدمها توقف عندها النظام. وأنكر الجاحظ انحصار الخبر في الصدق والكذب. وفي رأيه هو صادق وكاذب وغير صادق ولا كاذب(2). فتكون مقتضيات البلاغة وجوب مطابقة الكلام لحال السامع الذي هو أصل من أصول علم المعاني، ومن أصوله أيضاً أن يُخاطبَ كل إنسان على قَدْرِ استعداده للفهم وحفظه من اللغة والأدب، فالذكي تكفيه الإشارة أو الإيجاز، والمُكابر يحتاج إلى الإسهاب والإطناب(3).

---

(1) «دلائل الإعجاز»: عبد القاهر الجرجاني ص٧.

(2) «عقود الجمان»: السيوطي ص٣٤ الحاشية.

«شروح التلخيص»: التفتازاني مج١ ص١٧٨ و١٨٢ و١٨٣.

(3) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٩١ و٩٩ و١٤٩ و١٥٥ و١٩٦.

فما هو مفهوم الجاحظ لعلم المعنى؟ وما هي أبرز شواهده الشعرية التي مثّل بها على علوم البلاغة؟

لقد امتزجت مسائل العلوم البلاغية عند الجاحظ امتزاجاً واضحاً في معظم حالاتها. قال أبو عثمان: ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار السامعين على أقدار تلك الحالات(١).

ولا بد لنا، قبل الانتقال إلى تعريف علم المعاني وبسط مباحثه عند الجاحظ، أن نشير إلى أن عبد القاهر الجرجاني(٢)، وضع نظرية علم المعاني في (دلائل الإعجاز) ونظرية علم البيان في (أسرار البلاغة). فكان بذلك المدون الأول لهذين العِلْمَيْنِ بكل ما تحمله كلمة (عِلْم) من قواعد النقد الذي لا تكتمل فائدته إلا مع الذوق السليم والطبع. وقد وضع ابن المعتز قبله أساس نظرية علم البديع.

ولم نلمس من بعد الجرجاني تغيراً أساسياً يُذْكَرُ أوْ استنباطاً ملحوظاً في بناء النظرية البلاغية، لأنه استمد أساس ملاحظاته من سابقيه الذين تأثر بهم وفي مقدمتهم، أبو عثمان الجاحظ(٣).

وانحصرت جهود البلاغيين، الذين تلوه، في جمع علوم البلاغة أو ترتيبها أو اختصارها أو شرحها أو التوسع بها(٤).

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) عبدُ القاهر الجُرجاني: ت٤٧١هـ/ ١٠٧٨م. ابن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني. أبو بكر من أئمة اللغة ومن أهل جرجان التي تقع بين طبرستان وخراسان. له شعر رقيق.
«الأعلام»: الزِركلي مج٤ ص٤٨ ـ ٤٩.

(٣) و (٤) من محاضرة للدكتور ياسين الأيوبي في كلية الآداب، الفرع الثالث، قسم دبلوم الدراسات العليا، في طرابلس في ٢٧/ ٢/ ١٩٨٦.

فعلم المعاني علم تعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال[1].

ومباحثه الثمانية من شأنها أن تبين وجوب مطابقة الكلام لحال السامع ومكانه وزمانه وتفيد أن القول لا يكون بليغاً حتى يلائم المقام الذي قيل فيه. والكلام لا يكون إلا خبراً أو إنشاء.

فإذا كان خبراً لا بد له من إسناد ومسند إليه. والمسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلاً أو ما في معناه، وكل من التعليق والإسناد قد يكون بقصر وقد لا يكون، والجملة إذا قُرِنَتْ بأخرى فالثانية إما معطوفة على الأولى أو لا، ويسمى ذلك الوصل والفصل. والكلام البليغ إما ناقص عن أصل المُراد (إيجاز) أو زائد (إطناب) أو مساوٍ. . .

والخبر ما احتمل الصدق والكذب والإنشاء بخلافه[2].

فما هي شواهد الجاحظ الشعرية عليه؟

٢ ـ الإيجاز والإطنابُ والمُساواة في الشِّعر

أ ـ الإيجاز في الشعر

وَجُزَ الكلامُ وَجازَة وَوَجْزاً وأوْجَزَ: قَلَّ في بلاغة، وأَوْجَزَهُ: اختصره.

قال ابن سيده: بين الإيجاز والاختصار فرق منطقيّ ليس هذا موضعه[3].

---

(١) «عقود الجمان»: السيوطي ص٨.

(٢) «عقود الجمان»: السيوطي. ص٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣.

وانظر في «كشاف اصطلاحات الفنون»: محمد علي الفاروقي التهانوي. تحق د. لطفي عبد البديع ود. عبد النعيم محمد حسنين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٧. ص٢٥٥ ـ ٢٥٨.

(٣) منطقي: بيِّن واضح. والإيجاز لا يُضَيِّعُ شيئاً من المعاني، بينما الاختصار يحصل فيه حذف شيء من المعاني.

«لسان العرب»: ابن منظور مادة وجز. مج ٥ ص٤٢٧.

وجاء في شروح التلخيص: الإيجاز لغةً: التقصير: يقال أوجزتُ الكلام أي قصرته. يستعمل لازماً ومتعدياً[(١)].

واصطلاحاً؛ هو أداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف[(٢)].

كانت الحاجة إلى الإيجاز في القول أوّل الأمر، وسيلة لاستيعاب أكبر قدر ممكن من المعاني، يُسهل على الإنسان تَذَكُّرَه، وبذلك يتسنى للأجيال المتعاقبة أن تتأمله سليماً غير منقوص وتستخدمه وسيلة للحفاظ على التراث العقلي.

وفي صدر الإسلام لم يتطور مفهومه كثيراً بالرغم من مراسلات الخلفاء الموجزة إلى ولاة الأمصار. وظل وسيلة أكثر منه غاية قائمة بحد ذاتها، ثم أصبح تباعاً مطلباً بلاغياً يتنافس فيه الباحثون.

ويُحَدِّدُ، أبو عثمان، مفهوم الإيجاز بأنه:

الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة[(٣)]. ثم يتوسع في مفهومه فيصبح الإيجاز عنده أَدَاءَ حاجةِ المعنى سواء أكان ذلك الأداء في ألفاظ قليلة أم كثيرة، وقد يطول الكلام في رأيه ويعد إيجازاً لأنه وقف عند منتهى البُغْيَة ولم يجاوز مقدار الحاجة[(٤)].

ويعلق الدكتور ضيف على ذلك بقوله: (على أن أبا عثمان لم يَعْنِ بالإيجاز مجرد قصر الألفاظ وقلة كميتها، وإنما أراد مساواتها الدقيقة للمعاني دون زيادة، وقد يمتد الكلام صفحات ويسمى موجزاً)[(٥)].

---

(١) «شروح التلخيص»: التفتازاني مج٣ ص١٥٩ الحاشية.

(٢) «عقود الجمان»: السيوطي ص٦٠.
و«شروح التلخيص»: التفتازاني مج٣ ص١٦٣.

(٣) «الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص٨٦.

(٤) «الحيوان»: تحق هارون مج٦ ص٧ ـ ٩.

(٥) «البلاغة تطور وتاريخ»: د. شوقي ضيف. ط٤ دار المعاروف. مصر ١٩٧٧ ص٤٨ ـ ٤٩.
راجع «الحيوان»: الجاحظ تحق هارون. ج ١. ص ٨٨ ـ ٩١.

وإذا تتبعنا الإيجاز عند البلاغيين بعد الجاحظ وجدنا مفهومه لم يُحرَّف، فهو جمع المعاني الكثيرة بأقل الألفاظ مع الإبانة والإيضاح. وهو ضربان: إيجاز قصر وإيجاز حذف(١).

نستنتج أن الجاحظ وضع يده منذ الوهلة الأولى على الأسس الحقيقية لعلم المعاني. فللإيجاز فضل في تخليص صاحبه من الصفات والعيوب اللفظية والكلامية.

قيل لإياس(٢): ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. «وما نعلم أحداً رمى إياساً بالعِيّ وإنّما عابوه بالإكثار»(٣).

قال أبو عثمان: ووصف أعرابي أعرابياً بالإيجاز والإصابة فقال:

كان والله يضع الهِناء مواضع النُّقب(٤). يظنون أنه نقل قول دُرَيْد بن

(١) «الحيوان»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص٣٩.
«الصناعتين»: للعسكري. تحق قميحة دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٧١ ص١٩٣ ـ ١٩٥.
«العُمْدة»: ابن رشيق القيرواني مج١ ص٢٥٠ ـ ٢٥١.
«مفتاح العلوم»: للسكاكي»: تحق محمد كامل الأزهري. دار الكتب العلمية بيروت ص١٢٠.
«التلخيص في علوم البلاغة»: القزويني ص٢٠٩ وحاشية ٢١٠ ـ ٢١١.
«الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني ص٢٨٠ ـ ٣٠٠.
«في تاريخ البلاغة العربية»: د. عتيق. ص٨٣.

(٢) القاضي إياس: (٤٦ ـ ١٢٢هـ/ ٦٦٦ ـ ٧٤٠م)، ابن معاوية بن قرة المزني، أبو واثلة قاضي البصرة وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء. توفي بواسط. قال الجاحظ: إياس من مفاخر مُضَر ومن مُقَدمي القضاء، وكان صادق الحدس ملهماً، عجيب الفراسة.
«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٣٣ «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١٠١.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٩٩ ـ ١٠٠.

(٤) الهِناء ضرب من القطران تُطلى به الإبل.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة هنا مج١ ص١٨٦.
النُّقب: الجرب عامة.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة نقب مج١ ص٧٦٦.
وانظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٠٧.

الصِّمَّة[1] في الخنساء[2] بنت عمرو بن الشّريد، إلى ذلك الموضع، وكان دُريد قال فيها:

مـا إنْ رأيـتُ ولا سـمـعـتُ بـه   فـي الـنـاس طـالـيَ أَيْـنُـقٍ جُـرْبِ
مُـتَـبَـذِّلاً تـبـدو مـحـاسِـنُـهُ   يـضـع الـهِـنـاءَ مَـواضِـعَ الـنُّـقْـبِ[3]

ويقولون في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز، فلان يَفُلُّ المِحزَّ ويُصيب المَفْصِل. أخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق، فجعلوه مثلاً للمصيب الموجز[4].

أنشد أبو قَطَن الغنوي الذي يقال له شهيد الكرام[5]، وكان أبين من رآه الجاحظ من أهل البدو والحضر:

---

(١) دُريد بن الصِّمة بن بكر بن علقمة بن هوازن، شاعر جاهلي شهد الإسلام ولم يسلم. جعله ابن سلام أول شعراء الفرسان وأطولهم غزواً وأبعدهم أثراً وأكثرهم ظفراً غزا نحو مائة غزوة، فما أخفق في واحدة منها. أُمّه ريحانه، أخت عمرو بن معد يكرب. له أربعة إخوة، قُتِلَ أعظمهم في يوم اللِّوى على غطفان، فانتقم له دريد في يوم الغدير. تغزل بالخنساء وخطبها فامتنعت فتهاجيا. مات قتلاً في وقعة حنين (ت٨هـ/ ٦٠٣م). وقيل ٦٣٠م.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١ ص١ ـ ٤٠.
«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٣٣٩.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي. ص١٣٨ رقم ٤٠٨.

(٢) الخنساء: (ت٢٤هـ/ ٦٤٥م). وأسمها تُمَاضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحية السُليمة من بني سليم.
أشهر شواعر العرب وأشعرهن على الإطلاق، أدركت الإسلام فأسلمت ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها بني سليم فكان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ص٧٢.
«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٨٦.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي. ص١٣٥ رقم٣٩٢.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٠٧.

(٤) نفسه مج١ ص١٠٧.

(٥) أشار محقق «البيان والتبيين»: بأن اسمه شوشى في «فهرس الأعلام»: ج٤ ص٣٠٤، ٣٠٥ وذكره الجاحظ في «الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص٩٤.
وأحالنا المحقق إلى الجزء الثاني ص٨٩ فلم يُعَرِّف به ولم نعثر على ترجمته.

جُفاةُ المَحَزِّ لا يُصيبون مَفْصِلاً ولا يأكلونَ اللحمَ إلا تَخَذُّما[1]

يعلّق الجاحظ على البيت بقوله:

هم ملوكٌ وأشباهُ الملوك، ولهم كُفاةٌ منهم لا يحسنون إصابة المَفْصِل.

وفي شبيه هذا المعنى قال الراعي[2]:

فَطَبَّقْنَ عُرْضَ القُفِّ ثم جَزَعْنَهُ كما طَبّقتْ في العظمِ مُدْيةُ جازِرِ[3]

والكلام إذا طال أو كثر، في بعض الحالات، فلا يخرج عن تسميته بالإيجاز عند الجاحظ، لأنه يصل إلى منتهى البُغْية. يقول الراجز[4]:

إذا غَدَتْ سعدٌ على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مَطْلعِ الشمس إلىٰ مغيبها عجبْتَ مِنْ كثرتها وطيبها[5]

---

(١) يقول الشاعر: إذا أكلوا اللحم على موائدهم لم يتناولوه إلا قطعاً بالسكاكين لا نَهْشاً بالأسنان.
وشَرح البيت في الحماسة: المحز هو الحزّ هنا: أي أنهم لا يتأنقون في فصل اللحم كعمل الجزار لأنهم ليسوا بجزارين ولا ذلك من عادتهم.
والخذم: سرعة القطع، وفي التخذم زيادة تكلف.
«شرح ديوان الحماسة»: للتبريزي. عالم الكتب. بيروت مج٤ ص٧٤ ـ ٧٥.
«البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) الراعي: (ت٩٠هـ/ ٧٠٩م). هو عُبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النمري، أبو جندل النمري، شاعر من فحول المحدثين. لُقّب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. من أهل بادية البصرة.
عاصر جريراً والفرزدق فهجاه جرير هجاء مُرّاً:
فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغْتَ ولا كِلابا
«الأغاني»: الأصفهاني مج٢٣ ص٣٤٨ ـ ٣٦٣. «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة. ص٩٤ ـ ٩٥.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج١ ص٥٠٤ ـ ٥٠٥.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص١٥٢ رقم ٤٣٧.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٠٨.

(٤) هو أبو نخيلة، ويكنى أبا الجُنيد وأبا العِرماس. كان عاقاً بأبيه فنفاه أبوه عن نفسه. فخرج إلى الشام وأقام هناك إلى أن مات أبوه. لقّب نفسه شاعر بني هاشم قليل الوفاء، بَطِنٌ، فاحش اللفظ، قتله قطريّ على طريق خُراسان في خلافة المنصور. مزيدٌ من أخباره في «الأغاني»: الأصفهاني مج ١٠ ص٣٦١ ـ ٣٩٢. وانظر «خزانة الأدب»: البغدادي مج١ ص٧٩ ـ ٨٠.

(٥) أثبت أبو الفرج هذه الأبيات، ضمن أخبار أبي نخيلة.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٠ ص٣٧٦. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١١٣.

وكان عمرو بن عبيد(1) مولعاً بالإيجاز لا يكاد يتكلم؛ فإذا تكلَّم لم يكد يطيل. ومن المولعين بالإيجاز الذين ذكرهم الجاحظ في (البيان والتبيين)، جعفر بن يحيى(2) الذي كان يقول لكُتَّابه:

إن استطعتم أنْ يكون كلامكم كلّه مثل التوقيع فافعلوا(3).

ومنهم سلم بن قتيبة(4)، وسفيان بن عُيينة(5). ومن شواهد الإيجاز عند الجاحظ قول الشاعر:

لِكـلِ هِـلالـيّ مـن الـلـؤم بُـرْقُـعٌ ... ولابـنِ هـلالٍ بُـرقـعٌ وقـمـيـصُ(6)

---

(١) عمرو بن عبيد (٨٠ ـ ١٤٤هـ/ ٦٩٩ ـ ٧٦١م). ابن باب البصري المعتزلي القدري التيمي بالولاء. أبو عثمان، متكلم مفسر زاهد. شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها وأحد الزهاد المشهورين له أخبار مع المنصور وغيره. توفي بحران بقرب مكة المكرمة، ورثاه المنصور.
«تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج١٢ ص١٦٦ ـ ١٨٨ رقم ٦٦٥٢.
«الأعلام»: الزركلي مج٥ ص٨١. «معجم المؤلفين» كحالة مج٨ ص٩ ـ ١٠.

(٢) جعفر بن يحيى البرمكي (١٥٠ ـ ١٨٧هـ/ ٧٦٧ ـ ٨٠٣م). أبو الفضل وزير الرشيد، ولد في بغداد، استوزره الرشيد ملقياً إليه أزمة الملك، وكان يدعوه أخي. وعندما نقم الرشيد على البرامكة قتله. وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول وكرم اليد والنفس. «تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج٧ ص١٥٢ رقم ٣٦٠٦. «تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٨ ص٢٩٤ حوادث ١٨٧. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص١٣٠ «الفهرست»: لابن النديم ص١٧٧ و٢٣٦.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١١٥.

(٤) سلم بن قتيبة: (ت١٤٩هـ/ ٧٦٦م). ابن مسلم الباهلي الخراساني، أبو عبد الله. والي البصرة في أيام مروان بن محمد. كان من الموثوق بهم في الدولتين الأموية والعباسية، وكان من عقلاء الأمراء عادلاً حَسُنَتْ سيرته ومات بالري. «الكامل في التاريخ»: ابن الأثير مج٥ ص٢٨.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص١١١. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٧٤ ـ ١٧٥.

(٥) سفيان بن عُيَيْنَة الهلالي: (ت١٩٨هـ/ ٨١٤م). الكوفي المكيّ أبو محمد، محدث فقيه ولد بالكوفة، جمع وصنف، وانتهى إليه علو الإسناد وله تفسير معروف وجزء فيه أحاديث.
«الفهرست»: لابن النديم. ص٣١٦. «الأعلام»: الزركلي مج٥ ص١٣٧.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج٤ ص٢٣٥.

(٦) يقول الجاحظ: أنه رجل من محارب قيس؛ دخل على عبد الله بن يزيد الهلالي، وهو عامل على أرمينية، وقد بات في موضع قريب من غدير فيه ضفادع، فقال عبد الله للمحاربي: ما تركنا أشياخ محارب تنام في هذه الليلة لشدة أصواتها. فقال المحاربي أصلح الله الأمير إنها أضلت بُرْقُعاً لها، فهي في بُغائه أراد الهلالي قول الأخطل:

تَـنِـقُّ بـلا شـيء شـيـوخُ مـحـاربٍ ... وما خِلْتُها كانت تريش ولا تبري =

ومما قالوا في الإيجاز وبلوغ المعاني بالألفاظ اليسيرة قول ثابت قُطْنة(١):

ما زِلتُ بعدكَ في همٍّ يجيش به ... صدري وفي نَصَبٍ قد كان يُبْليني
لا أُكثرُ القولَ فيما يهضِبون به ... من الكلام، قليلٌ منه يكفيني
إنّي تَذَكّرْتُ قتلى لو شهِدْتُهمُ ... في غمرة الموت لم يَصْلَوْا بِها دُوني(٢)

وقال أبو وَجْزَة السعديّ(٣)، من سعد بن بكر يصف كلام رجل:

يكفي قليلُ كلامهِ وكثيره ... ثبتٌ إذا طال النِّضالُ مُصيبُ(٤)

ومن كلامهم الموجز في أشعارهم قول العُكْلي(٥) في صفة القوس.

في كَفِّهِ مُعْطِيَةٌ مَنوعُ ... مُوثقة صابرةٌ جَزُوعُ(٦)

= ضفادع في ظلماء ليلٍ تجاوبت ... فَدَلَّ عليها صوتُها حيّة البحرِ

وأراد المحاربي قول الشاعر: لكل. . .

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٨١ ـ ١٨٢.

(١) ثابت قُطنة: (ت١١٠هـ/ ٧٢٨م). ابن كعب بن جابر العتكي من الأزد. من شجعان العرب وأشرافهم في العصر المرواني. يكنى أبا العلاء شهد الوقائع في خراسان وأصيبت عينه فجعل عليها قطنة فعرف بها. «الكامل في التاريخ»: ابن الأثير مج٤ ص١٧٦ ـ ١٧٧ حوادث سنة ١٠٢. «خزانة الأدب»: البغدادي مج٤ ص١٨٥.

(٢) هذه الأبيات مُثْبَتَة في الأغاني «ضمن ترجمة ثابت، في قصيدةٍ يَرْثي بها المفضل بن لهب. «الأغاني»: الأصفهاني مج١٤ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٣) هو يزيد بن عبيد من بني سعد بن بكر بن هوزان كان شاعراً مجيداً، وهو الذي روى الخبر في استسقاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه. توفي في المدينة (١٣٠هـ / ٧٤٨م). وهو من أوائل الشعراء الذين شبّبوا بعجوز. «الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص١٦٥.

(٤) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١٤٩.

(٥) العُكْلي: (ت١٠٠هـ/ ٧١٨م). واسمه كهمس بن قعنب بن وعلة بن عطية العُكلي، أعشى بني عكل: شاعر أموي كان في أيام جرير.
«الحيوان»: للجاحظ. تحقق هارون مج٣ ص٧٢ ـ ٧٥. «الأعلام»: للزركلي مج٥ ص٢٣٦.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص٢٤٨ رقم ٨٥٣.
«البيان والتبيين»: للجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٤٩ ـ ١٥٠.

(٦) يصف الشاعر القوس بأنها سهلة على باريها تَرِنُّ أو تَؤزُّ عند الإنباض.

في مثل هذا المعنى، وصف الشاعر، سهماً صارداً نافذاً مصيباً فقال:

ألقى على مفطوحِها مفطوحا غادَرَ داء ونجا صحيحا[1]

شرح الجاحظ البيت بقوله: المفطوح الأول للقوس وهو العريض أي موضع مقبض القوس. والمفطوح الثاني السهم العريض.

يعني أنه ألقى على مقبض القوس سهماً عريضاً.

وقال الآخر يصف سهم رامٍ أصاب حماراً فقال:

حتى نجا من جوفه وما نجا[2]

ووصف الآخر ناقة سريعة مليثة بالنشاط والقوة والبراعة، ولكنها في نشاطها وقوتها تشبه المرأة الخرقاء فقال:

خَرْقاءُ إلا أنها صَناعِ[3]

ومن أوجز وأبلغ ما قيل في وصف الذئب:

أطلسُ يُخفي شخصه غُبارُه في شِدْقِهِ شفرته وناره

هو الخبيث عَيْنُه مزاره بَهْمُ بني مُحارِبٍ مُزْدارُهُ[4]

وقال بعض ولدِ العباس، في فرس أبي الأعور السُّلميّ[5]:

(١) «البيان والتبيين»: مج١ ص١٥٠.
(٢) لم يُذكر القائل: أي أن السهم نجا من جوف الحمار، ولم ينج الحمار من الهلاك.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥٠.
(٣) نفسه تحق هارون مج١ ص١٥٠.
(٤) يصف هذا الشاعر سرعة الذئب الذي يغطِّيه الغبار فَيُخفي شحصه، كما يصف شراسته، بتعيين مطبخه الجاهز الذي بين فَكَّيْه، ويصف احتياله وسرعة مزاره إذا اكتشفت زياراته لحيوانات وماشية بني محارب.
(٥) هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس المشهور بأبي الأعور السلمي، شَهِدَ حُنَيْناً وهو مشرك ثم أسلم، وصار من ثِقات التّابعين. غزا قبرص سنة ٢٦هـ/ ٦٤٦م. وكانت له مواقف بصِفِّين مع معاوية. قَدِمَ مصر مع مروان سنة٦٥هـ/ ٦٨٠م.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني مج٣ ص٥٣٣ رقم ٥٨٥٣.

جاء كلمح البرق جاشَ ناظره   يسبحُ أولاه ويطفو آخره
فما يمسُّ الأرضَ منه حافِرُه[1]

وهذا من أجمل ما وصفت به سرعة فرس.

ومن زبدة الفكر العربي في الإيجاز والذوق الرفيع قول الشاعر:

إنْ سرَّكَ الأهونُ فابدأ بالأشدّ[2]

وهناك شواهد كثيرة من الشعر والحكم التي أوردها الجاحظ، لا مجال لإثباتها هنا[3]؛ وهي تدلنا على بديهة العربي وجمال لغته وحسن استعماله للإيجاز وكيف يضع لكل مقام مقالاً.

ومن شواهد إيجاز الحذف قول الجاحظ: وكَلَّم رجلٌ من قيس، عمرَ بن عبد العزيز ـ أمير المؤمنين، في حاجة وجعلَ يَمُتُّ بقرابة، فقال عمر: فإنَّ ذاك. ثم ذكر حاجته فقال: لعلَّ ذاك. لم يزده على أَنْ قال: فإنَّ ذاك، ولعل ذلك، أي إنَّ ذلك كما قلت، ولعل حاجتك تُقضى.

وقال عبد الله بن قيس[4].

---

(١) يشرح الجاحظ البيت بقوله: جاش ناظره: أي جاس بمائه. وناظر البرق: سحابة.
يسبح: يعني يَمُدُّ ضبعيه فإذا مدَّهما علا كَفَلُه.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥١.

(٢) نفسه «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥١، وانظر بعده قول العجاج في السيف.

(٣) قول حُمَيْدٌ بن ثور الهلالي: وحسبك داءً أَنْ تَصِحَّ وتَسْلما.
النمر بن تولب:
يُحِبُّ الفتى طول السلامة والغنى   فكيف ترى طول السلامة يفعلُ؟
أبو العتاهية: أَسرعَ في نقص امرىء تمامُهُ.
أبو خراش الهذلي: نُوَكَّلُ بالأدنى وإنْ جلَّ ما يمضي.
أبو ذؤيب الهذلي: وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنعُ.
ابن حريز الإيادي: يَرْمونَ بالخُطَبِ الطُّوال وتارة   وَحْيَ الملاحظ خِيفَةَ الرُّقَباء.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥٣ ـ ١٥٥.

(٤) ذكره صاحب «الأغاني»: باسم عُبيد الله بن قيس الرقيات، ولُقِّب بذلك لأنه شبب بثلاث نسوة سمين جميعاً رقية. هو شاعر قرشي زبيري الهوى.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٥ ص٦٤ ـ ٩١.

بَكَرَتْ عليَّ عواذلي يَلْحَيْنني وألُومُهُنَّهْ
وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قد عَلا ك وقد كبرتَ، فقلت إنَّهْ[1]

وقال النابغة[2]:

أزِفَ التَّرَحُّل غير أنَّ رِكابَنَا لمَّا تَزُلْ برحالنا وكأَنْ قَدِ[3]

وقال الراجز:

حتى إذا كان الظلام ينكشط جاءَ بِمَذْقٍ هل رأيت الذئب قطْ[4]

وصفوة القول إنَّ مُعايَنَةَ الجاحظ للإيجاز، مُعاينة اختصاصي مجرب، أظهر بشواهده الشعرية، الفصاحة والبلاغة العربية، وذروة الإيجاز بقسميه.

وكان انتقاؤه للشواهد الشعرية، انتقاء الصائغ لحليه، لأنه يعرف أسرار المعادن والأحجار الكريمة، فطبّق المثل في ذلك، كما يقال.

فتنبّه إلى أن هناك ضربين من الإيجاز:

«ضرباً يدخل في البيان البليغ، وضرباً مُخِلاً بالبيان يُفْسِدُ العبارة بما يجري فيها من الغموض.

من أجل ذلك دعا أصحاب الكلام، وخاصة المصنفين، إلى أن يُصَفُّوا ويبالغوا في التصفية حتى لا ينطقوا إلا بِلُبِّ اللُّبِّ وباللفظ الذي قد حُذِفَ فضوله وأسقط زوائده، فإنَّ مَنْ يصنع ذلك ويسرف فيه حريٌّ به أنْ لا يُفَهمَ عنه إلا أن يجددَ الإفهام مِراراً وتكراراً»[5].

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) ذكر محقق «البيان والتبيين»: بأنه النابغة الجعدي في فهرس الأعلام مج٤ ص٣٤٣ توفي ٦٥هـ/٦٨٤م. وعاش ما يقرب من ٢٢٠ سنة.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص٣٥٢. ٣٥٣ رقم ١٢٧٨.

(٣) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج٢ ص٢٨٠.

(٤) لم يذكر أحد من الرواة اسم هذا الراجز مع أن البيت مشهور. وأوله:
بتنا بحسّانَ ومِعْزاهُ تَئِطْ في سَمَنٍ جَمٍّ وتَمْرٍ وأَقِطْ
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٨١.

(٥) «الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني. ص٣٢ و٢٨٧ و٣٠٠.
«البلاغة تطور وتاريخ»: شوقي ضيف. ص٤٨ ـ ٤٩.

ب ـ الإطناب في الشعر

الأَطناب في أصل الوضع اللغوي: هي الطوال مِنْ حِبال الأخبية، واحدها طُنب. واستعيرت للكلام الطويل قال ابن منظور: الإطناب هو البلاغة في المنطق والوصف، مدحاً كان أم ذماً. وأطنب في الكلام: بالغ فيه(١). وهو عكس الإيجاز.

واصطلاحاً: تأدية المعنى بلفظ أَزْيَد منه لفائدة(٢).

وما يَصِحُ أَنْ يُقال عنه في النثر يَصِحُّ في النظم، والقصدُ منه هو حاجة المتكلم إليه. فحاجة الإيجاز في موضعه. كحاجة الإطناب في موقعه.

قال العلماء الذين أيدوه على الإيجاز: . . . والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشِفا لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينُه أشده إحاطة بالمعاني، ولايحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء، والإيجاز للخواص، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامّة، والغبيّ والفطن، والرَّيِّض والمُرتاض(٣).

وقال السكاكي. . . فالإيجاز أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم، سواء كانت القِلَّة أو الكثرة راجعة إلى الجُمَلِ أو إلى غير الجُمَل(٤).

فالإيجاز والإطناب هما أنف البلاغة الذي تعطس منه، ونابها الذي تَفْتَرُّ عنه شفتاها. والمُطنِب إنَّما يكون مُطنباً بالنسبة إلى ما هو أنقص منه، أي الذين لم يرتقوا إلى ذروة البلاغة ولم يتدلوا إلى حضيض العِيّ(٥).

---

(١) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة طنب. مج١ ص٥٦١ ـ ٥٦٢.
«شروح التلخيص»: التفتازاني مج٣ ص١٥٩.
(٢) «عقود الجمان»: السيوطي ص١٠٢ الحاشية.
(٣) «الصناعتين»: أبو هلال العسكري. ص٢٠٩.
(٤) «مفتاح العلوم»: للسكاكي ص١٢٠ ـ ١٣٣.
«القزويني وشروح التلخيص»: د. أحمد مطلوب ط١ مكتبة النهضة. بغداد ١٩٦٥ ص٢٤٢.
(٥) «التلخيص في علوم البلاغة»: القزويني حاشية ص٢٠٩ ـ ٢١٠.

ومن جميل تعاريف البلاغة: البلاغة هي الإيجاز في غير عجز، والإطناب من غير خطل[1].

وقال الهاشميّ: الإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة من متعارف أوساط البلغاء، لفائدة تقويته وتوكيده[2]. فإذا لم تكن في الزيادة فائدة فيسمى تطويلاً، وإذا كانت الزيادة في الكلام مُتَعَيِّنة لا يَفْسُدُ بها المعنى، فيسمى عندئذ حشواً، وكل من الحشو والتطويل مُعيب في البيان.

والمُسْهِبُ والمُسْهَبُ: الكثير الكلام. قال ابن بري. قال أبو علي البغدادي:

رجل مُسْهَبٌ بالفتح، إذا أكْثر الكلام في الخطأ فإن كان ذلك في صواب، فهو مُسْهِبٌ بالكسر لا غير[3].

ومن دواعي الإطناب وأهدافه: تثبيت المعنى وتوضيح المراد، والتوكيد، ودفع الإبهام، وإثارة الحمية، وغير ذلك[4].

كيف عرض الجاحظ الإطناب، وما شواهده الشعرية التي تضمَّنها «البيان والتبيين»؟ فرّق الجاحظ بين الإطالة والإطناب فقال: وقد بَقِيَتْ ـ أبقاك الله ـ أبوابٌ توجب الإطالة وتحوِج إلى الإطناب. وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة من الكلام ولم يقف عند منتهى البُغْية[5].

والإطالة والإطناب مترادفان ومقابلان للإيجاز عند أبي عثمان، فهما عنده، كل ما جاوز مقدار الحاجة من الكلام ولم يقف عند منتهى البغية.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٩٧.
«الصناعتين»: العسكري ص٢٠٩.

(٢) «جواهر البلاغة»: أحمد الهاشمي ص٢٢٦.

(٣) «لسان العرب»: ابن منظور مادة سهب مج١ ص٤٧٥.
والمِكْثار والمكثير: كثير الكلام.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة كثر مج٥ ص١٣٢.

(٤) «جواهر البلاغة»: الهاشمي. ص٢٢٨.

(٥) «الحيوان»: الجاحظ. تحق هارون مج٦ ص٧.

وفي حديثه عن الترداد والتكرار في القَصص القرآني ومواعظ الوعّاظ قال: وجملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حَدٌّ يُنتهى إليه ولا يُؤتى على وصفه. وإنّما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوامّ والخواص.

وقد رأينا الله عز وجل ردّد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط وعاد وثمود. وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبيّ غافل أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب[1].

وأما أحاديث القصص والرِّقّةِ فإني لم أرَ أحداً يعيبهما ذلك[2].

لقد ارتضى أبو عثمان الإطناب في الخطابة، ولكنّه لم يستحبه في الرسائل إلا أن تكون موجهة إلى الخلفاء[3].

وفي حديثه عن تداعي المعاني في التأليف قال: وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدىء الكِتاب وهو يريد مقدار السطرين فيكتب عشرةً! والحفظ مع الإقلال أمكن وهو مع الإكثار أبعد[4].

واستعمل الجاحظ، في بعض الأحيان، مرادفات الإطناب في إطار واحد لا يخرج عن زيادة المقدار، على حاجة اللفظ والمعنى. كقول صفوان الأنصاري[5] في هجاء بشار[6].

---

(١) التكرار أو الترداد في القرآن الكريم له فائدة عظيمة، وهو من خصائص التعبير القرآني ومقتضيات أساليبه الإبلاغية.

«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٠٥.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١١٨.

(٣) «الحيوان»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص٨٨ ـ ٨٩.

(٤) صفوان الأنصاري. هو صفوان بن أسيد التيمي. قال الطبري: لما مات النبي ﷺ، قدم صفوان بن صفوان بصدقته على أبي بكر. جاء في «الإصابة»: بعد الإسناد. أن الرسول ﷺ قال: إن الله إذا جعل لقوم عماداً أعانهم بالنصرة. فعلى هذا فهو ولد صفوان بن أسيد. ونعتقد أنه سُمّيَ بالأنصاري لذلك.

«الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني مج٢ ص١٨٢ رقم ٤٠٧٦.

(٥) انظر ص١٢٠ من هذا الكتاب حاشية رقم ٣.

وَسمَّيْتُه الغَزَّال في الشِّعرِ مُطْنِباً ومولاك عند الظلم قِصَّتُه مُرْدِي[1]

ويعني بالمطنب هنا، على ما نعتقد، المُكثر، الذي يحسب نفسه بإكثارِهِ مُفْحِماً. قال الجاحظ: إن مولاك ملاَّح، لأن الملاحين إذا تظلّموا رفعوا المُرادي.

وقال الشاعر:

يرمون بالخطب الطِّوال وتارةً وَحْيَ الملاحِظِ خِيفَةَ الرُّقباءِ[2]

يريد بالملاحظ: العيون. قال الجاحظ: . . . للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فَضَلَ عن قَدْر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والمَلال، فذلك الفاضل هو الهَذَرُ، وهو الخَطَلُ، وهو الإسهاب الذي سمعت الحُكماء يعيبونه[3].

ومن المكثرين في القول ربيعة الرأي[4].

قال الجاحظ: . . . فإن قليلاً كافياً خير من كثير غير شاف[5].

وقال: إن أناسا قالوا لابن عمر[6]: ادع لنا بدعوات، فقال: اللهم ارحمنا

---

(١) يقول السيد هارون محقق «البيان»: أن معنى القصة: القطعة ترفع فيها الظلامة.
والمُرْدي: خشبة يدفع بها الملاح السفينة.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة مرد مج٣ ص٤٠٢.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٩ وحاشية رقم ٥.

(٢) يقول السيد هارون محقق «البيان»: إن هذا البيت ينسب إلى أبي دؤاد بن حريز.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤٤.

(٣) نفسه تحق هارون مج١ ص٩٩.

(٤) انظر ترجمته في حاشية رقم١ في ص١٦٥ من هذا الكتاب.

(٥) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١١٢.

(٦) ابن عمر: (١٢٨ ـ ١٩٠هـ/ ٧٤٥ ـ ٨٠٦م). هو عبد الله بن عمر بن غانم بن شرحبيل الرعيني، أبو عبد الرحمن من سكان أفريقية. قاض، فقيه، ورع، دخل الشام والعراق في طلب العلم ولاّه الرشيد قضاء إفريقية سنة ١٧١هـ فاستمر قاضياً إلى أن مات في القيروان. من الثقات.
«الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٠٩.

وعافنا وارزقنا. فقالوا: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. قال: نعوذ بالله من الإسهاب[1].

وقال أبو الأسود الدؤلي[2] في ذكر الإسهاب، يقولها في الحارث[3]، والحارث هو القُباع وكان خطيباً من وجوه قريش ورجالهم، وإنَّما سُمِّيَ بالقُباع لأنه أتى بمكتل لأهل المدينة فقال: إن هذا المكتل لقباع. فسميّ بذلك. والقباع هو الواسع الرأس القصير[4].

وقال الفرزدق فيه لجرير[5]:

وقَبْلَكَ ما أعييتُ كاسرَ عَيْنِهِ زياداً فلم تقدِرْ عليَّ حبائِلُهْ
فأقسمتُ لا آتيه تسعين حِجَّةً ولو كُسِرَتْ عُنقُ القُباعِ وكاهِلُهْ[6]

وقال أبو الأسود في ذم الإسهاب والإطناب:

أميرَ المؤمنين جُزيت خيراً أرِحْنا من قُباع بني المُغيره
بلوناهُ ولُمْناه فأعْيا علينا ما يُمِرُّ لنا مَريرَه

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٩٥ ـ ١٩٦.

(٢) هو ظالم بن عمرو (اق هـ ـ ٦٩هـ ٦٠٥ ـ ٦٨٨م). الدؤلي الكنائي. واضع علم النحو، أبو عثمان. كان بليغاً فقيهاً شاعراً فارساً سريع البديهة من التابعين المحدثين. سكن البصرة في أيام عمر وتولى إمارتها أيام علي. وكان أيضاً من البخلاء والمفاليج والعرج. مات بالبصرة. «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص١٧١.
«البرصان والعرجان والعميان والحولان»: للجاحظ. تحق هارون ص٤٦١.
«الأعلام»: الزركلي مج٣٠ ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.
تلطف بالرجوع إلى ص١٤٩ من هذا الكتاب.

(٣) هو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. أرسل حديثاً، وهو المعروف بالقُباع.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: «العسقلاني»: مج١ ص٣٨٦ ـ ٣٨٧ رقم ٢٠٤٣.

(٤) شرح محقق «البيان»: القُباع فقال: إنه زنبيل كبير يسع خمسة عشر صاعاً.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٩٦.

(٥) انظر ترجمة الفرزدق وجرير في ص١٢٧ من هذا الكتاب.

(٦) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١٩٦.

علـى أنَّ الـفـتـى نِـكْـحٌ أكُـولٌ ومِـسـهـابٌ مـذاهـبـه كـثـيـره[1]

فالكثرة التي من عيوب اللفظ تؤدي إلى العِيّ[2]، وكثرة الهجاء لا يُحَبِّذُها الجاحظ[3]، وقال ابن وابصة، واسمه سالم[4]، في مقام قام فيه مع ناس من الخطباء:

يا أيها المُتَحَلِّي غير شيمته ومِن سجيّتِهِ الإكثارُ والمَلَقُ[5]

وقال أحدهم لابنه وكان خطيباً:

يا بني إذا قَلَّلْتَ مِنَ الكلام أكثرتَ من الصواب، وإذا أكثرت من الكلام أقْلَلْتَ من الصواب.

قال: يا أَبَهْ، فإنْ أكثرتُ وأكثرت ـ يعني كلاماً وصواباً ـ.

قال: يا بني ما رأيت مُوعَظاً أحق بأن يكون واعظاً منك[6].

واستشهد الجاحظ بقول الأخطل[7] على الإطناب الذي بمعنى الإكثار:

---

(١) المَرير: حبل دقيق طويل. قصد أنه لا يمضي أمراً. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٩٦.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه مج١ ص٢٠٧.

(٤) سالم بن وابصة: (ت١٢٥هـ/ ٧٤٣م). ابن معبد الأسدي. أمير، شاعر، من أهل الحديث، من التابعين. دمشقي سكن الكوفة، وولي إمْرَةَ الرَّقَّة مات في آخر خلافة هشام.
«النوادر في اللغة»: لأبي زيد الأنصاري ص٤٨٩. «ديوان الحماسة»: للتبريزي مج٢ ص١٢٠.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٧٣.

(٥) الأبيات مذكورة في «الشعر والشعراء»: ص١٣٧ ـ ١٣٨.
ولكن اسم الشاعر «العرجي»: انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٣٣.

(٦) نفسه مج١ ص٢٦٤.

(٧) الأخطل: (١٩ ـ ٩٠هـ/ ٦٤٠ ـ ٧٠٨م). هو غياث بن غوث بن الصلت من طارقة بن عمرو، من بني تغلب، أبو مالك. والأَخْطل لقبٌ غلب عليه. ذكرها هارون بن الزيات عن ابن النطاح عن أبي عبيدة، أنَّ السبب فيه أنه هجا رجلاً من قومه، فقال له: يا غلام إنَّك لأخطل. فغلبت عليه.
هو شاعر مصقول الألفاظ حسن الديباجة مبدع. اشتهر في عهد بني أمية بالشام وأكثر من مدح ملوكهم، وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل. نشأ على المسيحية بالعراق ثم اتصل بالأمويين. تهاجى مع جرير والفرزدق فتناقل الرُّواة شعره.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٨ ص٢٧٩ ـ ٣٢٢. «الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ص١١٤ ـ ١١٨.
«الأعلام»: الزركلي مج٥ ص١٢٣.

تَـنِـقُّ بـلا شـيءٍ شُـيُـوخ مُـحـارِبٍ   وما خِلْتَها كانت تَريشُ ولا تَبْري
ضفادع في ظلماءِ ليل تجاوبتْ   فَدَلَّ عليها صوتُها حَيَّةَ البحرِ(١)

كان أبو عثمان يدعو متعقلاً إلى أوسط الأمور لأنه خَيْرها. قال: وليكن كلامك ما بين المُقَصِّر والغالي، فإنّك تسلم من المحنة عند العلماء، ومن فتنةِ الشيطان: قال الشاعر:

عـلـيـك بـأوسـطِ الأمـور فـإنـهـا   نجاةٌ ولا تركبْ ذلولاً ولا صَعْبا(٢)

واضح أن الجاحظ لم يحصر فِكْرَةَ الإيجاز والإطناب بصيغ الكلام، صنيع البلاغيين المتأخرين بل مَدَّ إطنابهما، فنظر من خلالهما في أساليب الخطباء والكُتَّاب وأساليب المصنفين المترجمين...

وهو يعلم أن أساليب أصحاب الفن الواحد تختلف باختلافهم. فليس أسلوب زهير ومدرسته البيانيّة كأسلوب من يندفعون في نظم الشعر معتمدين على الطبع وعفو الخاطر(٣).

وقد استنبط أبو عثمان نظرياته من بصيرته النافذة، ولاحظ أن لكل أديب ناشئاً كان أو شاعراً أسلوبه.

والذي هداه إلى ذلك كلام بشر بن المعتمر(٤).

وهناك من يفاضل بين الإيجاز والإطناب، ونرى أن العلماء أحسنوا في

---

(١) راجع قصة البيتين في «العقد الفريد»: لابن عبد ربه مج٢ ص٤٦٨ ـ ٤٦٩.
وانظر ص٢١٥ الحاشية رقم ٦ من هذا الكتاب.
لم يذكر اسمه.
(٢) نفسه تحق هارون مج١ ص٢٥٥.
(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٩ و١٣.
وانظر «البلاغة تطور وتاريخ»: ـ د. شوقي ضيف. ص٤٩.
(٤) «الحيوان»: تحق هارون مج٣ ص٣٦٦.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٣٥ ـ ١٣٩.
وانظر ترجمة بشر في ص٩٢ من هذا الكتاب.

التفريق بينهما كعِلْمَيْن مستقلين ولكننا لا نرى سبباً للمفاضلة، لأن الإيجاز في موقعه بلاغة لا تقل عن الإطناب في موضعه.

وفي القرآن الكريم، إيجاز وإطناب.

ج - المساواة في الشعر

ساوى الشيء بالشيء إذا عادله[1]. فالمساواة هي المعادلة.

وعند أهل المعاني هي: واسطة بين الإيجاز والإطناب[2].

يقول السيوطي: المساواة كون اللفظ بقدر المعنى المراد أي مثله[3].

ويقول التفتازاني: المساواة تأدية أصل المعنى بلفظ مساوٍ له لفائدة[4].

ويقول العسكري: هي المذهب الوسط[5] الذي يلجأ إليه البليغ للتعبير عن خواطره وأفكاره، وهذا المذهب الوسط بين الإيجاز والإطناب[6].

ولو حاولنا أن نزيد فيها، ألفاظاً على المعاني، لجاءت الزيادة بغير فائدة، أو أردنا إسقاط لفظ لكان ذلك إخلالاً بالمعنى ومن هنا كانت الألفاظ مساوية للمعاني.

قال الهاشمي: المساواة هي تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له.

---

(١) «لسان العرب»: ابن منظور مادة سوا مج١٤ ص٤١٠.

(٢) «كشاف اصطلاحات الفنون»: التهانوني مج٤ ص٨١.

(٣) «عقود الجمان»: السيوطي ص١٠١.

(٤) «شروح التلخيص»: التفتازاني مج٣ ص١٧٠.

(٥) وَسَطُ الشيء: ما بين طرفيه، وكل موضع صلح فيه بَيْن فهو وَسْط، وإن لم يصلح فيه بَيْن هو وَسَط بالتحريك.
وفي الآية الكريمة ٢٨ من سورة القلم: وقال أَوْسَطُهُمْ: أي أَمْثَلُهُمْ وأعقلهم وخيرهم. من هنا زيف مفهوم الوسط اليوناني الذي يعرف (بالحد الأوسط). وليس للمساواة، التي هي حد من حدود البلاغة العربية، علاقة بالمفهوم اليوناني لأنها تبحث في المعاني والألفاظ.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة وسط مج٧ ص٤٢٦ - ٤٢٧.
«فتح القدير»: الشوكاني مج٥ ص٢٧٢.

(٦) «الصناعتين»: أبو هلال العسكري. ص١٩٩ - ٢٠٨.

وهي نوعان: مساواة مع الاختصار: أي ألفاظ قليلة الأحرف كثيرة المعاني.
ومساواة بدون اختصار، وتسمى متعارف الأوساط: وهي:
تأدية المقصود من غير طلب للاختصار(١).

لم يذكر الجاحظ لفظة المساواة عند معالجته الإيجاز والإطناب في «البيان» ولكنه تطرّق إلى مفهوم جوهرها وأسماه: (إصابة المقدار) ودعا إلى الاعتدال.

قال الجاحظ: (وأن قيمة كل امرىء ما يُحْسن)(٢). وكره (أنْ يكون مقدار لسانه فاضلاً على مقدار علمه أو يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله)(٣).

فتلك مساواة، في الجوهر، في الذهن والتفكير.

(وليس يعرف حقائق مقادير المعاني إلا عالم حكيم ومعتدل الأخلاط عليم، وإلا القويُّ المُنَّة، الوثيق العُقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهورَ الأعظَمَ، والسوادَ الأكبرَ)(٤).

نلاحظ أن أبا عثمان لم يستعمل لفظة المساواة، ولكنه استعمل لفظة الموازنة والقَدْر وإصابة المعنى أو إصابة المقدار.

قال طرفة(٥) في المقدار وإصابته:

---

(١) «جواهر البلاغة»: الهاشمي ص٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٨٣.
(٣) نفسه مج١ ص٨٥.
(٤) نفسه مج١ ص٩٠.
(٥) طَرَفَةُ بن العبد (٨٦ ـ ٦٠هـ/ ٥٣٨ ـ ٥٦٤م). ابن سفيان بن سعد البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين، وتَنَقَّل في بقاع نجد واتصل بالملك عمرو ابن هند فجعله من ندمائه... ثم أرسل بكتاب إلى المكعبر، عامله على البحرين وعمان، يأمره فيه بقتل طرفة لأبيات بلغ الملك أنَّ طَرَفَةَ هجاه بها. فقتله المكعبر في (هَجَر) وهو ابن عشرين وقيل ست وعشرين. له معلقة مشهورة مطلعها.
لخولة أطلال ببرقة ثهمدِ
«الشعر والشعراء»: ابن قتيبة. ص٢٦ ـ ٢٨. «خزانة الأدب»: البغدادي مج١ ص٤١٤ ـ ٤١٧.
«ديوان الحماسة»: للبتريزي مج٤ ص٨ ـ ٩. «شرح المعلقات السبع»: الزوزني: ص٥٧ ـ ٦٠.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٢٢٥.

فسقى ديارَكَ غيرَ مُفسِدِها صوبُ الربيع وديمةٌ تَهْمي[1]

طلب الغيث على قَدْرِ الحاجة، لأنَّ الفاضل ضارٌّ.

وعلى الجملة، لم يغفل الجاحظ معنى المساواة، بل أشار إليه أو لَمَّحَ من باب التوازن العقلي، فقد أبرز المعنى ولم يُسَمِّ المصطلح في «البيان والتبيين».

فاللغة وسيلة للتعبير، والأحرف والألفاظ والكلمات لُبّها، ومن الصعب أن يُفَصِّلَ المرء معناه على قدر ألفاظه.

والمساواة صناعة صعبة، وقسطاس مستقيم، لا يستطيع تحقيقها قصداً إلا من أوتي علماً معجزاً وليست بمُستَحِيلة.

وَرُبَّ قائل: هناك نظم غزير للشعراء صَنَّفه البلاغيون في باب المساواة.

قُلنا: مهما كثر هذا الشعر فهو رمية من غير رام ومصادفة غير مقصودة. وربما أصابها الأديب أو الشاعر، لكنَّ إصابته في معظمها مُتكلِّفة ومُجْهِدَة، ولصعوبة تحقيقها مال أبو عثمان عنها إلى المذهب الوسط (في المفهوم اللغوي العربي)، إلى الاعتدال وإصابة المقدار.

٣ ـ الشعر وبقية أركان علم المعاني

حصر البلاغيون المتأخرون علم المعاني في ثمانية أبواب هي:

الإسناد الإخباري وأحواله، المُسْند إليه وأحواله، المُسْند وأحواله، متعلقات الفعل وأحواله، القصر، الإنشاء، الفصل والوصل، ثم الإيجاز والإطناب والمساواة[2].

تلك باختصار أهم عناوين موضوعات علم المعاني.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ٢٢٨.

(٢) «عقود الجمان»: السيوطي. ص٩ ـ ١٣ ـ ٢٨ ـ ٣٥ ـ ٣٨ ـ ٤٣ ـ ٥١ ـ ٦٠.
«شروح التلخيص»: للتفتازاني: ج١ ص١٦٣ ـ ١٩٠ ـ ٢٧٢. ج٢ ـ ص٢ ـ ١١٩ ـ ١٦٦ ـ ٢٣٤. ج٣ ـ ص٢ ـ ١٥٩. «التلخيص في علوم البلاغة»: القزويني ص٣٧ ـ ٣٨. «الإيضاح في علم البلاغة»: القزويني ص٨٥. «جواهر البلاغة»: الهاشمي ص٥٢.
«علم المعاني»: د. عبد العزيز عتيق. ص٢٩ ـ ٣٠.

وقد تحدثنا عن الإيجاز والإطناب ومعنى المساواة عند الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» وأثبتنا بعض شواهده الشعرية. فهل كانت له استشهاداته الشعرية على بقية عناصر علم المعاني؟

الحقيقة أنَّه لَمَّا عزمنا على كتابة استشهادات الجاحظ الشعرية على موضوعات علم المعاني من كتاب (البيان)، لم نجد لكل هذه العناوين التي رصدناها في تصميمنا سوى إشارات نثرية لا تفي بالمطلوب ولأَنَّ موضوع بحثنا يتعلق بالشعر فإننا نترك الخوض في العناوين النثرية حفاظاً على الموضوعية ودقة البحث.

وربما كان لأبي عثمان جولات في هذه الأمور في كتب أخرى ليست مدار بحثنا، فالجاحظ ليس بصدد وضع كتاب تعليمي تفصيلي في مصطلحات علوم البلاغة، وإن لم يُشِرْ صراحة أو مباشرة لذلك، إلا أنه يمكن استنتاجها خلال تركيب الكتاب العام.

لقد وضع الجاحظ البيان العربي في كتاب (البيان والتبيين) بمعناه العام ليرُدَّ على الشعوبية ويدافع عن العرب، وجاء نهجه البلاغي العام في الكتاب، وإنْ لم يكن مفصلاً، أعم وأشمل لموضوعات البلاغة، بل أصبح أساساً نهجياً سار عليه المتأخرون الذين أخذوا بالتفصيل والتحديد.

لذا نرى أن أبا عثمان غير ملزم بمعالجة فروع علم المعاني وتفصيلاتها بعد أن بنى صرح هذا العلم وشيده، فهو باحث شمولي أوسع من الذين بحثوا موضوعاً في علوم البلاغة.

ومن هذا الرأي الدكتور أحمد أبو ملحم حيث يقول:

«ويساهم موسوعي كالجاحظ في جمع نصوص وروايات من هنا وهناك تؤلف بمجموعها حجارة غير منحوتة، فيأتي من بعده مَنْ ينتقي وينحت ويشيد (قصر) البلاغة من حجارة الجاحظ في مقالعه «البيان والتبيين» و«الحيوان» وتبقى الاصطلاحات مشوشة حتى عصور متأخرة، فالجاحظ يعالج جميع الموضوعات تحت عنوان «البيان والتبيين»[(١)].

---

(١) «مجلة الفكر العربي»: د. أحمد أبو ملحم. العدد السادس والأربعون السنة الثامنة. ص١٥٨.

الفصل الثالث

الشعر وعلم البيان

الشعر وعلم البيان

بسم الله الرحمن الرحيم: قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[١].

وقال تعالى أيضاً: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[٢].

فالبيان هو الفصاحة واللَّسَنُ، أو إظهار المقصود بأبلغ لفظ[٣].

وقال الزمخشري: رَجُلٌ بَيِّنٌ، أي فصيحٌ ذو بيان[٤].

والبيان عند أهل المعاني، هو علم[٥] يعرف به إيراد المعنى الواحد، المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال، بطرق مختلفة في إيضاح الدلالة عليه[٦].

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.
(٣) «لسان العرب»: ابن منظور مادة بين مج١٣ ص٦٨ ـ ٦٩.
(٤) «أساس البلاغة»: الزمخشري. تحق عبد الرحيم حمود. دار المعرفة. بيروت ١٩٨٢، ص٣٥.
(٥) فَسَّرَ التفتازاني (عِلْمٌ) بقوله: أي مملكة يقتدر بها على إدراكات جُزْئِية أو أصول قواعد عامّة.
«شروح التلخيص»: التفتازاني مج٣ ص٢٥٧ .
«عقود الجمان»: السيوطي. ص٩٨. وانظر «شروح التلخيص»: التفتازاني مج٣ ص٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
«الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني ص٣٢٦ ـ ٣٢٧.

كانت لفظة البيان، في العصور الأولى، تطلق على الفصاحة أو البلاغة أو الخطابة أو البديع. ويندرج تحت عنوانها قضايا جُزْئية[1].

وحتى عصر الجاحظ كانت تستعمل بمفهومها العام الذي يتسع فيشمل كل ماله علاقة بفن القول على اختلاف صوره من شعر ونثر، كما تشمل البحث في مسائل بلاغية كثيرة.

ويؤكد طه حسين ت١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م. أن البيان العربي لم يتم تكوينه حتى منتصف القرن الثالث للهجرة وإنّما صُمِّمَ هيكله. يقول: «إن من يكلف نفسه عناء قراءة «البيان والتبيين» على ضخامته وخلوه من النظام، يصل إلى هذه النتائج الثلاث:

أولاً: إن العرب من نهاية العصر الجاهلي أخذوا يُخضعون صناعة الكلام لنقد أولي، ولكنه في أغلب الأحوال سديد لأنهم كانوا يُعوِّلُون فيه على سلامة الذوق...

ثانياً: إن العرب منذ القرن الثاني أخذوا يعنون بصناعة الكلام عناية شديدة... إلى أن وضعوا للمعاني والألفاظ وهيئة الخطيب من القواعد ما نجده متفرقاً في «البيان والتبيين».

ثالثاً: في ذلك الوقت عينه أخذت تظهر طبقةٌ مفكرةٌ جديدة... أدخلت على اللغة العربية أساليب لم يعهدها العرب من قبل... وليس صحيحاً أنّه كان قد وُجِدَ حتى منتصف القرن الثالث بيان عربي تام التكوين، وكل ما في الأمر أنه وجدت جهود صادقة مفيدة ترمي إلى إنشاء هذا البيان ووضع قواعده وتلقينها للطلاب المبتدئين[2].

ونجد الجاحظ المعتزلي يورد، في «البيان»، تعاريف اليونان والفرس

(١) «في تاريخ البلاغة العربية»: عتيق ص٨٩.

(٢) مقدّمة «نقد النثر»: قدامة بن جعفر ص٤ ـ ٧ وعنوان المقدمة: من الجاحظ إلى عبد القاهر، وضعها طه حسين بالأفرنسية ونقلها إلى العربية عبد الحميد العبادي.

والهند والروم وغيرهم. . . وهذا يعني أن المعتزلة توصلوا إلى وضع المُقَدِّمات الأولى لقواعد البلاغة العربية، كما أثبت الجاحظ عن رئيس المعتزلة بشر بن المعتمر[(١)]، صفحات نثر فيها ملاحظات دقيقة في البلاغة، تلقفها من جاء بعده من العلماء واستعانوا بها على بلورة بعض أصول البلاغة وقواعدها، وأطال وقوفه، عند بلاغة بشر، في صفات الألفاظ والمعاني ووجوب مطابقة الكلام لسامعيه، فوافق «بشراً» في المطابقة، والعبرة، عند الجاحظ، بالمعنى والمقام وأحوال السامعين لا بالألفاظ بحد ذاتها[(٢)]. وكان أميناً في ذكر ما قيل عن البيان، جريئاً في تعريفه له. قال الجاحظ: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفْضِيَ السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنَّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بَلَغْتَ الإفهام وأَوْضَحْتَ عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[(٣)].

وفي معرض حديثه عن البيان، ذكر أبو عثمان قضايا خارجة عن مباحث هذا العلم، بمفهومه الاصطلاحي المتأخر.

فأحاط بجزالة اللفظ واختياره، واقتران الحروف[(٤)]، وساق مثلاً على تنافر الألفاظ عند العرب:

وَقَبْرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ   وليس قربَ قبرِ حربٍ قَبْرُ

قال الجاحظ: ولما رأى مَنْ لا علم له أنَّ أحداً لا يستطيع أن يُنْشِدَ هذا البيت ثلاث مرات في نسقٍ واحد فلا يتتعتع ولا يَتَلَجْلَجُ، وقيل لهم إنَّ ذلك إنَّما اعتراه إذا كان من أشعار الجن، صَدَّقوا بذلك[(٥)].

---

(١) انظر ترجمة بشر في ص٩٢ حاشية رقم ٢ من هذا الكتاب.
(٢) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١٣٦ - ١٣٨ - ١٣٩.
(٣) نفسه تحق هارون مج١ ص٧٦.
(٤) نفسه تحق هارون مج١ ص٦٩.
(٥) نفسه تحق هارون مج١ ص٦٥.

كما استقبح استعمال الغريب[1]، واستلطف وجوه التناسب بين اللفظ والمعنى في مواضع السخف والشرف وكره تبرُّؤَ الألفاظ من بعضها وتنافرها، لأن بينها من التنافر ما بين أولاد العلاَّت[2].

قال أبو البيداء الرِّياحي[3]:

وشعرٍ كبعر الكبشِ فَرّقَ بينه   لسان دَعِيّ في القريض دخيلِ

قال الجاحظ:

وأما قوله «كبعر الكبش». فإنَّما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع مُتَفَرِّقاً غيرَ مؤتلف ولا متجاور؛ وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها مُتَّفِقَةً مُلْساً ولَيِّنَةَ المعاطف سهلة، وتراها مُخْتَلفَة متباينة ومتنافرة مستكرهة، تَشِقُّ على اللسان وتَكُدُّه، والأخرى تراها سهلة ليّنة، ورَطْبة مواتية، سَلِسَةَ النِّظام، خفيفةً على اللسان، حتى كأَنَّ البيت بأسره كلمةٌ واحدةٌ وحتى كأَنَّ الكلمة بأسرها حرفٌ واحد[4].

ثم ساق مثلاً شاهداً على الشعر الذي يكون لفظة واحدة لخفته وسهولته واللفظة فيه كأنها حرف واحد. قول الثقفي[5].

---

(١) «البيان والتبيين» تحق هارون مج١ ص٣٧٧ ـ ٣٨٠.

(٢) نفسه تحق هارون مج١ ص١٤٥.

والعَلَّةُ: الضَّرَّة. وبنو العَلاَّت: بنو رجل واحد من أمهات شتى، سُميت بذلك لأن الذي تزوجها على أولى قد كانت قبلها ثم عَلَّ من هذه. قال ابن بري: يقال لبني الضرائر بنو عَلاَّت، ويقال لبني الأم الواحدة بنو أم، ويصير هذا اللفظ يستعمل للجماعة المتفقين، وأبناء عَلاَّت يستعمل في الجماعة المختلفين. «لسان العرب»: ابن منظور مج١١ ص٤٧٠، [علل].

(٣) جاء في الفهرست: إنه الرياحي، زوج أم أبي مالك عمرو بن كركره واسمه أسعد بن عصمة، أعرابي نزل البصرة وكان يعلم الصبيان بأجره. كان شاعراً.

«الفهرست»: لابن النديم. ص٦٦. «العُمدة»: لابن رشيق مج١ ص٢٥٧. والشاهد الشعري في «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦٦ ـ ٦٧.

(٤) «البيان والتبيين» ١/ ٦٧.

(٥) من ثقيف واسمه الأجرد الثقفي، وَفَدَ على عبد الملك في قوم من الشعراء فقال ما من شاعر إلا وقد سبق إلينا من شعره، قبل رؤيته فما قلت. قال أنا القائل: من كان... والبيتان مثبتان في «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص١٧٢.

من كان ذا عضُدٍ يُدْرِكْ ظُلامتَه   إنَّ الذليلَ الذي ليست له عَضُدُ
تـنـبـو يـداه إذا مـا قـلَّ نـاصـرُهُ   ويأنف الضيمَ إنْ أثرى له عَدَدُ[1]

مع العلم أن هذه المسائل المعالجة وغيرها، وضعت في باب الفصاحة.

وعرض الجاحظ لأركان البيان العربي من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية، إلا أنه لم يورده (أي: البيان) بمعناه الاصطلاحي بل أطلق عليه اسم البديع[2].

قال الأشهب بن رُمَيْلة[3]:

هُمُ ساعدُ الدَّهرِ الذي يُتقَّى به   وما خيـر كـفٍّ لا تـنـوءُ بـسـاعـدِ

قال الجاحظ: قوله (هم ساعد الدهر)، إنَّما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع[4].

كما استعمل المثل مرادفاً للمجاز وجعله مقابلاً للحقيقة، وذلك عند حديثه عن نار الحرب ويذكرون ناراً أخرى، وهي على طريق المثل الأعلى طريق الحقيقة كقولهم في نار الحرب[5].

قال ابن ميّادة[6]:

ونـاراهُ: نـارٌ نـارُ كَـلِّ مُـدَفَّـعٍ   وأخرى يصيبُ المجرمين سعيرُها[7]

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦٧. وانظر «العمدة»: ابن رشيق مج١ ص٢٥٧.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٥٥.

(٣) الأشهب بن رميلة (٨٦هـ/ ٧٠٥م). شاعر نجدي: ولد في الجاهلية وأسلم ولم يجتمع بالنبي ﷺ. عاش حتى العصر الأموي. هجا أبا الفرزدق، فهجاه الفرزدق فقَصَّرَ عن مجاراته. سُمِّي رُميلة نسبة إلى أمه التي هي أَمَةُ أبيه في الجاهلية.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج٢ ص٥٠٩. «الأعلام»: للزركلي مج١ ص٣٣٢.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٥٥.

(٥) راجع تعريف نار الحرب في «الحيوان»: الجاحظ تحق هارون مج٤ ص٤٧٤ ـ ٤٧٥.

(٦) هو الرّماح بن يزيد (ت١٤٩هـ/ ٧٦٦م). وميادة أُمُّهُ. وهو من بني مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان رهط الحرث بن ظالم. وكان يضرب جبين أمه ويقول (أعرز نمي مياد للقوافي). يريد أنه يهجو الناس فيهجونه. «الأغاني»: الأصفاني مج٢ ص٢٢٧ ـ ٣٠٠.
«الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص١٧٩. «الأعلام»: الزركلي. ج٣ ص٣١.

(٧) الحيوان: الجاحظ. تحق هارون مج٥ ص١٣٣.

وبهذا يكون الجاحظ أول من قسم اللفظ في «البيان والتبيين» إلى حقيقة ومجاز.

ثم أَلَمّ الجاحظ بالأساليب البيانية، وخاصة في «البيان والتبيين» فدل عليها عن طريق الأمثلة، لا عن طريق القواعد الاصطلاحية.

ثم استطرد إلى بيان الدلالات على المعنى من لفظ وغير لفظ فحصرها في خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد:

اللفظ، الإشارة، العقد، الخط، الحال أو النصبة[(١)].

ونظر إلى أساليب الكتاب الخطباء والمترجمين والشعراء، وتَمَحَّصَ في طِباعهم وأقوالهم، وخلص إلى القول بأن الكلام الشريف نافع، يجب حفظه، واللفظ الهجين رديء، والمعنى الحقير فاسد، والدنيّ ساقط يُعشش في القلب ثم يبيض ثم يُفَرِّخ[(٢)].

أحب الجاحظ الكلمة الطِّيِّبة المُعبِّرة التي تناسب المَقام، لأنها تُبَيِّنُ الخاطر وكثيراً ما تأسر الفؤاد.

ولنر كيف حقق الجاحظ شواهده في البيان.

الحقيقة أن شواهده جاءت مبثوثة في تضاعيف كتابه، غير مُكَبَّلة بعنوان أو خطة محددة، لأن الموضوع عنده، كما قيل، وسيلة للاستطراد، تعتمد الشواهد الشعرية وغير الشعرية لهذه الغاية.

وإذا تساءلنا عن السبب الذي من أجله لم يبحث بتفاصيل أركان البيان في (البيان) فلأنَّ الكتاب ليس محاضرات لدروس تفصيلية، بل هو دفاع عن العرب ضد الشعوبية، لذا أبرز الجاحظ بلاغة العرب وبيانهم، في حاضرهم وماضيهم، من خلال نماذج شعرية ونثرية ليفحم بها المشككين في أصالة العربية.

ويؤيدنا في ذلك الدكتور عبد المجيد زراقط، في حديثه عن البلاغة العربية في أساسها ونشأتها، بقوله: «ما يلفت، في الكتاب «البيان والتبيين»،

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٧٥ ـ ٧٦.

(٢) نفسه مج١ ص٨٣ ـ ٨٦.

بداية اسمه الذي يجعلنا نزعم أن الجاحظ يشير بهذا الاسم إلى جوهر رؤيته للظاهرة الأدبية. فالبيان يعني الإعراب عن الذات والكشف عنه، والتبيين يعني إيصال المُعْرَب عنه إلى المُتَلقّي واضحاً يعني الإعراب عن الذات والكشف عنه، والتبيينَ يعني إيصال المُعْرَب عنه إلى المُتَلقّي واضحاً مفهوماً... وهذا ما ينبغي أن نتبيّنَ تفصيلاته من خلال الأمثلة والنماذج التي يقدمها الجاحظ في كتابه، والتي تشكل بحد ذاتها نماذج لذلك النوع الأدبي...

والملاحظ أن الجاحظ لا يهتم بإيراد تعريفات واصطلاحات وإنّما يُقَدّم أحاديث يتبنى بعضاً منها ويستحسن بعضاً آخر ويناقش الكثير منها مُدلياً برأيه في صدده[1].

إن هذا البحث يهتم بما في طيّات كتاب «البيان والتبيين» من نقاط بلاغية يَسْري عليها التطبيق وإنْ لم يعنونها أبو عثمان أو يقصد إليها مباشرة. فدراستنا إذاً ليست دراسة تفصيلية للبلاغة في كتاب «البيان» فضلاً عن أنَّ الغاية الكبرى من ذلك هي البحث عن دور الشعر في تحقيق الغرض البلاغي الذي أراده أبو عثمان.

وهل يرمي شيخنا من وراء شواهده الشعرية أو النثرية إلا توضيح البيان وأساليبه بصورة خاصة، وتوضيح البلاغة العربية بصورة عامة؟ لقد أنزل الأدب من ارستقراطيته إلى العامة، لأنه بَسَّطَهُ وشرح مفهومه حتى استوعبته العامة.

والغرض البلاغي ليس بالضرورة اصطلاحياً بقدر ما هو مفهوم بلاغي عام للحياة والكتابة والتصوير، وتحقيق غرض الجاحظ البلاغي في (البيان) أكبر من أن يخضع لمفاهيم البلاغيين واصطلاحاتهم المحددة، ثم إن الجاحظ لم يؤلف كتاباً في البلاغة والبيان بمفهومهما الاصطلاحي، بل كان غرضه بلاغياً بصورة مطلقة بما في ذلك المفهوم الاصطلاحي.

---

(١) «مجلة الفكر العربي»: ع٤٦ ـ س٩٨٧ ـ ص٢٢٧.

فهل جاء أبو عثمان بشواهد شعرية في (البيان) تحوي التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية صراحة ولأجل التطبيق؟ أم خرجت شواهده إلى آفاق أخرى أبعد؟

وربما رأى أبو عثمان أن التفصيل في أركان البيان لا يخدم أغراضه، فاهتم بالهدف الأساسي المشار إليه، بعد أن دَوَّنَ أول لَبِنة البيان العربي.

أو ربما بحث بتفاصيل البيان في كتب أخرى، فأعفى نفسه من تكرارها.

أو ربما سها عن باله، وهو صاحب الذاكرة العجيبة، أن يسبرغور تفاصيل البيان الدقيقة، لأن النسيان صفة نسبية واجبة ملازمة للإنسان.

وما دفعنا لإبداء هذا الافتراض هو عدم تنظيم الجاحظ التأليفي.

أو ربما بحث بالتفاصيل ولكنها سقطت مع الزمن من جراء النسخ. ويدعم هذا الافتراض مقدمة الطبعة الثانية لكتاب (البيان) الذي حققه عبد السلام محمد هارون القائل:

. . . إنني عثرت على نُسخة خامسة من أصول الكتاب، جلبها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية من مكتبة (فيض الله) الآستانة. . . وبذلك امتازت هذه الطبعة بكثير من التصحيحات وتعديلٍ في الشروح وبعض الإضافات الحديثة[١].

ومهما كانت أسباب التعليلات والافتراضات، فإن الجاحظ وضع «البيان والتبيين» على حالته التي وصلتنا، لأنه شاء ذلك.

لقد جاء الجاحظ بشواهد شعرية، على أركان البيان، وعلّق عليها صراحة حيناً أو ترك تذوقها للقارىء ضمناً أحياناً، مما يوضح أنَّه كان على تعمق بأركان البيان ومواضع حسنه وقبحه وقيمته البلاغية.

وسنعرض بإيجاز، ما جاء به من شواهد شعرية على أركان البيان بادئين بالتشبيه.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون. المقدمة. ص٢٤.

التَّشْبيه

للتشبيه روعة وجمال، لإظهاره الخفي، وتقريبه البعيد. يُكْسِبُ المعاني رفعة ووضوحاً، ويكسوها نبلاً وفخراً، أو ضَعَة وخِسَّة. مُتَشَعِّبُ الأطراف، دقيق السياق، يدفع الخيال إلى التحليق لجلاء الصورة واستقصاء ملامحها الغامضة.

وهو لغةً: التمثيل[١]. وعند التهانوي: الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر[٢].

وعند أهل البيان: هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنى، لا على وجه الاستعارة التحقيقية والاستعارة بالكناية والتجريد، وكثيراً ما يطلق في اصطلاحهم على الكلام الدال على المشاركة المذكورة أيضاً[٣].

وفي رأي الجرجاني: «أن التمثيل ضرب من ضروب التشبيه، والتشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً»[٤].

فالتشبيه يُخْرِج الغامض المستور إلى الواضح، ويُقَرِّب الواضح إلى صورةٍ أدق وأوضح، وهو ترجمان للعقل، والبصر والبصيرة.

ومن شواهد الجاحظ التشبيهية، التي لم ترد صراحة تحت عنوان التشبيه، في «البيان والتبيين» قول بشار بن برد[٥] في تشبيه عُنُق واصل بن عطاء[٦] بِنِقْنِقِ الدَّو:

---

(١) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة مج١٣ ص٥٠٣.

(٢) «كشاف إصطلاحات الفنون»: التهانوي. مج٤ ص١٨٢.

(٣) أركان التشبيه أربعة: المشبه، والمشبه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه.

والتشبيه عند أهل التصوف، عبارة عن صورة الجمال لأن الجمال الإلهي له معان. وهي الأسماء والأوصاف الإلهية. واعلم أن للحق تشبيهين: تشبيه ذاتي: وهو ما عليه صور الموجودات المحسوسة أو ما يشبه المحسوسة في الخيال.

وتشبيه وصفي وهو ما عليه المعاني الأسمائية المنزّهة عَمَّا يشبه المحسوس، وهذه الصورة تتعقل في الذهن ولا تتكيف في الحس، فمتى تكيفت إلتحقت بالتشبيه الذاتي، لأن التكيف في كمال التشبيه والكمال بالذات أولى فبقي التشبيه الوصفي وهو ما لا يمكن التكيف فيه بنوع من الأنواع ولا حين يضرب المثل. «كشاف اصطلاحات الفنون»: التهانوي مج٤ ص١٨٣ ـ ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) (أسرار البلاغة). عبد القاهر الجرجاني. تحق رشيد رضا. دار المعرفة بيروت. ص٧٠ ـ ٧٥.

(٥) انظر ترجمته في ص١٢٠ من هذا الكتاب.

(٦) انظر ترجمته في ص٩٥ من هذا الكتاب.

مـا لـي أشـايـعُ غَـزَّالاً لـه عُـنـقٌ   كَنِقْنِقِ الدَّوِ إنْ وَلّى وإنْ مَثَلا[1]

وقول عنترة العبسي[2] حين جعل نعيب الغراب خبراً للزاجر.

حَـرِقُ الـجـنـاحِ كـأن لَـحْـيَـيْ رَأْسِـهِ   جَـلَـمَـانُ بـالأخـبـار هَـشٌ مـولَـعُ

قال الجاحظ: شَبه لحييه بالجلمين، لأن الغراب يُخبِّر بالفُرْقة والغُرْبة ويقطع كما يقطع الجَلَمان. والحَرِقِ: الأَسْود[3].

وقول أبي الطَّمَحان القَيْني[4] في ذكر لُقْمان[5]:

---

(١) النَّقْنِق بالفتح والكسر: هو ذكرَ النعام، الظليم. الدو: الفلاة الواسعة وقيل المستوية من الأرض. وقيل: الدَّوُ أرض مسيرةُ أربع ليالٍ شِبْه تُرْسٍ خاوية يسار فيها بالنجوم ويخاف فيها الضلال.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة دوا. مج١٤ ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.
نفسه: مادة نقق. مج١٠ ص٣٦٠. وانظر «البيان والتبيين»: للجاحظ تحق هارون مج١ ص١٦.

(٢) عنترة بن شداد. وسبب ادعاء أبيه إياه، أنَّ بعض أحياء العرب أغاروا على قومه. فقال له أبوه كُرّ يا عنترة وأنت حر. كان لا يقول من الشعر إلا البيتين أو الثلاثة حتى سابَّهُ رجل من قومه وذكر سواده فجاد في القصائد. «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص٤٢ ـ ٤٣. وبيته موجود في «الديوان»: تحق محمد سعيد مولوي. ط٢. المكتب الإسلامي بيروت ١٩٨٣ ص٢٦٣.

(٣) المقصود بالجلمان: المقص. انظر «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٨٢. و«الحيوان»: للجاحظ. تحق هارون مج١ ص٢٤٢ وج٢ ص٣١٦.

(٤) أبو الطَّمَحان القيني (ت٣٠هـ/ ٦٥٠م). واسمه حنظله بن شرقي من قضاعة، شاعر، فارس، مُعَمَّر، عاش في الجاهلية ولم ير النبي ﷺ. وقيل إن اسمه ونسبه ربيعة بن عوف.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٣ ص١٣ ـ ١٢. «خزانة الأدب»: البغدادي ج٣ ص٤٢٦. «الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني مج١ ص٣٨٠ رقم ٢٠٠٧. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٢٨٦.

(٥) اختلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي؟ مشتق من اللقم، فمن قال إنه عجمي منعه للتعريف والعجمة، ومن قال إنه عربي منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون. واختلفوا أيضاً هو نبي أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه ليس بنبي. وحكى الواحدي عن عكرمة والسدّيّ والشعبيّ أنه كان نبياً. هو لقمان بن باعورا، ابن ناحور بن تارخ، وهو آزر أبو إبراهيم... كان نوبياً من أهل أيلة ذكره السهيلي. قال وهب: هو ابن أخت أيوب وقال مقاتل: هو ابن خالته. عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود فلما بُعث داود قطع الفتوى، فقيل له: لِمَ قطعت الفتوى؟ فقال ألا أكتفي إذ كفيت. قال الواقدي. كان قاضياً في بني إسرائيل والحكمة التي آتاه الله هي الفِقْهُ والعقلُ والإصابةُ.
«فتح القدير»: الشوكاني مج٤ ص٢٣٧.

أمْسَتْ بنو القين أفراقاً مُوزعةً كأنهم من بقايا، حيٍّ لُقْمانِ[1]

فشبّه تَفَرُّق بني القين كتفرق بقايا، حيّ لقمان.

وقول الشاعر حين شَبَّه صِغَرَ كَفِّ المهجو بأصغر من كفِّ الضَبِّ، كما عاب صِغَرَ رَأْسِه على حد قول الجاحظ:

فَقَبَّلْتُ رأساً لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ وكفاً ككفِّ الضبِّ أوهي أَحْقَرُ[2]

كما شَبَّه الإنسان بالنجم. قال في ذلك ابن عَسَلَةَ الشيباني[3].

فَصَحَوْتَ والنَّمريُّ يحسبها عَمَّ السِّماكِ وخالَةَ النجمِ

قال الجاحظ: النجم واحدٌ وجمعٌ والنَّجْمُ هو الثريا في كلام العرب[4].

وفي «الحيوان» شبه عيون الناس في الحرب والغضب بنبضة الجمر:

وعند الفَزَاريِّ العِراقيِّ عارضٌ كأَنَّ عُيونَ القوم في نَبْضَةِ الجَمْرِ[5]

وتحت عنوان «استطراد لغوي» نَوَّه إلى أداة التشبيه ووجه الشبه:

وليلٍ كجلبابِ العروس ادَّرَعْتُهُ بأربعةٍ والشخصُ في العين واحدُ

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٨٧.

(٢) يقول هارون محقق (البيان) إن الشاعر هو فضالة بن شريك (ت بعد ٦٤هـ/ ٦٨٤م). وهو ابن سلمان بن خويلد الأسدي، شاعر من أهل الكوفة، أدرك الجاهلية واشتهر في الإسلام، شعره حُجَّةٌ عند اللغويين.
«البيان والتبيين»: تحت هارون مج١ ص٩٤.
«الأعلام»: الزركلي. مج٥ ص١٤٦.

(٣) هو عبد المسيح بن عَسَلَة الشيبانيّ (ت٥٠هـ/ ٥٧٥م). شاعر جاهلي، وعسلة اسم أمه، وحكيم بن عفير بن طارق، اسم أبيه، من ذهل بن شيبان.
«الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٥٣.

(٤) النّمريّ: هو كعب أحد بني النمر بن قاسط. السِّماك: نجم معروف.
يتكلم الشاعر عن قينة مغنية، ظنها النمري عم السِّماك وخالة الثريا لِحُسْنِها.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة ج١٠ ص٤٤٤.
وتلطف بالرجوع إلى «البيان والتبيين»: للجاحظ. تحق هارون مج١ ص٢٢٩.

(٥) الشاعر ابن ميادة. ترجمته في ص٢٣٥ من هذا الكتاب.
انظر «الحيوان»: تحق هارون مج٤ ص٢٤٢ ـ ٢٤٣.

قال الجاحظ: فإنه ليس يريد لونَ الجلباب، ولكنه يريد سُبوغه[1].

وذكر تشبيه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين في بيت واحد:

كأنَّ قُلُوبَ الطيرِ رَطْباً ويابساً لدى وكْرِها العُنابُ والحَشَفُ البالي[2]

بل ذهب إلى تشبيه أربعة أشياء بأربعة.

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامة وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[3]

مَثَّل أبو عثمان على التشبيه، وكان موفقاً في اختيار شواهده الدالَّة، في كتاب «البيان والتبيين» دون أنْ يُدْرِجَهُ تحت عنوان كعادته، ولم يتطرقْ إلى التفاصيل الشاملة.

وقد سقنا بعض شواهده الجميلة في «الحيوان»[4] لنؤكد رأينا: أنه ربما بحث في موضوعات البلاغة في كتب أخرى فأعفى نفسه من تكرارها في «البيان والتبيين»:

---

(١) سَبَغَ الشيء يَسْبُغُ سبوغاً: طل إلى الأرض واتسع. وأدرعته: لبسته كما يلبس الدرع، والأربعة التي شخصها واحد في العين: أي التي يراها الناظر شخصاً واحداً.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة سبغ. ج٨ ـ ص٤٣٢ ـ ٤٣٣.
«الحيوان»: تحق هارون مج٤ ص٢٥٠.

(٢) القائل: امرؤ القيس. شبه الرَّطْبَ من قلوب الطير بالعُنّاب. واليابس منها بالحشف البالي وقد أجاد.
انظر «الحيوان»: الجاحظ. تحق هارون مج٤ ص٥٣.

(٣) الشاعر نفسه، شَبَّه خاصرتي الفرَسْ بخاصرتي الظبي، وساقيه بساقي النعامة، وَمَدُّ عُنُقِهِ عند سيره في حالة الاسترخاء كحالةِ استرخاءِ عُنُقِ الذِّئبِ، كما شبه جَمْعَ يديه وَوَثْبَه بِعَمَلِ وَلَدِ الثعلب، فكأنه أراد الثعلب بعينة مشبهاً.
انظر «الحيوان»: تحق هارون ج٣ ص٥٣.

(٤) ومن أراد الاستزادة من شاهد التشبيه عند الجاحظ فليراجع على سبيل المثال لا الحصر إلى:
«الحيوان»: مج٤ ـ ص١٦٦ ـ ٢٤١ ـ ٣١٨ ـ ٣٣١ ـ ٣٥٠ ـ ٣٥٦.
ج٥ ـ ص٤٣٠ ـ ٤٧٣ ـ ٥٥٨ ـ ٥٥٩ ـ ٥٦١ ـ ٥٦٨ ـ ٥٧٦ ـ ٥٧٧.
ج٦ ـ ص١٧٩ ـ ٣٤٨.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٣٢٨.

٢ ـ المجـــاز

المجاز لغة: الموضع. جُزْتُ الطريق، وجاز الموضع جوزاً ومجازاً أي سارَ فيه وسَلَكَهُ[١].

وقال السيوطي: المجاز مِنْ جازَ المكان يجوزه إذا تعداه إلى مكان آخر. وسمي بذلك لأنهم جازوا به معناه الأصلي إلى معنى آخر[٢].

وقال الجرجاني: والمجاز كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز.

وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز بها إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز[٣].

ويقول السكاكي: المجاز هو الكلمة المستعملة في معنى معناها بالتحقيق استعمالاً في ذلك بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة معناها في ذلك النوع[٤].

وقد قَسَّمَ عُلَماء البلاغة المجاز إلى قسمين: مجاز عقلي ومجاز لغوي.

المجاز العقلي: يكون بإسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له. ولا يكون إلا في التركيب.

والمجاز اللغوي: يكون في نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معان أخرى بينها صلة ومناسبة.

وهذا المجاز يكون في المفرد، كما يكون في التركيب المستعمل في غير ما وضع له.

---

(١) «لسان العرب»: ابن منظور مادة جوز مج٥ ص٣٢٦.

(٢) «عقود الجمان»: السيوطي. ص١١٧ الحاشية.

(٣) «أسرار البلاغة»: عبد القاهر الجرجاني. ص٣٠٤.

(٤) «مفتاح العلوم»: السكاكي. ص١٥٣.

وهو نوعان: استعارة ومجاز مرسل.

١ ـ استعارة: وهي مجاز تكون علاقته المُشابَهة: أي قُصِدَ أن الإطلاق بسبب المشابهة، فإذا أُطْلِقَ المِشْفَرُ على شَفَةِ الإنسان فإن قُصِدَ تشبيهها بمشفر الإبل في الغِلَظِ والتَّدَلي فهو استعارة.

وإن أريد أنه من إطلاق المقيّد على المطلق كإطلاق المرسن على الأنف من غير قصد التشبيه فمجاز مرسل.

٢ ـ والمجاز المرسل: إن كانت العلاقة غير المشابهة، بين المعنى المجازي والمعنى اللغوي.

وسمي مرسلاً لإرساله أي إطلاقه مع التقييد بعلاقة المشابهة(١).

والجاحظ من أوائل العلماء الذين تعرضوا لهذا الموضوع بالبحث والشاهد، لأن اللغة العربية هي لغة المجاز والإيجاز، ولكنه لم يُدْرِجْه أو يُفَصِّلْه تحت عنوان كعادته في نهج «البيان والتبيين».

ومن بعض شواهده الضِّمْنِيَّة، في (البيان)، على المجاز المرسل والتي لم يدرجها تحت عنوان، قول الشاعر:

أَهْـلَـكَ طَـسْـمـاً، وقـبـل طِـسْـمٍ أَهْـلَـكَ عـاداً وذا جُـدُونِ(٢)

أراد الشاعر بـ (طسمٍ) جميع أفراد قومه ولم يُرِدْ شخصةَ بحد ذاته.

---

(١) «شروح التلخيص»: التفتازاني مج٤ ص١٩ ـ ٤٦.

(٢) جاء في اللِّسان وأنشد شمر لسليمان بن ربيعة بن دبّاب بن عامر بن ثعلبة بن السيِّدِ:

أهـلـكـن طَـسْـمـاً وبـعـدهُـمُ عَـذِيُّ بَـهْـمٍ وذاجـدونِ

والشاعر سليمان من رهط أبي بكر الصديق وابنه الحوريث بن دبابٍ وآخرون:

وجاء في التهذيب أنَّ ذاجَدَنٍ اسم ملك من ملوك حَمْيَر.

«لسان العرب»: ابن منظور مادة تقن مج١٣ ص٧٣ ومادة جَدَّنَ مج١٣ ص٨٦. وانظرن «خزانة الأدب»: للبغدادي مج٤ ص٤٥٦.

و«البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١٩٠.

كذلك الأمر بعادٍ، أراد جميع أفراد قوم عاد، وجمع (ذا جدون) التي مفردها (ذاجدن)، ليدل ويؤكد على مقصده.

وقول الشاعر حين أعطى مقولاً ولم يعطِ معقولاً:

لِسانُكَ مَعْسولٌ ونَفْسُكَ شُحَّةٌ ... ودون الثريا من صديقكَ مالُكا[1]

قصد الشاعر (باللسان المعسول) الخداع، أي التفتيش عن ألفاظ مُنمَّقة بَرّاقة للمدح أو للخروج من المأزق أو غيره. وهذا الأسلوب ينم على شخصية ضعيفةٌ مُتَستِّرة.

وأراد (بالنفس الشحة). البخل عامّة. والشُحُّ عارض نسبيّ قد يسخو في مواطن. ثم بَيّنَ بُخْلَ المُخاطب بقوله: إن الثريّا وهي النجوم بصورة عامة أقرب لصديقك من أن يَمَسَّ فِلساً واحداً مِنْ أموالك. ومن أمثلة الجاحظ وشواهده على المجاز العقلي المبثوثة في تضاعيف «البيان والتبيين» قول الصَّعْب بن عليّ الكِناني[2] عند إشارته إلى سرعة الجائع، كسرعة أمير النحل المجرّب:

أَبلِغْ فزارة أنَّ الذئبَ آكِلُها ... وجائعٌ سَغِبٌ شَرٌ مِنَ الذِّئبِ

أَزَلُّ أطلَسُ ذو نفسٍ مُحَكَّكَةٍ ... قد كان طار زماناً في اليعاسيبِ[3]

فالمجاز هنا فزارة، وقصد الشاعر بها أبناء فزارة أي القوم.

---

(١) جاء في «لسان العرب»: (عند الثريا) بدل (دون الثريا). و(دون) التي وردت عند الجاحظ بمعنى فوق.
وجاء أن (لدون) تسعة معانٍ: تكون بمعنى قبل، وأمام، ووراء، وتحت، وفوق، والساقط من الناس، والشريف، والأمر، والوعيد، والإغراء. ولم يُذكر قائل البيت.
تلطف بالرجوع إلى «لسان العرب»: ابن منظور مادة تشجع مج٢ ص٤٩٥.
ومادة دون مج١٣ ص١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٩٥.
و«الحيوان»: تحق هارون مج٥ ص٤٣٠.

(٢) لم أعثر على ترجمته ضمن المصادر المتوافرة.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٠٤.

وآكلها: يعني أكل مواشي أبناء فزارة.

وكَنّى (بطار زمانا في اليعاسيب) عن مَبْلغ سرعته.

ونختم هذه الفقرة بالإحالة إلى كتاب «الحيوان» لمزيد من الشواهد الشعرية على المجاز لِقِلَّةِ ما جاء في هذا الباب من الشواهد الشعرية في «البيان».

لأن الكتابين متكاملان في الحيّز البلاغي الذي نبحث(١).

الاستعارة

الاستعارة لغة: من قولهم: استعار المال(٢): طلبه عارية(٣). واصطلاحاً: هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة(٤). وهي عند السكاكي: أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول

---

(١) ومن شواهد الجاحظ الشعرية، على المجاز، في «الحيوان».
أنَّ نار المصباح لا تأكل شيئاً من الدهن ولا تشربه، ولكن الدهن ينقص على قدر ما يخرج من الدخان والنار الكامنين اللذين كانا فيه.
وإذا خرج كل شيء فهو بطلانه.
ويأتي المجاز عنده على المثل وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه، فيجود بشواهد شعرية رائعة وفي مواضع مختلفة، حتى قال عن المجاز: هذا الباب هو مفخرُ العرب في لغتهم.
«الحيوان»: تحق هارون مج٤ ص٣٩٤.
«الحيوان»: مج٥ ص٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٦ ـ ٢٨ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(٢) أول معنى المال عند العرب كان الأرض لأنها أول شيء يملكه الأنسان... ثم انتقلت إلى النبات وكل ما يظهر على وجهها (الأرض).. ثم إلى الحيوان وإلى الإنسان الذي يُقْنى، فإلى كل شيء يُمْتَلَك.
وأصبح في عهد الحضارة والتمدن بمعنى الفضة والذهب أو بمعنى مطلق الورق: أي النقد أياً كان.. فالأصل عربي صرف ولا دخل لسائر اللغات الأخوات الساميات في معناه.
«دستور الحكم في الإسلام والمبادىء الأساسية التي قام عليها»: د. محمد الخطيب ملحق رقم ٦ ص٧٢٧ ـ ٧٢٨. (فصل من أطروحة دكتوراه نوقشت في جامعة الأزهر)

(٣) العُرْيُ: خلاف اللُّبْسِ. يقال: رجل عُريانٌ وعار وامرأة عريانة وعارية.
«لسان العرب»: ابن منظور مادة عرا. ج١٥ ـ ص٤٦ ـ ٤٧.
«جواهر البلاغة»: الهاشمي ص٣٠٣.

(٤) «عقود الجمان»: للسيوطي ص١٢٠.

المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به[(١)]. كقولك رجل أسدٌ: تريد: شجاعٌ.

وعند القزويني: ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له[(٢)].

وهي ضرب من المجاز. والمراد بمعناه: ما عني به أي ما استعمل فيه، فلم يتناول ما استعمل فيما وضع له وإن تضمّن التشبيه به[(٣)].

والاستعارة عند أبي عثمان: تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه[(٤)].

فمن شواهده الاستعاريّة، من غير أن يُسمّيَها، قول الشاعر:

يـا دارُ قَـدْ غَـيَّـرَهـا بِـلاهـا كـأنَّـمـا بـقـلـمٍ مَـحَـاهـا
أَخْـرَبَـهـا عُـمْـران مَـنْ بَـنَـاهـا وَكَـرُّ ممسـاهـا عـلـى مـغـنـاهـا
وطَـفِـقَـتْ سَـحَـابَـةٌ تَـغْـشـاهـا تَـبْـكـي عـلـى عِـرامـهـا عَـيْـنـاهـا

«قوله: أَخْرَبَها عمرانُ مَنْ بناها، يقول: عَمَّرَها بالخراب. وأصل العمران مأخوذ من العَمْرِ، وهو البقاء، فإذا بقي الرّجل في داره فقد عَمَرها.

فيقول إن مُدَّةَ بقائه فيها أبلتْ منها، لأن الأيام مُؤثِّرةٌ في الأشياء بالنَّقْصِ والبِلى، فما بقي الخرابُ فيها وقام مقام العمران في غيرها سمي بالعُمْران. . .[(٥)].

وقوله مُمْساها، يعني مَساءها. ومغناها: موضعها الذي أقيم فيه.

والمغاني: المنازل التي كان بها أهلوها. وطفقت، يعني ظلت تبكي على

---

(١) «مفتاح العلوم»: السكاكي ص١٥٦.

(٢) «شروح التلخيص»: سعد الدّين التفتازاني مج٤ ص٤٥.

(٣) «الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني ص٤٠٩.
وانظر «علم البيان»: د. عبد العزيز عتيق. ص١٧٢ ـ ١٧٤. وفيه تعريفات شتى للاستعارة.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥٣.

(٥) انتهى كلام الجاحظ، وكأنماأراد أن يقول. تلك هي الاستعارة. ضرب من المجاز يقوم فيه شيء مقام غيره وهو غير موجود. . . ولا ندري لماذا لم تُذْكر الاستعارة صراحة في كتاب الجاحظ؟

عِراصها عيناها، وعيناها ههنا للسحاب. فجعل المطرَ بُكاء من السَّحاب على طريق الاستعارة.

وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه[1].

ومن شواهد الاستعارة المكنية في كتاب «البيان والتبيين» قول نُصَيْبٍ[2]:

أقولُ لِرَكْبٍ صادرينَ لقيتُهُم قِفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ ومولاكَ قاربُ
قِفوا خَبِّرونا عن سليمانَ إنَّنِي لِمَعروفه مِنْ أَهْلِ وَدَّانَ طالبُ
فعاجُوا فأَثْنوا بالذي أنتَ أَهْلُه ولو سكتوا أَثْنَتْ عليك الحقائبُ

فالحقائب تخبر مِنْ كَثْرَةِ انتفاخها أَنَّ صَاحِبَها كريم جواد.

يقول الجاحظ: وهذا كثير جداً[3].

ومن بليغ شواهد الجاحظ الشعرية على الاستعارة، وقد جعلها تحت عنوان الإشارة، قول الشاعر:

أشارت بطرْفِ العين خِيفَةَ أَهْلِها إشارةَ مذعورٍ ولم تتكلَّمِ
فأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قد قال مرحباً وأهلاً وسهْلاً بالحبيبِ المُتَيَّمِ[4]

لقد أنطق الشاعر الطَّرْف، وجعل الإشارة أبعد مبلغ الصوت. ومن بديع الشواهد، استعارة الشاعر صوتاً للعصا. قال جندل الطُّهويّ[5]:

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) نُصَيْب: (ت ١٠٨هـ / ٧٢٦م). هو ابن رباح وكنيته أبو محجن. يقول ابن قتيبة إنه يكنى أبا الحجناء. شاعر فحل مقدّم في النسيب والمدح. كان عبداً حبشياً أسود لراشد بن العزّى من كنانة، ويقول: هو مولى بني كعب بن حمزة من كنانه. وأمه سوداء. والأبيات التي قالها نصيب مثبتة في كتاب ابن قتيبة.
انظر «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة. ص٩٢ ـ ٩٣.
و«الأعلام»: الزركلي. ج٨ ص٣١ ـ ٣٢.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٨٢ ـ ٨٣.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١. ص٧٨ و٢١٩. حيث جاءت لفظة المُسَلَّم بدل المُتَيَّم.

(٥) جندل الطُّهويّ (ت ٥٩٠ / ٧٠٩م). ابن المثنى الطُّهويُّ، من تميم، شاعر، راجز، كان معاصراً للراعي الشاعر وكان يهاجيه. نسبته إلى طهية وهي جدته. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص١٤٠.

حتى إذا دارتْ رَحىً لا تجري   صاحت عصيٌّ مِنْ قَناً وسِدْرِ(١)

من المعروف، في ذلك الزمن، أن قرع العصي يعني حدوث أمر جلل، وكلما قوي صوتها حمي وطيس الضِراب. والعصي الجوفاء كالقنا من الرماح تصدر أصواتاً مُخيفة فا بالك بصوت السِدر شجر النبق الصامد؟

والعصا لا تصيح، وصوتها يعني بداية رَحى حرب، فاستعار لها الصياح لإبانة الصراع وهي استعارة بليغة.

وفي شبهه يقول أعشى همدان(٢):

ويركب رَأْسَهُ في كلِّ وحلٍ   وَيَعْثُرُ في الطريق المستقيم(٣)

الرأس لا يُركب، فكيف بالحيوان أو الإنسان يركب رأس نفسه؟ معنى ذلك التمسك بالرأي والمعاندة.

وقال بشار(٤):

وما خيرُ كفٌّ أمسَكَ الغُلُّ أُخْتَها   وما خيرُ سيفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائمِ(٥)

فالغُلُّ والبخل لا يُمْسِك، فاستعار له الشاعر يداً ليمسك بها.

ولئن لم يُصَرِّح الجاحظ (بالاستعارة) في «البيان». فقد فعل ذلك صراحة في «الحيوان».

فتحت عنوان «ما يحتاج إلى معرفته» أورد الجاحظ ألفاظاً أطلق عليها اسم الاستعارة.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٥.

(٢) أعشى همدان (١ ـ ٤٣هـ/ ٦٢٢ ـ ٦٦٣م) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي المدني، أبو محمد، تابعي ثِقة، جليل القدر، من أشراف قريش، وهو أحد الأربعة الذين عَهَدَ إليهم عثمان بن عفان رضي الله عنه بنسخ المصاحف، توفي في المدينة.
انظر خبره مع خالد بن عتّاب في «الأغاني»: الأصفهاني مج٦ ـ ص٤٣ ـ ٤٤.
و«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٣٠٣.

(٣) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون. وبقية الأبيات مج٤ ص٥٠.

(٤) انظر ص١٢٠ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤. ص٤٩.

فقال على لسان الفرزدق[١]:

إنــي أقــودُ جـمــلاً مِـمْــراحــا   فــي قُــبَّــةٍ مــوقَــرَةٍ أَحْــرَاحــا[٢]

قال الجاحظ: وإنَّما جمعوه على أحراح، لأن الواحد حِرْحٌ. هكذا أصله. وقد يستعار ذلك وهو قليل[٣].

وقال الشاعر[٤]:

تـراهـا الـضَّـبْـعَ أعـظـمـهـنّ رأسـاً   جُـراهِـمَـةً لـهـا حِـرةٌ وثِـيـلُ

جاء في «اللسان»: وقوله لها حِرةٌ وثيلُ: معناها أن كل ضبع خنثى فيما زعموا، واستعار الثيل لها وإنما هو للبعير، وعَنَى بالجُراهمة: الضخمة.

قال الجاحظ: فلم يرضَ الاستعارة حتى ألحق فيها الهاء[٥].

يَتَبَيَّن لنا، أَنَّ الجاحظ سمى الاستعارة واعتبرها مجازا، واستعمالاته لها كانت على التشبيه، وعلى المثل، وعلى الاشتقاق، وكان يعني بها الاستعارة أو المجاز بمعناه العام.

كما لَمَّحَ إلى إجراء الاستعارة[٦].

---

(١) همام بن غالب انظر ص١٢٧ من هذا الكتاب. حاشية رقم٥.

(٢) ورد البيت في «اللسان»: ومنه «ذا قُبَّة»: بدل «في قبة».
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة حرح مج٢ ص٤٣٢.

(٣) «الحيوان»: تحق هارون مج٢ ص٢٨٠.

(٤) البيت لساعدة بن جُويه يصف ضبعاً. وهو شاعر من بني كعب من سعد هذيل من مخضرمي الجاهلية والإسلام. أسلم وليست له صحبة. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة جرهم مج١٢ ص٩٧. «الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٧٠.

(٥) «الحيوان»: تحق هارون مج٢ ص٢٨٠.

(٦) مما يلفت النظر أن هذا الاستعمال من استعارة وتشبيه، سماه البلاغيون فيما بعد «إجراء الاستعارة».
المقصود بإجراء الاستعارة تحليلها إلى عناصرها الأساسية التي تتألف منها. وهذا التحليل يتطلب تعيين كل من المشبه والمشبه به في الاستعارة، وعلاقة المشابهة أو الصفة التي تجمع بين طرفي التشبيه، ونوع الاستعارة، وكذلك نوع القرينة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي والتي تكون أحياناً لفظية وأحياناً تفهم من سياق الكلام.

ولا يخفى أن الاستعارة هي مجاز مرسل علاقته المشابهة.

وكلمة التشبيه ترد عند تحليل الاستعارة أو إجرائها، ثم هي في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه[1].

الكنايـــة

الكناية لغة: أنْ تتكلم بشيء وتريد غيره[2].

واصطلاحاً: لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته[3].

أو هي لفظ أُطْلِق وأُريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى[4].

وقد وردت الكناية عرضاً[5] بمعناها العام، عند الجاحظ، وهو التعبير عن المعنى تلميحاً لا تصريحاً كلما اقتضى الحال.

وقد ساق قول أبي دؤاد بن حَريز الأياديّ[6] شارحاً معنى الوحي والإشارة وهما من مقومات الكناية:

---

(١) «في تاريخ البلاغة العربية»: د. عتيق ص١٠٢.

(٢) «لسان العرب»: ابن منظور مادة كنى. ج١٥ ص٢٣٣.

(٣) «مفتاح العلوم»: للسكاكي ص١٧٠.
«جواهر البلاغة»: الهاشمي. ص٣٤٦.

(٤) «الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني ص٤٥٦.
«علم البيان»: د. عتيق ص٢٠١.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤٤.

(٦) أبو دؤاد الأيادي (ت٥٥٤م) واسمه جارية بن الحجاج قال الأصمعي: هو حنظلة بن الشرفي وهو أحد نُعّات الخيل المُجيدين. ولفظه ليس بنجدي. ولكن الجاحظ أكد في مكان آخر من «البيان»: أن قائل البيت هو أبو دؤاد.
«الشعر والشعراء» ابن قتيبة ص٣٧ ـ ٣٨.
«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص١٠٦.
وانظر «معجم الشعراء في لسان العرب»: د. الأيوبي ص١٤١ وفيه عدد آخر من المصادر والمراجع.
و«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥٥.

يَرْمون بالخُطَبِ الطُّوال وتارةً　　وَحْيَ المَلاحِظِ خِيفَةَ الرُّقباءِ

قال الجاحظ: فذكر المبسوط في موضعه، والمحذوف في موضعه، والموجز، والكناية، والوحيَ باللّحظ، ودَلالة الإشارة.

فمدح كما ترى الإطالة في موضعها، والحذف في موضعه، والكلام الذي هو كالوحي والإشارة(١). وقال في باب تعريف البلاغة في كتاب «البيان والتبيين»، قال بعض أهل الهند:

جماعُ البلاغة البَصر بالحُجّة، والمَعْرِفة بمواضع الفُرْصة.

ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها. إذا كان الإفصاح أوعر طريقةً وربما كان الإضرابُ عنها صفحاً أبلغ في الدَّرك وأحقَّ بالظفر(٢).

فشرح بذلك الكناية، وإن لم يكن قصده تعريفها مستقلة لأنَّ الوقت لم يحن بعد لتناولها مستقلة . . .

وهذا ما أشار إليه الرمزيون في العصر الحديث بقولهم: الصراحة البلهاء!

وفي باب ذكر البلغاء والخطباء . . . قال الجاحظ . . .

أو ما علِمتَ أَنَّ الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والكشف(٣).

ثم قال: وإذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل. وإذا قالوا للعامل مستقصٍ فتلك كناية عن الجور . . . وساق شاهداً . . .

وقيل «الحِدَّةُ كنايةٌ عن الجهلْ» وقيل: «العارضةُ كِنايةٌ عن البَذاء»(٤).

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤٤ و١٥٥.

(٢) نفسه تحق هارون مج١ ص٨٨.

(٣) نفسه تحق هارون مج١ ص١١٧.

(٤) نفسه تحق هارون مج١ ص٢٦٣.

فالكناية عند الجاحظ تقابل الإفصاح والتصريح إذا اقتضى الحال. وساق بعض الشواهد التي لم يُدرِجْها تحت عنوان كعادته.

قال صفوان الأنصاري(١):

ولا الناطقُ النَّخار والشيخُ دَغْفَل إذا وَصَلُوا أَيْمانهم بالمخاصرِ(٢)

كَنّى الشاعر بوصل الأيدي بالعصي والإمساك بها عن تأهبهم للخطابة.

وقال صفوان أيضاً في بشار وأخويه وكان يخاطب أَمَّهم:

وَلَدْتِ خُلْداً وذِيخاً في تَشَتُّمه وبعده خُزَزاً يشتدُّ في الصُعُدِ(٣)

فكنى عن عَمَى بشار بالخلد وبالذيخ والخُزز عن العرج وقصر اليدين.

قال الجاحظ؛ الخُلْدُ: ضرب من الجرذانِ يولد أعمى. والذِّيخ: ذكر الضِّباع وهو أعرج.

والخُزَز: ذكر الأرنب، وهو قصير اليدين لا يلحقه الكلب في الصُعُدِ.

ومن أبلغ ما قيل في وصف سرعة الذئب(٤):

أَطْلَسُ يُخْفي شخصَه غُبارُه في شِدْقِهِ شَفْرَتُهُ ونَارُهُ(٥)

كنى الشاعر بأطلس عن الذئب الذي طلسته الغبرة السوداء من سرعته وكنى بالشفرة والنار، عن وحشيته وجوعه، لأنّه لا يحتاج لأكل فريسته إلى نار وسكين.

وقال حارثة بن بدرٍ(٦)، لَمَّا تحالفت الأَزْد وربيعة:

---

(١) انظر ص٢٢٢ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٥.

(٣) نفسه تحق هارون مج١ ص٣١٠.

(٤) لم يذكر اسم الشاعر.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥٠.

(٦) حارثة بن بدر: (ت٦٤هـ/ ٦٨٤م). ابن حصين التميمي: تابعي من أهل البصرة. قيل إنه أدرك النبي ﷺ وله أخبار في الفتوح وقصة مع عُمَر وعلي رضي الله عنهما. أُمِّرَ على قتال الخوارج في العراق فهزموه بنهر (نير)، فلما أرهقوه دخل سفينة بمن معه فغرقت بهم.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني مج١ ص٣٧٠ ـ ٣٧١ رقم ١٩٣٧.

لا تحسبنّ فؤادي طائراً فَزِعاً إذا تحالفَ ضبُّ البَرِّ والنُّونُ[1]

فكنّى عن الأزد بضب البر وبربيعة بالنون وهو الحوت البحري، ومن المعروف أن هذا التحالف مُحال.

هذه عيِّنات من شواهد الكناية عند الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين». لم يسلكها بعناوين صريحة، وإنما استنتجناها واستقرأناها أثناء مطالعتنا الكتاب.

قال الدكتور عتيق عند تعرضه للكناية عند الجاحظ:

فالكناية عند الجاحظ... من الأساليب البلاغية التي قد يتطلبها المعنى للتعبير عنه ولا يجوز إلا فيها، وإن العدول عنها إلى صريح اللفظ في المواطن التي تتطلبها أمر مخل بالبلاغة.

والمتتبع لما قاله الجاحظ عن الكناية، ولما أورده من أمثلة لها، يرى أنه استعملها استعمالاً عاماً يشمل جميع أضرب المجاز والتشبيه والاستعارة والتعريض دون أن يُفَرِّقَ بينها وبين هذه الأساليب[2].

قال الدكتور شوقي ضيف: «وهو، (أي الجاحظ)، حقاً لم يكن يُعنى بوضع ملاحظاته في شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة، ولكنه صوّرها في أمثلة متعددة بحيث تمثّلها من خلفوه تمثلاً واضحاً[3].

ويقول الخطيب القزويني عن كتاب «البيان والتبيين»[4]:

وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته.

وإذا كان الجاحظ فخر التلمذة والرواية... فيجب أن لا ننسى أنه كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاؤوا بعده، هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتاب «البيان» بخاصة.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٦٦.

(٢) «علم البيان»: د. عتيق. ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٣) «البلاغة تطور وتاريخ»: د. شوقي ضيف. ص٥٨.

(٤) «الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني ص٤٢ ـ ٤٣.

الفصل الرابع

الشعر وعلم البديع

الشّعرُ وعِلْمُ البديع

جاء في «اللّسان» بَدَع الشيء يبدَعُه بَدْعاً وابتدعه: أنشأه وبدأه.

والبديع والبِدْعُ: الشيء الذي يكون أولاً. وأَبْدَعْتُ الشيء: اخْتَرَعْتُهُ[(١)].

والبديع اصطلاحاً: عِلْمٌ يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، وتربو أنواعه على المائتين[(٢)].

وقيل: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية مطبقة على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[(٣)].

وقيل فيه أيضاً: الجديد، وأصلُهُ في الحِبال، وذلك أن يُفْتَلَ الحبل جيداً، أو المُخترع أو المُبتكر. وثمة فرق بين الاختراع والإبداع، فالاختراع هو خلق المعاني التي لم يُسبق إليها، والإبداع هو الإتيان بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع[(٤)].

(١) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة. بدع. ج٨ ص٦.
(٢) «مفتاح العلوم»: للسكاكي. ص٢٣٨. و«التلخيص في علوم البلاغة»: للقزويني ص٣٤٧.
(٣) «الإيضاح في علوم البلاغة»: للقرزويني. ص٣٧٧.
(٤) «العمدة»: لابن رشيق القيرواني مج١ ص٢٦٥.
و«القزويني وشروح التخليص»: أحمد مطلوب ص ٤٢٤.

وقد جاء لفظ البديع عند حَسَّان بن ثابت[1] شاعر الرسول ﷺ بمعنى الجديد والمخترع. قال:

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عَدُوَّهُمُ أو حاولوا النَّفْعَ في أشياعِهِمْ نَفَعوا
سَجيَّةٌ تلك منهمْ غيرُ مُحْدثةٍ إنَّ الخلائقَ، فاعلمْ، شرُّها البِدَعُ[2]

كما وَرَدَ اللَّفْظ في القرآن الكريم بمعنى حُسْنِ البِدء على غير مِثال.

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3] وتردّدت هذه اللفظة في العهد الأمويّ بمعنى الجديد الطيب. قال الفرزدق[4]:

أَبَتْ ناقتي إلا زياداً ورغبتي وما الجود من أخلاقه ببديعِ[5]

وكانت ألوان البديع تصدر عن الشعراء بفطرة وسليقة لا تكَلُّف فيها ولا تَعَمُّل، وقد زَخَرَتْ النصوص القديمة والمخضرمة بتلك الصور دون أن يعرف أصحابها أسماءها ولا أقسامها وأنواعها[6].

---

(١) حَسّان: (ت ٥٤هـ/ ٦٧٤م). هو حسان بن ثابت المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد، الصحابي المشهور، شاعر النبي ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الأسلام. من سكان المدينة، اشتهر في مدحة للغساسنة وملوك الحيرة قبل الإسلام، وكان شاعر اليمانيين في الإسلام. عُمِيَ قبل وفاته.
«خزانة الأدب»: للبغدادي مج١ ص١١١ «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص٦٠.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني مج١ ص٣٢٦. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص١٧٥.

(٢) «ديوان حسان بن ثابت»: دار صادر. ص١٤٥.

(٣) بديع (فعيل) للمبالغة وهو مبتدأ محذوف: أي هو بديع. أبدع الشيء: أنشأه لا عَنْ مثال، وكل من أنشأ ما لم يُسْبَقْ إليه قيل له مُبْدِع.
«فتح القدير»: الشوكاني ط٣ دار الفكر. بيروت ١٩٧٣ مج١ ص١٣٣.
سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٤) انظر ص١٢٧ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٥.

(٥) «ديوان الفرزدق»: تحق عبد الله إسماعيل الصاوي. ط١. مط. الصاوي ١٩٣٦. ج٢ ص٤٩٣.
و«البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ط١. دار المعارف القاهرة ١٩٧٩. ص٥.

(٦) المرجع نفسه ص٦، ٧.

والشاعر العربي ذَوّاق بطبعه وسليقته، حَسّاس بفطرته، نطق بما أحسّ وصَوَّرَ ما شاهد وما جاور، فجرّب تجويد المعاني واللعب بالألفاظ، ونجح، فكان ماهراً في استعمالاتها كمهارة الفارس بفروسيته.

«وجاء العصر العباسي، وقد جددت الحضارة المادية والعقلية من رواة الشعر، فأمدته بالخيال الخصب، والفكر العميق، والمعنى الدقيق، ولوّنته بألوان زاهية من التشبيه والاستعارة، وبديع التصوير، وجميل التمثيل، وصبغته بأصباغ طريفة من الثقافة والفلسفة، ومزجته بحكمة الهنود، وأدب الفرس، وقد تنبه الشعراء العباسيون إلى ما في شِعْرِ القدماء من طرائف الصنعة البديعية، فتناولوا البديع، تارة مقتصدين كالبحتري[1] وابن المعتز[2]، وتارة مفرطين، كأبي تمام»[3].

وكان البديع عنصراً من عناصر البيان العربي، ثم أخذت مباحثه، في

---

(١) البحتري (٢٠٦ ـ ٢٨٤هـ / ٨٢١ ـ ٨٩٧م). هو الوليد بن عبيد بن يحيى.. الطائي، أبو عبادة، أديب، شاعر فصيح بليغ. ولد بمنبج من أعمال حلب ونشأتها، وخرج منها إلى العراق فمدح المتوكل... وأقام طويلاً في بغداد ثم عاد إلى منبج وتوفي فيها.
«تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج١٣ ص٤٤٦ ـ ٤٥٠ رقم ٧٣٢١.
«الفهرست»: لابن النديم. ص٢٣٥ و«الأعلام»: للزركلي مج٨. ص١٢١.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج١٣ ص١٧٠ ـ ١٧٢.

(٢) ابن المعتز (٢٤٧ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٦٣ ـ ٩٠٨م). هو عبد الله بن المعتز بالله... بن المتوكل بن هارون الرشيد، أبو العباس، أديب شاعر، ولي الخلافة بعد عزل المقتدر يوماً واحداً وقيل نصف يوم.
«تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج١٠ ص٩٥ ـ ١٠١.
«الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٣٩.

(٣) أبو تمام (١٨٨ ـ ٢٣١هـ/ ٨٠٤ ـ ٨٤٦م). هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، شاعر أديب، أحد أمراء البيان، من قرى حوران بسوريا. رحل إلى مصر فاستقدمه المعتصم إلى بغداد وقَدّمه. واخْتُلِفَ في المفاضلة بينه وبين المتنبّي والبحتري.
«تاريخ بغداد»: للخطيب البغدادي مج٨ ص٢٤٨.
«خزانة الأدب»: للبغدادي مج١ ص١٧٢.
«الأعلام»: للزركلي مج٢ ص١٦٤.
و«البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ص٧٠.

العصور الأولى، تتمحور معالمها شيئاً فشيئاً حتى صارت علماً مستقلاً، ونظر الشعراء والأدباء نظرة غاية، لا وسيلة، يستعان بها على تزويق الأساليب البيانية والارتقاء بها، فأساؤوا من حيث أرادوا الإحسان، لأنهم اشتطوا وتوسعوا كثيراً.

فالتكلف والتصنع ضدان للفطرة والسليقة التي عرف بها العربي.

«وإذا كان الشعراء والأدباء في العصور المتأخرة قد أسرفوا في استعمال البديع فصارت لهم مدارس، وإذا كان علماء البديع قد توسعوا في مفهومه حتى شمل الصور البيانية وكثيراً من صور المعاني، وقد أضافوا إليه ما ليس فيه، فخلطوا بذلك بديعاً مزيفاً بالبديع الحقيقي، فإن ذلك كله لا يطعن في قيمة البديع بمقدار ما يدل على سوء فهمهم وقصورهم وجمودهم»[1].

ومهما كان الهدف الحقيقي من تطوير هذا العلم، فإنه يدين بالفضل الأساسيّ إلى الأوائل الذين تذوقوا الجمال الأدبي، فتفننوا بإبرازه بصورٍ موشّاةٍ أشاروا من خلالِها إلى مداخيل هذا العلم الذي يخدم وجوه تحسينِ الكلام بعد مراعاة مقتضى الحال.

ومن المعلمين الأدباء الذين لا تخفاهم صورة أدبية، وقَلَّ أن يُهملوا شيئاً، أبو عثمان الجاحظ الذي ترك لنا في «البيان والتبيين» خيوطاً واضحة ومادة صالحة لهذا الفن البديعي وفروعه.

فما هي شواهده الشعرية التي مثل بها خيوط هذا الفن؟

حتى عصر الجاحظ، كان لفظ البديع يطلق على الأساليب البلاغية التي تبرز الصور الأدبية الفاتنة، من تشبيه ومجاز ومحسنات في الصورة، وتخلع على الألفاظ والمعاني حُلّة من الجمال اللفظي أو المعنوي.

وكلمة البديع عند الجاحظ تعني الصور والمحسنات اللفظية المعنوية، وإن كان لم يوضحها توضيحاً دقيقاً، ويضع لها تعريفات ومصطلحات، لأن اهتمامه بها عن طريق الشواهد لا عن طريق وضع القواعد.

---

(١) «علم البديع»: د. عتيق. ط٢ دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٠ـ ص٦٤.

فقد أطلق لفظ البديع على طريق الاستعارة، وروى التسمية عن الرواة التي وردت على لسان الشعراء، عند قول الأشهب بن رميلة[١]:

هُمُ ساعدُ الدهرِ الذي يُتَّقى به   وما خير كفٍ لا تنوء بساعدِ[٢]

أسودُ شرىً لاقت أسودَ خفِيَّةٍ   تَسَاقَوْا على حرْدٍ دماءَ الأساوِدِ[٣]

قال الجاحظ: قوله: «هُمُ ساعدُ الدهر» إنَّما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع.

وقد قال الراعي[٤]:

هُمُ كاهِلُ الدهرِ الذي يُتقَّى به   ومنكبُهُ إنْ كان للدهرِ مَنْكِبُ[٥]

«والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت عل كل لسان. والراعي كثير البديع في شعره، وبشار[٦] حسن البديع،

---

(١) الأشهب بن رُمَيْلة ما بعد سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م. هو شاعر نجدي. ولد في الجاهلية وأسلم. ولم يجتمع بالنبيّ ﷺ. عاش حتى العصر الأموي. هجا أبا الفرزدق، فهجاه الفرزدق فقصَّرَ عن مجاراته. سُمِّي رُميلة نسبة إلى أمه التي هي أمة سَبِيَّةٌ في الجاهلية.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج٢ ص٥٠٩.
«الأعلام»: الزركلي مج١ ص٣٣٣.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٥٥.

(٣) البيت من الشواهد اللغوية المشهورة. الشرى: جبل بتهامة مشهور بكثرة السباع، خفيَّة: أجمة في سواد الكوفة. والحَرْدُ: الغضب، والأساود: جمع أَسْوَد وهو ضرب من الحيَّات السود.
«الكامل في اللغة والأدب»: للمبِّرد مج١ ص٣٣.
«العقد الفريد. لابن عبد ربه مج١ ص١٠٣.
«الأمالي»: للقالي مج١ ص٩.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة حرد. مج٣ ص١٤٦.

(٤) الراعي: (ت٩٠هـ/ ٧٠٩م). عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النمري، أبو جندل. شاعر المحدثين. لقب بالراعي لكثرة وصفة الإبل، وقيل كان راعي إبل من أهل بادية البصرة. عاصر جريراً والفرزدق. وكان يفضل الفرزدق.
«الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١٨٨ ـ ١٨٩.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ـ ص٥٥.

(٦) انظر ص١٢٠ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

والعتّابي[1] يذهب في شعره في البديع مذهب بشار»[2].

نرى الجاحظ يطلق لفظ البديع في «ساعد الدهر» و«كاهل الدهر»، فيذكر المجاز مثلاً، ثم يعمم التسمية على مثل هذا الأسلوب البلاغي، ويشير إلى من اخترع البديع في معرض حديثه عن العتابي.

يقول الجاحظ «ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجَيِّد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتّابي وكنيته أبو عمرو، وعلى ألفاظه وحَذْوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولّدين كنحو منصور النمري[3] ومسلم بن الوليد الأنصاري[4] وأشباههما وكان العتّابي يحتذي حذو بشار في البديع. ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة[5].

يقرر الجاحظ إذاً أن البديع ضرب من التكلف، وإن كان فيه شيء من

---

(١) انظر ص١٢٦ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٢.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤. ص٥٥ و٥٦.

(٣) النمري: (ت١٩٠هـ/ ٨٠٥م). هو منصور بن الزبرقان بن سلمة بن شريك النمري، أبو القاسم، شاعر من أهل الجزيرة الفراتية، كان تلميذ العتابي، مدح الرشيد، ومتّ إليه بقرابته من أم العباس بن عبد المطلب وهي نمرية واسمها نُتيلة. غضب عليه الرشيد وأرسل من يجيئه برأسه فوصل الرسول في اليوم الذي مات فيه النمري. تجد أخباره في: «تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج١٣ ـ ص٦٥ ـ ٦٩ رقم ٧٠٥٠.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٣ ص١٤ ـ ١٥٨.
«الأعلام»: الزركلي مج٧ ـ ص٢٩٩.

(٤) مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء: ت٢٠٨هـ/ ٨٢٣م. أبو الوليد، المعروف بصريع الغواني شاعر غزل، وهو أول من أكثر من «البديع»: وتبعه الشعراء فيه. من أهل الكوفة، نزل بغداد فأنشد الرشيد:

وما العيش إلا أن تروحَ مع الصِبب ... وتغدو صريع الكأس والأعينِ النُّجْلِ

فَلَقَّبَهُ بصريع الغواني. دفن في جرجان.
«تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج١٣ ص٩٦ رقم ٧٠٨٣.
«الأعلام»: الزركلي مج٧ ص٢٢٣.

(٥) ترجمة بشار في ص ١٢٠ وترجمة العتابي في ص ١٢٦ وتجد ترجمة ابن هرمة لاحقاً في ص ٣٢٧. وانظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥١.

السجية والطبع في بعض الأحيان، ويعطينا حكم الناقد المُتَمَكِّنِ المُلِمِّ بصنوف الشعراء ومادتهم فيرى أنَّ بشاراً وابن هرمة، من الشعراء المولدين، أصوب بديعاً، ولم نسمع بمن خالف هذا الرأي.

يعلّق الدكتور لاشين على أحكام الجاحظ بقوله:

«أشار الجاحظ إلى نشأة البديع وإلى أول من اخترعه.... وفي قول الجاحظ ما يفيد أن البديع نشأ في الأدب العربي من التفكير المختلط والمجهود المشترك بين العرب والفرس، ولم يكن خالصاً من الفرس وحدهم الذين يعرفون بميلهم إلى التعبير باللون إذ اختلاط الأسماء العربية (العتّابي، النمري، ابن هرمة)، مع الأسماء الفارسية، (بشار، مسلم بن الوليد)، يدل على أنه مذهب عباسي تعاونت فيه طوائف من الشعراء العرب مع الشعراء الفرس.

على أن العباسيين الذين عاصروا مولد البديع كانوا يردّونه إلى مصادر عربية خالصة كما في قول الجاحظ.... والبديع مقصور على العرب»(١).

وقد قَسَّمَ البلاغيون عِلمَ البديع، أو المحسنات البديعية إلى قسمين:

المُحَسِّنَات المعنوية: وهي التي يكون التحسين فيها راجعاً إلى المعنى أولاً وبالذات، ويتبعه تحسين اللفظ ثانياً وبالعرض.

ويعرف هذا النوع من الآخر بأنه لو غير اللفظ بما يرادفه لبقي المحسن كما كان قبل التغيير.

والمحسنات اللفظية: وهي التي يكون التحسين فيها راجعاً إلى اللفظ أولاً وبالذات، ويتبعه تحسين المعنى ثانياً وبالعرض.

ويميز هذا النوع عن الأول بأنه لو غيّر أحد اللفظين بما يرادفه لزال المحسن.

وهذا التقسيم لتلك الألوان البديعية من لفظية يرجع جمالها إلى اللفظ والصورة والشكل للقسم الأول، وإلى المضمون والمعنى للقسم الثاني، وهو

---

(١) «البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ص٨ - ٩.

تقسيم لم يحالفه التوفيق، لأن ذلك فصل للجسم عن الروح، والروح عن الجسم، ولأن جمال الألفاظ في تعلقها بالمعاني، وحسن المعاني في وجودها في التركيب، وتلك النظرة التكاملية الفنية كثيراً ما أكدها الجرجاني.

فالحسن الحقيقي للكلام لا بد أن يكون من اللفظ والمعنى ويشارك فيه كل من اللفظ والمضمون وليس في واحد منهما فقط[1].

وبالرغم من تعلق موضوع بحثنا بشواهد الجاحظ الشعرية على العلوم البلاغية، فلا بد لنا من بحث كل القضايا البديعية، التي طرحها الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين»، الشعرية والنثرية، لإلقاء الضوء على مفهوم الجاحظ لهذا الفن البلاغي.

١ ـ السَّــجع

لغة: هو الكلام المُقَفّى، سجَعَ يَسْجَعُ سَجْعاً: تكلَّم بكلام له فواصلُ كفواصل الشعر من غير وزن، وصاحبه سَجَّاعة[2].

ويقال حمامة ساجعة، وحمام سُجَّع وسواجع.

كذلك يقال: سجعت الناقة في حينها[3].

واصطلاحاً: هو توافق أو تواطؤ الفاصلتين في الحرف الأخير من النثر على حرف واحد[4].

ومن شروطه أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة، رخمة، تابعة للمعنى، وتؤلف كل واحدة من السجعات على معنى مغاير لأختها. ويأتي على أربعة أضرب:

(١) «البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ص٢٠ ـ ٢١.
(٢) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة. سجع مج٨ ص١٥٠.
(٣) «أساس البلاغة»: الزمخشري. مادة سجع. ص٢٠٣.
(٤) «التلخيص في علوم البلاغة»: القزويني. ص٣٩٧.
«علم البديع»: د. عتيق. ص٢٠٦.

المُطَرَّفْ، والمُرَصَّعْ، والمُتَوازي، والمُشَطَّر[١]

وقد تعرّض الجاحظ للسجع في كتاب «البيان والتبيين». عند إيراده لآراء النبي ﷺ - المختلفة في السجع.

قال الجاحظ: «قالوا: فقد قيل للذي قال: يا رسول الله، أرأيت مَنْ لا شربَ ولا أكلَ، ولا صاح واستهلّ، أليس مثل ذلك يُطلّ[٢]. فقال رسول الله ﷺ: «أَسَجْعٌ كسجعِ الجاهلية»؟[٣].

وتعرّض الجاحظ للذين يكرهون الأسجاع، دلالة على أن قول النبي عليه السلام، قد فُهِم على غير وجه، فمنهم من كرهه، ومنهم من بالغ فَحَرَّمه، ومنهم من ظل محايداً.

قال الجاحظ: «وكان الذي كَرَّه الأسجاع بعينها وإن «كانت دون الشعر في التّكلُّف والصنعة، أنَّ كُهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، . . . . كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع. . . . فوقع النهي في ذلك الدهر لقُرْبِ عهدهم بالجاهلية ولبَقِيّتِها منهم وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلّة زال التحريم»[٤].

وعن الذين نفوا تحريم السجع قال الجاحظ: «وقيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرّقاشيّ،[٥] لِمَ تؤثِرُ السجع المنثور، وتُلْزِمُ نفسك القوافي وإقامة الوزنِ؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آملُ فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي

---

(١) «علم البديع»: د. عتيق. ص٢٠٨.

(٢) الطَّلُّ: هدر الدم. وطُلَّ طلاً وطلولاً فهو مطلولٌ وطليلٌ، وأَطَلَّه: أي أَهْدَرَه.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة. طلل مج١١ ص٤٠٥.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٨٧.

(٤) نفسه تحق هارون مج١ ص٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٥) الرقاشيّ: (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٣م). شاعر عباسي خبيث اللسان، شديد العارضة. له شقيق شاعر اسمه أحمد، نقيضه في الصفات، فهو عفيف ذو مروءة ودين.
«فوات الوفيات»: والذيل عليها. محمد بن شاكر الكتبي. تحق إحسان عباس. دار صادر. بيروت ١٩٧٤ مج٢ ص٣٣٠.

عليك، ولكنيّ أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحقُّ بالتقييد وبِقلَّةِ التَّفَلُّت، وما تكلَّمَتْ به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحْفَظْ من المنثور عُشْره، ولا ضاع من الموزون عُشْره[1].

وقال غير عبد الصمد: «وجدنا الشعر من القصيد والرّجز، قد سمعه النبي ﷺ فاستحسنه وأمر به شعراءه، وعامّة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالوا شعراً قليلاً كان ذلك أم كثيراً واستمعوا واستنشدوا. فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز، فكيف يحلُّ ما هو أكثر ويحرُم ما هو أقل؟»[2].

وحُجة الجاحظ في استحسان السجع مقنعة. قال:

«وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين، فيكونُ في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلا ينهونَهم»[3].

وفي حديثه عن السجع رد على مزاعم من طعن في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾[4] وزعم أنَّهُ شعر، لأنه في تقدير (مستفعلن مفاعلتن)، وطعن في قوله في الحديث عنه: «هل أنت إلا إصبعٌ دُمِيتِ؟ وفي سبيل الله ما لقِيتِ»[5]. فيقال له:

اعلم أنّك لو اعترضتَ أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم، لوجدتَ فيها مثل (مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعلُنْ) كثيراً و(مستفعِلُنْ مفاعِلُن). وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً[6]:

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٨٧.
(٢) نفسه مج١ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٣) نفسه مج١ ص٢٩٠.
(٤) سورة المسد، الآية: ١١١.
(٥) انظر «لسان العرب»: ابن منظور. مادة صبع مج٨ ص١٩٢ ـ ١٩٣.
«والعمدة»: مج١ ص١٨٥.
(٦) «البيان والتبيين»: للجاحظ تحق هارون مج١ ص٢٨٨ ـ ٢٨٩.

ثم بيّن الجاحظ وجه استعمال السجع بقوله:

«. . . وكذلك الأسجاع عند المُنَافَرَة والمفاخرة، واستعمال المنثور في خُطَبِ الحَمَالَة، وفي مقامات الصُّلْحِ وسَلِّ السخيمةِ[1]، والقول عند المعاقدة والمعاهدةِ، وتركُ اللفظ يجري عل سَجيَّتِه وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف، ولا التماسِ قافية، ولا تكلّفِ لوزن»[2].

وهكذا نرى أن الجاحظ قد أحاط بالسجع من جوانبه بوصفه فرعاً بلاغياً مهما، وناقش الآراء التي قيلت حوله ثم خرج بمنطق سلس يُجيز فيه استعمالاته إذا كان جاء عن سجية وطبع وعدم تكلف.

ومن هنا نرى أن كلام الرسول ﷺ، وإن تضمن بعض السجعات[3]، فهي عفوية غير مقصودة، لأنه يتجه بكلامه إلى الوجدان والمشاعر، ولا ينطق عن الهوى؛ وأسجاعُه، تتسم بالنُّدْرَة إذا قيست بما رَوى وبما خَطَب. فخُطْبة الوداع، على كبرها نسبياً، لا تجد فيها سوى سجعة واحدة: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد»[4].

وعندما امتزج العرب بالعجم وضاعت النعرة العربية، فيهم ودبَّ الفساد إلى لغتهم، حتى جاء السجع حائل الصنعة شاحب الأسلوب وظل حتى عصر النهضة الحديثة، وأصبح الشأن كله للمعاني[5].

ويعلل الدكتور عتيق احتجاج الصنعة في السجع، بقوله: «كذلك يحتجون بأن الصنعة والتكلّف والتعسُّف ليست أموراً مقصورة على أسلوب السجع، وإنما هي أمور من الجائز أن تلحق بالسجع كما تلحق بغيره من الأساليب. وليس

---

(١) سلّ السخيمة: انتزاع الحقد والضغينة.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة. سخم مج١٢ ص٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) «البيان والتبيين»: مج٢ ص٣٣.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٨٤.

(٤) نفسه مج٢ ص٣٣.

(٥) «البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ص١٢٧ ـ ١٢٨.

العيب في السجع ذاته وإنما العيب فيمن يحاوله ثم يعجز عن حسن استخدامه»(١).

٢ ـ أسلوب الحكيم

المقصود بأسلوب الحكيم: هو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد ويريد، إشارة إلى أنَّه كان ينبغي أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى(٢).

ولعل الجاحظ أول من فطن إلى هذا النوع من فنون البديع المعنوي، فقد عقد له باباً خاصاً في «البيان والتبيين» وأطلق عليه اسم «اللّغز في الجواب»(٣). قال الجاحظ: «وقد سأل رجل بلالاً(٤) مولى أبي بكر رحمه الله وقد أقبل من جهة الحلبة، فقال له: مَنْ سَبَقَ؟ قال: سبق المُقَرَّبُون. قال إنما أسألك عن الخيل. قال: وأنا أجيبك عن الخير. فترك بلالٌ جواب لفظة إلى خبر هو أنفع له(٥).

فهذا الأسلوب، المتضمن لغزاً في الجواب هو أسلوب الحكيم لأنه يُسْمِعُ المخاطب غير ما يتوقعه.

وفي شبيهه قال الجاحظ: «قالوا: كان الحطيئة(٦) يرعى غنماً له، وفي يده

---

(١) «علم البديع»: د. عتيق. ص٢١٤.

(٢) «في تاريخ البلاغة العربية»: د. عتيق. ص١٢٢. «جواهر البلاغة»: الهاشمي ص٣٨٨.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٤٧.

(٤) هو بلال بن رباح، الحبشي: المؤذن، بن حمامة، اشتراه أبو بكر الصديق من المشركين لما كانوا يعذبونه على التوحيد وأعتقه. لزم النبي ﷺ، وخرج بعده مجاهداً إلى أن مات بالشام زمن عُمر سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م. وقيل إنه دفن في حلب.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: مج١ ص١٦٩. رقم ٧٣٦.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٨٢.

(٦) الحطيئة: (ت٤٥هـ/ ٦٦٥م). هو جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة. شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وكان هجاءاً عنيفاً لم يكد يسلم من لسانه أحد. فقد هجا أمه وأباه ونفسه. وجاء في «معجم الشعراء في لسان العرب»: أنه توفي ٣٠هـ/ ٦٥٠م. ص١١٨. رقم ٣١٠. «الأعلام»: للزركلي مج٢. ص١١٨.

عصا. فمر به رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك؟ قال: عجراء من سَلَمٍ[1]، يعني عصاه.

قال إني ضيف. فقال الحطيئة: للضيفان أعددتُها[2].

ومن الأجوبة الدقيقة التي لا ينتظرها السائل قول الحجاج[3] لرجل من الخوارج. قال الحجاج: أَجَمَعْتَ القرآن؟ قال أمتفرّقا كان فأجمعَه. قال: أتقرأه ظاهراً؟ قال: بل أقرأه وأنا أنظر إليه. قال: أفتحفظه؟ قال: أَخَشِيتُ فِرارَه فأحفَظَه؟ قال: ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: لعنه الله ولعنك معه. قال: إنَّك مقتول فكيف تلقى الله؟ قال ألقى الله بعملي وتلقاه أنت بدمي[4].

وفي شبيه هذه الأجوبة المفاجئة. قال الجاحظ: سأل خالد بن الوليد[5] حكيم الحيرة: «من أين أقصي أثَرك؟ قال من صُلب أبي. قال: فمن أين خرجت؟ قال: من بطن أمي. قال: فعلام أنت؟ قال: على الأرض. قال: ففيم أنت؟ قال: في ثيابي. قال: ما سِنُّك؟ قال: عَظْمٌ. قال: أتعقلُ، لا عقلتَ؟ قال: أي والله وأُقيِّد. قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد. قال كم أتى عليك من الدهر؟ فقال: لو أتى عليّ شيء لقتلني. قال: ما تزيدني مسألتك إلا غُمّى. قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك[6].

---

(١) السَّلَمْ: جمع لشجرة السَّلَمة ذات الشوك والتي يدبغ بورقها وقِشرها.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة سلم مج١٢ ص٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٤٧.

(٣) انظر ترجمته في ص٢٣٢ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٥.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٤٨ ـ ١٤٩.

(٥) خالد بن الوليد: ت٢١هـ/ ٦٤٢م. المخزومي القرشي. سيف الله الفاتح الكبير، الصحابي، من أشراف قريش في الجاهلية. أسلم قبل فتح مكة هو وعمرو بن العاص سنة ٧هـ. جعله أبو بكر أميراً على الشام، ولما ولي عمر عزله. رجع إلى المدينة. فدعاه عمر ليوليه فأبى. مات بحمص.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: ابن حجر العسقلاني مج١ ـ ص٤١٢ ـ ٤١٥.

(٦) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٤٧ ـ ١٤٨.

وفي باب الموسوسين والحفاة والأغبياء قال الجاحظ: «وقَدِم آخرُ على صاحبٍ له من فارس، فقال: قد كنت عند الأمير، فأيّ شيء ولآك؟ قال: ولاَّني قفاه[1].

فأسلوب الحكيم، نوع من أساليب الكلام الذكي الموجز، أطلق عليه الجاحظ، كما رأينا اسم «اللغز في الجواب».

وكان العرب يستعملون هذا الأسلوب لأغراض شتى، منها: حسن التخلص من السائل، أو التظرف والفكاهة، أو التهكم، أو تقديم الأهم عن المهم..

وقد لفت هذا الباب نظر البلاغيين المتأخرين فأسموه «القول بالموجب»[2] وليس من الحكمة بمكان أن نفصل إشارات الجاحظ النثرية عن هذا الباب البديعي في «البيان والتبيين».

وسنشير إلى جميع عناصر علم البديع، التي يتيسر لنا استخراجها من «البيان». نثرية كانت أم شعرية، لأن عناصر علم البديع لا يمكن التمثيل على معظمها في النظم كالسجع وأسلوب الحكيم..

٣ ـ المذهب الكلامي

يقول ابن المعتز: «الباب الخامس من البديع وهو مذهب سمّاه عمرو الجاحظ: المذهب الكلامي. وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً وهو ينسب إلى التكلّف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[3].

وقال العسكري: نَسَبَهُ (أي ابن المعتز) إلى التكلّف وجعله من البديع[4].

---

(١) «البيان والتبيين» تحق هارون مج٤ ص٦.

(٢) «الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني. ص٥٣٢ ـ ٥٣٣.

(٣) «كتاب البديع»: لابن المعتز. تحق المستشرق أغناطيوس كراتشقوفسكي. دار الحكمة. دمشق ص٥٣.

(٤) «الصناعتين»: لأبي هلال العسكري. ص٤٦١.

وعَرَّفَهُ القزويني: «وهو (أي المذهب الكلامي)، أن يورد المُتكلم حُجَّةً لِما يَدَّعيه على طريق أهل الكلام»[1].

وجاء في تعريفه: «هو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام»[2].

وقيل أيضاً: «هو عبارة عن إثبات الدِّين بالبراهين العقلية. أو هو احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه»[3].

وقال الهاشمي: سمي (بالمذهب الكلامي) لأنه جاء على طريقة (علم الكلام والتوحيد)، وهو عبارة عن إثبات (أصول الدين) بالبراهين العقلية القاطعة[4].

من الملاحظ أن تسمية البلاغيين لهذا الركن البديعي اقتبست عن ابن المعتز الذي لم يذكر تحديداً له، حتى أنه لم يشر إلى مفهوم الجاحظ له أيضاً.

وجل ما فعله إيراد أمثلة تُوَضِّحُ المُراد منه.

وإذا تأملنا أمثلة ابن المعتز رأينا أصحابها يحاولون إيجاد دليل مُقْنِع، أياً كان نوعه، على صحة دعواهم.

يقول الدكتور ضيف:

... غير أن من يرجع إلى الأمثلة التي ساقها ابن المعتز يرى في وضوح أن دلالة المذهب عنده كانت أوسع من ذلك. وأكبر الظن أنه هو والجاحظ جميعاً يريدان به طريقة المتكلمين العقلية في الاحتجاج والجدل والاحتيال للعلل والمعاذير[5].

ولعل ما يؤكد هذا المفهوم، اصطناع الجاحظ المذهب العقلي في إيراد

---

(١) «الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني. ص٥١٦.
(٢) «التلخيص في علوم البلاغة»: القزويني. ص٣٧٤.
(٣) «البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ص٧٢.
(٤) «جواهر البلاغة»: الهاشمي ص٣٧٠.
(٥) «البلاغة تطور وتاريخ»: د. شوقي ضيف. ص٥٧.

الحجج والتماس العِلل، ذكره في «الحيوان» «المعرفة والاستدلال»[١].

وضمن هذا المفهوم، نرى شواهد الجاحظ مبثوثة في تضاعيف (البيان) كقوله: «قال: وتزوج شيخ من الأعراب[٢] جارية من رهطه، وطمع أن تلد له غلاماً، فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزله، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمر بخبائها بعد حول وإذا هي تُرَقِّصُ بُنَيَّتَها. . . وهي تقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا   يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبان أنْ لا نلِد البنينا   تا لله ما ذلك في أيدينا
وإنَّما نأخذ ما أُعْطينا[٣]

فلما سمع الأبيات مَرَّ الشيخ نحوهما حُضْراً حتى ولج عليهما الخِباء وقَبَّل بُنَيَّتَها وقال: ظلمتكما وربِّ الكعبة[٤].

وهكذا نرى إيراد الحجج والتماس العلل طريقة عقلية ناجحة للمتكلمين في خلق المعاذير.

وقال الجاحظ في شبيه ذلك: «وكان المنصور[٥] داهياً أريباً، مصيباً في

---

(١) من بعض ما قاله الجاحظ تحت عنوان المعرفة والاستدلال: لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى. . .
«الحيوان»: تحق هارون مج٢ ص١١٥ ـ ١١٦.

(٢) عرّف الجاحظ بالشيخ في كتابه الأول بقوله: و«لِبُغْض البنات هجر أبو حمزة الضبيّ خيمة امرأته. . . «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٨٦.

(٣) هنالك تكملة في الجزء الأول لهذا الشعر تقول:
وإنما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٤٧ ـ ٤٨.

(٥) المنصور: (٩٥هـ ـ ١٥٨هـ/ ٧١٤ ـ ٧٧٥م). هو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر، ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب. كان عارفاً بالفقه، مقدماً بالفلسفة والفلك. ولد في الحميمية، ولي الخلافة بعد أخيه السفاح سنة ١٣٦هـ، وبنى مدينة بغداد، والمصيصة، والرافقة، وزاد زيادة ملحوظة في المسجد الحرام، وفي أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونانيين والفرس، وعمل إسطرلاباً في الإسلام، صنع إبراهيم بن محمد الفزاري. =

رأيه سديداً، وكان مُقَدَّماً في علم الكلام... ولما هَمَّ بقتل أبي مسلم[١] سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه فَأَرِق بذلك ليلته، فلما أصبح، دعا بإسحاق بن العقيلي فقال له: حدثني حديث المَلِكِ الذي أَخْبَرْتَنِي عنه، يقصد (سابور الأكبر)[٢]، الذي غَدَرَتْ به بعض رعيته، فلما استتبَ له الأمر قضى عليهم، وأذعن له الباقون بالطاعة حتى مات حتف أنفه.

فأطرق المنصور ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول:

لِذِي الحِلمِ قبل اليوم ما تُقرعُ العصا   وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا لِيَعْلَما

وأمر إسحاق بالخروج ودعا بأبي مسلم، فلما نظر إليه داخلاً قال:

قد اكتَنَفَتْكَ خَلاَّتٌ ثلاث   جلَبْنَ عليك محذورَ الحِمامِ
خِلافُكَ وامْتنانُك تَرتميني   وَقَوْدُكَ للجماهير العظامِ

= قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه، توفي في بئر ميمون ودفن في الحجون بمكة. ومدة خلافته اثنان وعشرون عاماً.
«الكامل في التاريخ»: لابن الأثير مج٥ ص١٧٢.
«تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٩ ص٢٩٢ ـ ٣٢٢.
«تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج١٠ ص٥٣.
«الأعلام»: الزركلي مج٤ ص١١٧.

(١) أبو مسلم الخراساني: (١٠٠ ـ ١٣٧هـ/ ٧١٨ ـ ٧٥٥م). هو عبد الرحمن بن مسلم، مؤسس الدولة العباسية وأحد كبار القادة ولد في ماه البصرة مما يلي أصبهان، اتصل بإبراهيم بن الإمام محمد، فأرسله إلى خراسان داعيته. كسر جيوش مروان في الشام وزالت الدولة الأموية الأولى سنة ١٣٢هـ. رأى المنصور من أبي مسلم ما أخافه أنْ يطمع بالمُلْكِ، وكانت بينهما ضغينة فقتله برومة المدائن، وعمِّر سبعاً وثلاثين سنة.
«الكامل في التاريخ»: لابن الأثير مج٥ ص١٧٥.
«تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٩ ص١٥٩.
«تاريخ بغداد»: الخطيب البغدادي مج١ ص٢٠٧.
«لسان الميزان»: ابن حجر العسقلاني مج٣ ص٤٣٦.

(٢) ملك ساساني ورث العرش عن أبيه أرد شير، ضم العراق وأرمينيا إلى أملاكه سنة ٢٤٤م.
«في أدب الفرس وحضارتهم»: د. عبد السلام كفافي. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧ ص١٧٢ ـ ١٧٣.
والمقطع المنقول في «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٣٦٦ ـ ٣٦٩.

ثم قتله وقال:

اشرب بكأسٍ كنتَ تُسقى بها أَمرَّ في الحلقِ من العَلْقمِ
زعمتَ أَنَّ الدَّينَ لا يُقتضى كذبتَ فاستوفِ أبا مُجرِمِ

ولم يفعل المنصور ما فعل إلا بعد أَنْ أوغرَ، الوُشاةُ صدره، وأَوْجَدَ لنفسه الحُجَج. وعلى مثاله أنشدتْ «جوهر» المهديّ[1] أبياتاً فيها حجج ودلائل دفعت بالمهدي زيادة محبتها والرضوخ لما تأمُرْ. فقالت لم تف بوعدك، وجعلتني هدفاً لألسنة الناس. ولو أن القول يجرح الجسد حقاً، لرأيت في جسمي جراحاً كثيرة. قالت:

وأنت الذي أَخْلَفْتَني ما وعدتني وأشمتَّ بي من كان فيكَ يلومُ
وَأَبْرَزْتَني للناس ثم تَرَكْتني لهم غرضاً أُرمى وأنت سليمُ
فلو أن قولاً يَكلِمُ الجسمَ قد بدا بجسميَ من قولِ الوُشاةِ كُلُومُ[2]

بهذا الأسلوب الكلامي، وحججها، استطاعت جوهر، أن تصل إلى بُغْيتها.

٤ ـ الاقتباس

في الاصطلاح تضمين الكلام نثراً أو نظماً شيئاً من القرآن أو من حديث سيد الأنام، لا على أنه منه.

وهو ضربان: ما لم ينقل فيه المُقْتَبَس عن معناه الأصلي. والثاني خِلافه: أي ما نقل فيه المُقْتبس عن معناه الأصلي[3].

---

(١) المهدي: (١٢٧ ـ ١٦٩هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٨٥م). ويسمى محمد بن عبد الله، المنصور بن محمد بن علي العباسي. من خلفاء الدولة العباسية في العراق. أقام في الخلافة عشر سنين وشهراً. كان محمود العهد والسيرة مُحَبباً إلى الرعية، حسن الخلق والخلق وهو الذي بنى جامع الرصافة. والجارية «جوهر»: قينةٌ أحبها ولقبت بجوهر المهدي. «الأعلام»: للزركلي مج٦ ص٢٢١. «تاريخ الإسلام»: د. حسن إبراهيم حسن مج٢ ص٤٠ وما بعدها.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٣٧٠.

(٣) «عقود الجمان»: للسيوطي ص١٥٤. «شروح التلخيص»: التفتازاني مج٤ ص٥٠٩ ـ ٥١٢.

وقد أشار الجاحظ إلى هذا الركن البديعي في (البيان) عند حديثه عن اقتباس الخطباء من آي الذكر الحكيم. قال: وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإنَّ ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرِّقة وسَلَس الموقع[1].

وقال: وعلى أن خطباءَ السلفِ الطيّب، وأهلِ البيانِ من التابعين بإحسان، ما زالوا يُسمّون الخطبة التي لم تُبْتدأ بالتّحميد وتُسْتفتح بالتمجيد (البتراء) ويسمّون التي لم تُوَشَّح بالقرآن، وتُزيَّن بالصلاة على النبي ﷺ (الشوهاء)[2]. وساق الجاحظ كثيراً من الشواهد على الاقتباس من آيات قرآنية وأحاديث شريفة، نكتفي منها بالنذر اليسير.

فمن شواهده الشعرية على كلمة من آية ذكرُ قومِ (عادٍ) في قول النابغة[3].

أحلامُ عادٍ وأجسادٌ مطهَّرة   من المَعَقَّةِ والآفاتِ والأُثُم[4]

وذكر الصفا والمروة، اللذين من شعائر الحج، في تفسير شعر غُنَيَّة الأعرابية[5] في شأن ابنها.

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج١ ص١١٨.

(٢) نفسه. تحق هارون مج٢ ص٦.

(٣) انظر ص٢١٩ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٢.

(٤) المعقة: العُقوق. والأُثُم: جمع آثام وهو الإثم. ولم يرد هذا الجمع في المعاجم ولكنه قياسي.
انظر «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج٢ ص٢٦٥.
وتجد عاد، قوم نوح، في السور التالية:
سورة التوبة، الآية: ٧٠ ـ إبراهيم، الآية: ٩ ـ الحج، الآية: ٤٢ ـ فُصلَت، الآية: ١٣.

(٥) ذكرها الميداني في مجمعه: قالوا هذا من قول غُنيَّة الأعرابية لابنها وكان عارماً كثير التّلفّت إلى الناس مع ضعف أَسْرٍ ودقة عظم... فلما رأت ما صار عندها من الأبل والغَنم والمتاع، وذلك من كسب جوارح ابنها حَسُنَ رأيها فيه وذكرته في أرجوزتها فقالت:
أحلِفُ بالمَروَةِ حقاً والصّفا   أنّكَ خيرٌ من تفاريق العصا
فذكر في الشعر (حقاً) بدل (يوماً). وفسّر تفاريق العصا.
«مجمع الأمثال»: الميداني. تحق محمد محي الدين عبد الحميد مط. السنة المحمدية. ج١. ص٣٧ رقم ١٤٥.
وانظر «سورة البقرة، الآية: ١٥٨ «إن الصفا والمروة من شعائر الله».

أحلِفُ بالمروةِ يوماً والصَّفا   أَنَّكَ خيرٌ من تفاريق العصا[1]

وقال محمد بن يسير[2] ذاكراً آية، في شعره، من القرآن الكريم (عذاب السعير).

عجباً لي ومِنْ رضاي بحالٍ   أنا منها على شفا تغريرِ
عالماً لا أشكُّ أني إلى عَدْ   نِ إذا مُتُّ أو عذابِ السَّعيرِ[3]

وقال أبو العتاهية[4] مُضَمِّناً قوله غير آية:

لو أنَّ عَبْداً له خزائنُ ما   في الأرض ما عاش خوفَ إملاقِ
يا عجباً كلنا يحيدُ عن   الحَيْنِ وكلٌّ لِحَينِهِ لاقي
كأن حَيّاً قد قام نادِبُهُ   والتفَّتِ الساقُ منه بالسّاقِ
واستلَّ منه حياتَه مَلَكُ المو   تِ خفيا وقيل: مَنْ راقِ[5]

٥ ـ التقسيم

في اللغة: التفريق، وقَسَمَهُمْ الدّهر يَقْسِمُهم فتقسّموا أي فرّقهم فتفرّقوا[6]. واصطلاحاً: هو أن تذكر مُتَعَدِّداً وتضيف ما لِكُلٍ إليه على التَّعْيين[7].

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ تحق هارون مج٣ ص٤٩.
(٢) محمد بن يسير: (ت٢١٠هـ/ ٨٢٥م). البصري، أبو جعفر، شاعر من أهل البصرة كان مولى لبني أسد. كان في عصر أبي نواس وعُمِّر بعده حيناً. «الأعلام»: للزركلي مج٧ ص١٤٤.
(٣) ورد مضمون البيت في السُّور الآتية:
سورة الحج، الآية: ٤ ـ العنكبوت، الآية: ٢١ ـ سبأ، الآية: ١٢ ـ الملك الآية: ٥ وانظر «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص١٧٩.
(٤) أبو العتاهية: انظر ترجمته في ص١٧١ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٤.
(٥) وردت (إملاق) في سورة الأنعام، الآية: ١٥١ والإسراء، الآية ٣١.
والتفت الساق بالساق: في سورة القلم، الآية: ٤٢ والقيامة، الآية: ٢٩.
ومَنْ راق: في القيامة، الآية: ٢.
وانظر «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص١٨٥.
(٦) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة قسم مج١٢. ص٤٨٠.
(٧) «عقود الجمان»: للسيوطي. ص١٠٥.

يقول العسكري: التقسيم الصحيح أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه(١).

ويقول ابن رشيق: اختلف الناس في التقسيم فبعضهم يرى أنه استقصاء الشاعر جميع ما ابتدأ به. . .(٢).

ويقول السكاكي: هو أن تذكر جزءين أو أكثر ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك(٣).

لقد فطن الجاحظ إلى هذا الأسلوب البلاغي ونوّه بجودته معللاً استحسان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لبعض شعر زهير بن أبي سُلمى(٤). وعَبْدَة بن الطَّبيب(٥)، من ذلك قول زهير:

وإن الحقَّ مقطعه ثلاثٌ يمينٌ أو نفارٌ أو جلاءُ(٦)

وقال عَبْدةُ بن الطبيب من لاميته الطويلة:

---

(١) «الصناعتين»: أبو هلال العسكري. ص٣٧٥.

(٢) «العمدة»: ابن رشيق القيرواني مج٢ ص٢٠ ـ ٢٦.

(٣) «مفتاح العلوم»: السكاكي ص١٨٠.

(٤) زهير بن أبي سلمى، واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح المُزني من مزينة بلاد غطفان، ففطن الناس أنه من غطفان وهو غلط. كأن هذا رد لما قاله ابن قتيبة: زهير بن ربيعة بن فرط، والناس ينسبونه إلى مزينة وإنما نَسَبُه إلى غطفان.

أحد الشعراء الثلاثة الفحول المتقدمين على سائر الشعراء بالاتفاق: امرؤ القيس ـ زهير ـ النابغة الذبياني.

كان زهير راوية أوس بن حجر. قال عمر بن الخطاب فيه: كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه.

«خزانة الأدب»: البغدادي مج١ ص٣٧٥ ـ ٣٧٧.

«الشعر والشعراء»: ابن قتيبة. ص٢٣.

«الفهرست»: لابن النديم. ص٢٢٣.

(٥) انظر ص١٥٧ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٢.

(٦) جلا الأمر: كشفه وأظهره: أراد البيّنه والشهود.

«لسان العرب»: ابن منظور. مادة جلا مج١٤ ص١٥٠.

«البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٢٤٠.

والمرء ساعٍ لشيء ليس يُدركه والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ[1]

ومثله قول أبي قيس بن الأسلت[2]:

الكَيْسُ والقُوَّةُ خيرٌ من الإِشفاق والفَهَّةِ والهاعِ[3]

من خلال هذه الشواهد الشعرية القيّمة، نلمس بوضوح طرح الجاحظ لمفهوم هذا الركن البديعي، الذي أراد تعليمه من خلال الأمثلة دونما تحديد لعناصره وقواعده.

٦ ـ الاحتراس أو التَّتميم

قال ابن رشيق في باب التتميم: وهو التّمام أيضاً وبعضهم يسمي ضرباً منه احتراساً واحتياطاً. ومعنى التتميم: أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلا أورده وأتى به: إمّا مبالغة وإما احتياطاً واحتراساً من التقصير: ويُنشدون بيت طَرَفَة[4].

فسقى ديارَكَ غيرَ مُفْسِدِها صَوْبُ الربيعِ وديمةٌ تهمي

لأن قوله، غيرَ مُفْسِدِها، تتميم للمعنى واحتراس للديار من الفساد بكثرة المطر[5]. وقال العسكري: هو أن تُوفي المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه، إلا توردُه، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلاّ تَذْكُرُه[6].

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٢٤٠ ـ ٢٤١.

(٢) هو عامر بن جشم.
انظر ترجمته في ص ١٧٩ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٣) الكَيْسُ: الخِفّة والتوقد والجمع أكياس.
الفَهّة: السَّقْطة. الهاع: شِدة الحرص.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة. كيس مج٦ ص٢٠٠.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٤١.

(٤) انظر ص٢٢٨ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٥) «العمدة»: لابن رشيق مج٢ ص٥٠.

(٦) «الصناعتين»: لأبي هلال العسكري. ص٤٣٤ ـ ٤٣٥.

ومن جملة استشهاداته، بيتُ طرفة، وسمى التتميم: التكميل. وقال الدكتور عتيق في تعريفه: وقد عَرَّفه بعض رجال البديع بقوله:

«والتتميم عبارة عن الإتيان في النظم والنثر بكلمة إذا طُرِحَتْ من الكلام نَقُصَ حُسْنُه ومعناه. ويأتي على ضربين: ضرب في المعنى، وضرب في اللفظ.

فالتتميم في المعنى: هو تتميم المعنى، ويجيء للمبالغة والاحتراس.

ويُقْصَدُ بالتتميم اللفظي ما يُؤتى به لإقامة الوزن بحيث إنه لو طرحت الكلمة استقل معنى البيت بدونها[1]...

وقد مثّل الجاحظ على هذا الفن البديعي المُسَمَّى الاحتراس أو التتميم أو التكميل بصورة عامة، وأطلق عليه اسم: (إصابة المقدار).

وقد طرح في باب الكلام الموزون... وإصابة المقادير بعض الشواهد الشعرية ومنها قول طرفة في المقدار وإصابته:

فَسَقى ديارك غيرَ مُفْسِدِها صوبُ الربيع وديمةٌ تهمي

قال الجاحظ: «طَلَبَ الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضار. وقال النبي ﷺ في دعائه: «اللهم اسقنا سقياً نافعاً».

لأن المطر ربما جاء في غير إبّان الزراعات، وربما جاء والتمر في الجرن، والطعام في البيادر، وربما كان في الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة.

وقال النبي ﷺ: «اللهم حوالَيْنا ولا عَلَيْنا»[2].

فبالرغم من ذكر رجال البديع لهذا الركن تسميات مختلفة، والاجتهاد في تعريفه وضبطه، نرى تسمية الجاحظ له: «إصابة المقدار»، تسمية أوضح وأجمل، لأن اجتهاد الذين اشتغلوا في هذا المقصد البديعي جاء مُرْبِكاً وغير موفق.

---

(١) «علم البديع»: د. عتيق. ص١١٠ ـ ١١٢.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

فقد توسعوا في تفسير (إصابة المقدار)وشرحه، وحاولوا خلع الأسماء عليه.

أَطْلقوا عليه اسم (التَّتميم)[1]، والتتميم يجيب على المعنى الناقص قيمة، وأضاف بعضهم (التكميل)[2]، والتكميل يَرُدّ على المعنى التام فيكمِّله، والكمال أمر زائد على التمام، وفي عمقه: يكون لشيء ناقص فيكمله.

ومنهم من جعله للاحتراس والمبالغة أو الاحتياط[3]. الخ...

فَخُيِّلَ للقارىء أنَّهم سيخرجون من مذهبهم عن المعنى الأصلي المقصود.

٧ـ المـــزدوج

ضرب من السجع، ويقال أيضاً المزاوجة والازدواج.

قال العسكري: «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلامٌ عن الازداوج لكان القرآن، لأن في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عما تزاوج في الفواصل منه»[4].

كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[5]. ألا ترى في ازدواج السموات والأرض، والظلمات والنور جمالاً يزيد في الإيمان ويدفع إلى الشهادة بعظمة الخالق عز وجل؟

وقال العسكري: والسجع على وجوه... فمنها أن يكون الجُزْءان متوازيين متعادلين لا يزيد أحدهما على الآخر مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه[6].

---

(١) «كتاب البديع»: ابن المعتز ص٥٩.
(٢) «الصناعتين»: العسكري. ص٤٣٤ ـ ٤٣٥.
(٣) «العمدة»: لابن رشيق مج٢ ص٥٠.
(٤) «الصناعتين»: أبو هلال العسكري. ص٢٨٥.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١.
(٦) «الصناعتين»: العسكري. ص٢٨٧.

وقيل أيضاً: المزاوجة: هي أن يجمع بين الشرط والجزاء في ترتيب لازم من اللوازم عليها معاً[1].

وقد عَدَّ الجرجاني المزاوجة من النظم الذي يتّحد في الوضع وَيَدِقُّ فيه الصُّنع[2].

وقال القزويني: المزاوجة هي أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء[3].

وقد عقد الجاحظ باباً خاصاً لهذا الفن البلاغي البديعي في كتاب «البيان والتبيين» أسماه «من مزدوج الكلام»[4]. ساق كثيراً من الأمثلة التي توضّحة. «قالوا: قال النبي ﷺ في معاوية: «اللهم علّمْه الكِتاب والحساب وقهِ العذاب»[5].

والمُتَأَمِّلُ في أسلوب الجاحظ يجد أنَّ مُعْظَم كتاباته يشيع فيها الازدواج، الأمر الذي يدل على إعجابه بهذا الفن البديعي اللطيف.

ومن أمثلته عليه قوله: وذكرتْ أعرابية زوجها فقالت: ذهب دَفَرُه، وأقبل بَخَرُه[6]..

وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه ليسمع شعر جرير والفرزدق[7]،

---

(١) «البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ص١١٤.

(٢) «دلائل الإعجاز»: ص٧٣ ـ ٧٤.

(٣) «شروح التلخيص»: التفتازاني مج٤ ص٣١٦.
و«التلخيص في علوم البلاغة»: القزويني ص٣٥٨.
«والإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني. ص٤٩٧.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١١٦.

(٥) المصدر نفسه. تحق هارون مج٢ ص١١٦.

(٦) المصدر نفسه. تحق هارون مج٢ ص١١٧.

(٧) انظر ترجمته الأخطل. ص٢٢٥ والفرزدق ص١٢٧ من هذا الكتاب.
وجرير ص١٣٦ من هذا الكتاب.

فسأله أبوه عنهما فقال: جرير يَغْرِفُ من بحر والفرزدق ينحتُ من صخر. فقال: الذي يَغْرِفُ من بحر أشعرهما[١].

كما ذكر الجاحظ بعض الشعراء، ممَّن أجادوا هذا الفن. قال: «ومن خطباء الأَمْصار وشُعَرائِهم والمولّدين منهم: بشارٌ الأعمى...»[٢].

وكان شاعراً راجزاً، وسجّاعاً خطيباً، وصاحب منثور ومزدوج. وله رسائلُ معروفة[٣]. قال شوقي ضيف عن حديث الجاحظ في «البيان».

... وأيضاً نراه يتحدث عن الازدواج، وكان يلهج به في كلامه، كما كان يلهج به كثير من معاصريه[٤].

٨ ـ الهَزْلُ يُرادُ به الجِدُّ

هو ضرب من علم البديع كما أورده القزويني، ولفظهُ يُغني عن تعريفه[٥]. فإذا أراد المدح أو القدح خرج عن مقصده إلى الهزل والمجون اللائق بحالة المخاطب، وهذا ضرب من المقدرة الكتابية، والذكاء المُفْرِط، لا يقدر عليه إلا من كانت عنده سرعة بديهة، فتحركت نفسه، ونضج قلمه، مستعيناً بملكته على التصوير الساخر المؤثر.

ومَنْ أَجْدَرُ بهذه المهمة، وأَقْوَمُ على التعبير والتصوير من الجاحظ؟ قال في «البيان والتبيين»:

وقال إبراهيم بن هانىء[٦]، وكان ماجناً خليعاً، كثير العبث متمرداً،

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٢ ص١١٧.
(٢) انظر ص١٢٠ من هذا الكتاب.
(٣) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٤٩.
(٤) «البلاغة تطور وتاريخ»: شوقي ضيف ص٥٣.
(٥) «الإيضاح في علوم البلاغة»: القزويني ص٥٣٠.
«التلخيص في علوم البلاغة»: القزويني. ص٣٨٥.
(٦) من معاصري الجاحظ، له خبر في (البخلاء): للجاحظ. تحق الحاجري. ص١٢٦ وترجم له في ص٣٧٠ ـ ٣٧١.

ولولا أن كلامه هذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجِدّ، لما جعلتُه صِلة الكلام الماضي. . .

من تمام آلة القصص أن يكون القاصُّ أعمى ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت، ومن تمام آلة الزَّمْر أنْ تكون الزامرة سوداء، ومن تمام آلة المُغني أنْ يكون فَارِهَ البرذون، برَّاقَ الثياب، عظيم الكِبْرِ، سيِّءَ الخُلُق، وتمام آلة الخَمَّارِ أنْ يكون ذِمّياً ويكون اسمه أَذِين أو شَلُومَا. . . ويكون أرقط الثياب مختوم العنق. ومن تمام آلة الشِّعر أن يكون الشاعر أعرابياً، ويكون الداعي إلى الله صوفياً.

ومن تمام آلة السُّؤْدَدِ[١] أنْ يكون السَّيِّد ثقيل السمع عظيم الرأس. . . .[٢]

قال الجاحظ: وقال إبراهيم بن هانىء: من تمام آلة الشيعيّ أن يكون وافر الجُمّة، صاحب بازَيْكَنْد[٣]. ومن تمام آلة صاحب الحَرس أنْ يكون زِمِّيتاً قطوباً، أبيض اللحية، أقنى أجنى[٤] ويتكلم بالفارسية[٥]. . .

٩ ـ السـرقاتُ الشِّـعْريةُ

قال الجرجاني: «واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يَبْتَدِىء الشاعر في معنى له وغرض أسلوباً ـ والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه ـ فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به

---

(١) يجوز القول السؤدُد برفع الدال الأولى، ويجوز القول بالسؤدد بفتح الدال الأولى.
«لسان العرب»: ابن منظور مج٣ ص٢٢٨.

(٢) انظر مثلاً على الشواهد الشعرية لهذا الجزء في «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٩٤.

(٣) هي نوع من الثياب الفارسية، والجُمّة بالضم: مجتمع شعر الرأس وهي أكثر من الوفرة.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة جمم مج١٢ ص١٠٧.

(٤) الأقنى: أي محنيّ الأنف طويله، وأحدب، والزِّميت الحليم الساكن القليل الكلام. يقال: رجل زميت إذا تَوَقَّر في مجلسه.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة زمت. مج٢ ص٣٥.

(٥) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١. ص٩٥.

في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلاً على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى على مثاله»[1].

وقال ابن رشيق في باب السرقات: «وهذا باب متسع جداً لا يقدر أحد من الشعراء أن يدّعي السلامة منه، وفيه أشياء غامضة، إلا عن البصير الحاذق بالصناعة، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل. . .

وقال عن رأي الجرجاني بأنه أَصح مذهباً[2].

ومن أبرز الموضوعات التي عنيت بها كتب البلاغة والنقد موضوع السرقات الشعرية وقد قسّموها إلى أقسام. منها:

النّسْخُ: وهو أخذ اللفظ والمعنى جميعاً.

والسَّلْخُ: وهو أخذ المعنى وحده، وهي أدق السرقات مذهباً وأحسنها صورة.

والمَسْخُ أو الإغارة: وهو أن يأخذ بعض اللفظ أو يُغيِّر بعض النظم، فإن امتاز الثاني بحسن السبك فممدوح[3].

والسرقات الشعرية، عَدَّها البلاغيون، باباً من علم البديع، مع أنها في النقد الأدبي أكثر مما يدخل في باب البلاغة، وشيخ النقّاد الجاحظ، عقد في «الحيوان»، فصلاً خاصاً أسماه: (أخذُ الشعراء بعضهم معاني بعض) قال فيه: «ولا يعلم في الأرض شاعر تَقَدَّمَ في تشبيهٍ مُصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مخترع، إلا وكلُّ مَنْ جاء مِنَ

(١) «دلائل الإعجاز»: عبد القاهر الجرجاني ص٣٦١.

(٢) جاء في (العمدة): وقال الجرجاني وهو أصح مذهباً. . . . ولست تعد من جهابذة الكلام، ولا من نقاد الشعر، حتى تميز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علماً برتبه ومنازله، فتفصل بين السَّرَق والغصب وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإلمام من الملاحظة، وفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرقة فيه والمبتذل الذي ليس واحد أحق به من الآخر.
«العمدة»: ابن رشيق مج٢ ص٢٨٠.

(٣) «المثل السائر»: ابن الأثير مج٣ ص٢٢ وما بعدها.
«البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ص١٧٨ ـ ١٩٠.

الشعراء مِنْ بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يَدَّعيه بأسره، فإنه لا يدع أنْ يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه. أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قطّ، وقال إنه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأول...

ومثله يقول عنترة في ضعة الذباب، فإنه وَصَفَهُ فأجادَ صِفَتَه، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم. قال:

غَـرِداً يَـحُـكُّ ذِراعَـه بـذراعـه   فِعْل المِكبِّ على الزّنادِ الأجذمِ

قال: يريد فعل الأقطع المكبِّ على الزناد. والأجذم: المقطوع اليدين. فوصف الذباب إذا كان واقعاً ثم حَكَّ إحدى يديه بالأخرى، فشبّهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين يقدح بعودين. ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك. ولم أسمعْ في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شِعر عنترة[1].

ولم يخل كتاب «البيان والتبيين» من ذكر الجاحظ للسرقات الشعرية. قال حُميد بن ثور الهلاليّ[2]:

وَحَسْبُكَ داءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَما[3]

وقال الجاحظ: ولعل حُميداً أن يكون أخذه عن النَّمِر بن تولب[4] فإن النَّمر قال:

---

(١) «الحيوان»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص٣١١ - ٣١٢.

(٢) حُميد بن ثور: (ت٣٠ﻫ/ ٦٥٠م). وهو ابن حزن الهلالي العامري، أبو المثنى، شاعر مخضرم عاش زمناً في الجاهلية وشهد حُنَيْناً مع المشركين. أسلم ووفد على النبي ﷺ ومات في خلافة عثمان.

«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ٨٧ - ٨٨. «الأغاني»: الأصفهاني مج٤ ص٣٥٦ - ٣٥٨.

«الأعلام»: للزركلي مج٢ ص٢٨٣.

(٣) صدر البيت موجود في ديوان حُميد وهو: أرى بصري قد رابني بعد صحة... عن محقق «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١. ص١٥٤.

(٤) انظر ص١٧٤ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

يُحب الفتى طول السلامة والغِنى   فكيف ترى طول السلامة يَفْعَلُ[1]

وبعد أن ساق شواهده في التحذير من ميسم الشعر ومن شدة وقع اللسان. . . أورد الجاحظ قول طَرَفة[2]:

رأيتُ القوافي يَتَّلِجْن موالجاً   تضايقُ عنها أَنْ تَوَلَّجها الإِبَرْ

وقول الأخطل[3]:

حتى أقرّوا وهمْ مني على مَضَضٍ   والقول ينفُذُ ما لا تنفذُ الإبَرُ[4]

فالشعراء أسرق من الصاغة.

هذا ما أمكننا استخراجه، من علم البديع في «البيان والتبيين» ذلك المعين الذي لا ينضب.

وعلى الجملة، فلعل أول مُحاولة علمية جادة في ميدان «علم البديع» هي التي قام بها عبد الله بن المعتز (٢٤٧ـ ٢٩٦ هـ / ٨٦٣ـ ٩٠٨م)[5]. في القرن الثالث الهجري أي بعد موت الجاحظ بمدة وجيزة.

وقد ظهر تأثره بالجاحظ، خاصة في الباب الخامس والأخير من كتابه «البديع»[6].

ويعني ذلك أن الجاحظ أوّل من دون مقاصد علوم البديع، ولكنه لم يكثر من شواهده الشعرية والنثرية عليها، خوف الإطالة والملل، أو حتى لا ينحرف عن الهدف الذي من أجله أصدر كتابه «البيان». ومع ذلك نرى أنه ذكر قسماً منها ومثّل عليها نثراً وشعراً بصورة واضحة.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) انظر ص٢٢٨ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٣) انظر ص٢٢٥ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٤) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١. ص١٥٧. ١٥٨.

(٥) انظر ص٢٥٧ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٢.

(٦) في «الباب الخامس من كتاب «البديع»: وهو مذهب سماه عمرو بن بحر الجاحظ، المذهب الكلامي. «كتاب البديع»: لابن المعتز. ص٥٣.

ونرى من جهتنا أَنَّ ما وُفِّقْنا في جَمْعه من شواهد كتابه غير شاف، لضيق المقام وخوف تَسَرُّبِ الملل، ولأنَّ الرجل قلما عني بتوضيح دلالة المثال على القاعدة وخصوصاً في الشعر.

وحبّذا لو بقي الأمر على حاله، لسلم «البديع» من التكلّف والمبالغة في تشعيب وجوهه وتفريعها إلى ما لا نهاية ولا سيما في قصائد «البديعيّات في المدح النبوي التي استبَّدت بالشعر العربي منذ أواسط القرن السابع الهجري إلى القرن الرابع عشر. . .، وأوردته موارد التكلف. . . وجردته من روائعه وروعته. ومن ناحيتها العلمية: فإنها ذهبت بالبديع مذاهب التشعيب فعاد عليه بالضعة والهوان. . .

فقد عَدّوا من البديع ما لا يصح أن يكون منه وأكثروا منه إلى حد الإملال، وقد غرست في كثير من الأذهان أن أنواع البديع لا تقف عند حد.

فقد كتب عليها الإخفاق من ناحيتها الأدبية والعلمية فلم تصل إلى غايتها ولم تؤد رسالتها[1].

(١) راجع «البديع في ضوء أساليب القرآن»: د. لاشين. ص٢٠٥-٢٠٦.

الفصل الخامس

الشعر وبعض غايات الجاحظ الأخرى

سبق أن ذكرنا في غير موقع من هذا البحث أن «البيان والتبيين» عرض واسع لمعالم البلاغة العربية والآيات القرآنية والحديث الشريف، ومعرض للشعر والأدب والحكمة والخطابة والأدعية والزهد والنسك، والحمق والجنون. وتاريخ لما كان يُستعمل في ذلك العصر من اللباس والنِّعال، وما كان يحمل من المخاصر والعصيّ... ومزيج عجيب من المسائل المذهبية والمواقف الاجتماعية والنقدية والفكاهية، حتى المجون.

فهو بحد ذاته موسوعة أدبية وإنسانية موجزة، استوعبت كثيراً من العلوم والقضايا، مما يدهش القارىء وينهك الباحث.

فإذا كان الشعر قد حقق في «البيان» كثيراً من غايات الجاحظ البلاغية، فهل هناك غايات أخرى حققها الشعر في الكتاب؟

إن الأسلوب الجاحظي هو أسُّ العرض البلاغي الذي طغى على الكتاب متضمناً الشواهد الشعرية التي لا غنى عنها.

ولم تُغن هذه الموسوعة الجامعة بالبلاغة فقط، بل تضمنت أغراضاً أدبية أخرى. وبما أنَّ «البيان» اسم على مسمى، فقد استخدم الجاحظ، الشعر فيه لتحقيق معظم غاياته، فكان بذلك حجة في سعة العلم، ومعلماً للأدب والبلاغة والبيان.

وبما أن موضوعنا لا يتعدى الإطار الشعري فلن نتعرض لغيره حتى لا نبعد عن هدفنا وخطّنا.

فما هي هذه الغايات؟

وما هي شواهدها الشعرية التي نثرها الجاحظ تبياناً في «البيان»؟

١ ـ الخطابـــة

عُني الجاحظ في كتاب «البيان» بالخطابة، فجاء سِجلاً لماضيها وحاضرها حتى عصره، ربما، لأنه رأى فيها الدعامة التي يلجأ إليها المعتزلة(١) والوسيلة الناجحة لتأييد أمرهم وبيان مذهبهم. فتكلم على مقوماتها والتهيب لها(٢) وعلى الأمم التي اشتهرت بها(٣). فدرس أحوال الخطيب وعرض عيوب الخطابة والخطباء: فمنهم الأَشْفى والأَشْدَق والأَزْوَق والأَضْجَم والأَفْقَم(٤). والذي يمتنع عليه البيان(٥) . . .

ومن شواهد الجاحظ على عيوب الخطيب التي تمنعه من البيان قول عُبيدة بن هلال اليشكري(٦) في هجاء جندب(٧):

---

(١) «الملل والنحل»: للشهرستاني مج١ ص٤٣ ـ ٤٦.

(٢) الاستعداد مع المقومات التي يجب أن تتوافر في من يريد ممارسة الخطابة.
«البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٣٥ ـ ١٤٤.

(٣) نفسه. الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص١٢ ـ ١٣.

(٤) انظر شروحاً أخرى عن الخطابة وعيوب الخطابة ص١١٩ ـ ١٢١ من كتابنا.
و«البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٥٥.

(٥) نفسه. الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٤٠ ـ ٤٢.

(٦) عُبيدة بن هلال اليشكري: (ت٧٧هـ/ ٦٩٦م). من رؤساء الأزارقة وشعرائهم وخطبائهم. انظر خبر مقتله في «الكامل في التاريخ»: لابن الأثير مج٤ ص٦٨ ـ ٦٩.
و«الأعلام»: للزركلي مج٤ ص١٩٩. وانظر ص ١٩١ من هذا الكتاب.

(٧) هو زيد بن جندب الأيادي الأزرقي مجهول الولادة والوفاة، خطيب الأزارقة وأحد شعرائهم. وكان يُنْعت بالمنطيق. قال الجاحظ كان أشفى أفلح، أي مختلف الأسنان مشقوق الشفة العليا ولولا ذلك لكان أخطب العرب.
«الأعلام»: للزركلي مج٣ ص٥٧.

وَلَفُوكَ أَشْنَعُ حين تنطِقُ فاغراً   مِن فِي قريحٍ قد أصاب بَريراً[1]

وقال الكميت[2] مُشبهاً مشافر الخطيب بمشافر دابّة أكلت من ثمر الأراك:

تُشبِّهُ في الهام آثارُها   مشافِرَ قَرْحَى أَكَلْنَ البريرا[3]

وذم الجاحظ في الخُطَب البُهْر والارتعاش والعَرَق قال:

وأَعْيَبُ عِندهم من دقة الصوت وضيق مَخْرجِه وضعف قُوَّته أن يعتريَ الخطيبَ البُهْرُ والارتعاش والرِّعدة والعرَق[4].

قال أبو مِسمارِ العُكليّ[5] مادحاً.

لله درُّ عامرٍ إذا نطقْ   في حَفْل إمْلاك وفي تلك الحَلَقْ

---

(١) البرير ثمر الأراك، عامة أعظم حَبّا من الكَبَاث وأصغر عنقوداً منه وقيل إذا أكَلَتْه الإبل قرح مشفرها.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة برر مج٤ ص٥٥.
و«البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٥٥.

(٢) الكميت الأسدي: (٦٠ ـ ١٢٦هـ/ ٦٨٠ ـ ٧٤٤م). هو الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي، أبو المستهل، شاعر الهاشمية من أهل الكوفة اشتهر في العصر الأمويّ، وكان عالماً بالأدب واللغة، مضري من أصحاب الملحمات.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ص١٣٩.
«خزانة الأدب»: للبغدادي مج١ ص٦٩ ـ ٧٧ ـ ٨٦ ـ ٨٧.
«الأعلام»: للزركلي مج٥ ص٢٣٣.

(٣) الهامة: الدابة.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة همم مج١٢ ص٦٢١.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٥.

(٤) نفسه مج١ ص١٣٣.

(٥) هو كهمس بن قضب: (ت١٠٠هـ/ ٧١٨م). ابن عطية العكليّ، أعشى بني عكل. شاعر عاصر جريراً والمراجع الآتية لم تُكَنِّه.
انظر ص٢٣١ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٥.
«الأعلام»: للزركلي مج٥ ص٢٣٦.
«معجم المؤلفين»: كحالة مج٨ ص١٤٧.
«معجم الشعراء في لسان العرب»: ص٢٤٨. رقم ٨٥٤.

ليس كقوم يُعرفون بالسَّرِقْ من خُطَبِ الناسِ ومِمّا في الوَرَقْ
يُلفِّقون القولَ تلفيقَ الخلَقْ مِن كلِّ نَضّاح الذِّفارى بالعَرَقْ
إذا رَمَتْه الخطباءُ بالحَدَقْ

قال الجاحظ: والذِّفارى هنا: يعني بدن الخطيب. والذِّفريان للبعير هما اللحمتان في قفاه[1].

وقال بشر بن المعتمر[2] يعيب الخطيب المكثار الذي يتعتع في كلامه فيتعب وينقطع نفسه ثم يعجز عن الكلام:

ومن الكبائرِ مِقْوَلٌ مُتَتَعْتِعٌ جَمُّ التَّنَحْنُحِ مُتْعَبٌ مبهورُ[3]

وقال طحلاء[4] يمدح معاوية بن أبي سفيان بالجهارة وبجودة الخطبة:

رَكوبُ المنابرِ وَثّابُها مِعَنٌّ بِخُطْبَتِهِ مِجْهَرُ
تَريعُ إليه هوادي الكلامِ إذا ضَلَّ خُطْبَتَه المِهْذَرُ

وَعَقَّب الجاحظ بقوله: مِعَنٌّ: تَعِنُّ له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها. تريع: ترجع إليه. هوادي الكلام: أوائله: فأراد أنَّ معاوية يخطب في الوقت الذي يذهب كلام المِهْذَر فيه. والمِهْذَر: المِكثار[5].

وفي تفضيل الجهارة في الخطب يقول شبَّةُ بنُ عِقال[6] بعقِبِ خطبته عند سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس:

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٣٣ ـ ١٣٤.
(٢) انظر ترجمته في ص٩٢ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٢.
(٣) البُهْر: الرَّبْو: تتابع النفس من الإعياء. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة. بهر. مج٤ ص٨٢.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤١.
(٤) لم أعثر على ترجمته. كذلك لم أجد عند محققي «البيان والتبيين»: السندوبي وهارون شيئاً عنه.
(٥) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٢٧.
(٦) يقول هارون. محقق (البيان): هو شبّة بن عِقال المجاشعي، من مجاشع رهط الفرزدق، وهو زوج جعثن أخت الفرزدق، وروى عن ابن سلام: أنه بعث بدراهم وحملان وكسوة وخمر إلى الأخطل وذلك ليفضل الفرزدق على جرير ونسبه.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٢٧ (الحاشية ١).

ألا ليتَ أمَّ الجهم والله سامعٌ تَرى حيث كانت بالعراق، مقامي
عَشِيَّةَ بَذَّ الناسَ جهري ومَنطِقِي وَبَذَّ كلام الناطقين كلامي[1]

وقال العُجَيْرُ السَّلوليّ[2] في شِدة الصوت:

....جَهيرٌ وممتدُّ العِنانِ مُناقِلٌ بصيرٌ بعورات الكلام خبيرُ[3]

ولبيان قيمة جهارة الصوت عند الخطيب الناجح قال الجاحظ: وزعموا أن أبا عطيّة عُفيفا النَّصري، في الحرب التي كانت بين ثقيف وبين بني نصر، لما رأى الخيل بِعَقْوته يومئذ دوائسَ نادى: يا صباحاه! أُتيتم يا بني نصر. فألقت الحَبَالى أولادها من شدة صوته.

قالوا: فقال ربيعةُ بن مسعود[4] يصف تلك الحرب وصوتَ عُفَيْف:

عُقاماً ضروساً بين عوفٍ ومالك شديداً لظاها تترك الطِّفل أشْيَبا
وكانت جُعَيْلٌ يوم عَمْرو أراكةٍ أُسودَ الغَضَى غادرنَ لحماً مُتَرَّبا
ويوم بَمْكزُوثاءَ شَدَّتْ مُعَتِّبٌ بغاراتها قد كان يوماً عَصَبْصَبَا
فأسقطَ أحبالَ النِّساء بصوته عُفَيْفٌ وقد نادى بنصرٍ فَطَرَّبا[5]

وأنشد خلف[6]، هاجياً خطيباً، مُعيياً تشادقه وحَصَره:

وما في يديه غيرُ شِدْقٍ يميله وشقشِقةٍ خَرْساءَ ليس لها نَعْبُ

---

(١) نفسه. تحق هارون مج١ ص١٢٧.

(٢) العُجَيْرُ بن عبد الله بن عبيدة بن كعب بن عائشة... بن سلول. وينتهي نسبه إلى اليزيدي إلى مرة بن صعصعة أخي عامر بن صعصعة، وكنيته أبو الفرزدق. شاعر إسلامي مُقِلّ من شعراء الدولة الأموية.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٣ ص٥٦.
«خزانة الأدب»: للبغدادي مج٢ ص٢٩٨.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٢٣.

(٤) انظر ذكر غلبة ثقيف على الطائف والحرب بين الأحلاف وبني مالك وإلى ذكر ابن مسعود وعُفيف، والقِصّة في «الكامل في التاريخ»: لابن الأثير مج١ ص٤٢٠ ـ ٤٢٢.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٢٧ ـ ١٢٨.

(٦) انظر ص١٨١ من هذا الكتاب حاشية رقم ٣.

وقال:

إذا كان صوتُ المرء خلفَ لهاتِهِ وأَنحى بأشداقٍ لَهُنَّ شقاشقُ
وقَبْقَبَ يحكي مُقْرماً في هِبابِه فليس بمسبوقٍ ولا هو سابقُ(١)

كما ذكر الجاحظ أوصاف المتكلمين فقال:

ومن شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم. فإذا أشاروا بالعِصي فكأنهم وصلوا بأيديهم أيدياً أُخَر.

ويدل على ذلك قول الأنصاري(٢) في المجامع:

وصارت بنا سَيَّارةٌ ذاتُ سَورةٍ بكُوم المطايا والخيولِ الجماهرِ
يَؤمّون قُلْك الشام حتى تمكنوا ملوكاً بأرض الشام فوق المنابرِ
يُصيبونَ فصل القول في كلِّ خطبةٍ إذا وصلوا أيمانَهم بالمخاصرِ(٣)

كما ذكر استعمال المخاصر والعِصيّ في الخطابة، كأداة يعتمد عليها الخطيب. قال: «وكانت العرب تخطب بالمخاصر، وتعتمد على الأرض بالقسيّ، وتشير بالعصيّ والقنا. نعم حتى كانت المخاصر لا تفارق أيدي الملوك في مجالسها، ولذلك قال الفرزدق:

في كَفِّهِ خَيزُرانٌ ريحُهُ عَبِقٌ بكفِ أروعَ في عِرنينه شَمَمُ
يُغضي حياءً ويُغْضىٰ من مهابته فما يُكلَّم إلا حينَ يَبْتَسِمُ(٤)

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٢٩.

(٢) هو صفوان الأنصاري. انظر ص٢٢٢ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

(٣) روى الجاحظ الأبيات في «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١١٦ ـ ١١٧ مُبْدلاً «سورةٍ» (بسُؤدُدٍ).
والكوم: جمع كوماء وهي الناقة العالية السنام.
والمخاصر: جمع مخصرة، وهي ما يختصره الإنسان فيمسكه بيده، من عصا أو مقرعة أو عَنَزة أو عكازة أو قضيب.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة كوم مج١٢ ص٥٢٩. نفسه مادة خصر. ج٤ ص٢٤٢.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٧١.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٧٠.

ولم ينس أبو عثمان أن يبسط أسماء كثيرة ممن جمع بين الخطابة والشعر، فقال مثلاً: «ومن الشعراء الخطباء عِمران بن عِصام العَنَزي[١]، هو الذي أشار على عبد الملك بِخَلْعِ عبد العزيز أخيه، والبيعة للوليد بن عبد الملك في خطبته المشهورة...

وهو الذي لما بلغ عبد الملك بن مروان قَتْلَ الحجاج له قال: ولم قَتَلَه وَيْلَه؟ ألا رَعَى له قولَه فيه:

وبَعثتَ من وَلَدِ الأَغَرِّ مُعَتِّبٍ   صقراً يلوذُ حَمامُه بالعرفجِ[٢]

وإذا بدأ الجاحظ بالكلام عن شيء فلا ينتهي منه حتى يُشَرِّحَه تشريحاً، ولا يترك فيه استفهاماً، ولا ينسى دقائقه، فيُشبِعُ بذلك نهم القارىء ويزيده تعليماً وعلماً.

لذلك عندما تكلَّم عن تقديم الشاعر في الجاهلية على الخطيب أفاض في ذكر فضائل الشاعر وفي الأسباب التي جعلتهم يحطّون من قدْره (الشاعر) فقال:

كان الشاعر في الجاهلية يُقَدَّمُ على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشّعر الذي يُقَيِّد عليهم مآثرهم ويُفَخِّم شأنهم، ويُهَوِّلُ على عدوّهم ومَنْ غزاهم، ويُهَيِّب من فُرسانهم، ويُخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كَثُرَ الشِّعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبةً ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرّعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[٣].

---

(١) عمران بن عصام العنزي: (ت٨٥هـ/ ٧٠٤م). خطيب، شاعر من الشجعان في أيام عبد الملك بن مروان، ولما أمر المُهَلّب صنع الركب من الحديد بدل الخشب مدحه وفَضَّل ضرب الحديد للركاب بدل ضرب الدراهم. وعندما نشبت فتنة ابن الأشعث اتهمه الحجاج بالانحياز إليه وطلبه حتى قتله.
«الأعلام»: للزركلي مج٥ ص٧١.

(٢) مُعَتِّب من أجداد الحجاج.
انظر بقية الأبيات في «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤٨.
وراجع أسماء الخطباء الشعراء فيه من٤٧ ـ ٥١.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٤١.

من هنا نرى مقام الخطابة والخطيب وأهميته في ذلك العصر، فقد كان أول أهداف الخطابة الإقناع والحجة. أنشد أحدهم:

فَجِئتُ وَوَهْبٌ كالخَلاةِ يَضُمُّها   إلى الشِّدْق أنيابٌ لَهُنَّ صريفُ
فَقَعْقَعْتُ لَحْيَيْ خالدٍ واهتضمتُه   بحُجَّة خصمٍ بالخصوم عنيفِ[1]

وجال أبو عثمان حتى البصرة، فذكر خطباءها، واستشهد بقول رؤبة[2] في أحد قضاة البصرة وأمرائها وخطبائها:

فأنت يا ابن القاضيين قاضي   مُعْتزمٌ على الطريق ماضي[3]

وضرب الشاعر[4] المثل بخطباء إياد فقال:

كَقُسٍّ[5] إيادٍ أو لقيطِ بن معْبدٍ[6]   وَعُذْرةَ[7] والمِنْطيقِ زيد بن جُنْدُبِ[8]

---

(١) في البيت الثاني أقواء.
انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٣٠.

(٢) انظر ص١٨٢ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٤.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٩٤.

(٤) هو الأَشَلُّ الأزرقي، أبو سماك وقيل أبو شهاب. واسمه عِمران بن حطان. تابعي مشهور من رؤوس الخوارج القَعَدية (بفتحتين) وكان من الصفرية خطيبهم وشاعرهم مات سنة أربع وثمانين من الهجرة.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: ابن حجر العسقلاني مج٣ ص١٧٧. ١٧٨ رقم ٦٨٧٧.

(٥) قُسٌّ بن ساعدة: (ت٢٣ ق هـ/ ٦٠٠م). ابن عمرو بن عدي بن مالك من بني إياد. أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية. كان أسقف نجران ويقال أنه أول عربي خطب متوكئاً على عصاه أو على سيفه. «الأغاني»: الأصفهاني مج١٥ ص١٩٢.
«خزانة الأدب»: للبغدادي مج١ ص٢٦٧. «الأعلام»: للزركلي مج٥ ص١٩٦.

(٦) لم نعثر على ترجمة له. ويقول محقق البيان إنه لقيط بن معمر. وذكر في الأعلام لقيط بن عامر شاعر جاهلي. انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ فهرس الأعلام. ص٣٣٢.
و«الأعلام»: للزركلي مج٥ ص٢٤٤.

(٧) عُذْرَةُ بن زيد بن اللات بن وفيدة من بني كلب. جد جاهلي من بطون بني عامر وكاهل وإياس وعوف ورفاعة انتقلت جماعة منه إلى الأندلس في عصر الفتوح وهم معروفون بشدة العشق.
«الأعلام»: للزركلي مج٤ ص٢٢٢.

(٨) سبقت ترجمة المنطيق في كتابنا وهو زيد بن جندب.
وانظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٤٢.

ومدح معاوية خطباء تميم بقوله: لقد أوتيت تميمٌ الحِكمة مع رِقَّة حواشي الكلم وأنشأ يقول:

يا أيها السائلُ عَمَّا مضى ... وَعِلْمِ هذا الزَّمن العائبِ
إنْ كنتَ تبغي العِلْمَ أو أهْله ... أو شاهداً يُخْبِر عن غائبِ
فاعتبر الأرضَ بِسُكَّانِها ... واعتبر الصاحبَ بالصاحبِ(١)

ومن خطباء بني ضَبَّة وعلمائهم: مثجور بن غيلان بن خَرَشة(٢).

وكان مُقدَّماً في المَنْطق وهو الذي كتب إلى الحجاج: «إنهم قد عرضوا عليّ الذهب والفضة، فما ترى أنْ آخذ؟ قال: أرى أن تأخذ الذهب، فذهب عنه هارباً ثم قتله بعدُ.

وذكره القُلاخُ بن حَزن المِنْقَري(٣) فقال:

أمثالُ مثجورٍ قليلٌ ومِثلُه ... فتى الصِّدق إنْ صَفَّقته كل مَضْفَقِ(٤)

ومن خطباء الخوارج: الضّحاك بن قيس الشيباني(٥) ويكنى أبا سعيد وهو

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٢.

(٢) مثجور بن غيلان: ت٨٥هـ/ ٧٠٥م.
الضبي. خطيب من العلماء بالأنساب ومن أشراف البصرة. كان مقدّماً في المنطق.
«الأعلام»: للزركلي مج٥ ص٢٧٥.

(٣) هو القُلاخ بن حَزْن، وقيل، بن جناب، بن منقر بن عُبيد من بني كعب بن سعد. ولعله ابن عمر اللعين المِنْقري وهو معدود من الرُّجّاز. ومعنى القُلاخ، من قلخ يقلَخُ: أن يردد الفحل من الإبل صوته في جوفه. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة قلخ. مج٣ ص٤٨.
«معجم الشعراء»: في لسان العرب د. الأيوبي ص٢٨٤ رقم ١٠٢.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٤١.

(٤) انظر بقية الأبيات في «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٤١.

(٥) هو الضحاك بن قيس (٥ ـ ٦٥هـ/ ٦٢٤ ـ ٦٨٤م). ابن خالد الفهري القرشي، أبو أمية. سيد بني فهر في عصره، وأحد الولاة الشجعان. شهد فتح دمشق وتولى الصلاة على معاوية يوم وفاته قتل في مرج راهط. «الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني. باب الضحاك. ص١٩٧ ـ ١٩٨.
«تاريخ الطبري»: محمد بن جرير مج٦. ص٣٢٧ ـ ٣٢٨.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٢١٤ ـ ٢١٥.

الذي مَلَكَ العراق، وسار في خمسين ألفاً وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وسليمان بن هشام وصليّا خَلْفَه. وقال شاعرهم[1]:

ألـم تـر أنَّ الله أظـهـر ديـنَـهُ وَصَلَّتْ قريش خلف بكر بن وائلِ[2]

ومما قالوا في الخُطُب قول ثابت قُطنة[3]:

فإلاّ أكنْ منهم خطيباً فإنني بسُمرِ القنا والسّيف جِدُّ خطيبِ[4]

وكان في بني السَّمين من بني شيبان خطباء العرب، وكان ذلك فيهم فاشياً، ولذلك قال الأخطل[5]:

فأينَ السَّمينُ لا يقومُ خطيبها وأين ابن ذي الجِدَّيْنِ لا يتكلَّمُ[6]

ومن خطباء الأنصار: سعد بن الربيع[7]، وهو الذي اعترضت ابنته النبي ﷺ، فقال لها: من أنت؟ قالت: ابنة الخطيب النّقيب الشهيد: سعد بن الربيع.

ومنهم خال حسّان بن ثابت وفيه يقول حسان[8].

إن خالي خطيب جابية الجو لانِ عند النُّعمان، حين يقومُ[9]

---

(١) هو شُبيل بن عَزْرة ت١٤٠هـ/ ٧٥٧م. ابن عمير الضُبَعي. راوية، خطيب، شاعر، نسّابة، من أهل البصرة.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص١٥٧.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٤٣. وج٣ ص٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٣) انظر ص٢١٦ من هذا الكتاب حاشية رقم ١.

(٤) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٢٣١.

(٥) انظر ص٢٢٥ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٦) ذو الجَدّين هو قيس بن مسعود الشيباني.
«البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٣٤٨. الحاشية.

(٧) سعد بن الربيع بن عمرو (ت٣هـ/ ٦٢٥م). من بني الحارث بن الخزرج. من كبار الصحابة. استشهد يوم أحد. «الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني ج٢ ص٢٤ رقم ٣١٥٣.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص٨٥.

(٨) انظر ص٢٥٦ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٩) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٣٦٠.

وإياه يعني حسّان بقوله:

رُبَّ خـالٍ لِـيَ لـو أبـصـرتِـهِ   سَبطِ المِشيةِ في اليوم الخَصِرْ[1]

وبعد هذه الجولة الموجزة في عالم الخطابة والخطباء مع الجاحظ، اتضح لنا أن له غايات كثيرة، غير البلاغة، فهو يعرض معنى الخطابة، وصفات الخطباء لذلك العصر. وكل ما يتعلق بها. وتشعر كأنه يستعرض ذاكرته العجيبة ليظهر معرفته بفن الخطابة، مُثبِتاً خُطباً للنبي عليه الصلاة والسلام، وللخلفاء الراشدين، ولكبار الصحابة رضوان الله عليهم، وكأن هدف، «البيان»، الأوحد الخطابة بعينها.

٢ ـ المخاصر والعِصيّ

ومن غايات الجاحظ في «البيان» إظهار منافع المَخاصر والعِصيّ، تلك الأداة المُهمّة التي تعوّد العرب على استعمالها ومرافقتها، مُضَمِّناً عرضه، في الوقت عينه، شواهده الشعرية والنثرية التي تظهر فوائدها ووجوهها وما قيل فيها.

لذا أفرد لها أكثر من جانب ليظهر أهميتها وحقيقتها[2].

قال في تفاريق العصا: العصا تُقَطَّع ساجوراً[3] وتقطَّع عصا الساجور فتصير أوتاداً، ويُفَرّقُ الوتِد فيصير كلُّ قطعةٍ شِظاظاً[4]. فإذا كان رأس الشِّظاظ

---

(١) نفسه «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٣٦٠.

(٢) ولعل الأمير أسامة بن المنقذ: (٤٨٨ ـ ٥٨٤هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٨٧م). كتب مؤلفه الفخم (العصا) اقتباساً مما كتبه الجاحظ أو زاد عليه ليستعرض مسائل العصا. «العصا»: أسامة بن المنقذ. طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م. فرع الإسكندرية. تحق حسن عباس. سبط الكفين: كريم. الخَصِر: البارد. (راجع حسان بن ثابت: الديوان. دار صادر بيروت. ص ١١٦)

(٣) الساجور: هو القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة مج٤ ص٣٤٧.

(٤) الشِّظاظ: خُشَيْبة عَقْفاء محدَّدة الطَّرَفِ توضع في الجوالق أو بين الأونين يُشد بها الوعاء.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة شظظ. ج٧ ص٤٤٥.

كالفُلْكة صار لِلْبُخْتي مِهاراً، وهو العود الذي يُدخل في أنف البُخْتيّ، وإذا فُرّقَ المِهارُ جاءت منه تَوادٍ[١].

ولم يكتف أبو عثمان بتفصيله الدقيق حتى استطرد قائلاً: فإذا كانت العصا صحيحة ففيها من المنافع الكبار والمرافق الأوساط والصّغار ما لا يُحْصيه أحد، وإن فُرّقت ففيها مثلُ الذي ذكرنا وأكثر. فأيُّ شيء يبلغ في المرفق. ساق الجاحظ كثيراً من الشواهد الشعرية على هذه الغاية. وسنذكر بعضاً من نماذجه الشعرية، لأن الكلام عن العصا والمخاصر يحتاج إلى كتاب مستقل.

يقال للراعي «إنه لضعيف العصا» إذا كان قليل الضّربِ بها للإبل شديد الإشفاق عليها. وقال الراعي النمِري[٢]:

ضعيف العَصَا بادي العروق ترى له　　　عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا[٣]

فإذا كان الراعي جَلْداً قوياً عليها قالوا: صلب العصا. ولذلك قال الراجز:

صُلْب العصا باقٍ على أذاتها[٤]

ويقال «ضُربَ فلان ضرب غرائب الإبل». وهي تُضْرَبُ عند الهرب، وعند الخِلاط، وعند الحوض، أشد الضّرْبِ.

وقال الحارث بن صخر[٥]:

---

(١) قال الأزهري: وأما التوادي فواحدتها تَوْدِية: وهي الخشبات التي توضع على أخلاف الناقة إذا صُرّت لئلا يرضعها الفصيل. وقال: ولم أسمع لها بفعل.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة مج٣ ص١٠١.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٤٩.

(٢) انظر ص٢١٤ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١٠.

(٣) ضعيف العصا أي حاذق الرعية لا يضرب ضرباً شديداً. يصفه بحسن قيامه على الإبل في أيام الجدب. واصبعاً أي أثراً.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة مج٨ ص١٩٢ ـ ١٩٣.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٥٢.

(٥) لم أجد ترجمة له.

بِضَرْبٍ يُزيل الهامَ عن سُكناتِهِ كما ذِيدَ عن ماء الحياض الغرائبُ(١)

وفي جواهر العصا تفاوت، وكانوا يُشبِّهون القامة الممشوقة بجسمها، كما استعملوها كمحراث نافع، وتكون مِخصرة وعوداً وقوساً. . .

قال ابن أحمر(٢) في تشبيه قامة الحبيب بالغصن المُقَوَّم:

رُودُ الشَّباب كأنَّها غُصنٌ بِجرامِ مكةَ ناعمٌ نَضِرُ(٣)

قال الجاحظ: لأهل المدينة عِصِيٌّ في رؤوسها عُجَرٌ(٤) لا تكاد أكُفُّهم تُفارِقها إذا خرجوا إلى ضياعهم ومُنتزهاتهم ولهم فيها أحاديث حسنة وأخبار طيّبة(٥). وقال الشاعر(٦):

ألا أيها الركب المُخبُّون هل لكم بأختِ بني هندٍ عَتيبةَ من عهدِ
أألقت عصاها واستقَّر بها النوى بأرض بني قابوسَ أم ظعنت بعدي(٧)

كما تُستعمل لِدَقِّ الجصّ والجِبْسين والسِّمسم وسَفوداً للشواء.

قال الشّماخُ بن ضرار(٨):

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٥٥.

(٢) هو عمرو بن أحمر بن فراص بن معن بن أعصر. وكان رماه رجل اسمه (مخشر) فذهبت عينه. عُمِّر تسعين سنة كما في «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص٧٧.

(٣) قال محقق «البيان» في رود إنها الشابة الحسنة وأصلها الهمز.
انظر «لسان العرب»: ابن منظور. مادة رود. مج٣ ص١١٨ - ١٩٠.
الجَرامُ: النّوى أي التمر اليابس. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة جرم. مج١٢ ص٩٠.
وانظر «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص٥٦.

(٤) العُجَرُ: عُقد في الخشب. «لسان العرب»: ابن منظور. ماداة عجر. مج٤ ص٥٤٣.
ولعلها المعروفة ببلادنا (بالمعكيلة).

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٥٨.

(٦) لم يذكر اسمه.

(٧) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٦٣.

(٨) الشماخ بن ضرار: (ت٢٢هـ/ ٦٤٣م). المازني الذبياني... شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام وهو من طبقة لبيد والنابغة. توفي في غزوة موقان.
«الأعلام»: الزركلي مج٣ ص١٧٥.

وأشعثَ قَدْ قَدَّ السِّفار قميصَهُ   يَجُرُّ شِواءً بالعصا غيرَ مُنْضِجِ[1]

والعصا تكون سوطاً وسلاحاً. وكان رسول الله ﷺ يخطُب بالقضيب، وكفى بذلك دليلاً على عِظَمِ غَنائها وشَرَفِ حالها. وعلى ذلك الخلفاء وكبراء العرب من الخطباء[2].

وتكون وتداً أو مِظلّة وإن شئت جعلتها رِجْلاً مكان الرِّجْلِ المقطوعة. قال أبو ضَبَّة في رجله:

وقد جعلتُ إذا ما نِمتُ أوجعني   ظهري وقُمتُ قيام الشارق الظَّهِر
وكنتُ أمشي على رجلينِ مُعْتدِلاً   فصرتُ أمشي على رجلٍ من الشجرِ[3]

وقال رَجلٌ من بني عِجلٍ:

وشى بيَ واشٍ عند ليلى سفاهةً   فقالت له ليلى مقالة ذي عقلِ
وخَبَّرها أني عَرِجتُ فلم تكن   كورهاءَ تجترُّ الملامة للبعلِ
وما بيَ من عيبِ الفتى غير أنني   جعلتُ العصا رِجلاً أُقيم بها رِجلي[4]

وإذا توكأ المُسِنُّ على عصاه دلَّ على عجزه ولذلك قال عُروة بن الورد[5]:

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٦٨.

(٢) نفسه. تحق هارون مج٣ ص٦٩.

(٣) وردت الأبيات في «الحيوان»: للجاحظ. وقال محقق الكتاب: إن هذا الشعر يُروى أيضاً لعمرو بن أحمر الباهلي كما في الموشح ص٨٠. ووردت في كتاب «العرجان...»: للجاحظ، لأبي الدهماء. ووردت في «خزانة الأدب»: لأبي حية النمري.
«انظر»: «الحيوان»: للجاحظ. تحق هارون مج٦ ص٤٨٣.
و«البرصان والعميان والحولان»: للجاحظ. تحق هارون. ص٤٠٣ ـ ٤٠٤.
و«خزانة الأدب»: البغدادي مج٤ ص٦٥. و«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٧٦.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٧٦.

(٥) عُرْوَةُ بن الورد: ت٣٠هـ/ ٥٩٤م. من غطفان. شاعر من الجاهلية ومن فرسانها وأجوادها. كان يلقب بعروة الصعاليك، لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ص١٥٩ ـ ١٦٠.

أليس ورائي أَنْ أدِبَّ على العصا فَيَأْمَن أعدائي ويسأَمَني أهلي[(١)]

وأَلْهَمَتِ العصا الشعراءَ التَّشْبيهَ الجيد. قال المُؤمِّل بن أُميل[(٢)]:

كانت تقيَّد حين تنزل منزلاً فاليوم صار لها الكلالُ قيودا

والناس كالعيدان يَفْضُلُ بَعْضُهم بعضاً كذاك يفوق عودٌ عُودا[(٣)]

قال الجاحظ: وجعل الله تبارك وتعالى أكبر آداب النبي عليه السلام في السِّواك، وحَضَّ عليه ﷺ. والمِسْواك لا يكون إلا عصا[(٤)].

ثم قال: ومن شأن المتكلمين أن يشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم. فإذا أشاروا بالعصيّ فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيدياً أُخَر. ويدل على ذلك قول الأنصاري[(٥)] حيث يقول:

... يُصيبون فصل القول في كل خُطبةٍ إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصرِ[(٦)]

وقال الكُميت بن زيد[(٧)]:

... أهل التَّجاوُبِ في المحا فل والمقاول بالمخاصِرْ[(٨)]

واستطرد الجاحظ بقوله: «وأيضاً إنَّ حَمْلَ العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة، والتَّهيُّوء للإطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم، ومنسوب إليهم. حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٨٣.

(٢) المُؤمل بن أُميل: (ت١٩٠هـ/ ٨٠٥م). المحاربي. شاعر من أهل الكوفة، أدرك العصر الأموي واشتهر في العصر العباسي. وكان من رجال الحديث.
«الأعلام»: الزركلي مج٧ ص٣٣٤.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٨٩.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١١٣.

(٥) هو صفوان الأنصاري سبقت ترجمته في ص٢٢٢ من هذا الكتاب حاشية رقم ٣.

(٦) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص١١٧.

(٧) انظر ص٢٨٩ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٨) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١١٧.

والمخاصر بأيديهم، إلفاً لها، وتَوقُّعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها»[1].

والدليل على أن العصا رفيق الشيخ ومعتمده، قول الأصمعي[2] عن بعض الأعراب:

ألا قالت الخنساء يوم لقيتُها كبرتَ ولم تجزعْ من الشَّيْبِ مجزَعاً
رَأَتْ ذا عصا يمشي عليها وشَيْبَة تقنع منها رأسُه ما تَقَنّعا
فقلت لها لا تهزئي بي فقلّما يسودُ الفتى حتى يشيبَ ويصلعا[3]

وقال إسحاق بن سُوَيْد[4]:

في رداء النبيِّ أقوى دليل ثم في القعْب والعصا والقضيب[5]

ثم تَذَكَّر الجاحظ قول جرير[6] في العصا، فعزّ عليه تركه. قال جرير:

وقد سلبتْ عصاكَ بنو تميم فما تدري بأيّ عَصا تذودُ[7]

فالعصا أداةٌ شرقية مهمة، كَثُرَ استعمالها وامتد حتى انعكس في حاضرنا على العُجَّز لتساعدهم وتسندهم، وعلى الشباب للتباهي دون معرفة تاريخها المجيد.

ونلحظ امتدادها إلى أوروبة حيث استعملها، حملة الألقاب، المتباهون، واستعاض البعض عنها بالمظلات دون أن يدروا مَنْ يُقَلِّدون.

فهي غاية جليلة في «البيان». مقصورة على العرب، وأَحْسَنَ الجاحظ عرضها وبَسْطَ وجوهها وما قيل فيها.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١١٧.
(٢) انظر ص٣١ من هذا الكتاب. حاشية رقم٨.
(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٢٢.
(٤) هو إسحاق بن سويد بن هبيرة العدوي التميمي البصري. كان ثقة فاضلاً يقول الشعر. توفي في الطاعون، أول خلافة العباس سنة ١٣١هـ.
عن محقق كتاب «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٢٢. الحاشية: ص٢٤ ـ ٢٥.
(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٢٣.
(٦) انظر ص١٣٦ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٢.
(٧) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٢٤٨.

٣ ـ الرسـائـل

الرسائل مظهر من مظاهر البيان العربي، نثرها الجاحظ، في تضاعيف «البيان» لتكون مثالاً يُحتذى به على مرِّ الدهور، ضِمْن قالب بلاغي تعليمي، يعكس صياغة القول في أدب ذلك العصر.

وقد نَوَّه بعدم كُرْهِ الشِعر فيها إلا أن تكون إلى الخلفاء. قال: «كان أكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء»(١).

لذا نجد الشعر في الرسائل قليلاً. وسنعرض نموذجاً أثبته الجاحظ في «البيان» يوضح لنا دور الشعر في الرسائل.

«كتب إبراهيم بن سيَّابة(٢) إلى يحيى بن خالد بن برمك(٣):

أما بعدُ فاغنمْ واسلَمْ واعلمْ إن كنت تعلم، أَنَّهُ مَنْ يَرْحَمْ يُرْحَمْ ومن يَحْرِمِ يُحْرَمْ ومن يُحْسِنْ يَغْنَمْ ومن يصنع المعروف لا يَعْدَمْ وقد سبق إليّ تغضُّبك عليَّ واطِّراحُكَ لي، وغَفْلَتُكَ عنّي بما لا أقوم له ولا أقعُد ولا أنتبِه ولا أرقدُ، فلست بذي حياةٍ صحيح ولا بميتٍ مُستريح، فررت بعد الله فيك إليك وتَحمَّلتُ بكَ عليك ولذلك قُلت:

أَسْرعتْ بي حثّاً إليك خِطائي ... (فأَناخَتْ) بمُذْنبٍ ذي رَجاءِ
راغبٍ راهبٍ إليك يُرجّي ... مِنْكَ عفواً عنهُ وفضلَ عطاءِ
ولعمري ما مَنْ أَصَرَّ ومَنْ تا ... ب مُقِرّاً بذنبه بسواءِ

ثم طلب منه قبول تضرُّعِه وتَخَشُّعِه وتَذَلُّلِه مُذَكِّراً إياه بِأَنَّ هذا التَّضُّرعَ هو عِزٌّ ورفعةٌ وشرف له.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١١٨.

(٢) كان خليعاً ماجناً يُرْمى بالأُبنة: وهي العيب في الكلام.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة ابن مج١٣ ص٤.
وانظر ترجمة إبراهيم في ١٢٤ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٤.

(٣) انظر ص١٣٤ من هذا الكتاب حاشية. رقم ٨.

قال الجاحظ: وبلغني أن عامة أهل بغداد يحفظونها (أي الرسالة) في تلك الأيام»[1].

٤ ـ الزُّهد والنُّسك

أفرد الجاحظ في «البيان والتبيين» كتابا أسماه «كتاب الزهد» ذكر فيه شيئاً من أقوال الزُّهاد وكلام النُّساك التي تعكس أخلاقهم وأفعالهم ومواقفهم ومواعظهم.

وسنقصر كلامنا على ما قيل فيهم شعراً، أو على نماذج مما قالوه من الشعر.

فهل خدم الشعر غاياتهم؟ وتالياً، هل حقق الشعر في الزهد والنسك غاية من غايات أبي عثمان في «البيان والتبيين»؟

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا رهبانية في الإسلام»: ومعنى ذلك عدم انقطاع المرء عن الناس وانصرافه للعبادة بعيداً منفرداً.

بل حَضَّ على الانخراط في المجتمع في سبيل العمل الصالح والكسب الحلال ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[3].

ومعلوم أن الزهد قد انحرف عن معناه الحقيقي وتطرّف كثيراً حتى شطَّ بعضهم عن هدفه ومثاله، فَأُدْخِلَتْ فيه البدع[4].

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) لن نبحث في كيفية تطورات مفاهيم الزهد، ولكننا سنشير إلى حقيقة معنى الزهد الإسلامي وحقيقة الرهبانية المسيحية.

(الزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا، ولا يقال الزُهد إلا في الدين خاصة) وأصل مفهومه الإعراض عن زخرف الدنيا ومباهجها لأنها غرّارة، والاهتمام بطاعة الله ومرضاته لدخول جنته. من هنا أتى مفهوم الزهد الإسلامي اقتداء بالسلف الصالح. =

فكيف كانت صورة الزهد والنسك في عصر الجاحظ؟

وما هي شواهد «البيان والتبيين» الشعرية التي بلورته؟

الزهد عامة: ترك زخرف الحياة ومباهجها، والتوجه بالعمل الصالح والرجاء والتوسل إلى الله تعالى للدخول في جنات تجري من تحتها الأنهار. لذا سارع الصالحون في نفض غبار الزّيف الدنيوي.

قال الجاحظ: وركب سليمان بن عبد الملك[1] في زِي عجيب، فنظرتْ إليه جارية له فقالت: إنّك لَمَعْنِيٌّ بِبَيْتَي الشاعر. قال: وما هما؟ فأنشدته:

= (أما الرهبانية، فهي مصدر الراهبْ والاسم الرهبانية. ورهب: خاف. والرّاهب: المتعبد في الصومعة وفي التنزيل: **﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾**: أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، ما فرضناها عليهم، والرهبانية بفتح الراء هي الخوف من الرهب، وبضم الراء منسوبة إلى الرُهبان: وذلك لأنهم غلوا في العبادة وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي منهم نفر قليل فترهبوا أو تبتلوا. وبعد (إلا)، هنا الاستثناء منقطع: أي هذه الرهبانية ما كتبناها نحن عليهم رأساً، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. وقال الزجاج: ما كتبناه عليهم معناه: لم نكتب عليهم شيئاً البتة. قال: ويكون إلا ابتغاء رضوان الله بدلاً من الهاء والألف في كتبناها. والمعنى ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله. فلم يرعوا هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم بل صنعوها وكفروا بدين عيسى ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا وتركوا الترهب. ولم يبقَ على دين عيسى إلا قليل منهم وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الذي يستحقونه بالإيمان وذلك لأنهم آمنوا بعيسى وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله. والآية المذكورة من سورة الحديد الآية: ٢٧.

«لسان العرب»: ابن منظور. مادة. رب مج١ ص٣٦ ـ ٤٣٨.

ومادة. زهد مج٣ ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

«فتح القدير»: الشوكاني مج٥ ص١٧٨ ـ ١٧٩.

وفيها تفسير الآية: ٢٧ من سورة الحديد.

(١) سليمان بن عبد الملك: «٥٤ ـ ٩٩هـ/ ٦٧٤ ـ ٧١٧م». هو ابن مروان، أبو أيوب، الخليفة الأموي. ولد في دمشق وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ. وكان بالرملة فلم يتخلف عن مبايعته أحد. فأطلق الأسرى وأخلى السجون وعفا عن المجرمين وأحسن إلى الناس وكان عاملاً طموحاً إلى الفتح. جَهَّزَ جيشاًلحِصار القسطنطينية. وفي عهده فُتِحَتْ جرجان وطبرستان. وكانت عاصمته دمشق ومدة خلافته سنتين وثمانية أشهر إلا أياماً.

«تاريخ الإسلام»: حسن إبراهيم حسن مج١ ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

«الأعلام»: للزركلي مج٣ ص١٣٠.

أنتَ نِعم المتاعُ لو كنت تبقى   غير أن لا بقاء للإنسانِ
ليس في ما بدا لنا منكَ عيبٌ   كان في الناس غير أنَّكَ فانِ

قال: وَيْلَكِ نعيتِ إليَّ نفسي(١).

وقال ابن شُبْرُمة(٢) في زوال الدنيا:

فإن كانت الدنيا تُحَبُّ فإنها   سحابةُ صيفٍ عن قليل تَقَشَّعُ(٣)

وقال مساورٌ الوَرَّاق(٤) لابنه ينصحه بمجالسة الأتقياء:

شَمِّرْ قميصك واستعدَّ لقائلٍ   واحكُكْ جبينك للقضاء بِثُومِ(٥)
واجعلْ صِحابَكَ كلَّ حَبْر ناسك   حسنِ التعهد للصلاة صَؤومِ
مِنْ ضَرْبِ حَمَّادٍ هناكَ ومِسْعَرٍ   وسِماكِ العبسيّ، وابن حَكيم
وعليك بالغَنَويّ فاجلس عنده   حتى تصيب وديعةً ليتيمِ(٦)

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص١٤٤.

(٢) عبد الله بن شُبْرُمة: (٧٢ ـ ١٤٤هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٥٩م). ابن حسان الضبيّ، أبو شبرمة الكوفي القاضي. ولاه أبو جعفر المنصور على قضاء الكوفة. «الكامل في التاريخ»: لابن الأثير مج٤ ص٣٧٦. «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص٩٨ ومج٣ ص١٤٦.

(٣) نفسه. تحق هارون مج٣ ص١٤٦.

(٤) هو مساور بن سَوَار بن الحميد من آل قيس بن عيلان بن مضر ويقال له مولى خويلد من عدنان، كوفي قليل الشعر من أصحاب الحديث ورواته.
«الأغاني»: الأصفاني مج١٨ ص٨٥ ـ ٨٩.

(٥) إذا حُكَّ الجبين بالثوم ظهرت فيه سمة سمراء توهم أن صاحبها عريق التقوى من أثر السجود. وكثير من المُتظاهِرين بالتقوى يفعلون ذلك اليوم.

(٦) حمَّاد من رجال الحديث: كثيرون وهم حماد بن يزيد، أو حماد بن أسامة، أو ابن سلمة، أو ابن أبي سليمان. ومسعر ربما مسعر بن حبيب روى عنه حماد بن يزيد أو مسعر بن كدام.
وسماك: لعله سماك بن حرب، أو ابن الفضل أو ابن الوليد أو سماك البستي وروي في الأغاني سماك العَتَكي. والغنوي لعله أبو سوار.
«الفهرست»: لابن النديم. ص٢٨٥ و٦٧. «الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص١٠٤.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٨ ص٨٦ ـ ٨٧ الحاشية.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٧٥ ـ ١٧٦. وج١ ص٤٠٠ الحاشية.

وقال آخر في التزود للآخرة من هذه الدنيا الفانية:

فاعملْ على مهلٍ فإنَّك مَيِّتٌ   واكدحْ لنفسك أيها الإنسانُ
فكأنَّ ما قدكان لم يك إذ مضى   وكأنَّ ما هو كائنٌ قد كانْ[1]

وهكذا نرى شواهد الجاحظ الشعرية قواعد عامة في الزهد في كل زمان ومكان، وتسجيلاً تاريخياً لما كان يفكر به بعض أبناء ذلك العصر.

والنُسْك توأم الزهد، فيه الورع والتُّقى، ومن شواهده في «البيان والتبيين» قول أعرابي:

يعيش الفتى بالفقر يوماً وبالغنى   وكلاً كأنْ لم يلْقَ حين يُزايلُه[2]

وقال الآخر:

إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه   فما فاته منها فليس بضائِرِ
فلن تعدِلَ الدنيا جَناحَ بعوضةٍ   ولا وَزْن زفٍ من جناحٍ لِطائرِ
فلا رضيَ الدنيا ثواباً لمؤمنٍ   ولا رضي الدنيا عِقابا لكافِرِ[3]

وقال أبو العتاهية[4].

يا خاطب الدنيا إلى نفسها   تَنَحَّ عن خِطْبتها تَسْلَمِ
إن التي تخطب غَرَّارةٌ   قريبةُ العُرْسِ من المأتَمِ[5]

وقال الآخر:

كلُّ امرىء مُصبَّحٌ في أهلِهِ   والموتُ أدنى من شِراك نَعْلِهِ[6]

---

(١) نفسه مج٣ ص١٧٦.
(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٧٨.
(٣) نفسه مج٣ ص١٧٨ ـ ١٧٩.
(٤) انظر ص١٢٨ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.
(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٨٠.
(٦) نفسه مج٣ ص١٨٣.

وأنشد سعيدُ بنُ عبد الرحمن بن حسان[١]:

خَسْبُ الفتى من عيشه زادٌ يبلّغه المَحَلاّ

خبزٌ وماءٌ باردٌ والظلُّ حين يريد ظِلاّ[٢]

وأنشد أيضاً:

وما العيشُ إلا شبعةٌ وتَشَرُّقٌ وَتَمْرٌ كأخفاق الرِّباع وماءُ[٣]

ومن جميل القول في مخاطبة النفس ومحاسبتها، قول الحسن بن هانىء[٤] في نهاية عمره:

يا نُواسيُّ تَفَكَّرْ وتَعَزَّ وتَصَبَّرْ

ساءك الدهرُ بشيء ولِمَا سَرَّك أَكْثَرْ

يا كبير الذنب عفوُ الله من ذنبك أكبرْ

أكبرُ الأشياء في أصغرِ عفو الله يَصْغُرْ[٥]

٥ ـ الدُّعـاء

غايةٌ أخرى من غايات «البيان» يعرضها الجاحظ من خلال بلاغة القول وهي الأدعية التي يتقرّب بها الأتقياء إلى الله تعالى.

فما هي الشواهد الشعرية التي أثبتها الجاحظ في «البيان» لكشف أدعيتهم وتضرعهم لخالق الأكوان؟

---

(١) سعيد بن عبد الرحمن: (ت١١٥هـ/ ٧٣٤م). ابن حسان بن ثابت، من شعراء الحماسة الشجرية ومن سكان المدينة المنورة.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٨ ص٢٦٨ ـ ٢٧٥.
«والأعلام»: الزركلي مج٣ ص٩٧.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٨٧.

(٣) نفسه مج٣ ص١٨٨.

(٤) انظر ص١٦٩ من كتابنا.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

ساق أبو عثمان دعاء أعرابي يطلب من رَبّه، مالكِ الدُّنيا ووارثِها، أَنْ يُنَزِّلَ الغَيْثَ، فالماء أصل الحياة. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].

الغيث إذا تأخر، عَمَّ الجفاف ومات الزرع والضَّرْع. قال أعرابيٌّ:

لا هُمَّ أنتَ الرَّبُّ تُسْتَغَاثُ   لَكَ الحياةُ ولكَ المِيراثُ
وقد دعاكَ الناسُ فاستغاثوا   غياثَهُم وعندك الغِياثُ
ولم يكن سَيْبُكَ يُسْتَرَاثُ   لم يبقَ إلا عِكْرِشٌ أَنْكاثُ
وشيجةٌ أُصولُها مُثَّاثُ   وطاحت الألبان والأرماثُ[2]

وقال الكذّاب الحِرْمازي[3] يهجو رهط «التِّلِبّ»[4] لأنهم يدّعون نسباً كاذباً فيرجو الله أن تأتيهم سنة مُجْدِبةٌ تأخذهم وإبلهم وما يملكون جميعاً:

لا هُمَّ إن كانت بنو عَمِيرة   رهط التِّلبّ دعوةً مستورةْ
قد أجمعوا لِحِلْفَةٍ مَصْبورَة   واجتمعوا كأنَّهم قارورةْ
في غَنَمٍ و إبلٍ كثيرة   فابعثْ عليهم سَنَةً قاشوره
تحتلقُ المالَ احتلاقَ النُّوره[5]

ورجا أعرابي رَبَّه الغفور الرحيم، العفو عن ذنوبه، فقد بَشَّره رهطه بسُكنى جهنّم، فردَّ عليهم بأنهم جاهلون عفو الله وكرمه ورحمته وغفرانه:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) سيبُك: عطاؤك. يستراث أي يستبطأ والريث: البطء. العِكْرِش: نبات خشن وفي أطراف ورقِهِ شوك. والانكاث: متفرقة: كما ينكث الحبل، وهو أن ينقض وينكث خيوطه بعد إبرامها.
الوشيجة: المشتبكة. والمُثاث: النَّدِيّة. والأرماث: مراعي الإبل.
انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٣) هو عبد الله بن الأعور، وقيل له الكذاب لكذبه كمافي «الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص١٦٢.

(٤) التِّلِبّ: رجل من بني العنبر كما في «لسان العرب»: ابن منظور. مادة تلب. مج١ ص٢٣٢.
وانظر الأبيات. مادة. حلق. مج١٠ ص٥٩.

(٥) مصبورة: يمين الصبر، والقارورة: وعاء زجاج، قاشورة: مُجْدِبة.
تحتلق المال: تذهب به والمال هنا الإبل، والنُّورة: حجر يحرق ويسوى منه الكلس.
انظر. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٢٧٦.

يا ربِّ قد حلَفَ الأقوامُ واجتهدوا   أيمانَهُمْ أَنَّني من ساكِني النارِ
أَيَحْلِفون على عمياءَ ويلَهُمُ   جهلاً بعفو عظيمِ العفوِ غفّارِ(١)

وسأل عبيدٌ العنبري(٢)، وهو أحد اللصوص، رَبَّه تعالى توبة نصوحاً وغفراناً عن الذنوب التي ارتكبها أيام جهله واتباعِهِ هواه وفُقْدانِه عقله فقال:

يا ربِّ عَفْوَكَ عن ذي توبةٍ وَجِلٍ   كأنَّهُ مِنْ جِذارِ الناسِ مجنونُ
قد كان قَدَّم أعمالا مُقارِبَةً   أيامَ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلا دينُ(٣)

٦ ـ النِّعال

النَّعْلُ، والنَّعْلة، ما وُقيتْ به القدمُ من الأرض، مؤنثة.

قال ابن الأثير: النَّعل مؤنثة وهي التي تلبس في المشي تسمى الآن تاسومة، ووصفها بالمفرد وهو مذكر لأن تأنيثها غير حقيقيّ. والفَرْدُ هي التي لم تُخْصف ولم تُطارق وإنما هي طاقٌ واحد.

والعرب تمدح برقة النِّعال وتجعلها من لباس الملوك(٤).

قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾(٥).

---

(١) المصدر نفسه «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٦٢.

(٢) عُبيد بن أيوب، من بني العنبر، وكان جنى جناية فهرب في مجاهل الأرض وأبعد في الهرب حذراً على نفسه، وكان السلطان أباح دمه، وكان يخبر في شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ويُبايت الذئاب والأفاعي ويأكل الظباء والوحوش.
«الشعرا والشعراء»: لابن قتيبة. ص١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٦٢.

(٤) ولعل الأمير أسامة بن المنقذ: (٤٨٨ ـ ٥٨٤هـ) كان كتابه الضخم (العصا) اقتباساً مما كتبه الجاحظ، زاد عليه واستوفى مسائل العصا.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة نعل مج١ ص٦٦٧.
«العصا»: أسامة بن المنقذ. تحق حسن عباس. تقديم الدكتور محمد مصطفى هدارة. طبع الهيئة المصرية للكتاب. الإسكندرية ١٩٧٧م.

(٥) سورة طه، الآية: ١٢.

أمره الله سبحانه بخلع نعليه (والأمر موجه إلى موسى عليه السلام)، لأن ذلك أبلغ في التواضع وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب، وقيل إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل معنى الخلع للنعلين: تفريغ القلب من الأهل والمال وهو من بدع التفاسير.

ثم علل سبحانه الأمر بالخلع فقال: (إنَّكَ بالوادِ المقدس طُوى) المقدَّس: المطهر.

والقدس: الطهارة. والأرض المُقَدّسة: المطهّرة، سميت بذلك لأن الله أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين. وطوى: اسم للوادي. قال الجوهري: طُوى يصرف ولا يصرف. فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة[1].

والنّعال سلعة فرضتها حاجة الإنسان إليها لحماية قدميه وسلامةِ مَشْيه، وأكثر ما كانت تُصْنَعُ من جلود الحيوانات.

تفنّن العرب في صنعها، فضربت بها الأمثال، وصيغت فيها الأقوال، فما هي شواهدها في «البيان»؟

قال علي بن أبي طالب[2] رضي الله عنه: جمال الرجل في عِمَّتَهِ، وجمال المرأة في خُفِّها. وقال الأحنف[3]: استجيدوا النِّعال فإنها خلاخيل الرِّجال[4].

قال الجاحظ: العرب تلهج بذكر النّعال، والفُرْسُ تلهج بذكر الخِفاف...

وفي الحديث المأثور: «أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا ينهون نساءهم

---

(١) «فتح القدير»: الشوكاني مج٣ ص٣٥٨.

(٢) انظر حاشية ص١٣١ من هذا الكتاب حاشية رقم ٥.

(٣) هو الأحنف بن قيس، أبو بحر. انظر ترجمته في ص١٣٢ من هذا الكتاب حاشية رقم ٤.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٨٨.

عن لُبْسِ الخِفاف الحُمْرِ والصُّفرِ ويقولون هو من زينة نساء آل فرعون». وأما قول شاعرهم.

إذا اخضرَّتْ نِعال بني غُرابٍ بغَوْا ووجدتَهُمْ أشْرَى لئاما

فلم يرد صفة النَّعل وإنما أراد أنه إذا اخضرّت الأرض وأخصبوا، طَغَوا وبغَوا[1].

وقال النابغة[2] مادحاً:

رِقاقُ النِّعال طَيِّبٌ حُجُراتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيحان يوم السَّباسبِ[3]

وبنو الحارث بن سَدوس[4] لم ترتبط حِماراً قط، ولم تلبس نعلاً قط إذا نَقِبَتْ. وقد قال قائلهم:

ونُلقي النِعال إذا نُقِّبت ولا نستعينُ بأَخْلاقها[5]

وقال عُتيبة بن مِرداس[6]، وهو ابن فَسْوة، في قوم يخصرون النَّعل ولا يخصفونه.

---

(١) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص١٠٦.

(٢) انظ ص٢١٩ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

(٣) السباسب: يوم الشعانين من أعياد النصارى.
«البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٣ ص١٠٧.

(٤) السَّدوسُ: الطَّيْلَيانُ، وسدوس اسم رجل. وزعم ابن حمزة أن الأمر عكس ذلك.
وسدوس موضعين من تميم وربيعة والثاني في سعد بن نبهان.
وقيل: كل سَدوسٍ في العرب مفتوح السين إلا سدوس بن أصمع.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة سدس مج٦ ص١٠٥.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٠٧.

(٦) عُتَيْبَة بن مرداس من بني كعب، ابن عمرو بن تميم. شاعر هجاء، مقل، مخضرم. أدرك الجاهلية والإسلام وشهد حُنيناً مع المشركين وأسلم بعدها.
قال الأصمعي: أنعتُ الناس للإبل عُتيبة. وكان له مولى يغضب إذا قيل له ابن فسوة. فقال له عتبة ذلك يوماً، فغضب فقال أعطني عنزاً وانقل إلي هذا الاسم فأعطاه عنزاً وأشهد عليه أنه قد اشترى هذا الاسم فلا يُعَيَّرُ به فلزمه الاسم.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة. ص٨١ ـ ٨٢.
«الأعلام»: الزركلي مج٤ ص٢٠١.

إلى معشرٍ لا يَخْصِفونَ نعالَهُم   ولا يلبسون السِّبْتَ ما لم يُخَصَّرِ[1]

وقال الشاعر[2]:

يا ليت لي نعلين من جلد الضَّبُعْ   وَشُرُكاً مِن اسْتِها لاَ تَنْقَطِعْ
كُلَّ الحذاء يحتذي الحافي الوَقِعْ[3]

قال الجاحظ: فهذا كلام محتاج، والمحتاج يَتَجوَّز.

وقال الشاعر[4] يصف ضرب صدور بناته، وهُن مكشوفات الرؤوس، بالنعال:

وقام بناتي بالنِّعال حواسراً   وألصقن وقْعَ السِّبْتِ تحت القلائدِ

قال الجاحظ: فإن النساء ذوات المصائب إذا قمن في المَنَاحَات كُنَّ يَضْرِبْنَ صُدُورهنَّ بالنِّعال[5].

٧ ـ النَّوكى والحمقى

النَّوكى جمع الأَنْوَكْ أو الأَحْمَق[6]، من بدع العصر العباسي بل من بدع

---

(١) خصف النعل يخصفها خصفاً: ظاهَرَ بعضها على بعض خرزَها، وكل ما طورق بعضه على بعض فقد خُصِفَ.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة خصف. مج٩ ص٧١.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٠٩.
والسِّبْتُ: بالكسر كل جلد مدبوغ ومنه النعال السبتية. لا شعر عليها.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة سبت. مج٢ ص٣٦ ـ ٣٧.

(٢) ذكره الجاحظ في البخلاء. وجاء في «لسان العرب»: أن هذا الشعر لجسَّاس بن قطيب ويكنى أبا المقدام. قال الأزهري: معناه أنَّ الحاجة تحمل صاحبها على التعلق بكل شيء قَدَر عليه.
«البخلاء»: تحق الحاجري ص١٨٨. «لسان العرب»: ابن منظور. مادة وقع مج٨ ص٤٠٧.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٤) الشاعر هو أبو ذؤيب الهذلي كما في «لسان العرب»: ابن منظور، مادة حسر مج٤ ص١٨٨.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص١١١.

(٦) الأنوكُ: الأحمقُ وجمعه النَّوكى. أُجْرِي مجرى هكلى لأنه شيء أصيبوا به في عقولهم. والنُّوك عند العرب العَجْزُ والجَهْلُ.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة نوك. مج١٠ ص٥٠١.

كل عصر، فلم يَفُتِ الجاحظ الإشارة إلى أفعالهم وأقوالهم في «البيان» حتى لا تكون لوحته ناقصة. ومن النُّوكي: أبو الربيع العامريّ[1]، واسمه عبد الله، وكان ولي بعض منابر اليمامة وفيه يقول الشاعر:

شهدتُ بأنَّ الله حقٌّ لقاؤُهُ وأنَّ الربيعَ العامريَّ رقيعُ
أقاد لنا كلباً بكلب ولم يدعْ دماء كلابِ المُسْلمِينَ تضيعُ[2]

وروى الجاحظ ما دار بين معاوية وربيعة. قال: وفد ربيعة بن عسل على معاوية - وهو من بني عمرو بن يربوع - فقال لمعاوية: أعِنّي بعشرة آلاف جذع في بناء داري بالبصرة. فقال له معاوية: كم دارك؟ قال: فرسخان في فرسخين. قال معاوية: هي في البصرة أم البصرة فيها؟ قال: بل هي في البصرة. قال فإن البصرة تكون هذا[3].

وقال أبو الأحوص الرِّياحيّ[4]:

ليس بيربوع إلى العقل حاجة سوى دَنَس تَسْوَدُّ منه ثِيابُها
فكيف بنوكى مالكٍ إن كفرتُمُ لهمْ هذه أم كيف بعدُ خِطابُها[5]

ومن النَّوكى كلاب بن ربيعة[6] وهو الذي قتل الجُشميَّ قاتل أبيه دون إخوته وهو القائل:

ألم تَرَني ثَأَرْتُ بشَيْخٍ صِدْقٍ وقد أخذ الإدارة فاحتساها

---

(١) وردت الأبيات في العقد، وقد سماه صاحبه «الربيع العامري».
«العقد الفريد»: لابن عبد ربه مج٦ ص١٥٨.
(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٥٩.
(٣) نفسه مج٢ ص٢٦٠.
(٤) الأحوص تحريف والأصح الأخوص الرياحي اليربوعي: أي الغائر العينين. واسمه زيد بن عمرو بن قيس بن عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع... شاعر إسلامي.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج٢ ص١٤٢ - ١٤٣.
(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٦٠ - ٢٦١.
(٦) كلاب بن ربيعة: بن عامر بن صعصعة بن قيس عيلان من عدنان. جَدٌّ جاهلي غير معروف الولادة. «الأعلام»: الزركلي مج٥ ص٢٢٩.

ثَـأرتُ بِـشَـيْـخِـهِ شيـخـاً كـريـمـا   شِفـاء الـنفـس إنْ شَيْءٌ شَفـاهـا[1]

ومنهم نَعَامةُ، وهو بَيْهَسُ[2]، الشاعر الذي قال: مُكْرَهٌ أَخاكَ لا بطل.

وإياه يعني الشاعر[3]:

ومـن حـذرِ الأيـام مـا حَـزَّ أنـفَـهُ   قصيرٌ ولاقى الموتَ بالسيف بَيْهَسُ
نَـعَـامـةُ لَـمَّـا صَـرَّع الـقـومُ رَهْـطَـهُ   تَـبَـيَّـنَ في أثـوابه كـيف يَـلْـبَسُ[4]

وأنشدوا:

أرى زمـنـاً نـوكـاه أسـعـدُ أهـلِـهِ   ولـكِـنَّـمـا يـشـقـى بـه كُـلُّ عـاقِـلِ[5]

قال الجاحظ «صالح بن سليمان[6] قال: مِنْ أحمقِ الشعر قول الذي يقول:

أهيـم بِدَعْـدٍ مـا حييتُ فـإنْ أَمُتْ   أُوكِّلْ بِدعدٍ مَنْ يَهِيمُ بها بَعْدي»[7]

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص١٦ ـ ١٧.

(٢) بيهس بن صهيب بن عامر: (ت١٠٠هـ/ ٧٢٠م). يكنى أبا المقدام. شاعر، فارس، شجاع من شعراء الدولة الأموية ومن خبره أنَّ قوماً أغاروا على أهله وقتلوهم، فجمع جمعاً وغزا المعتدي وأدرك ثأره. وكان يحب امرأة من قومه يقال لها صفراء، وكان يكتم وجده لأنه صعلوك ولا مال له. رأته صفراء ونساء الحي يتعرضْنَ له، فهجرته زماناً. ماتت وهي عذراء. وسمي نعامة لأنه كان جسيماً طويلاً. «الأغاني»: الأصفهاني مج٢٢ ص١٢٩ ـ ١٣٤.
«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٨١.

(٣) هو المُتَلَمِّسُ، لَقَبٌ غلب عليه لبيت شعر قاله، واسمه جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن دوفن... ابن ربيعة بن نزار.
انظر حديث بيهس في «الأغاني»: الأصفهاني مج٢٣ ص٥٣١ ـ ٥٤١.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص١٧.

(٥) نفسه. مج٤ ص٢٠.

(٦) لعله أبو محمد ابن غلام الزهري.
انظر «لسان الميزان»: العسقلاني مج٣ ص١٧٠ رقم ٦٩٠.

(٧) ذكر الأصمعي عن حماد أنه قال: أطرف الناس النَّمر بن ربيعة بن النمر وهو القائل أهيم بدعد...
كما في «الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص٦٢.
وانظر «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٤ ص١٠.

وقال حبيب بن أوس[1]:

مـا ولَـدتْ حَـوّاءُ أحـمـقَ لِـحـيـةً   مِنْ سائلٍ يرجو الغِنى من سائلِ[2]

وقال بشرُ بن المُعْتَمِر[3]:

وإذا الـغَـبِـيُّ رأيـتَـهُ مُـسْـتَـغْـنِـيـاً   أعيا الطّبيبَ وحيلةَ المُحْتالِ[4]

ومن غرائب الحُمْقِ: المذهب الذي ذهب إليه الكميت بن زيد[5] في مديح النبي ﷺ:

إلـى الـسّـراج الـمـنـيـر أحـمـد لا   تـعـدِلُـنـي رغـبـةٌ ولا رَهَـبُ

عـنـه إلـى غـيـره ولـو رفـع الـنـا   س إلـيَّ الـعـيـون وارتـقـبـوا

وقـيـل أفـرطـتُ بـل قـصـدتُ ولـو   عَـنَّـفـنـي الـقـائـلـون أو ثَـلَـبـوا

إلـيـك يـا خـيرَ مَنْ تَضَمَّنت الأر   ضُ ولـو عـاب قـولـي الـعُـيَّـبُ

لَـجَّ بِـتَـفْـضـيـلـك الـلّـسـان ولـو   أُكْـثِـرَ فـيـك الـلّـجـاجُ والـلَّـجَـبُ

قال الجاحظ: فمن رأى شاعراً مدح النبي ﷺ فاعترض عليه واحدٌ من جميع أصناف الناس، حتى يزعم هو أن ناساً يعيبونه ويثلبونه ويُعَنِّفونه؟.

وقد مدح النبي ﷺ، فما زاد على قوله:

وبـوركَ قَـبْـرٌ أَنْـتَ فـيـه وبـوركـت   بـه ولـه أهـلٌ بـذلـك يـثـربُ

يعني قبر النبي ﷺ. ويثرب يعني المدينة.

لـقـد غَـيَّـبـوا بِـرّا وحَـزْمـاً ونـائـلاً   عـشِـيّـة واراه الـصّـفـيـحُ الـمُـنَـصَّـبُ

وهذا شعرٌ يَصْلُحُ في عامة الناس[6].

---

(1) انظر ص٢٥٧ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.
(2) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٢٠.
(3) سبقت ترجمته في ص٩٢ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٢.
(4) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٢٢.
(5) انظر ص٢٨٩ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٢.
(6) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٣٩ ـ ٢٤٠.

ومن الحمقى كُثيِّر عَزَّة[1] مدح عبد العزيز بن مروان، ولمّا خرج لم ينلْ شيئاً. قال في ذلك.

عَجِبْتُ لأخذي خُطَّة الغيّ بعدما   تَبَيَّنَ من عبد العزيز قَبولُها
فإن عاد لي عبد العزيز بِمِثلِها   وأمكنني منها إذاً لا أُقيلُها[2]

قال الجاحظ: وأنشد بعض أصحابنا:

أَلِكْني إلى مولى أُكَيْمَةَ وانْهَهُ   وهل ينتهي عن أول الزجر أَحْمَقُ[3]

وقال الجاحظ: ولما دخل خالد بن طليق[4] على المهدي مع خصومه، أنشد قول شاعرهم:

إذا القُرَشِيُّ لم يَضْرِبْ بعرق   خزاعيّ فليس من الصميمِ[5]

فغضب المهدي وقال: أحمق.

وقال الشاعر يمدح نفسه:

أُعَلِّلُ نفسي بما لا يكون   كما يفعل المائق الأحمقُ[6]

وهكذا نرى أنَّ الحماقة عيب من عيوب الإنسان، يتجنبها العاقل، وينغمسُ بها الجاهل.

وقد مَثَّل عليها الجاحظ، شعراً، بدقة وكفاءة.

---

(١) كُثيِّر: (ت١٠٥هـ/ ٧٢٣م). هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة من خزاعة، ويكنى أبا صخر، أحد عُشّاق العرب المشهورين وصاحبته عَزَّة وعُرِف بها وهي في ضميره. أقبل على عبد الملك بن مروان فازدرى منظره، وكان مفرط القصر دميماً، في نفسه شمم وترفع، ولما عرف أدبه رفع مجلسه. شاعر أهل الحجاز في الإسلام، وقيل إنه من غلاة الشيعة وينسبون إليه القول بالتناسخ. «الشعر والشعراء»: لابن قتبة. ص١٢١ ـ ١٢٤. «الأعلام»: الزركلي مج٥ ص٢١٩.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٤١.

(٣) نفسه مج٢ ص٢٤٩.

(٤) خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين الخزاعي.
ولاه المهدي قضاء البصرة وكان معجباً تيَّاهاً.
«الفهرست»: لابن النديم ص١٣٩.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٦) نفسه مج٢ ص٣٥٤.

٨ ـ المجـانيـن

الجنون إنما هو من نقصان العقل[١].

والمجنون هو الذي سُلب عقله، فلا يَعْقِلُ شيئاً أصلاً ولا يفيق بحال.

أما الذي يعقل بعض الأشياء دون بعض ويكون قليل الفهم مختلط الكلام فاسد التدبير إلا أنه لا يَشْتُم ولا يَضْرِب، فإنه يُسمَّى معتوهاً.

أما المجنون الذي يفيق أحياناً بحيث يزول ما به بالكلية فإنه في حال إفاقته كالبالغ العاقل فلا يُحْجَرُ عليه ويَنْفُذُ تصرفه في هذه الحالة[٢].

وذِكْرُ المجانين في «البيان» والتمثيل عليهم شعراً، نوع من البراعة الأدبية، وتصوير لحالةٍ غير طبيعية، بل تأريخ للعقلاء.

وهذا الدّاء ذَكَرَهُ الله تعالى في مُحْكم تنزيله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾[٣] ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[٤] فالمجنون خلاف العاقل، والجنون مرض يفقد به الإنسان أهليته في الشرع والقانون. وعَرْضُ الجاحظ لبعض أنواعه في «البيان» لافتٌ للنظر، وعبرةٌ لمن اعتبر، لأنه قَلَّ أَنْ تَرَى أو تقرأ أو تسمع، شاعراً مجنوناً.

وهذه من غايات الجاحظ المقصودة في «البيان». فكيف مثّل بشواهده الشعرية عليها؟.

يقول الجاحظ: ومن المجانين المُوسوسين جُعيفران[٥] الشاعر، فشهدتُ

---

(١) «لسان العرب»: ابن منظور. مادة جنن مج١٣ ص٩٦.

(٢) «الفقه على المذاهب الأربعة»: عبد الرحمن الجزيري ط٧. دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٨٦ مج٢ ص٣٦٦.

(٣) سورة القلم، الآية: ٥١.

(٤) سورة التكوير، الآية: ٢٢.

(٥) هو جُعيفران بن علي بن أصفر بن السريّ بن عبد الرحمن الأبناوي من ساكني (سر من رأى) ومسكنه ومولده ومنشؤه ببغداد. أديب شاعر مطبوع. غلبت عليه المِرَّة السوداء فاختلط وبطل في أكثر أوقاته ومعظم أحواله. ثم كان إذا أفاق تاب إلى عقله فقال الشعر المجيد.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٢٠ ص١٤٧.
«العقد الفريد»: ابن عبد ربه مج٦ ص١٦٥.

رَجُلاً أعطاه دِرهماً وقال له قل شعراً على الجيم فأنشأ يقول:

عـادَنـي الـهَـمُّ فـاعـتـلـجْ كـلّ هـمٍّ إلـى فـرج
سَـلِّ عَـنْـكَ الـهُـمـوم بـالـكـا سِ وبـالـراحِ تَـنْـفَـرِجْ[1]

وكان يَتَشَيّع فقال له قائل: أتشتمُ فاطمةَ وتأخذُ درهما؟ قال: لا بل أشتمُ عائِشة وآخذُ نِصفَ درهم. وهو الذي يقول:

مـا جـعـفـرٌ لأبـيـه ولا لـه بـشـبـيـهِ
أضـحـى لـقـومٍ كـثـيـرٍ فـكـلـهـم يَـدَّعـيـهِ
فـذا يـقـول بُـنَـيَّ وذا يـخـاصـمُ فـيـهِ
والأمُّ تـضـحـكُ مـنـهـم لِـعـلْـمِـهـا بـأبـيـهِ[2]

وكذلك كان أبو حَيَّة النُّميري[3]، أَجَنَّ من جُعيفران وكان أشعر الناس وهو الذي يقول:

ألا حيِّ أطلالَ الرّسومِ البواليا لبِسْنَ البلى مما لبِسْنَ اللياليا

وفي هذه القصيدة يقول:

إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ تقاضاه شيءٌ لا يَملُّ التقاضيا

وهو الذي يقول:

فأرخت قِناعاً دونَه الشمس واتَّقتْ بأحسنِ موصولين كفٍ ومِعْصَمِ[4]

---

(١) القصة برمتها في «الأغاني»: الأصفهاني مج٢٠ ص١٤٧.
وانظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٢٧.

(٢) نفسه تحق هارون مج٢ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٣) أبو حية النميري هو الهيثم بن الربيع بن زرارة بن كثير... شاعر جيد مقدَّمٌ من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. وقد مدح الخلفاء فيهما جميعاً. من سكان البصرة. كان أهوج جباناً بخيلاً كذاباً. وقيل إنه كان يصرع.
«الأغاني»: للأصفهاني مج١٦ ص٢٣٦ ـ ٢٣٩.
«العقد الفريد»: لابن عبد ربه مج٦ ص١٦٤ـ ١٦٥.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج٣ ص١٥٤.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٢٩.

وبباب المسجد مجنونة تصفّق لقاض وتقول:

أَرّقَ عينيَّ ضُراطُ القاضي هذا المقيمُ ليس ذاك الماضي[1]

كما أورد الجاحظ قول مجنون بني عامر[2]:

أَأَغقِر من جَرًا كريمةَ ناقتي ووصْلِيَ مفروشٌ لِوَصْلِ مُنازِلِ
إذا جاء قَعْقَعْنَ الحُليّ ولم أكنْ إذا جئت أرجو صوتَ تلك الصّلاصِلِ
ولم تُغْنِ سِيجان العراقَيْن نُقْرةً وَرُقْشُ القَلَنْسِيَ بالرِّجالِ الأَطاولِ[3]

نكتفي بهذا القَدْرِ من غايات الجاحظ في «البيان» التي صورها بشواهده الشعرية أحسن تصوير ليظهر أهميتها، فجاء كتابه موسوعة، وصورة عن عصر، وتاريخاً للأجيال، نقرأ فيها حوادث وأحوالاً يعجز المرء في عصرنا عن تخيلها. فما بالك بما سَيُقْرأ عن عصرنا في المستقبل؟

فشواهد الجاحظ الشعرية وسيلة من وسائل عرض غايات أبي عثمان، خدمت أهدافه وطبعتها في الأذهان ليكون «البيان والتبيين» مرجعاً متداولاً عبر العصور.

---

(١) نفسه «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٢٣١.

(٢) هو قيس بن المُلوّح وقيل ابن معاذ، لم يكن مجنوناً ولكن كانت فيه لوثة كلوثة أبي حية النّميري ولكنها لوثة العشق لليلي. وسبب عشقه أنه أقبل على ناقة كريمة فمر بامرأة من قومه يقال لها كريمة، وكانت ليلى بين جماعة النسوة التي يتحدثن إليها.
نزل قيس ونحر لهنّ ناقته وحدّثهن طيلة النهار فَمَالَ قلبه لليلى، ثم أتى فتى عليه بُرْدَة من بُرودِ الأعراب فتركن قيساً والتحقن به. فغضب وقال تلك الأبيات.
«الأغاني»: الأصفهاني مج٢ ص٥ ـ ١٤.

(٣) السيجان: الطيالسة وأحدها ساج السود، مفردها طيلسان.
والرُقش جمع أرقش ورقشاء وهو ما فيه نقط من بياض وسواد. والقَلَنْسِى بكسر السين وفتحها: جمع قُلَنْسُوَة.
انظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٩٨ ـ ٩٩.

الفصل السادس

الشعر والشعراء في البيان والتبين

لَهَجَ «البيان» بذكر الشّعر والشعراء، لأنهما مُرْتَكَزُهُ ومِحْوَرُه الذي من خلاله أنار الجاحظ طريقه وعَبّدَه، لهذا كان دور الشّعر هاماً في «البيان» وشاهداً أساسياً على غايات الجاحظ.

فكيف تعامل معهما في كتابه[1]؟.

غَصّتْ الجاهلية بالشعراء، حتى حِيكت حولهم الخرافات، ولم يصلنا إلا أخبار القليل لانعدام التدوين والاعتماد على الرواية.

«ولم يزل الشعر ديوان العرب في الجاهلية لأنهم كانوا أميّين، ولم تكن الكتابة إلا لأهل الحيرة ومن تعلم منهم. فإنما حفظت مآثرها وأخبار أوائلها ومذكور أحسابها ووقائعها ومستحسن أفعالها ومكارمها بالشعر الذي قيل فيها ونقله الرواة عن شعرائها».

وللشاعر مقام رفيع، وكان مقدّماً، في الجاهلية، على الخطيب.

قال الجاحظ: «وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب...»[2].

من هنا نفهم اهتمام العرب بأسواقهم الشعرية في الجاهلية والإسلام، وما

(١) «نقد النثر»: قدامة بن جعفر. ص٧٩.

(٢) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون ج٤ ص٨٣.

سوق عُكاظ والمِرْبَدْ والكِناسة في الكوفة إلا منتديات للتباري والتباهي في توليد المعاني واستخراج رقيق الألفاظ، مع حفظ جوهرها، وبيان العيوب والمزايا، والمفاخرة والمدح والهجاء والرثاء وغير ذلك من فنون الشعر وأغراضه المتنوعة.

قال ابن سلام: وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم لسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تَثْقَفُهُ العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يَثْقفه اللسان، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المُعاينة ممن يبصره(١).

وتَعَامُلُ الجاحظ مع الشعر والشعراء في «البيان والتبيين» نهج في التأريخ(٢) والتعليم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان الشعر عِلْمَ قومٍ لم يكن لهم عِلْمٌ أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولَهيَت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يَئِلوا إلى ديوان مُدَوَّن ولا كِتاب مكتوب فألغوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره(٣).

ومن أسباب فتور الشعر إبان الدعوة الإسلامية، تحدي القرآن الكريم الشعراء والبلغاء والفصحاء بأن يأتوا بسورة من مثله.

فلمسوا أن القرآن الكريم ليس بشعر، بل معجزة أعجزت الشعراء

(١) «طبقات فحول الشعراء»: محمد بن سلام الجمحي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٠ ص٦.

(٢) تدوين الأشعار وذكر الشعراء خلود لهم جميعاً وكشف عن مواقفهم وآرائهم وطريقة عيشهم وتقاليدهم، وإظهار لمقدرتهم اللغوية، وعرض لأذواقهم وأخلاقهم. فهو تأريخ لحالات ذلك العصر.

(٣) «طبقات فحول الشعراء»: محمد بن سلام الجمحي ص١٧.

وغيرهم. عند ذلك أَوَّلَ البعضُ ما جاء في التنزيل وحَسِبوا أنَّ الشعر مكروه أو مُحرَّم فاعرضوا عن الشعر والشعراء[1].

وسرعان ما عادوا إليه واستعملوه سلاحاً للذود عن الدعوة الإسلامية رداً على السُّفهاء والمشركين، وللذود عن شخص النبي الكريم، بما تعرض له من الأذى، ومما شجعهم على استعماله، رؤيتهم ارتياح نبيِّهم له واستحسانه.

روى الجاحظ أنَّ ليلى بنت النضر بن الحارث بن كلدة[2] عرضت للنبي ﷺ وهو يطوف بالبيت. استوقفته وجذبت رداءه، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها: من أبياتها:

قسراً يُقادُ إلى المَنِيَّة مُتْعَباً — رَشفَ المقيَّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ
أمحمدٌ ها أنت ضَنءُ نَجِيَّةٍ — في قَومِها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وَرُبَما — مَنَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ
فالنَّضرُ أقربُ مَنْ تركتَ قرابةً — وأَحَقُّهم إن كان عِتْقٌ يُعْتَقُ

قال رسول الله ﷺ: «لو كنت سمعت شِعَرها هذا ما قتلْتُه»[3].

وقال الجرجاني: وأما ارتياحه ﷺ للشعر واستحسانه له فقد جاء فيه الخبر، من وجوه ذلك حديث النابغة الجعدي[4]. قال أنشدت رسول الله ﷺ قولي:

بلغنا السماء مجدنا وجُدودُنا — وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا

(١) «العمدة»: لابن رشيق مج١ ص٣١.
(٢) انفرد الجاحظ في «البيان والتبيين»: من بين المصادر بتسمية ابنة النضر بن الحارث باسم ليلى. وقد ذكرت باسم قُتيلة بنت النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة... قال الواقدي: هي التي قالت الأبيات في رسول الله ﷺ لما قَتَلَ أباها، النضر بن الحارث، يوم بدر.
«العقد الفريد»: لابن عبد ربه. ج٣ ص٢٦٥ ـ ٢٦٦.
«الإصابة في تمييز الصحابة»: ابن حجر ج٤ ص٣٧٨ رقم ٨٨٩.
(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٤٣ ـ ٤٤.
(٤) انظر ترجمته في ص٢١٩ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

فقال النبي عليه السلام: أين المظهر يا أبا ليلى؟

فقلت: الجَنَّة يا رسول الله.

قال أجل إن شاء الله. ثم قال أنشدني: فأنشدته من قولي:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادرُ تحمي صفوه أنْ يُكَدَّرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأَمر أَصْدرا

قال عليه السلام: أجدتَ، لا يَفْضُضِ الله فاكَ...[1].

وقال معاوية بن أبي سفيان: يجب على الرجل تأديب ولده، والشِعر أعلى مراتب الأدب[2].

وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب[3].

والذي اضطرنا إلى الإطالة في الكلام على الشعر وتأثيره في الجاهلية والإسلام أهميته البالغة لأنه ديوان العرب، ومن بليغ اهتمام الجاحظ به، جعل كتابه «البيان والتبيين». مِرْبداً آخر يطوف به مع الشعر والشعراء، فيطلق لذاكرته العنان لتصدح بشواهد تبلور غاياته.

فهل من وسيلة أفضل وأشرف؟

كيف طرق الجاحظ الشعر؟ وكيف تعامل مع الشعراء في كتاب «البيان»؟

قال الجاحظ: وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام[4].

فالشعر وزن، والوزن لحن ونغمة، ومن هذه الموسيقى يعزف الشاعر مقطوعته في الحقل الذي يرتئيه، حتى إذا تم له ذلك وشَنَّف الأسماع حُكِمُ له

---

(١) «دلائل الإعجاز»: الجرجاني ص١٧ ـ ١٨.

(٢) «العمدة»: ابن رشيق مج١ ص٢٩.

(٣) نفسه مج١ ص٣٠.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٢٨.

بالتقدم. والشاعر إنما يأتي بقوله رغبة وشهوة، وعندما تفيض نفسه وتتحرك مشاعره يصدر لحنه ويشفي النفوس.

وللشعر وقع خاص في الضمير، وتأثير فاضح في النفس، ولا يجبر الشاعر على قوله حتى لا يفقد رونقه وتموت موسيقاه لذلك قال الفرزدق(١):

«أنا عند الناس أشعر العرب ولربما كان نزْعُ ضِرس أيسر عليَّ من أن أقول بيت شعر»(٢).

انتقى أبو عثمان شعراءه في «البيان»، فلم يَدَعْ للغثّ منهم مكاناً عنده، وجاء كتابه لخاصتهم ولبليغ قولهم حتى لا تعلو على شواهده شواهد. فذكر ما يُسْتَحَبُّ في زِيِّ الشاعر عندِ مواجهة بعض الخلفاء: «دخلَ العُمَاني(٣) الراجز على الرشيد لينشده شعراً، وعليه قَلَنْسوة طويلة وخُفٌّ سَاذَج فقال:

إياكَ أَنْ تنشدني إلا وعليك عمامةٌ عظيمةُ الكَوْرِ، وخُفَّانِ دُمالِقَانِ»(٤).

ووصف بدقة كيف بنىٰ بعض الشعراء قصائدهم: «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كِرِّيتاً(٥) وزمناً طويلاً يُرَدِّدُ فيها نظره ويُجيل فيها عقله، ويُقلِّب فيها رأيه، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه فيجعل عقله، زماناً على رأيه، ورأيه عِياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوّله الله تعالى من نعمته(٦)، ثم صنّفهم إلى طبقات أربع:

---

(١) انظر ترجمته في ص ١٢٧ من هذا الكتاب.

(٢) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٣٠.

(٣) العماني الفقيمي: هو محمد بن ذؤيب. ولم يكن من أهل عمان، ولكن نظر إليه دكين الراجز فقال: من هذا العماني؟ وذلك أنه كان مصفراً مطحولاً وكذلك أهل عمان.
انظر بقية أخباره في «الشعر والشعراء»: ابن قتيبة ص١٧٦.

(٤) الدُّمالق: المُسْتدير. والمدملق من الحجر ومن الحافر: الأملس المُدوَّر.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة مدق ج١٠ ص١٠٥.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٩٥.

(٥) سنة كرّيتٌ وحول كرّيتٌ أي تام العدد وكذلك اليوم والشهر.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة كرت مج٢ ص٧٨.

(٦) «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج٢ ص٩.

«والشعراء عندهم أربع طبقات: فأولهم الفحل الخنديذ[1]، والخنديذ هو التام، ودون الفحلِ الخنديذِ: الشاعرُ المُفْلِقُ، ودون ذلك الشاعرُ فقط، والرابع الشُّعْرُور[2].

وسمعت بعض العلماء يقول: طبقات الشعراء ثلاث: شاعر وشويعر وشُعْرور[3].

ومَثَّل بالشويعر بمحمد بن حُمران بن أبي حُمران[4] ولم يُمَثِّل بالشعرور، ومعظم شواهد الجاحظ في «البيان» للفحول.

قال الجاحظ: وزعم ناس أن الخنديذ من الخيل هو الخصيّ، قال البرجمي[5]: وخناديذ خصيةً وفُحُولا[6].

وكشف الجاحظ عن معاني كلامهم فأطلق أحكامه فيهم. قال في معاني ثُمامة[7]: وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي، كان بلغ من حُسْنِ الإفهام مع قِلّة عدد الحروف، ولا من سُهولة المخرج مع السلامة من التكلُّف، ما كان بلغه.

---

(١) الخنديذُ: هو الشاعر المجيد، المُنَقِّح المُفلق.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة خنذ مج٣ ص٤٨٩.

(٢) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٩.

(٣) الشعارير واحدها شُعرور وهي صغار القِثّاء. والقِثاء: الخيار، وقيل لعب الأطفال.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة. قثأ مج١ ص١٢٨.
ومادة. شعر مج٤ ص٤١٦.
وتلطف بالرجوع إلى «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٠.

(٤) محمد بن حُمران بن أبي حُمران، هو ربيعة بن مالك الجعفي المعروف بالشويعر.
«خزانة الأدب»: البغدادي مج٢ ص٢٤ ـ ٢٥.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٠.

(٥) هو خُفاف بن ندبة، وندبة أُمُّه، وهي امرأة سوداء، وخُفاف أحد فرسان قيس ومن شعرائها المشهورين وأحد أغربة العرب أي سودانهم لأنه كان أسود حالكاً.
«خزانة الأدب»: للبغدادي مج٢ ص٤٧٢ ـ ٤٧٣.

(٦) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١١.

(٧) انظر ص٩٣ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

وكان لفظُه في وزن إشارته، ومعناه في طبقةِ لفظِهِ، ولم يكن لفظُه إلى سمعك بأسرعَ من معناه إلى قلبك(١).

وكان يقال عن الحُطيئة(٢): عبدٌ لشِعرِهِ. فعاب شعره حين وجده كله متخيراً منتخباً مستوياً لمكان الصنعة والتكليف والقِيام عليه(٣).

ثم ذَكَرَ كثيرا من الشعراء المطبوعين من المولَّدين وقال إن بشاراً أطبعهم كلُّهم(٤). كما سمَّى من كان يجمع بين الخطابة والشعر والبيان، ككُلْثوم بن عمرو العتّابي(٥) وعلى حذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلّف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النّمريّ ومُسْلم بن الوليد الأنصاري(٦).

وكان العتّابي يحتذي حَذْو بشار في البديع. ولم يكن من المولدين أصوب بديعاً من بشار(٧) وابن هرمة(٨).

ثم يوزع الجاحظ أحكامه على الشعر والشعراء: قال: «ووصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبرود العصب(٩) وكالحُلَلِ والمعاطف والديباج والوشي وأشباه ذلك»(١٠)، وضرب الأمثال.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١١١.

(٢) انظر ص٢٦٦ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٣) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٠٦.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥٠.

(٥) انظر ص١٢٦ من هذه الرسالة. حاشية رقم ٢.

(٦) انظر ترجمتها في ص٢٦٠ هذا الكتاب حاشية رقم ١ و٢.

(٧) انظر حاشية رقم ٣ في ص١٢٠ من كتابنا.
وتلطف بالرجوع إلى «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٥١.

(٨) إبراهيم بن علي: (ت١٠٨٣هـ/ ١٦٧١م). أبو إسحاق. شاعر غزل من سكان المدينة ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. «الأعلام»: الزركلي مج١ ص٥٠.

(٩) البُرْد من الثياب. قال ابن سيدة: البُرْد ثوب فيه خطوط وخص بعضهم به الوشي. والجمع أبرادٌ وبُرود. والعَصْب: الطَّيُّ الشديد.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة. برد مج٣ ص٨٧.
ومادة. عصب مج١ ص٦٠٢.

(١٠) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٢٢ ـ ٢٢٦.

ويرى أن بعضهم أصاب مقادير الكلام. ومن تشابيهه الرائعة في إصابة مقادير الكلام: ليس طيبُ الطعام بكثرة الإنفاق وجودة التوابل، وإنما الشأن في إصابة القدْرِ[1].

ويتحدث عن الشعر بصورة عامة، فَيُبيِّن الطُّرق التي يتميّز بها الشعر الجيد من الشعر الرديء، كأنه صائغ ينقد الدينار:

إذا كان الشعر مُسْتكرهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلاّت[2]. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مُرْضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة.

وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرِغ إفراغاً واحداً وسُبِك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان[3].

وينتقل إلى تأثير الشعر في النفوس، فيظهر تأثيره على الأعراب وخوف القبائل والأشراف من الهجاء.

«كان الرجل من بني نُمَيْر إذا قيل له ممن الرجل؟ قال نميري كما ترى. . فما هو إلا أن قال جرير[4]:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٢٧.

(٢) العَلَّة: الضَرَّة. وأبناءُ عَلاَّت: يُستعمل في الجماعة المختلفين.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة علل. مج١١ ص٤٧٠.

(٣) الدُّهن معروف: دهن دهناً: بلّه.
والاسم الدُّهن والجمع دِهان وأدْهان.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة دهن مج١٣ ص١٦٠ ـ ١٦١.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٦٦ ـ ٦٧.

(٤) انظر ترجمته في ص١٣٦ حاشية رقم ٢ من كتابنا.

حتى صار الرجل من بني نُمير إذا قيل له ممن الرجل؟

قال: من بني عامر[1]؟

قال الجاحظ: وهذه القبائل فيها فضل كثيرٌ وبعض النقص. فمحق ذلك الفضل كلَّه هجاءُ الشعراء[2].

ثم يستطرد بقوله: ومما يدل على قدر الشعر عندهم بكاء سيِّد بني مازن:

مخارق بن شهاب[3] حين أتاه محرز بن المكعبر العنبري[4] الشاعر فقال: إنَّ بني يربوع أغاروا على إبلي فاسعَ لي فيها؟

فقال: وكيف وأنت جار وَرْدان بن مَخْرَمَة؟ فلما وَلَّى محرز محزوناً بكى مخارق حتى بل لحيته، فقالت له ابنته: ما يبكيك؟ فقال وكيف لا أبكي وقد استغاثني شاعر من شعراء العرب ولم أُغِثْه؟

والله لئن هجاني لَيَفْضَحَنِّي قوله، ولئن كف عني لَيَقْتُلَنِّي شُكْرُه!

ثم نهض فصاح في بني مازن فَرُدّتْ عليه إبله[5].

---

(١) عامر: اسم وقد سُمِّيَ به الحي والقبيلة. وعُمرَ معدول عنه في التسمية ونمير أبو قبيله من قيس وهو نمير بن عامر بن صعصعة.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة. عمر مج٤ ص٦٠٨. وج٥ ص٢٣٦.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٣٥ وص٣٨.

(٢) نفسه مج٤ ص٣٦.

(٣) مُخارق بن شهاب: أحد بني خزاعة بن مالك... وقيل ابن قيس التميمي. ذكره المرزباني ونقل عنه دعبل أنه شاعر إسلامي وأبوه أيضاً شاعر.
كانت بكر بن وائل أغارت في الجاهلية على بني ضبّة فاستاقت إبلها، فاستنجدت بمخارق، فاستصرخ قومه واستنقذ الإبل.
«ذيل الإمالي»: القالي ص٥٠ «الإصابة في تمييز الصحابة»: العسقلاني ص٤٥٥ رقم٨٣١٨.
«الحيوان»: للجاحظ. تحق هارون مج١ ص٣٦٤.
«معجم الشعراء»: في لسان العرب للأيوبي ص٣٢١ رقم ١١٤٧.

(٤) هو محرز الضبي، شاعر جاهلي من بني ربيعة بن كعب بن ضبة.
«الأعلام»: الزركلي مج٥ ص٢٨٤.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٤١ - ٤٢.

وعن مكانة الشعر، وخوف الأسياد من الهجاء، لأن وقعه على النفس أشد مِنْ ضرْبِ الحُسام، قالوا في التحذير من مِيسم الشِّعر ومن شدة وقع اللسان، ومن بقاء أثره على الممدوح والمهجو، قال امرؤ القيس بن حجر[1]:

ولـو عـن نَـثًـا غـيـرِهِ جـاءنـي   وجـرح الـلـسـان كـجـرحِ الـيـدِ[2]

وقال طَرَفه بن العبد[3]:

بِـحُسامِ سَـيْـفِكَ أو لسـانـك والـ   ـكَلِمُ الأَصيلُ كأَرْغَبِ الكَلْمِ[4]

وبعد تشريح الشعر والتَّفَقُّهِ في معانيه، خرج بمعادلة تشمل أغراضه وأهدافه، فَقَسَّمَهُ طِبْقاً لمعاني الشعراء وذكر القول المحمود والشعر الجيّد فقال: «وفي بيوت الشعر الأمثال والأوابد، ومنها الشواهد ومنها الشوارد»[5].

قال ابن سلام: «ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم»[6].

---

(١) هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، من الطبقة الأولى.
وأمير شعراء الجاهلية كان يأخذ شيئاً معلوماً من بني أسد فامتنعوا عليه، سار عليهم وأخذ سرواتهم وقتلهم بالعصي فسموا عبيد العصي.
طرده أبوه، لشعره الفاضح بفاطمة، التي كان يعشقها، ولما قُتِلَ أبوه قال: ضَيَّعني صغيراً وحَمَّلني دمه كبيراً، لاصحو اليوم ولاسكر غداً.
اليوم خمر وغداً أمر. ثم آلى على نفسه الامتناع عن اللحم والخمر حتى يثأر لأبيه.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة ص١٦ ـ ٢٠.
«الفهرست»: لابن النديم ص٢٢٣.
«شرح المعلقات السبع»: للزرزني ص٥.
«طبقات فحول الشعراء»: لابن سلام الجمحي ص٢٠.

(٢) «النَّثا: الخبر الحسن أو السيء».
انظر «البيان والتبيين»: الجاحظ. تحق هارون مج١ ص١٥٦.

(٣) انظر ص٢٢٨ من هذا الكتاب. حاشية رقم ١.

(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٥٦.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص٩.

(٦) «طبقات الشعراء»: لابن سلام ص٨.

وقال الجاحظ: «إنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ورؤبة». و«خيرُ الشّعر الحوليّ المُحَكَّك»[1].

ونرى أحكامه تتوالى عن طبيعة الشعر ووظيفته ونوعه ومعاني أبياته إلى أهدافه وأغراضه ونقده، لأن التصنُّع والتّكسُّب به، وإن كان الشعر صنعة، يحطُّ من قَدْرِ الشاعر وشعره:

«ومن تكسَّبَ بشعره التمس به صِلات الأشراف والقادة، وجوائز الملوك والسادة، في قصائد السّماطين[2]، وبالطِّوال التي تُنشَد يومَ الحفلِ، لم يجِدْ بُداً من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما[3]...

---

(١) المُحَكَّكُ من الحُكاك: ما حَكَّ من شيء على شيء فخرجت منه حُكاكة.
(والشعر المُحَكَّك: المُخْرَجُ منه ما يُبْهِتُ جَمَالُه).
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة حكك مج١٠ ص٤١٣.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٣.

(٢) والمُسَمَّطُ من الشعر: أبيات مشطورة تجمعها قافية واحدة. وقيل: المُسَمَّط من الشعر ما قُفِّيَ أرباع بيوته وسُمِّط في قافية مخالفة، يقال قصيدةٌ مُسَمَّطةٌ وسِمْطِيَّةٌ كقول الشاعر:

وشبيه كالقسم غَيْرَ سُودَ اللِّمَم
داوَيْتُها بالكَتَم زُوراً وبُهتانا

وقال الليث: الشِعر المُسمَّط الذي يكون في صدر البيت أبيات مشطورة أو منهوكة مُقفاة، ويجمعها قافية مخالفِة لازمة للقصيدة، حتى تنقضي... وأورد ابن بري مُسَمَّطَ امرىء القيس:

توهمتُ من هند معالمَ أطلالِ
عفاهُنَّ طولُ الدّهرِ في الزمن الخالي
مَرابِعُ من هند خَلَتْ ومصايفُ،
يَصيحُ بِمَغْناها صَدى وعوازِفُ
وغَيَّرها هُوجُ الرِّياح العَواصِفُ،
وكلُّ مُسِفٍ ثمَّ آخرُ رادِفُ
بأسْحَم من نَوْءِ السِّماكينِ هَطّالِ

«لسان العرب»: ابن منظور. مادة سمط. مج٧ ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٣) وتتمة كلام الجاحظ في «البيان»: فإذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود، ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طِوال القصائد في صنعة طِوال الخُطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمُقتضب (المرتجل) اقتداراً عليه، وثقة بحسن عاده الله عندهم فيه. وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومُهمّات الأمور مَيَّثوه في صدورهم=

وأغراض الشعر وغاياته كثيرة، فتح الجاحظ بابها في «البيان» وساق أمثلة وشواهد على مختلف أنواعها.

ومن أهدافه المدح. قال الشاعر:

فإنَّ في المجد هِمّاتي وفي لغتي   عُلويةٌ ولساني غيرُ لَحّانِ[1]

وفيما مدحوا به الأعرابي إذا كان أديباً، أنشدني ابن أبي كريمة، أو ابن كريمة واسمه الأسود:

ألا زعمتْ عفراءُ بالشام أنني   غلامُ جَوارٍ لا غلامُ حُروبِ
وإني لأهذي بالأوانس كالدّمى   وإني بأطراف القنا للَعوبُ
وإني على ما كان من عُنْجُهِيّتي   ولُوثة أَعْرابيَّتي لأديبُ[2]

قال الجاحظ: والذين هَجَوا فوضعوا مِنْ قَدْرِ من هجوه، ومَدحوا فرفعوا مِنْ قَدْرِ مَنْ مدحوا، وهَجَاهم قومٌ فَردّوا عليهم فأفحموهم، وسكت عنهم بعضُ مَن هجاهم مخافة التعرّض لهم، وسكتوا عن بعض مَنْ هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم[3]..

وذكر رَتْلاً من الشعراء الإسلاميين والجاهليين، مُطلِقاً فيهم حُكْمه[4] ومَثَّل لشعرهم.

= (ذلّلوه وليّنوه وقيل بيّنوه) وقيّدوا على أنفسهم، فإذا قوّمه الثّقاف وأدخل الكبير وقام على الخِلاص (الثِفل الذي يكون أسفل) أبرزوه مُحَككاً مُنَقّحاً، ومُصَفّى من الأدناس مُهَذّباً.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج٢ ص١٣ ـ ١٤.

(١) لم يذكر اسمه. «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٦٧.

(٢) في البيتين الأخيرين إقواء ظاهر. واللُّوثة بالضم: الاسترخاء والبطء. ورجل فيه لُوثة: أي استرخاء وحمق وهو رجل ألوث.
والمقصود بالأديب هنا: المهذب.
لم أعثر على ترجمة الشاعر، كذلك لم ينوه المحقق إليه في «البيان».
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة لوث. مج٢ ص١٨٥.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٦٧ ـ ١٦٨.

(٣) نفسه. مج٤ ص٨٣.

(٤) نفسه. مج٤ ص٨٣ ـ ٨٧.

وقال الشاعر يهجو قوماً آخرين:

وسوف يزيدكُم ضعةً هجائي كما وَضَع الهجاءُ بني نُمَيْرِ[1]

أُسِرَ رؤبة[2] في بعض حروب تميم فَمُنِعَ من الكلام - وقيل إنهم شدُّوا لسانه بُنسعة خوفاً من شعره - فجعل يصرخ يا بني تميم أطلقوا من لساني[3]. لم يطلب إطلاق سراحه، لأن لسانه في الشعر أخطر.

وقال بعض المولَّدين:

وللشعر ألسنةٌ حِدادٌ على العَوْرات مُوفيةٌ دليلهْ[4]

وعَبَّرَ ابن هَرْمَة[5] عن قيمة الشعر ووزنه بقوله:

إنّي امرؤٌ لا أصوغ الحَلْي تَعْمَلُهُ كَفّاي، لكنْ لساني صائغُ الكَلِمِ[6]

وفي الرثاء قال الحُسين بن مُطَيْر الأسدي[7]:

فيا قبرَ معنٍ كنت أوّلَ حُفرةٍ من الأرض خُطَّتْ للمكارم مَضْجَعا

فلما مضى معن مضى الجودُ وانقضى وأصبح عِرنينُ المكارمِ أَجْدَعا[8]

---

(1) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٣٥.

(2) انظر ص١٨٩ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٤.

(3) النسع: سير يُضفَر على هيئة أعنّة النِّعال تُشدّ به الرِّحال والجمع أنْساع ونُسوع والقطعة منه نُسْعَةٌ.
«لسان العرب»: ابن منظور. مادة. نسع مج٨ ص٣٥٢.
وانظر «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٨. وج١ ص٢١٤.

(4) نفسه مج١ ص١٥٩.

(5) انظر ص٣٨٢ من هذا الكتاب حاشية رقم ٥.

(6) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٦٠.

(7) الحسين بن مُطير: (ت١٦٩هـ/ ٧٨٥م). الأسدي، ابن مُكمُل مولى بني أسد من خزيمة ثم لبني سعد. كان جدّه مُكمِّل عبداً فأعتقه مولاه. والحسين شاعر متقدم في القصيد والرجز، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. وكان زيّه وكلامه كزي أهل البادية وكلامهم.
«الأغاني»: الأصفهاني مج١٥ ص٣٣١-٣٣٨. «خزانة الأدب»: للبغدادي مج٢ ص٤٨٥-٤٨٨.
«الأعلام»: الزركلي مج٢ ص٢٦٠.

(8) تجد قصة هذه الأبيات «الأغاني»: الأصفهاني مج١٥ ص٣٣٦.
وتلطف بالرجوع إلى «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٨٤.

ومن الشعر الحِكَمي قول الشاعر:

وَمَنْ يُبْقِ مالاً عُدَّة وصيانة   فلا البُخْلُ مُبْقيهِ ولا الدهرُ وافِره
ومن يكُ ذا عودٍ صليب يُعدُّهُ   لِيكسرَ عود الدهر فالدهرُ كاسرُه[1]

وقال الشاعر:

الرِّزْقُ يأتي قَدَراً على مَهلْ   والمرءُ مطبوعٌ على حُبِّ العَجَلْ[2]

ومن التَّطَرُّف والفكاهة قول أبي نواس[3]:

أَتَتَبَّعُ الظُّرفاءَ أكتبُ عنهمُ   كيما أُحَدِّثَ مَنْ أُحِبُّ فيضحكا[4]

ووصف الشاعر ناقة فقال:

خرقاء إلا أنها صَنَاعِ[5]

وقال ذو الرُّمّة[6] واصفاً مُتَغَزِّلاً:

حوراءُ في دَعَجٍ، صفراءُ في نَعَجٍ   كأنها فضة قد مَسَّها ذهبُ[7]

كما استشهد بالشعرِ الوُعّاظ[8] والنُّساك[9].

وذكر أبيات شعر تصلح للرواية والمذاكرة[10].

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون، . مج٤ ص٩١.
(٢) نفسه. تحق هارون مج٤ ص٦٤.
(٣) انظر ص ١٧٣ من هذا الكتاب حاشية رقم ٢.
(٤) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٧٥.
(٥) نفسه مج١ ص١٥٠ وما بعدها.
(٦) هو غيلان بن عقبة (٧٧ ـ ١١٧هـ/ ٦٩٦ ـ ٧٣٥م). أبو الحارث. ذو الرُّمة من مُضَر. أكثر شعره تشبيب وبكاء على الأطلال. امتاز بإجادة التشبيه. توفي بأصبهان.
«الأعلام»: الزركلي مج٥ ص١٢٤.
(٧) الحَوَرُ: شِدةُ بياض العين. والدُّعج: شِدةُ سواد الحدقة. والنَّعج: اللين قالوا لأن المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب إلى الحمرة، وبالعشي يضرب إلى الصفرة.
«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص٢٢٥.
(٨) نفسه: تحق هارون مج١ ص١١٩ ـ ١٢٠.
(٩) نفسه مج١ ص٢١٠.
(١٠) نفسه مج٢ ص١٨٦ ـ ١٩٦.

وباب شعر فيه تشبيه الشيء بالشيء(١).

ومن فضل الشعر وأهميته قال أبو تمام(٢).

احفظ رسائل شعرٍ فيك ما ذهبت   خواطر البرقِ إلا دون ما ذَهَبا
ولا تُضِعْها فما في الأرض أحسنُ مِنْ   نَظْمِ القوافي إذا ما صادفَتْ أَدَبا(٣)

ومن الأبيات الجامعة ذكر قول امرىء القيس(٤):

أفادَ وجادَ وسادَ وزادَ   وقادَ وذادَ وعادَ وأَفْضَلْ(٥)

وساق أبياتاً في الخمر(٦)، والنساء(٧)، والشيب(٨)، وغير ذلك من أخلاط الشعر ومُنْتَخَبِه. قال الجاحظ: وقد يتملَّحُ الأعرابي بأن يُدخل في شعره شيئاً من كلام الفارسيّة(٩)، وقال أيضاً: ولم أر غاية النحويين إلا كلَّ شعرٍ فيه إعراب.

---

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون. مج٢ ص٣٢٨ - ٣٣٢.

(٢) انظر ص٢٥٧ من هذا الكتاب. حاشية رقم ٣.

(٣) جاء في الديوان: وسائل بدل رسائل في البيت الأول. و(حُبّاً) بدل أدباً في البيت الثاني.
«ديوان أبي تمام»: تحق محمد عبده عزام مج١ ص٢٣٧ - ٢٣٨. وتلطف بالرجوع إلى «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٨٠.

(٤) امرؤ القيس (١٣٠ - ٨٠ق هـ/ ٤٩٧ - ٥٤٥م). ابن الحارث الكندي من بني آكل المرار. يماني الأصل من أشهر شعراء العرب الجاهليين. «الأغاني»: للأصفهاني مج٩ ص٧٦ - ١٠٣.
«الشعر والشعراء»: لابن قتيبة، ص١٦ - ٢٠. «الأعلام»: الزركلي مج٢ ص١١ - ١٢.

(٥) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٥٣.

(٦) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٣ ص٣٤٨ - ٣٤٩.

(٧) نفسه مج٣ ص٣٢٨.

(٨) نفسه مج٣ ص٣٢٧.

(٩) تملُّح الأعرابي يدفعنا للتساؤل. هل وشّى شعره بكلام الفارسية للتندر والفكاهة؟ أم للتباهي بمعرفة لغة أخرى غير لغته؟ أم هناك غاية أخرى؟
جل ما نعرف أن الأعرابي قد يُسَرُّ بتوشيح شعره بكلام الفارسية، على حد قول الجاحظ. ولكن هل كل ما ورد في كلام الأعراب من ألفاظٍ فارسية أصبحت عربية فصيحة كما يقال؟ الحقيقة أنَّ ألفاظاً يستخدمها الفرس في لغتهم لا نعترف بأعجميتها لأنها وردت في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة يوسف، الآية: ٢. وانظر سورة طه الآية ٣ وسورة الشورى الآية ٧ وسورة الزخرف الآية ٣.
فهي إذاً من ناحيتنا عربية صرفة. وعلى سبيل المثال لا الحصر. =

ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كُلَّ شِعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج. ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كُلَّ شعر فيه الشاهد والمثل. ورأيت عامتهم، فقد طالت مشاهدتي لهم، لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيّرة والمعاني المنتخبة وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المُتَمَكِّن. . .

ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكُتّاب أَعمَّ، وعلى ألسنة حُذّاقِ الشعراء أَظْهر[1].

وخلاصة القول إنَّ الجاحظ شرح غايات الشعر عامة، وصنّف نفسه من رواة الجوهر من الكلام، ونحن نوافقه رأيه، رأي الخبير الناقد المتمكّنِ، واضع أسس البيان والبلاغة العربية.

وجاءت شواهده الشعرية في «البيان والتبيين» اسماً على مسمى، لأنها سُكِبَتْ سكباً أو أفرغت إفراغاً وكأنها لم تصغ إلا لتكون الشاهد الرفيع والمثل الأوحد على غاياته.

والمدهش تلك الذاكرة العجيبة التي نخلت منتخب القول للمشاهير الخالدين، لتبني مُتْحَفاً أدبياً شعرياً خالداً.

ولم يَخْلُ «البيان» من استطرادات ولفتات غنية، وُضعت أيضاً لغاية، هي تثقيف القارىء وتعليمه وتسليته.

وعلى الجملة، حقق الشعر معظم غايات الجاحظ في «البيان»، بعد أن تكلم عن تاريخه وفوائده وأنواعه، وتعامل مع الشعراء تعامل الصائغ مع ذهبه،

= الزخرف: اسم سورة من القرآن الكريم (مأخوذ من زيور الفارسية بمعنى زينة) الفعل زخرف والمصدر زُخرف. أباريق: مفردها إبريق. قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ من سورة الواقعة وهي في الفارسية آبريز «آب ريز»: أي ما يصب الماء.

انظر «الأدب المقارن»: د. طه. ندا. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٥ ص٧٢ ـ ٨١. و«البيان والتبيين»: تحق هارون مج١ ص١٤١ ـ ١٤٤.

(١) «البيان والتبيين»: تحق هارون مج٤ ص٢٤.

ففضّل الشاعر المطبوع ونقد المصنوع. ثم صنّفهم طبقات وبيّن أهميتهم في المجتمع العربي.

انتقى نُخبة النّخبة، حتى يمثّل بأقوالهم على غاياته وبذلك يكون قد حقق رسالته ليأتي بيانه في «البيان» بلاغة صرفة.

الخاتمة

بعد هذه الجولات المتأنّية مع شواهد أبي عثمان الشعرية البلاغية، لا يسعنا إلا الشهادة بِسمُوِّ مقامه وندرة نوعيته.

عاش الرجل حقبة طويلة من الزمن قاربت القرن، تم خلالها للدولة الإسلامية الاستقرار والازدهار والانتشار، فنهضت فيها العلوم والفنون، وظهرت الترجمة والتدوين، وأثبت الجاحظ فيها عربيته الأصيلة ومعتزليته المُرّة.

ترجم قلمه كل ما طاولته عيناه، وسمعته أذناه، حتى غدا مدون علوم البلاغة ومرجع المحدثين.

ترك إرثاً لا تقدّر قيمته، فحاز قصب السبق في مضماره لأن غاياته كانت سامية، فاستحق حسد الحاقدين على العرب.

هو مدرسة بحدّ ذاتها، عمّ ذكره الآفاق، فأحبه كل من عرفه أو سمع به أو قرأ له، وسارع أهل المعرفة للاغتراف من بحره.

ونخلص إلى أن دور الشعر في «البيان والتبيين» للجاحظ، دور مستحدث وطريقة مبتكرة، من حيث المضمون، لأنه عوّل عليه لتحقيق غاياته البلاغية وغير البلاغية.

استفتح كتابه «البيان والتبيين» بدعاء الاستعاذة كما أسميناه، استعاذ بالله مما يمنع البيان، ثم أخذ بالشرح والتحليل مشفوعين بالشواهد الشعرية.

ولم نقع على مصنف قبل «البيان»، على حد علمنا، اعتمد دور الشعر بمعظمه، وكل ما وصل إلينا من المؤلفات، كانت نثراً صرفاً أو شعراً، إلياذة هوميروس مثلاً على ضخامتها، شعرٌ، وخطابة أرسطو، نثرٌ.

والشعر ضئيل في التصانيف النثرية لم يؤد الدور المطلوب ولم يحقق مجمل أغراض الكاتب، كما حققت الشواهد الشعرية في «البيان» غايات الجاحظ البلاغية.

فإذا كان الشعر «ديوان العرب» كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمن الطبيعي أن يُستخدمَ سلاحاً لمن نازل الشعوبية وبيَّن فضل العرب عليها!

ومما يلفت النظر نعت أحمد أمين لكتاب «البيان» بالفوضى التأليفية[1].

ربما كان ذلك صحيحاً، من حيث الشكل، ولكننا نعذره ولمكانته العالية من المصنفات العربية.

هل غاب عن ذهنه أن هذه العلوم، كانت متداخلة في زمن الجاحظ، تؤدي بعضها إلى بعض في شرح آي الذكر الحكيم؟ أم أراد التغاضي عن هذه الحقيقة واتباع سنن الغرب في كل شيء؟

كان أبو عثمان يتنقّل في «البيان» من غصن إلى غصن ضمن الشجرة الواحدة، ليغرّد ويطرب ويعطي طابعاً شمولياً عن وحدة العلوم الإسلامية في عصره[2].

---

(١) وفي كل فصل من فصول الكتاب «البيان والتبيين»: فوضى لا تضبط واستطراداً لا يحد. «ضحى الإسلام»: أحمد أمين مج١ ص٣٩٢.

(٢) انظر الفصل الرابع من «مقدمة ابن خلدون»: تحق حجر عاصي. بعنوان في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.

حتى الذين تأثروا به، وهم كثر، اتبعوا طريقته في التأليف، إيماناً منهم بوحدة العلوم الإسلامية، وأكثروا من الشواهد الشعرية في تصانيفهم اعتماداً على نهجه الناجح.

كذلك المفسرون كالزمخشري والرازي والقرطبي، اعتمدوا على الشواهد الشعرية في شرح معاني بعض ألفاظ آي الذكر الحكيم.

لم تعرف الآداب العالمية القديمة استخدام الشواهد الشعرية كما استخدمها الجاحظ في «البيان». فقد فتح باباً واسعاً لمن أتى بعده، في هذا المضمار، حتى استشهدوا بقول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دَليلا

فَمِن أَبْدَعِ ما جودته ألمعية عمرو بن بحر «ديوان العرب». فقد أبان في كلمات قليلة ما يعتري اللسان من أمراض تخفي البلاغة وتطمس معالمها.

هذه هي الناحية الدقيقة التي دفعتني للتأثر بالموضوع، حيث لم أجد أحداً قبل أبي عثمان ألّف على هذا النحو.

وجملة القول في دور الشواهد الشعرية في «البيان والتبيين». أنها أدت خدمة رائدة في الكتاب لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها، لأنها وسيلة فعّالة لغايات النقد والبلاغة العربية بصورة خاصة. لقد أربت الشواهد الشعرية في «البيان» على الثلاثة آلاف بيت، رسم الجاحظ خلالها لوحة خالدة لتراث الشرق وحضارته، ترجمت أحاسيسه وفنه وذوقه، وبرهنت على أن العرب ليسوا أصحاب خيم في الصحاري فقط، بل قدّموا، بعد الإسلام حضارة أدهشت العالم، لأنها ضمّت ركائز العلوم والفنون والآداب والبلاغة فكانوا معلمي العالم.

من هنا موقف الجاحظ السليم في «البيان والتبيين» في وجه الشعوبية، لاقتناعه بمناصرة الحق العربي المتمثل بلغة بليغة لامثيل لها.

والـلافت للنظر المستوى الرفيعُ لهذه الشواهد الكثيرة، فقد اختارها الجاحظ كاختيار الصائغ لحلاه، شعراء مشهورين ومصنّفين، وشعراً يذوب حلاوة وجمالاً، ومن كان بينهم أقل شهرة أو رتبة، فقد اقتضت الضرورة ذكره مع الشاهد والمثل وأضدادها. فلولا سواد الليل ما طلع الفجر.

رسّخ الجاحظ، مع شواهده الشعرية مفهوم الأدب، كما أَصّلَ ركائز البلاغة العربية، لأنه شرح بواسطتها أغراضاً كثيرة ظاهرة ومستترة، عوّلنا عليها في توضيحاته البلاغية السبّاقة.

وأجاد في التمثيل على عيوب اللفظ موضّحاً ومفسّراً ومؤرخاً للأدب والشعر، كما كان حكيماً معلماً في التمثيل على علوم البلاغة وأقسامها، ولكنه رسم إطارها ولم يتوسع فيها، كما عللنا ذلك في موضعه.

تمنّينا عليه شروحات أوفر في «البيان والتبيين» عن علم المعاني وعلم البديع لتكتمل صورة فروع البلاغة فيه، وحتى نستغني عن الاستعانة «بالحيوان» الرديف، فلم نَحْظَ بذلك.

ولكننا في الوقت نفسه نتفهم جيداً ظروف من تجاوز التسعين، ويشكو من النقرس والفالج، وكيف أتحف العالم بأسره بذاكرة لم يَجُد الزمان بمثلها.

ونعترف بأن قارىء «البيان» لا يستطيع أن يضع يده منذ الوهلة الأولى على غايات الجاحظ البلاغية، لأنها مبثوثة في «البيان» غير مكبلة بعنوان، فلا بد من التمحيص والرّويّة والصبر للوصول إلى المُبتغى.

وزيادة في أهمية الموضوع أفردنا فصلاً شرحنا فيه رأي أبي عثمان في الشعر والشعراء.

لقد قام الشعر بدور بارز في «البيان» فكان شاهداً حياً على أغراض الجاحظ.

ولو خلا الكتاب منه لفقد قيمته برغم أسلوبه المعجز البليغ وفكاهته، ولكان كغيره من الكتب الإخبارية التقليدية.

فالشعر موهبة وتحفة أدبية، مترامية الأطراف، يبحث في أعماق الأشياء وأسرارها، تسلح به الجاحظ في عمله الرائد ودافع عن غاياته البلاغية وغير البلاغية، فصوّر به تقاليد أمته، ورسم أطر لغته، ورسّخ قواعدها وشرح أفكار رجالاتها، فكان كريماً جواداً، حيناً، رحب النفس، فسيح الأرجاء.

وجهدنا في عملنا لنزيد من بريق شواهد الجاحظ الشعرية في «البيان» التي تخدم أغراضه عامة، مؤمنين بنفع كل علم يوصل إلى اليقين، متوخيّن الهدى والتُّقى، طامعين بغفرانِ يوم الدين.

تم بحمد الله وعونه في طرابلس ٣٠/ ١/ ١٩٨٩

محمد علي زكي صبّاغ

الفهـــارس

1 ـ فهرس الآيات القرآنية
2 ـ فهرس الأحاديث الشريفة
3 ـ فهرس الأعـــلام
4 ـ فهرس الأشـــعار
5 ـ فهرس الأرجـــاز
6 ـ فهرس انصاف الأبيات
7 ـ فهرس الأماكن والبلدان
8 ـ فهرس الأيام والوقائع
9 ـ فهرس المصطلحات البلاغية
10 ـ فهرس المصـــادر
11 ـ فهرس المـــراجع
12 ـ فهرس الفهـــارس
13 ـ فهرس الموضوعات

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

السورة	رقمها	الآيــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
الحج	٢٢	كُتِبَ عليه أنّه مَنْ تَولاّه فإنَّهُ يُضِلُّهُ ويهديهِ إلى عذابِ السعير	٤	٢٧٤
الحج	٢٢	وإنْ يُكَذِّبوكَ فقد كَذَّبتْ قَبْلَهُمْ قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ	٤٢	٢٧٣
النمل	٢٧	وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داودَ	١٦	٥٤
النمل	٢٧	وقال يا أيها الناسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطير وأوتينا من كلِّ شيء	١٦	١٦٣ ـ ١٦٤
النمل	٢٧	قالت إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعِزَّةَ أهْلِها أَذِلَّةً وكذلك يفعلون	٣٤	٢٠
العنكبوت	٢٩	يُعَذِّبُ مَنْ يَشاء وَيَرْحَم مَنْ يَشاء وإليه تُقلبونَ	٢١	٢٧٤
الأحزاب	٣٣	فإذا ذهبَ الخوفُ سَلَقوكُمْ بألْسِنَةٍ حِدادٍ أشحةً على الخيرِ	١٩	١١٩
سبأ	٣٤	ومَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عن أمرِنا نُذِقْهُ مِنْ عذاب السعير	١٢	٢٧٤
الزّمر	٣٩	إنَّك مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتون	٣٠	١٧٤
فصّلت	٤١	فإن أعرضوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ	١٣	٢٧٣
الشورى	٤٢	وتُنْذِرَ يومَ الجمعِ لا ريبَ فيه فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السعير	٧	٩٩
الشورى	٤٢	وكذلك أوحينا إليكَ قُرآناً عربياً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرى ومَنْ حَوْلَها	٧	٣٣٥
الزخرف	٤٣	إنَّا جَعَلْناه قُرآناً عربياً لعلَّكُمْ تَعْقِلون	٣	٩٧
الزخرف	٤٣	أَوَمَنْ يُنَشَّؤا في الحليةِ وهو في الخصام غيرُ مُبين	١٨	١٧٥
الزخرف	٤٣	أو من يُنَشَّؤا في الحلية وهو في الخصام غيرُ مُبين	١٨	١١٩
محمّد	٤٧	وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ القولِ واللّهُ يعلمُ أعمالَكُم	٣٠	١٣٣ ـ ١٩٤

٢ ـ فهرس الأحاديث الشريفة

نص الحديث كما ورد	رقم الصفحة
اللّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتاب والحسابَ وَقِهِ العذاب.	٢٧٩
لا رهبانية في الإسلام.	٣٠٤
مَنْ أنتِ؟ قالت: ابنة الخطيب النَّقيب الشهيد: سعد بن الربيع.	٢٩٦
نحن معاشر الأنبياء لا نورث.	٥٤
هل أنتِ إلاّ إصبعٌ دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ.	٢٦٤

٣ ـ فهرس الأعلام[1]

(١) النجمة الموضوعة فوق الرقم تشير إلى الصفحة التي ترجم فيها العلم، والحرف الموضوع بين قوسين أمام الاسم أو الكنية . . . إحالة إلى قائمة الحرف الذي رتب فيه الاسم الكامل.

ـ ب ـ

ـ ت ـ

(١) لم نُحصِ مواضعه لوروده في معظم صفحات هذا الكتاب.

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ لا ـ

ـ ي ـ

٤ ـ فهرس الأشعار

أول البيت	قافيته	البحر	الشاعر	الصفحة	عدد الأبيات
		ـ الهمزة[(١)] ـ			
وإنَّ الحقّ	جلاءُ	الوافر	زهير بن أبي سلمى	٢٧٥	١
وما العيشُ إلا	ماءُ	الطويل	المكعبر الضبي	٣٠٨	١
يرمون بالخطبِ	الرُّقَبَاءِ	الكامل	ابن حريز الأيادي	٢٢٣ ـ ٢٥٢	١
ولعمري ما من	بسواءِ	الخفيف	إبراهيم بن سباية	٣٠٣	٣
		ـ ب ـ			
فكيف بنوكى	خِطابُها	الطويل	أبو الأحوص الرياحي	٣١٤	٢
متى رام	الشُّعْبُ	الطويل	خلف الأحمر	١٨١	٢
ولا حَصِرٌ	الخُطَبُ	مجزوء الوافر	أبو العيال الهذلي	١٨٢	١
وقد يُقرضُ	خَطيبُ	الطويل	ـ	١٧٨	١
يكفي قليلُ	مصيبُ	الكامل	أبو وجزة السعدي	٢١٦	١
فعاجوا فأثنوا	الحقائبُ	الطويل	نُصيب	٢٤٨	٣
هُمُ كاهِلُ	مَنْكِبُ	الطويل	الراعي	٢٥٩	١

(١) راعينا في ترتيب الشواهد الشعرية حركات الإعراب الآتية: (الضم، فالفتح، فالكسر، فالسكون)

أول البيت	قافيته	البحر	الشاعر	الصفحة	عدد الأبيات
ما أن ندمت	مرارا	الكامل	ـ	١٧٠	١
ولفوك أشنع	بريرا	الكامل	عبيدة بن هلال اليشكري	٢٨٩	١
تُشبّه	البريرا	المتقارب	الكميت	٢٨٩	١
بلغنا السماء	مظهرا	الطويل	النابغة	(٣٢٣ـ٣٢٤)	٢
على أن الفتى	كثيره	الوافر	أبو الأسود الدؤلي	٢٢٤ ـ ٢٢٥	٣
من للقنا	بن عمّارِ	البسيط	جرير	١٨٠	١
ولم يُطق	المَطَرِ	البسيط	ـ	١٨٥	٢
وقد كان	يفري	الطويل	ـ	١٩٩	١
فطبقن عُرْضَ	جازِرِ	الطويل	الراعي	٢١٤	١
ضفادعُ	البحرِ	الطويل	الأخطل	٢٢٦	٢
وعند الفزاري	الجمرِ	الطويل	ابن ميادة	٢٤١	١
ولا الناطق النخارُ	بالمخاصرِ	الطويل	صفوان الأنصاريّ	٢٥٣	١
عالماً لا أشك	السعيرِ	الخفيف	محمّد بن يسير	٢٧٤	٢
يصيبون	بالمخاصرِ	الطويل	صفوان الأنصاري	٢٩٢ ـ ٣٠١	٣
وكنت أمشي	من الشجرِ	البسيط	أبو ضَبّة	٣٠٠	٢
أهل التجاوب	بالمخاصرِ	مجزوء الكامل	الكميت بن زيد	٣٠١	١
فلا رضي	لكافرِ	الطويل	ـ	٣٠٧	٣
أيحلفون	غَفّارِ	البسيط	ـ	٣١٠	٢
وسوف يزيدكم	نميرِ	الوافر	ـ	٣٣٣	١
إلى معشرِ	يَخَصَّرِ	الطويل	عتبة بن مرداس (ابن فسوة)	٣١٣	١
رأيت القوافي	الإبرْ	الطويل	طرفة بن العبد	٢٨٤	١
رُبّ خالٍ	الخَصِرْ	الرّمل	حسان بن ثابت	٢٩٧	١
أكبر الأشياء	يَصْغَرْ	مجزوء الخفيف	أبو النواس	٣٠٨	٤

أول البيت	قافيته	البحر	الشاعر	الصفحة	عدد الأبيات
والمرء ساعٍ	وتأميلُ	البسيط	عبدة بن الطبيب	١٥٨ ـ ٢٧٦	١
وما بي من عي	مَخْفِلُ	الطويل	يحيى بن سعيد	١٧٦	١
يريغون	هُزالُها	الطويل	زيان بن سيار	١٧٦	٢
وقلنا بلا عي	اشتعالُها	الطويل	زيان بن سيار	١٧٦	١
فما زال	باقِلُ	الطويل	حميد بن ثور الهلالي	١٧٨	٢
يحبُ الفتى	يفعلُ	الطويل	النمر بن تولب	٢٨٤	١
فإن عاد لي	لا أُقيلُها	الطويل	كثير عزة	٣١٧	٢
وللشعر	دليلُه	الوافر	ـ	٣٣٣	١
فأقسمتُ	وكاهلهُ	الطويل	الفرزدق	٢٢٤	٢
تراها الضبعُ	وثيلُ	الوافر	مساعدة بن جويه	٢٥٠	١
واعلم بأن	خَبالا	الكامل	ـ	(١٧٠ ـ ١٧١)	٢
تلك منه	خَبَلاً	الرّمل	الكسائي	١٩٦	٥
ما لي أشايع	مَثَلا	البسيط	بشار بن برد	٢٤٠	١
إنَّ الكلامَ	دليلا	الكامل	الأخطل	٣٤١	١
وإذا الضبيُّ	المحتالِ	الكامل	ـ	٣١٦	١
غدائره مستشزرات	ومُرسلِ	الطويل	امرؤ القيس	١٣٨	٢
فتى زاده	خليلِ	الطويل	أبو عبيدة (معمر بن المثنى)	٢٠٢	١
وشعر كبعر	دخيلِ	الطويل	أبو البيداء الرياحي	٢٢٤	١
له أيطلا	تَتْفُلِ	الطويل	امرؤ القيس	٢٤٢	١
وما العيش	النجْلِ	الطويل	مسلم بن الوليد	٢٦٠	١
ألم تر أنّ الله	وائلِ	الطويل	شبيل بن عذرة	٢٩٦	١
وما بي من عيب	رجلي	الطويل	ـ	٣٠٠	٣
أليس ورائي	أهلي	الطويل	عروة بن الورد	٣٠١	١
أرى زمنا	عاقِلِ	الطويل	ـ	٣١٥	١
ما ولدت حواء	سائلِ	الكامل	حبيب بن أوس	٣١٦	١

٥ ـ فهرس الأرجـــاز

القافية	الشـــاعـــر	الصفحة	عدد الأشعار
	ـ ب ـ		
وطيبها	أبو العرماس	٢١٤	٤
	ـ ت ـ		
أذاتها	ـ	٢٩٨	١
النورة	الكذاب الحرمازي	٣٠٩	٧
	ـ ث ـ		
الأرماثِ	ـ	٣٠٩	٨
	ـ ج ـ		
وما نجا	ـ	٢١٧	١
كالهلباجِ	اللّهبي	١٨٩	٢
حجّاج	ـ	٥٧	٢
	ـ ح ـ		
صحيحا	ـ	٢١٧	٢

القافية	الشاعر	الصفحة	عدد الأشعار
	ـ هـ ـ		
يرزؤها	قاسم التمار	١٩٨	٢
عيناها	ـ	٢٤٧	٣
أحراها	الفرزدق	٢٥٠	٢
	ـ ي ـ		
العِيّ	ابن الأعرابي	١٧٨	١

٦ ـ فهرس أنصاف الأبيات

القافية	البحر	الشاعر	الصفحة	عدد الأشطر
ـ د ـ				
تُهْمَدِ	الطويل	طرفة بن العبد	٢٢٨	١
ـ ض ـ				
ما يمضي	الطويل	أبو خراش الهذلي	٢١٨	١
ـ ع ـ				
تقنعُ	الكامل	أبو ذؤيب الهذلي	٢١٨	١
ـ م ـ				
وتَسْلما	الطويل	حميد بن ثور الهلالي	٢٨٣	١

٧ ـ فهرس الأماكن والبلدان

٨ ـ فهرس الأيام والوقائع

٩ ـ فهرس المصطلحات البلاغية

ـ ب ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

١٠ ـ فهرس المصادر

ـ الهمزة ـ

١ ـ **الأمالي في لغة العرب**: إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٧٨. (٢مج). ص٢٠٠.

٢ ـ **أساس البلاغة**: الزمخشري (جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر). تحق. عبد الرحيم حمود. دار المعرفة. بيروت ١٩٨٢. ص١٣٧.

٣ ـ **أسرار البلاغة**: عبد القاهر الجرجاني. تحق. رشيد رضا. دار المعرفة. بيروت. ص٢٣٩.

٤ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: ابن حجر العسقلاني. دار الكتاب العربي. بيروت. (٤مج.) ص٢٣.

٥ ـ **الأغاني**: أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين) تحق. عبد الستار أحمد فرّاج. دار الثقافة. بيروت ١٩٦٠. (٢٣مج.) ص١٥.

٦ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**: الخطيب القزويني. تحق. محمّد عبد المنعم خفاجي. دار الكتاب العربي. بيروت ط٤. ص٢١٢.

ـ ب ـ

٧ ـ **باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب المِلل والنحل**: أحمد بن يحيى المرتضى. تحق. توماس أرنولد. دار صادر. بيروت عن مطابع حيدرآباد. ص٩٥.

٨ ـ **البخلاء:** الجاحظ. تحق. طه الحاجري. دار المعارف. مصر. ١٩٦٣. ص٥٦.
٩ ـ **البديع:** عبد الله بن المعتز. تحق. المستشرق أغناطيوس كراتشقوفسكي. دار الحكمة. دمشق. ص٢٦٨.
١٠ ـ **البُرصان والعرجان والعميان والحولان:** الجاحظ. تحق. عبد السّلام محمّد هارون. منشورات دار الثقافة والإعلام. الجمهورية العراقية. دار الرشيد. بغداد. ودار الطليعة. بيروت. ص١٤٩.
١١ ـ **البيان والتبيان:** عمرو بن بحر. الجاحظ. تحق. عبد السّلام محمّد هارون. دار الفكر. بيروت. ط٤. (٢مج.) ص١٦.
١٢ ـ **البيان والتبيين:** عمرو بن بحر. الجاحظ. تحق. حسن السندوبي. مط الاستقامة. القاهرة. ط٤. ١٩٥٦. (٣ج.) ص٣٦.

ـ ت ـ

١٣ ـ **تاريخ بغداد:** الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي. دار الكتاب العربي. بيروت. (١٨ج.) ص١٤.
١٤ ـ **تاريخ الخلفاء:** السيوطي. تحق. محيي الدين عبد الحميد. مط السعادة. مصر. ط١. ١٩٥٢. ص٣٩.
١٥ ـ **تاريخ الطبري:** محمّد بن جرير الطبري. تحق. محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. مصر. ط٤. ١٩٦٧. (١٠ج.) ص١٣.
١٦ ـ **التعريفات:** السيد الشريف علي بن محمّد الجرجاني. مط القسطنطينية. ١٣٠٠هـ. ص٩٢.
١٧ ـ **تفسير الجلالين:** جلال الدين بن محمّد بن أحمد. وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. مكتبة الملاح. دمشق. ص١٣٣.
١٨ ـ **التلخيص في علوم البلاغة:** الإمام جلال الدين القزويني. تحق. عبد الرّحمٰن البرقوقي. دار الكتاب العربي. بيروت. ط٢. ١٩٣٢م. ص١٠١.
١٩ ـ **التنبيه والاشراف:** أبو الحسن المسعودي. دار التراث. بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م. (ج).

- ح -

٢٠ ـ **الحيوان**: الجاحظ. تحق. عبد السّلام هارون. مط البابي الحلبي. القاهرة. ط٢. ١٩٤٩ (٨مج.) ص٢٥.

- خ -

٢١ ـ **خزانة الأدب ولب لسان العرب**: الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي. دار صادر. بيروت ط١. (٤مج.) ص٣٩.

ـ د ـ

٢٢ ـ **دلائل الإعجاز**: عبد القاهر الجرجاني. تحق. رشيد رضا. دار المعرفة. بيروت ١٩٨٤. ص٢٠٨.

٢٣ ـ **ديوان أبي تمام**: شرح الخطيب التبريزي. تحق. محمّد عبده عزّام. دار المعارف مصر. ط٤ (٤ج). ص١٧.

٢٤ ـ **ديوان أبي نواس**: تحق. أحمد بن عبد الحميد الغزالي. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٨٢. ص١٦٩.

٢٥ ـ **ديوان جرير**: تحق. محمّد الصاوي. دار الأندلس بيروت. ص١٨٠.

٢٦ ـ **ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**: **دار صادر. بيروت. ٢٥٦.**

٢٧ ـ **ديوان رؤبة بن العجاج**. عني به وليم بن الورد. دار الآفاق الجديدة. بيروت ١٩٧٩.

٢٨ ـ **ديوان عنترة**: تحق. محمّد سعيد مولوي. المكتب الإسلامي. بيروت ط٢. ١٩٨٣. ص٢٤٠.

٢٩ ـ **ديوان الفرزدق**: تحق. عبد اللّه إسماعيل الصاوي. مط. الصاوي. ط١. ١٩٣٦. (٢ج). ص٢٥٦.

ـ ش ـ

٣٠ ـ **شرح الأصول الخمسة**: القاضي عبد الجبار أحمد الهمذاني. القاهرة. ص٩٨.

٣١ ـ **شرح المعلقات السبع**: الزوزني. دار القاموس الحديث. بيروت. ص١٦٧.

٣٢ ـ **شرح ديوان الحماسة**: التبريزي. عالم الكتب. بيروت. ص٢١٤.
٣٣ ـ **شروح التخليص**: هي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على الأصول الخمسة. الخطيب القزويني وابن يعقوب المغربي وبهاء الدين السبكي. ومختصر الإيضاح لمؤلف التلخيص مع حاشية الدسوقي. مط عيسى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٣٧. ص١٣٧.
٣٤ ـ **الشعر والشعراء**: ابن قتيبة الدينوري. طبع في القسطنطينية ط١. صورته عالم الكتب. بيروت ١٨٦٥. ص١٢٧.
٣٥ ـ **الصناعتين**: أبو هلال العسكري. تحق. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٧١. ص٢١٢.

ـ ط ـ

٣٦ ـ **طبقات الشعراء**: محمّد بن سلام الجمحي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٠. ص٣٢٢.

ـ ع ـ

٣٧ ـ **العصا**: أسامة بن المنقذ. تحق. حسن عباس. طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب. فرع الإسكندرية ١٩٧٧. ص٢٩٧.
٣٨ ـ **العقد الفريد**: ابن عبد ربّه الأندلسي. تحق. أحمد أمين وغيره. دار الكتاب العربي. بيروت. ط٣ (٧مج). ص٧١.
٣٩ ـ **عقود الجمان في علم المعاني والبيان**: عبد الرّحمٰن السيوطي. مط. الشرقية مصر ١٣٠٥هـ. ص١٠١.
٤٠ ـ **العمدة**: ابن رشيق القيرواني. تحق. محمّد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت. ط٥. ١٩٨١. ص١١٣.
٤١ ـ **عيون الأخبار**: عبد اللّه بن قتيبة. دار الكتاب العربي. بيروت. ص١٩١.

ـ ف ـ

٤٢ ـ **فتح القدير**: محمّد علي بن محمّد الشوكاني. دار الفكر بيروت. ط٣. ١٩٧٢. ص١٣٣.

٤٣ ـ **الفرق بين الفرق**: عبد القاهر الجرجاني. تحق. محيي الدين عبد الحميد. مط. المدني. القاهرة. ص٦٢.

٤٤ ـ **فرق طبقات المعتزلة**: القاضي عبد الجبار الهمذاني. تحق. النشار وغيره. دار المطبوعات الجامعية. القاهرة ١٩٧٢م. ص٤٩.

٤٥ ـ **الفقه على المذاهب الأربعة**: عبد الرّحمٰن الجزيري. دار إحياء التراث العربي. بيروت ط٧. ١٩٨٦ (٤مج). ص٣١٨.

٤٦ ـ **فوات الوفيات والذيل عليها**: محمّد بن شاكر الكتبي. تحق. إحسان عباس. دار صادر بيروت ١٩٧٤. ص٢٦٣.

٤٧ ـ **الفهرست**: ابن النديم. دار المعرفة. بيروت ١٩٧٨. ص٩٧.

ـ ك ـ

٤٨ ـ **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير. تحق. نخبة من العلماء. دار الكتاب العربي. بيروت. ط٣. ١٩٨٠ (٩مج.) ص١٣.

٤٩ ـ **الكامل في اللغة والأدب**: المُبرِّد. أبو العباس محمّد بن يزيد المبرد. مكتبة المعارف. بيروت. ص٢٧.

٥٠ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون**: محمّد علي التهانوني. تحق. د. لطفي عبد البديع ود. عبد المنعم محمّد حسنين. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر ١٩٧٧. ص١٤٣.

٥١ ـ **كليلة ودمنة**: عبد الله بن المقفع. تحق. أحمد حسن طبارة. مط. الوطنية. بيروت. ط٤. ١٩٣٣. ص١٢٧.

ـ ل ـ

٥٢ ـ **معجم لسان العرب**: ابن منظور الإفريقي المصري. دار صادر بيروت. (١٥ح). ص٢٤.

٥٣ ـ **لسان الميزان**: ابن حجر العسقلاني. منشورات الأعلمي. بيروت ط٢. ١٩٧١ (٧ج). ص٣٢.

ـ م ـ

٥٤ ـ **مآثر الانافة في تاريخ الخلافة**: القلقشندي. تحق. عبد الستار فرج. عالم الكتب. بيروت ١٩٦٤ (٣ج.). ص١٤.

٥٥ ـ **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**: لضياء الدين بن الأثير. تحق. الحوفي ود. طبانة. دار نهضة مصر. القاهرة، سنة ١٩٦٢. ص٢٨٢.

٥٦ ـ **مجمع الأمثال**: الميداني. تحق. محيي الدين عبد الحميد. مط السنة المحمدية. (٢ج). ص٢٧٣.

٥٧ ـ **مروج الذهب**: لأبي الحسن المسعودي. تحق. محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى. مصر ط٤. ١٩٦٥. ص٤١.

٥٨ ـ **معجم الأدباء**: ياقوت الحموي. دار المأمون. القاهرة. (٢٠مج). ص٢٩.

٥٩ ـ **معجم البلدان**: ياقوت الحموي. دار صادر. بيروت ١٩٥٧. ص١٤.

٦٠ ـ **مفتاح العلوم**: السكاكي. تحق. محمّد كامل الأزهري. دار الكتب العلمية. بيروت. ص٢١٢.

٦١ ـ **مقامات بديع الزمان الهمذاني**: تحق. الشيخ محمّد عبده. مط الكاثوليكية. بيروت ١٩٥٨. ص٩٠.

٦٢ ـ **مقدمة ابن خلدون**: تحق. حجر عاصي. دار الهلال. بيروت ١٩٨٣. ص٢٢.

٦٣ ـ **الملل والنحل**: الشهرستاني. تحق. محمّد سيد كيلاني. دار المعرفة. بيروت ١٩٨٠. (٢ج). ص٦٦.

ـ ن ـ

٦٤ ـ **نقد النثر**: قدامة بن جعفر البغدادي. دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠. ص٩٠.

٦٥ ـ **النوادر في اللغة**: أبو زيد الأنصاري. تحق. محمّد عبد القادر أحمد. دار الشروق بيروت ١٩٨١. ص١٦٦.

١١ ـ فهرس المراجع

ـ الهمزة ـ

١ ـ **أبو حنيفة:** الإمام أبو زهرة. دار الفكر العربي. ط٢. ١٩٤٧. ص١٠٧.

٢ ـ **أبو عثمان الجاحظ:** محمّد عبد المنعم خفاجي. دار الكتاب اللبناني. بيروت ط١. ١٩٧٣. ص١٨.

٣ ـ **أدب الجاحظ:** حسن السندوبي. مط الرحمانية القاهرة ط١. ١٩٣١. ص٢٩.

٤ ـ **الأدب المقارن:** طه ندا. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٥. ص٣٣٦.

٥ ـ **الأدب والنقد:** المجموعة الكاملة: طه حسين، دار الكتاب اللبناني بيروت. ص٥٥. ط١. ١٩٧٣ (١٦مج).

٦ ـ **الأعلام:** خير الدين الزِركلي. دار العلم للملايين. بيروت. ط٦. ١٩٨٤ (٨مج). ص١٥.

٧ ـ **أمراء البيان:** محمّد كرد علي. مط لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٩٣٧. ص٢٦.

٨ ـ **أهم الفرق السياسية والكلامية:** البير نصري نادر. مط. الكاثوليكية بيروت ط٢. ص٦٢.

ـ ب ـ

٩ ـ **البديع في ضوء أساليب القرآن:** د. عبد الفتاح لاشين. دار المعارف. مصر ط١. ١٩٧٩. ص٢٥٦.

١٠ ـ **البلاغة والنقد بين التاريخ والفن:** مصطفى الصاوي الجويني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. فرع الإسكندرية ١٩٧٥. ص٩١.

١١ ـ **البلاغة تطور وتاريخ:** شوقي ضيف. دار المعارف. مصر. ط٤. ١٩٧٧. ص٢٨٠.

ـ ت ـ

١٢ ـ **تاريخ آداب اللغة العربية:** جرجي زيدان. تحق. شوقي ضيف. دار الهلال مصر ١٩٥٧ (٤مج). ص١٨.

١٣ ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي:** حسن إبراهيم حسن. دار إحياء التراث العربي. القاهرة. ط٧. ١٩٦٤ (٤مج). ص١٤.

١٤ ـ **تاريخ الشعوب الإسلامية:** بروكلمان ـ نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير بعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت ط١. ١٩٨٤. ص١٨.

١٥ ـ **التاريخ العباسي والأندلسي:** سعد زغلول عبد الحميد. مكتب كريدية إخوان. بيروت ١٩٧٦. ص١٣.

١٦ ـ **تاريخ النقد الأدبي عند العرب:** عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية بيروت ط٣. ١٩٧٤. ص٨٧.

١٧ ـ **تطور الأساليب النقدية في الأدب العربي:** أنيس المقدسي. دار العلم للملايين. بيروت. ط٦. ١٩٧٩. ص٩١.

ـ ج ـ

١٨ ـ **الجاحظ حياته وآثاره:** طه الحاجري. دار المعارف. مصر. ط٣، ١٩٧٦. ص٢٣.

١٩ ـ **الجاحظ في حياته وأدبه وفكره:** جميل جبر. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ١٩٥٩. ص١٩.

٢٠ ـ **جواهر الأدب:** أحمد الهاشمي. تحق لجنة من الجامعيين. مؤسسة المعارف. بيروت. ص١٠٩.

٢١ ـ **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع:** أحمد الهاشمي. مؤسسة المعارف. بيروت. ط١٢. ص١٣٩.

ـ خ ـ

الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم: د. عثمان قوافي. دار المعرفة الجامعية. القاهرة. ط٢. ١٩٨٤. ص٨٨.

ـ د ـ

٢٢ ـ **دراسات في الفلسفة الإسلامية**: محمود قاسم. دار المعارف. مصر ط٥. ١٩٧٣. ص١٠٤.

٢٣ ـ **دستور الحكم في الإسلام والمبادىء الأساسية التي قام عليها**: رسالة دكتوراه إعداد محمّد محمّد أكرم الخطيب. جامعة الأزهر. القاهرة ١٩٨٠. ص١٠٠.

ـ ش ـ

٢٤ ـ **الشعر والشعراء في العصر العباسي**: د. مصطفى الشكعة. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٣. ص١٩.

ـ ص ـ

٢٥ ـ **صفي الدين الحلّي**: ياسين الأيوبي. دار الكتاب اللبناني. بيروت ط١. ١٩٧١. ص٨٤.

ـ ض ـ

٢٦ ـ **ضحى الإسلام**: أحمد أمين. دار الكتاب العربي. بيروت ط١٠. ص٢٦.

ـ ع ـ

٢٧ ـ **علم البديع**: عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٠. ص٢٥٨.

٢٨ ـ **علم البيان**: عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية. بيروت ط٣. ١٩٧٠. ص١٥٠.

٢٩ ـ **علم العروض والقافية**: عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية. بيروت ط٨ ١٩٦٩.

٣٠ ـ **علم المعاني**: عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧١. ص١٠١.

ـ ف ـ

٣١ ـ **الفن ومذاهبه في النثر العربي**: شوقي ضيف. دار المعارف. مصر. ط٥. ص٥٧.

٣٢ ـ **في الأدب العباسي: الرؤية والفن**: عز الدين إسماعيل. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٥. ص١٠٨.

٣٣ ـ **في أدب الفرس وحضارتهم**: عبد السّلام كفافي. دار النهضة العربية. بيروت. ١٩٧٠.

٣٤ ـ **في تاريخ البلاغة العربية**: عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية. بيروت. ١٩٧٠. ص١٥٢.

٣٥ ـ **في النقد الأدبي عند العرب**: درويش. دار المعارف. مصر ١٩٧٩. ص٨٦.

ـ ق ـ

٣٦ ـ **القاضي الجرجاني والنقد الأدبي**: عبده قليقلة. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣. ص٨٧.

٣٧ ـ **القزويني وشروح التلخيص**: أحمد مطلوب. مط دار التضامن بغداد. ط١، ١٩٦٧. ص٢٢٠.

ـ م ـ

٣٨ ـ **مجلة الفكر العربي**: أحمد أبو ملحم العدد ٤٦. السنة الثامنة. ص٢٣٠.

٣٩ ـ **محاضرة للدكتور محمّد أكرم الخطيب**: في كلية الآداب. الفرع الثالث. ص٢١ (قسم دبلوم الدراسات العليا) في طرابلس. لبنان في ٧/ ٦/ ١٩٨٦.

٤٠ ـ **محاضرة للدكتور ياسين الأيوبي**: في كلية الآداب. الفرع الثالث. (قسم دبلوم الدراسات العليا) في طرابلس. لبنان في ٢٧/ ٢/ ١٩٨٦. ص٢٠٩.

٤١ ـ **مصادر الدراسة الأدبية**: يوسف أسعد داغر. مط دير المخلص صيدا. لبنان ١٩٦٢. ص٢٦.

٤٢ ـ **معجم الشعراء في لسان العرب**: ياسين الأيوبي. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٨٧. ص١٧٦.

٤٣ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: محمّد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ص٢٠.

٤٤ ـ **معجم المؤرخين الدمشقيين**: صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد. بيروت. ط١. ١٩٧٨. ص٤٣.

٤٥ ـ **معجم المؤلفين**: عمر رضا كحالة. دار إحياء التراث العربي. بيروت (١٥مج). ص١٧.

٤٦ ـ **المنجد في اللغة والاعلام**: دار المشرق. ط٢٢. بيروت ١٩٧٣. ص٥٠.

ـ ن ـ

٤٧ ـ **النثر الفني وأثر الجاحظ فيه**: عبد الحكيم بلبع. مكتبة وهبي. مط الاستقلال الكبرى. مصر ط٣. ١٩٧٥. ص٢٠.

٤٨ ـ **النقد الأدبي**: المجموعة الكاملة. طه حسين. دار الكتاب اللبناني. بيروت ط١٠. ١٩٧٣. ص٩٠.

٤٩ ـ **النقد الأدبي**: أحمد أمين. دار الكتاب العربي. بيروت ط٤. ١٩٦٧. ص٨٤.

ـ و ـ

٥٠ ـ **الوسيط في القانون الدستوري**: إدمون رباط. دار العلم للملايين. ١٩٦٤ (٢مج). ص٢٠.

١٢ ـ فهرس الفهارس

١٣ ـ فهرس الموضوعات

الباب الثاني
الشعر والبلاغة في «البيان والتبيين»

المكتبة العصرية